مواقف

الثقافة في مربد النصر

العبرة التي تدونها التواريخ وتتناقلها الاجيال وليدة التجربة الفذة للحياة الانسانية وثمرة تلك التجربة عندما تنفتح على مرحلة لاحقة، تُصاغ بموجبها تفاصيل الحياة الجديدة وموازين رؤيتها وتصورها وامكانات تطويرها بالاتجاهات التي تلتقي أصلاً بالفكر الذي تنشد اليه مثل هذه التجارب والافعال التاريخية. واذا كانت الشعوب تخرج من الحروب العدوانية منهكة متعبة عادة، تنتظر من المحيط الاجتماعي المباشر والخارجي الدعم المعنوي والمادي، فإن بعضها جعل من بعض وقائع الحروب ميدانها الرحب نحو حياة افضل وأحسن للاجيال المقبلة. ويصعب ان نربط التحولات التي جرت في أوربا بالحرب الكونية الثانية وحدها، ذلك لأن اسس هذه التحولات الفكرية والسياسية والمادية كانت قائمة أصلاً، قاد بعضها .. بالنسبة لالمانيا وايطاليا مثلاً.. الى التصادم الدموي المدمر داخل الساحة العالمية، وفجّر سلسلة من المجازر الرهيبة، بينما وجدت الشعوب الاوربية الاخرى في الفترة اللاحقة للحروب الدموية فرصتها لاعادة بناء نفسها وطاقاتها وبلورة جهودها بوتائر سريعة واضحة. أما الناتج الآخر على الصعيد الستراتيجي، فهو إن الزعامة انتقلت من اوربا الى امريكا بالنسبة للعالم الغربي، مهما بدت هذه الزعامة محاطة بالخلافات وتباين وجهات النظر. الآ انّ الواقع الذي نحن بصدده يخصّ بعض قضايا القارات الثلاث، فنتائج حروب السنوات الطوال أو تلك الحروب المحلية القصيرة في جنوب شرقي آسيا وفي اواسط القارة الاسيوية معروفة، وكذلك تلك التي حلت في افريقيا، والتي استُخدمت فيها بعض القوى المحلية لتنفيذ مآرب الدول العظمى ذات المصالح الامبريالية في تلك المناطق. والذي يمكن أن يقال تعميماً هو ان هذه الشعوب وجدت نفسها بعد انتهاء تلك الحروب خالية الوفاض من كل شيء، فكرياً وسياسياً ومادياً واجتماعياً. وقد أعادتها تلك المطاحن والمجازر سنوات الى الوراء لتندب حظها العاثر وتعيش حالة الاحباط والخيبة، بينما التهبت في ميادينها عشرات المشاكل المتفرقة، وكأنها أورام لا أمل بشفائها عقب تلك المجازر.

أما أن تخرج بلدان من حروب عدوانية طاحنة فارضة ارادتها وتصوراتها، حاملة على جبين قادتها

● رئيس التحرير

علائم النصر وشارات البهجة وبيارق الرفعة، فإن القضية تثير فينا أكثر من التفاؤل وترفدنا بأحاسيس طاغية من النشوة والحبور، تدفعنا، أو ينبغي ان تدفعنا، الى مزيد من الثقة بمعنى القيادات التاريخية والعقول الجبارة القادرة على أن تشق لشعوبها طريقها نحو السعادة والمجد.

وتأتي تجربة العراق في صد العدوان الخميني ورده ودحره فكرياً وسياسياً وعسكرياً بمثابة منجز كبير، لايعد مفخرة للعراق وحده، بل مفخرة لكل العرب وقواهم الطليعية، وكذلك لكل الخيرين في العالم، الذي يهمهم انتصار الحق على الباطل والخير على الشر والتحضر على التخلف والمدنية على الهمجية.

واذا ما نظرنا الى تجربة النضال والاستبسال العراقي طيلة ثمان سنوات داميات بآفاقها المختلفة، وهو يختط لنفسه مساراً تتكاتف فيه الطاقات والجهود والسواعد، وتتفتق الاذهان عن منجزات عامرة، والعقول عن ابتكارات خلاقة، بينما تتآزر المعنويات نخوةً وشجاعة وبسالة في التعبئة والحمية الفنية، تطلّ علينا في قمة هذه التجربة طلعة السيد الرئيس القائد صدام حسين المشرقة، تفيض بالنبل والمعرفة وتعكس قوة الحدس وسعة الرؤية وسداد الرأي وعظمة القرار. فقد اصبحت قيادته، وتصبح كل يوم، نافذة العراق المبدعة التي يطلّ بواسطتها، وجهاً بهياً، على الأمة العربية والعالم.

ولم يخرج العراق من هذه التجربة مكللاً بغار النصر حسب، بل ان قائده الذي أعد العدة لعصر السلام ومساره منذ أعوام، زرع ويزرع بذور البهجة في النفوس ويرسي قواعد السعادة في المجتمع ويرفد الحياة بتصورات مشرقة لحاضر ومستقبل لابد من أن يكون عامراً بالخير والرفاهية والابداع والابتكار. فمسار العراق الذي اختطه له قائده يجمع العمل المبدع بالابتكار، والابتكار بالبسالة، وحسن الاداء بالهدف النبيل، والحسم اللازم عند الضرورة بالرفق واللين والتسامح.

واذا كانت عجلة البناء ماضية في مرافق الحياة المختلفة، كما في داخل النفوس منذ أن بدأت الحرب، فانها لابد أن تعزز مسيرتها اليوم اكثر، كما انها لابد ان تمضي في حركة الجد والاجتهاد وفي ميادين الحياة الأخرى، حيث اضافات الخلق والابداع في التصنيع، كما هو الامر في الفنون، وفي الحياة العامة.

الا ان الأمر الذي ينبغي ان نتأمله هو ما يدخل في الاطار الفكري ـ الثقافي بخصوص مرحلة ما بعد

الحرب: فمسار السلام الذي اكد السيد الرئيس القائد صدام حسين كونه المسار الذي يفجر عندنا الفرح والبهجة وهو يضع الحد لنهر الدم لم يكن يبتدىء في فراغ، بل ان السيد الرئيس كان قد أعد له العدة وهيأها، كما أشار سيادته في اكثر من مناسبة. ومن يتابع مقولات سيادته خلال هذه المرحلة يدرك ان السلام يعني في مفاهيم صدام حسين وضعاً نفسياً وفكرياً وثقافياً طبيعياً، لأن السلام هو الحالة المثلى والأصح التي يسعى المعتدون لتكديرها وتدميرها. وتحمل مقولات سيادته بهذا الخصوص معنى خاصاً في هذه المرحلة، وهو يشير الى ان العراق مستعد لانجاز متطلبات السلام بوتائر سريعة اذا ما استعد الطرف الايراني الى الافصاح عن نيته وارادته في هذا الأمر قولاً وفعلاً بعيداً عن المماطلة والتسويف. ويتأتى هذا الموقف من منطلق الرغبة الصادقة في السلام ومن منطلقات اخرى كثيرة.

فالعراق في ظل قيادة صدام حسين يرى نفسه كياناً أيجابياً مؤثراً يمتلك المقدرة والطاقة على أن يكون قوة فاعلة على الصعيد القومي، وقوة خيرة في الميدان العالمي. ولهذا السبب، أكد السيد الرئيس القائد صدام حسين أهمية تطوير سبل دعم الثورة الفلسطينية، واسناد الدولة الفلسطينية الحرة المستقلة، وتصفية الوجود المغتصب على الارض اللبنانية، حيث سهّل وجود قوات حافظ أسد امر احتلالها بطريق الارهاب لاجزاء عزيزة من أرض لبنان. وهكذا لم تكن الدعوة المفتوحة للتحاور مع الاطراف اللبنانية المتنازعة، والتي أعلنها سيادته في أثناء لقاء سيادته بوفد المعلمين والمربين العرب شأن غيرها، فهي تستند الى النهج الذي يختطه العراق لتمكين الوطن العربي في هذه المرحلة من تسوية المشكلات الداخلية، والتغاضي عن الخلافات والاحقاد الصغيرة بقصد مواجهة قوى العدوان، ومن ثم التصدي للفكر العدواني المضاد وللوجود الاجنبي الصهيوني الذي يسعى الى تدمير طاقات الأمة وجهودها وأسس وجودها القومي.

وثمة علامة متميزة يؤكدها السيد الرئيس القائد صدام حسين في هذه المرحلة وهي مطالبة الجميع بالتحلي بالعلمية والموضوعية، غير مستخدمين لاسلحة مريضة عند مواجهة المرض، فالطائفية لاتحارب باسلحة طائفية، والفتن لاتعالَج بالفتنة، انما الجادة الصحيحة التي ينبغي ان يتوسل بها الفكر بمدارسه واتجاهاته واهتماماته هي تلك التي تهدف تحقيق سلامة الأمة ونبل مهماتها وتفجير طاقاتها وقدراتها الحضارية والفكرية.

واذا كان الاذى الذي الحق بالأمة في فواجعها قد تأتى بعدما انحدر الفكر الى منحدرات ضيقة مريضة حالت دون اداء اهل الراي أدوارهم وأدت الى استئساد النزعات الانتهازية والمريضة والمشبوهة وغلبة الاقوام الدخيلة على مرافق الادارة والسياسة، فإن الأمة في مرحلة تجددها وانبعاثها مدعوة الى أن تعطي لأهل الرأي دورهم ومكانتهم، ليؤدوا مهماتهم بحياد موضوعي ورجاحة عقل شجاعة وحصافة بينة تتيح لهم ايصال ما يريدون بهمة من يتحمل المسؤولية الوجدانية أولاً، والفكرية بعد ذلك، في بناء الأمة العربية في معترك المصير.

ولعل العناية التي يبديها العراق في ظل قائده المظفر للعلماء والمثقفين هي ما يتبادر الى الاذهان ونحن نتحدث عن مكانة الفكر والعلم والمعرفة في المجتمعات العصرية. وتنطلق هذه العناية من حقيقة ادراك كلي لمعنى الثقافة في التكوين الحضاري للامم. فلا حضارات دون بناء ثقافي راسخ، ولا ابداع دون شحذ المواهب والقابليات، ولا أفكار دون فضاء واسع يتيح متنفسات التعبير والانطلاق والاضافة والتجدد. وهكذا تقترن اجواء الحرية الفكرية والابداعية بدعوة صدام حسين الذي يتصدى بنفسه لكل خرق لمثل هذه الاجواء، ولكل تجاوز يستهدف طاقات المثقفين والمبدعين وتكبيل جهودهم أو معارفهم. ومع اطلالة السلام، لابد من أن تتأكد هذه العناية في منجزات ثقافية على الاصعدة المختلفة، يفيد منها علماء الجامعات ومبدعوها كما يستثمرها الوسط الثقافي المبدع بدارسيه وكتابه ونقاده وقاصّيه وشعرائه والمختصين في ميادين المعارف الأخرى. فراية السلام التي تحملها ذراع صدام حسين عاليا لابد من أن يحيطها المبدعون المثقفون في انعطافة المجد الجديدة التي تتأسس بموجبها قواعد حياة ملؤها البشر والسعادة والاضافة البناءة والجهد الماجد البديع.

ونحن في مربد النصر التاسع، الذي ياتي بعد تلك السنوات التي حملها الشعراء والكتاب في قلوبهم، وخلدوا انتصاراتها باقلامهم واصواتهم في تناغم تام بين ما يجري على سوح الميادين وما يعتمل في نفوس المقاتلين، في هذا المربد نرى الفرحة طاغية، تعب منها القلوب وتنظم منها الافئدة اغاني الحب الجديدة للوطن، الحب الذي يتفجر ينابيع على مساحات الانفس فترتوي وتعطي اثمارها وازهارها وتنشرها على ميادين الحياة، لتتناجى جميعاً في هَبّة واحدة أخرى ترى ان الانسان قادر على ان يخلق النصر، وعلى ان النصر يولد السلام، وان السلام هو حقل الحب وبساتين العطاء المثمرة الجديدة في ربيع العراق الدائم الذي تزدان أفياؤه بطلعة صدام حسين، رائد المحبة والسلام.

صدام حسين وخصوصية البعث



حسن طوالبه

في هذه الداخلة، أركز على الخصوصيات البارزة في شخصية القائد صدام حسين والتي عبر عنها القائد المؤسس الاستاذ ميشيل عفلق بأنها خصوصية البعث، وأن صدام حسين يحمل هذه الخصوصية المتمثلة في:

١. صلته الحية والقوية بالامة العربية وتاريخها.

٢. صلته القوية بالشعب وبتطلعاته.

٣. صدق ايمانه بالمبادىء، وصدق معاناته وتمثله لآلام الناس وطموحاتهم واستعداده النادر للتضحية من أجل الامة والشعب وأهدافهما الكبرى، وعمق معاناته من الافتراء على الحزب، ومعاناته من تآمر الاعداء على الامة العربية وعلى نهضتها وحقوقها المشروعة وعلى ثورة البعث في العراق[١].

لقد امتلك تلك الخصوصيات، وتوافرت له السمات النادرة التي اعطت كل هذه الثمار في أرض خصبة وطنية عميقة. وأثمن ما في هذه الصفات ـ كما يعبر القائد المؤسس ـ أنها جاءت ضمن الظروف والقوانين، قوانين العمل والتطور. لقد نمت البدايات الصغيرة ضمن التفاعل مع الظروف ومواجهة الصعوبات والتحديات حتى أصبح نموها يتصاعد حسب منطق العبقريات، وليس منطق الكفاءات العادية، أي بالقفزات الكبيرة التي تختصر الزمن، ولكن لاتهمل ولا تقفز من فوق المراحل لكي يأتي البناء متيناً وخلواً من الثغرات[٢].

ويؤكد الرفيق القائد المؤسس أن بروز عبقرية صدام حسين في هذا الزمن الصعب هو تأكيد لدور القائد الفرد في مرحلة تاريخية كاملة.

ان المتعارف عليه هو «ان القائد العظيم من الشعب العظيم، تلك حقيقة علمية معروفة، والحقيقة أيضاً أن دور الفرد القائد يطبع مرحلة تاريخية، ويطبع الشعب بطابعه، دون أن يقلل ذلك من عظمة الشعب الذي برهن بتجاوبه السريع والعميق مع صفات القائد»[٣].

اولاً: صلة القائد صدام حسين الحية والقوية بالامة العربية وتاريخها:

على الرغم من الصعوبات التي تواجه الامة العربية، وتجعلها تمر بمرحلة مخاض عسير الا أن القائد صدام حسين لم ينظر الى الامة من منظار مأساوي أو سوداوي، بل ظل متفائلاً، يملأ صدره الاعتزاز بهذه الامة وبتاريخها المجيد، ويؤمن ايماناً كبيراً بضرورة بلورة الشخصية الحية والقيادية للامة لكي تأخذ مكانها بين الامم وتلعب دورها الانساني في العالم.

فالامة العربية التي تمر بمخاض صعب، إنما تمر بمرحلة خلق جديدة تنسلخ فيها عن القشرة القديمة، وتنزع عنها جلدها القديم وتعمل على طرد أو تطوير روحها ومفاهيمها السابقة بما يجعلها أكثر قدرة على التأثير[٤].

ويعتقد القائد صدام حسين بأن بذور الحياة وامكانات التطور موجودة في ابناء الامة العربية، لذلك لايمكن أن تجلب عملية الانكسار ميدانياً أو جبهوياً اليأس الى نفوسنا، وإنما الذي يجلب اليأس هو أن نكتشف بأننا نسير عكس تيار التقدم.

ان هذه الثقة العالية بالامة العربية متأتيةمن عدة عوامل أبرزها:

١. الامة العربية غنية في إمكانياتها الاقتصادية وبقدرتها على النمو.

٢. قدرة أبناء الامة على التعلم والصيرورة في المجالات العلمية.

٣. قدرة أبناء الامة على التواصل الثقافي في إتجاهات التكون والصيرورة.

٤. الامة العربية أفضل من السابق وأكثر استعداداً لتقبل الخسائر في ساحة الصراع[٥].

إن هذه العوامل، اضافة الى ارادة الخيرين من أبناء الامة، تشكل إمكانات الامة لمواجهة العوامل المضادة لها، كما أنها تُحرك فيها عوامل الحياة والصيرورة للارتقاء بها نحو التقدم والوحدة[٦].

إن الثقة الكبيرة بالامة العربية، على الرغم من كل المصاعب والتحديات، متأتيةٌ من أن الامة لم تعش تاريخها دفعةً واحدةً، وبخطٍ مستقيم، بل مرت بحالات مد وجزر، بحالات إرتفاع وحالات إنكسار، ومن بين ركام الانكسار تظهر الارادة باتجاه تجاوز الحالة، إلى وضع افضل يحقق خلاله الانسان العربي ذاته، ويبلور شخصيته ضمن الامة، وعندها تؤدي الامة دورها الريادي من جديد وتأخذ مكانها تحت الشمس.

فتاريخ الامة العربية تاريخ طويل ومتشعب، فيه حالات كثيرة

من الاشراق، وفيه حالات من الانكسار. وقد حاول أعداء الامة تشويه هذا التاريخ بتشويه بعض حقائقه، أو فرض قناعات تخدم توجهات الباحثين او القوى المعادية.

ولهذا فقد حذر القائد من مخاطر التوجهات الخاطئة التالية:

١. النظرة الى تاريخنا العربي وكأنه كان فارغاً أو مخجلاً قبل الاسلام. او تحليل تاريخنا وكأنه صراع، لان في النظريتين اختلافاً لاتقبله حقائق التاريخ[٧].

٢. محاولات البعض إظهار تاريخنا وكأنه تاريخ حلقات من الصراع، كل واحدة منه تلتهم الاخرى وتناقضها في الروح والاتجاه[٨].

٣. محاولة البعض تناول تاريخنا بفرض مسبق لكي يحرّفه وينتزع منه كل ما يحفزنا ايجابياً، ويؤكد كل ما يوجد الجدال والشقاق والفرقة بين أبناء الامة[٩].

٤. محاولات البعض إبراز الافراد على حساب المجتمع أو بالعكس. فالاصوب عندما يكتب التاريخ العربي أن ينصف الفرد المستحق دون أن يكون إنصافه على حساب المجتمع، لأن يُقدم خدمة كبيرة للاحياء من الناس في المجتمع[١٠].

يعتبر القائد صدام حسين الاهتمام بتاريخ الامة العربية وتراثها، مسالة جوهرية واساسية في نظرة الحزب[١١]، ولان للامة العربية تاريخ نعتز به اساساً[١٢]، ولان كل الحضارات التي نشأت في الوطن العربي، إنما هي تعبير عن شخصية أبناء الامة. واذا كانت لتلك الحضارات خصوصية وطنية فانما هي جزء من السمة القومية الأعم والأشمل[١٣].

ان التاريخ العربي الذي نكتبه ونعده للاجيال العربية المعاصرة يجب ان:

١. يُبرز القيم التي لها دور أساس في تحريك وتعبئة الجماهير وتعميق دورها الايجابي[١٤].

٢. أن يبرز كل القيم التي جعلت التاريخ العربي مشعاً مشرقاً حتى اليوم.

٣. أن يعتنى بالجانب المعنوي الذي يدفع المواطنين الى التضحية والفداء والانتصار للخير ومناهضة الشر.

٤. أن يُقوي إعتزاز المواطن بتاريخ شعبه وأمته.

٥. أن يكون إلهاماً رئيساً في إبداع المواطنين وتضحيتهم من أجل الوطن والأمة[١٥].

٦. أن لايُغفل دورُ الافراد تحت ستار إبراز دور الجماهير، فالرجال العظماء بمن فيهم الانبياء، لايمكن أن يُولدوا إلا من رحم أمة عظيمة[١٦].

٧. أن يتم التركيزُ على التاريخ العربي الاسلامي، لأنه تاريخُ العرب في أساسه، وهو تاريخ مشرق في الحضارة العربية[١٧].

إن إبراز القيم والتضحية والفداء والاهتمام بالجانب المعنوي والتركيز على دور الافراد والعظماء في التاريخ العربي، كلها مقومات مهمة في بناء الشخصية العربية المعاصرة؛ شخصية الانسان العربي الذي يعتز بماضيه وتاريخ أمته المجيدة، وفي الوقت نفسه، عمل من أجل بناء الكيان القومي الموحد. وتلك من أبرز خصائص البعث التي يحملها القائد صدام حسين ويترجمها الى أعمال وممارسات على أرض الواقع.

ثانياً: صلة القائد صدام حسين القوية بالشعب:

من السمات الأساسية التي يتصف بها البعث أنه حزب جماهيري يعمل من خلال أبناء الشعب ومن أجلهم، لانه يدرك أن إمكانات الشعب غزيرة لكنها إمكانات مغمورة كامنة، بحاجة الى محرك قوي، يستثيرها ليخرج الامكانات من مكامنها الى حيز الوجود والخلق.

لذلك فقد نادى القائد المؤسس منذ البدايات الأولى الى الثقة بالشعب، لأن الثقة المطلوبة تبدأ بالصدق، أي أن يكون المناضلون صادقين في عملهم، وواثقين من أنفسهم، وعندها لابد وأن يكسبوا ثقة الشعب[١٨].

لقد تعامل أبناء الشعب مع العديد من الحكام والقادة والأحزاب ولكنهم لم يمنحوا ثقتهم التامة لتلك العهود إلا بعد تجربة طويلة، وثبوت صدق النوايا والتوجهات في برامج هؤلاء القادة وتلك الاحزاب إزاء قضاياهم المصيرية. وكثيراً ما فقد الشعب ثقته بالحكام الذين يطلقون الوعود، ومعسول الكلام الهادف الى الكسب الآني والسريع.

وعليه فقد تعامل القائد صدام حسين مع الجماهير وأبناء الشعب بأسلوب مختلف نوعياً عن الاساليب التي عرفها أبناء الشعب خلال

تعاملهم مع الحكام والساسة الذين حكموا العراق من قبل. لقد أحب أبناء الشعب كثيراً، واعتبر ان أول حبٍ ناضجٍ في حياته كان حُب الشعب، وهو الحُب الذي أحس صدام حسين من خلاله أنه إبنُ الشعب، لأن الشعب هو صاحب الفضل الأكبر في ما بلغه من مستويات ومسؤوليات، وقال: «إنه معلمي وملهمي»[19].

كيف تعامل القائد صدام حسين مع الشعب..؟

١. إستبعد القائد صدام حسين فكرة الكسب السريع على الوعود المغرية.

٢. توخى القائد في تعامله مع أبناء الشعب الثبات والمدى البعيد. وهكذا لخص منهجه في الكسب الجماهيري بالقول: «لم يكن منهجي أن أحشد العواطف لكي أصل الى التعبئة العاطفية، وإنما كان جهدي لكي أضمن حشد العقول والضمائر وصولاً الى التعبئة الوجدانية والعقلية»[20].

٣. ركّز في مخاطبته وتعامله مع أبناء الشعب على عقولهم وما يعتمر في ضمائرهم.

٤. إن المطلوب في معاملة الجماهير هو إعادة بناء جسور الثقة معها، بحيث يكون الفعل قبل القول، والصدق في التعامل.

ومن أجل إعادة جسور الثقة بين القائد والقيادة والعهد الجديد وبين الشعب، اعتبر القائد صدام حسين نفسه خادماً للشعب وقال مؤكداً كلامه بوضوح شديد: «أن أكبر واحد في الدولة إذا هو صدام حسين فهو كبير الخدم في الدولة العراقية للعراقيين، والشخص الثاني هو الخادم الثاني، والشخص الثالث وهكذا»[21].

ومن أجل هذا الهدف النبيل الذي يعتبر من أبرز خصائص البعث، فقد دعا القائد صدام حسين الكادر المتقدم في الحزب أن يُقيموا العلاقات الصحيحة مع الجماهير وأبناء الشعب لتحقيق:

١. التفاعل الحي مع أبناء الشعب وكسبهم إلى مسيرة الحزب والثورة.

٢. الاحتكاك مع أبناء الشعب لتغيير قناعاتهم خدمة للثورة والمجتمع.

٣. الاحتكاك مع أبناء الشعب لزيادة الايمان بالشعب.

٤. الاحتكاك مع الشعب لتعميق الأيمان بالمباديء ولكي لاينسى المناضلون أيام ما قبل الثورة ومعاناتها، ولكي يحافظوا على الحصانة المبدأية[22].

٥. عدم التدخل في حياة أبناء الشعب.

٦. معالجة مشاكل أبناء الشعب معالجة صحيحة والابتعاد عن التعميم، بل الاتجاه الى تخصيص الاهداف والمعالجات والقوى الفاعلة الى جانب الثورة.[23].

اذن؛ فالجماهير لايتم كسبها لمجرد منحها الحب، ولكنها بحاجة الى الاحترام وإثبات الهوية مع الحب. انها بحاجة الى الاكل والملبس وبحاجة الى العلم، وعليه فقد حرص القائد صدام حسين أن يترجم هذا الحب إلى عطاء مرتبط بالمباديء، والانسان البعثي والقائد من موقعه لايمثل المباديء إلا إذا إرتبط بالشعب أكثر وتفاعل مع همومه وآماله.

إن التفاعل الحي مع أبناء الشعب هو الذي يخلق الصلة الحية مع القيادة، وهذا التفاعل الحي هو الذي يحدد آفاق الحقوق والواجبات، وإذا ما تساوى ابناء الشعب في الحقوق والواجبات وحصل التناسق والتوازن بين فئات الشعب، يصبح المجتمع متوازناً ومنظماً، وهذا بحد ذاته هدفٌ حضاري يسعى إليه الحزب والقائد والثورة[24].

لقد حقق القائد صدام حسين الصلة الحية مع الشعب وأحب الشعب، وبالمقابل منحه الشعب حباً ووفاءاً كبيرين، وقد ترجم أبناء الشعب هذا الحب والوفاء من خلال الوحدة الوطنية والالتفاف خلف القائد والقيادة، والتضحية والجود باغلى ما يملكون دفاعاً عن الارض والوطن والثورة.

ان النتائج المبهرة التي أفرزتها نظرية الحب التي نسج خيوطها صدام حسين جعلت الحزب في نظر القائد ليس حزب البعثيين المنظمين، وإنما صار بحق حزب الشعب من أقصاه الى اقصاه[25].

وأصبح مقياس المبدأية عند المناضلين مقدار صلتهم بأبناء الشعب، وتمثل آمالهم وآلامهم، فأي إنسان يُوقف حياته من أجل الشعب يُعتبر مناضلاً في نظر القائد، وأن يوجد في ضميره وعقله حيثما يكون، وأن يُحبه في كل أطواره عندما يُصيب وعندمايخطئ، وعندما يتجاوب معه وعندما يبتعد عنه.[26]

وخلاصة القول: ان العلاقة الصافية الصادقة التي حققها

صدام حسين مع أبناء الشعب اكسبته الرهان التاريخي الذي تمثّل في بلورة أصالة الشعب وعمق إستعداده للنهوض والعطاء، وفي خضم المعارك المتوالية، وآخرها رد العدوان الايراني طوال ثماني سنوات، ربح الشعب العراقي الرهان التاريخي الكبير في الانتصار وبلورة الشخصية المستقلة، والقيام بدور نهوض الامة الحضاري.

ثالثاً: صدق إيمان القائد بالمبادىء، وصدق معاناته وتمثله آلام الناس وطموحاتهم واستعداده النادر للتضحية من أجل الامة والشعب واهدافها الكبرى:

ان مسيرة صدام حسين منذ الصغر وحتى الآن تؤشر مقدار إيمانه بالامة العربية وحتمية إنتصارها، وصدق إيمانه بمبادىء البعث، حيث نذر نفسه في شتى المناسبات فداء للحزب ومبادئه. وقد مثّل تطوعه بمهمة التعرض لعبد الكريم قاسم في تشرين الاول ١٩٥٩ قمة التعبير عن صدق إيمانه بالحزب، وهو مازال غضّاً، وفي بدايات سلم التنظيم الحزبي.

وقد عبر صدام حسين عن صدق ايمانه بمبادىء البعث عندما سخر عقله وضميره من أجل إنقاذ الحزب من كبوته بعد ردة تشرين في عام ١٩٦٣، وعندما تعهد بابقاء ثورة تموز ١٩٦٨ ثورة ناصعة ثورية، وقيامه بتصفية الجيب الذي تسلل الى الثورة عشية قيامها.

إن الأعمال الكبيرة والانجازات الخالدة التي حققتها ثورة ١٧ - ٣٠ تموز خلال العشرين عاماً الماضية، والإنتصار الكبير الذي حققه العراق ضد العدوان الايراني الطائفي، كلها تؤشر مقدار صدق القائد صدام حسين بمبادىء البعث والثورة، وقدرته على ترجمة المبادىء الى أعمال وانجازات ومواقف وأفكار.

فالايمان المبكر بمبادىء البعث، عند صدام حسين، أثمر هذا العطاء الفكري الذي جادت به قريحة وعقل القائد في بلورة نظرية العمل البعثية. ومن خلال هذه النظرية تمكنت ثورة البعث أن تسمو وترتفع فوق أزمات الحزب الماضية، وأن تسير باتجاه اهداف الحزب التاريخية[٢٧].

وبالعقل العلمي المنظم والمخطط، وبالروح الثورية الاصيلة المتصلة بروح الشعب وبتراث الأمة العربية وتاريخها، تمكن صدام حسين أن يسير بثورة البعث فوق الأزمات والنكسات، وفي الوقت نفسه تمكن من التغلب على الهزيمة في النفوس، والنهوض من أية كبوة اثر النكسات المتتالية[٢٨].

ومن خلال صدق الايمان بالمبادىء: صدق صدام حسين في معاناته وتمثله آلام الناس وطموحاتهم، واستعداده النادر للتضحية من اجل الأمة والشعب.

فقد قفزت ثورة البعث التي يقودها صدام حسين قفزات نوعية في شتى المجالات واصبحت هذه الثورة تعبر بحق عن روح النهضة العربية، وعن روح الشعب، ومثلت حالة تخطي الضعف والعجز والتردد والانقسام، وكذلك مثلت حالة السيطرة على النفس وعلى القدرات وإستغلال الطاقات، ومثلت أعلى حدٍ من الوحدة الوطنية بتجنيد مجموع الشعب لتحقيق أهداف تحريرية قومية تاريخية[٢٩]. وبفعل هذه الأصالة والصدق في المبدأية، فقد بدأت الثورة التي يقودها صدام حسين ثورة قوية أصيلة واضحة وناضجة، ولذلك فانها لم تتبرأ من الماضي، أي من ماضي الحزب في الاقطار العربية، بل حملت مسؤولية الماضي، وأفادت من إيجابياته واتعظت من سلبياته[٣٠].

إن الذي حققه القائد صدام حسين على الصعيدين الحزبي والرسمي في العراق يمكن أن يؤخذ كنموذج للتطبيق الصادق والمخلص والمبدع للفكر القومي الجديد، ويمكن أن يكون دليلاً جديداً بعد مئات الادلة على أن شعبنا العربي مهيأ للعطاء، مهيأ مع اعلى مستويات الثورة والنضال والخلق والبناء[٣١].

وعليه فان تاريخ الحزب ومستقبله بات يرتبط بمصير هذه التجربة - كما يقول القائد المؤسس الاستاذ ميشيل عفلق - لأنها تجسّد فكرة البعث وتصوره الاساسي في عمق وأصالة إتجاهه، وفي نضال الجماهير في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية وفي التفهم الجدي لحقائق العصر وطبيعة التقدم، وفي اتصاله الحي بثورة الاسلام الخالد كثورة عربية انسانية نموذجية[٣٢].

إن صدق إيمان صدام حسين بمبادىء البعث، فجّر كل هذا العطاء الانساني النضالي، وهذه الإنجازات المادية، وهذا العمل الكبير في بناء الانسان الجديد، وهذا العطاء الكبير هو الذي حقق الانتصار في مجابهة العدوان الايراني طوال ثمانية أعوام.

لقد انتصر شعب العراق لانه خاض حرباً دفاعية بكل معنى الكلمة، دفاعاً عن الارض والسيادة والعروبة، وعن الامة وتربيتها

وشخصيتها الحضارية ومستقبل نهضتها[٣٣]. فالمعركة التي قادها صدام حسين مع المناضلين من كل أبناء الشعب، هي معركة مبادىء تنطوي على معاني مستقبلية تتجاوز الحاضر، فهي معركة القومية العربية التي هي مشروع العرب المستقبلي لاقامة مجتمع تقدمي إنساني عادل[٣٤].

إن إنتصار العراق في هذه المعركة المصيرية الكبيرة أشرق عن معاني عظيمة منها إن هذا الانتصار أفشل مخططات الصهيونية والامبريالية واعتبر إيذاناً ببدء عهدٍ جديد للامة العربية تسترجع فيها سيطرتها على مقدراتها، كما أنه وضع حداً فاصلاً بين العجز والشذوذ والخيانة، وبين الصلابة والتضحية، وصان الشرف العربي والكرامة العربية[٣٥].

إن مبدأية صدام حسين هيأت العراق ليمتلك سر نهضته ويعرف دوره في هذه الظروف، ويمتلك نضجاً وطنياً عالياً للدفاع عن السيادة الوطنية، ويكون مؤتمناً على التراث القومي والروحي والحضاري للامة العربية ومجدداً لتراثها[٣٦].

ولأن صدام حسين يحمل خصوصية البعث فهو يتسم بأحلى السمات فهو ذو عقل مبدع وله إرادة الرجال التاريخيين[٣٧]. ولصدام حسين خلقٌ عربي صافٍ يُجسد صورة البعث وفكرته القومية ذات المضمون العلمي والأفق الحضاري والبعد الروحي النابع من رسالة الاسلام، وله شخصية عربية تنطلق فيها المواهب والقدرات بدون عوائق، ويمتلك ذكاء يختلف عن ذكاء الحكام البارعين، فهو ذكاء البعثي الذي يتميز بالجد والصدق والاتصال المباشر بالمبادىء، والاهداف الكبرى، والقيم الاساسية[٣٨].

ولهذا فصدام حسين قائد تاريخي يتصرف ويتعامل بالمقاييس التاريخية، ويرسي قواعد السلوك للاجيال القادمة. وقد طبع مرحلة تاريخية في حياة الامة العربية بطابع النهوض القومي. ولانه يحمل خصوصيات البعث، فقد وصفه الرفيق المؤسس بانه هدية البعث للعراق، وهدية العراق للامة العربية، ليضع فجراً جديداً للعراق ولابناء الامة كلها في هذا العصر.

الهوامش

١. ميشيل عفلق / سلسلة الاعمال الكاملة ـ في سبيل البعث ـ ج٥ ـ اصدار مكتب الثقافة والاعلام ١٩٨٨ ـ ص٣١٦

٢. ميشيل عفلق ـ المصدر السابق ـ ص٣٢١

٣. ميشيل عفلق ـ المصدر السابق ـ ص٣١٦

٤. صدام حسين ـ أمتنا والتحدي الجديد ـ حديث سيادته الى الحقوقين العرب في ١٩٧٧/١٢/٣

٥. المصدر السابق

٦. المصدر السابق

٧. صدام حسين حول كتابة التاريخ ـ حديث سيادته في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام في ١٩٧٧/٩/١٩

٨. صدام حسين ـ نظرة في خصائص القيادة الناجحة ـ حديث سيادته في مناقشة موضوع القيادة لدورة الاركان المشتركة ٤٨ ـ عام ١٩٨٢.

٩. المصدر السابق

١٠. صدام حسين ـ الثورة والنظرة الجديدة ـ حديث سيادته في مناقشة تقرير التاريخ لاصلاح المناهج في ١٩٧٥/٢/١٩.

١١. صدام حسين ـ الثورة والنظرة الجديدة ـ حديث سيادته في مؤتمر المعلمين في ١٩٨٦/٢/١٠.

١٢. صدام حسين ـ نظرة في خصائص القيادة الناجحة ـ مصدر سابق.

١٣. صدام حسين ـ حول كتابة التاريخ ـ مصدر سابق.

١٤. صدام حسين ـ الثورة والنظرة الجديدة ـ حديث سيادته في لجان دراسة شؤون تعديل المناهج في ١٩٧٣/١١/١٣.

١٥. المصدر السابق.

١٦. صدام حسين ـ الثورة والنظرة الجديدة ـ في مؤتمر المعلمين ـ مصدر سابق.

١٧. صدام حسين ـ المصدر المثبت الهامش (١٤).

١٨. ميشيل عفلق ـ مصدر سابق ـ ج١، ص٥٧.

١٩. صدام حسين ـ حديث سيادته الى الصحفي صباح سلمان في ١٩٨٦/٨/٢٣.

٢٠. المصدر السابق.

٢١. صدام حسين ـ حديث سيادته الى مجموعة من رجال الدين في ١٩٨٢/٧/١١

٢٢. صدام حسين ـ طريق الثورة وأغطية الردة ـ حديث سيادته في اجتماع الكادر المتقدم في الحزب.

٢٣. صدام حسين ـ الشباب الصحيح طريق الثورة الصحيحة ـ حديث سيادته في منتسبي وزارة الشباب ١٩٧٩/٧/٣١.

٢٤. حسن طوالبه ـ صدام حسين والرأي العام ـ دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٨ ـ ص٣٦.

٢٥. صدام حسين ـ حديث سيادته لدى تقليده مجموعة من الرفاق شارة الحزب في ١٩٨٥/٢/١٢.

٢٦. البعث والثورة والانسان ـ حديث سيادته الى الصحفي فؤاد مطر في ١٩٨٠/٥/١٣.

٢٧ ـ ٣٨ ميشيل عفلق ـ مصدر سابق ـ ج٥ ـ ص٣٧٥. ص٣٧٦، ص٣٧٦، ص٥٨، ص٢١٨، ص٦٥، ص٣٧٧، ص٧٦، ص٦٦ ـ ٧٦، ص٣٣٥، ص٦١، ص٣١٦ ـ ٣١٧.

الليكود وسياسته المقبلة حيال الانتفاضة الفلسطينية



نديم عيسى



قد تبدو هذه المقالة متأخرة ازاء التطورات لاسيما موضوع اعلان الدولة الفلسطينية، لكنها تمثل قراءة للأوضاع الاسرائيلية، كما انها تحمل في مضمونها بعض التوقعات تجاه التغيرات المحتملة في المنطقة. والمقالة تمثل اجمالاً وجهة نظر كاتبها في هذا الموضوع.

كلية العلوم السياسية مركز الدراسات الفلسطينية ـ جامعة بغداد



مقدمة

مما لاشك فيه ان انتخابات الكنيست الثانية عشرة تعد اكثر الانتخابات حسماً واهمية منذ قيام الكيان الصهيوني، وذلك لسببين رئيسين هما:

أولاً: لأنها تجري في ظل تصاعد انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني في الاراضي المحتلة، وماتحدثه من اثار ونتائج وانعكاسات على اوضاع الكيان الصهيوني الداخلية والخارجية.

ثانياً: لأنها تجري في ظل تطورات ومستجدات مهمة على الصعيدين الاقليمي والدولي، لعل في مقدمتها وقف اطلاق النار في الحرب العراقية ـ الايرانية، وقرار الاردن بقطع علاقته الادارية والقانونية بالضفة الغربية، ومانجم عنه على الصعيد الفلسطيني، من اعلان الدولة الفلسطينية المستقلة، وبروز مشاريع التسوية المطروحة، وفي مقدمتها مشروع شولتز.

لذلك، فان المطلوب في المرحلة المقبلة هو الحسم واتخاذ القرار سلباً أو ايجاباً في مايتعلق بالوضع في المناطق المحتلة.

وقد اثار فوز تكتل الليكود في الانتخابات الثانية عشرة موجة من التشاؤم، بصدد مايسمى بعملية السلام ومستقبل الكيان الصهيوني، وماستؤول اليه الانتفاضة الفلسطينية، بعدما كانت الامال معقودة على فوز حزب العمل الذي ربما يحرك عملية السلام في المنطقة طبقاً لما ادلى به قادته في الحملة الانتخابية.

وفي هذا البحث نحاول تسليط الضوء على السياسات التي سينتهجها تكتل الليكود في المرحلة المقبلة، من خلال تقسيم البحث الى قسمين رئيسين هما:ـ

أولاً: الليكود ومشكلة الاراضي المحتلة:

أ ـ الليكود وأهمية الاراضي المحتلة.

ب ـ الليكود والحل السياسي.

جـ ـ الليكود وموضوع فكّ العلاقة بين الأردن والضفة الغربية.

ثانياً: الليكود والانتفاضة الفلسطينية:

أ ـ موقف الليكود من الانتفاضة الفلسطينية.

ب ـ موقف الليكود من مبادرة حسني مبارك.

جـ ـ موقف الليكود من مشروع شولتز.

أولاً
الليكود ومشكلة الأراضي المحتلة

لكي تتضح سياسة الليكود تجاه تسوية مشكلة الاراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ بأعتباره الحزب الذي نال اكبر مجموعة من المقاعد النيابية في الانتخابات الاخيرة، (حيث حصل على ٣٩) مقعداً، لابد من التعرف على طبيعة التفكير السياسي لزعماء الليكود وتصوراتهم لاهمية الاراضي المحتلة، وأفق الحل السياسي الذي يدور في مخيلتهم، وموقفهم من المؤتمر الدولي، وقرار فك العلاقة القانونية والادارية بين الاردن والضفة الغربية والخيارات المطروحة لتسوية مشكلة الاراضي المحتلة أو تلك التي قد تفضي الى تسويتها.

ويبدو ان اسحق شامير زعيم تكتل الليكود، يقدم قضية الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ (كمسألة أمنية) وهو يؤكد في معظم تصريحاته

التي رافقت الانتفاضة والانتخابات «الاسرائيلية» الثانية عشرة، انه يتعين المحافظة عليها من اجل ضمان أمن (اسرائيل)،[١] الامر الذي يأمل من ورائه احزاب اليمين الاسرائيلي بشقيها الراديكالي والديني بغية تشكيل حكومة ائتلافية برئاسته، واستبعاد حزب العمل من أي ائتلاف جديد.

وفي سبيل توكيد طروحاته آنفة الذكر، نجد ان الليكود، وبمقابل (مجلس السلام والأمن) الذي اقامه حزب العمل، والذي يضم نحو مئتين من كبار الضباط الاحتياط ومثلهم من الأكاديميين ورجال الادارة والاقتصاد، أقام الليكود، هيئة مماثلة تدعى (ضباط وأكاديميون من أجل الأمن والسلام)، لتبرير برنامجه الالحاقي، وبحجة اطلاع الجمهور على الأهمية الحيوية للضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، بالنسبة لأمن الكيان الصهيوني ووجوده والناطقين بأسم هذه الهيئة وبأسم زعامة الليكود يؤكدون مايلي:-

١ - انهم يرفضون مقولة (ان الاراضي المحتلة ليست لها قيمة عسكرية لاسرائيل في عصر الصواريخ)، ويحاولون ان يثبتوا ان (اسرائيل) بدون المناطق المحتلة لاتملك اي عمق استراتيجي، وان استبدال العمق الاستراتيجي المحدود الذي يوفره للكيان الصهيوني استمرار الاحتلال في الضفة والقطاع بعمق أقل من تكتيكي، هو عمل أحمق في أحسن الاحوال، ويخلصون الى ان المناطق المحتلة ذات قيمة عسكرية مهمة، ولايجوز التخلي عنها.

٢ - ويركز الليكود على ان التخلي عن الضفة الغربية او اجزاء منها اضعاف للهدف الصهيوني، الذي بدونه لن تكون (اسرائيل) قادرة على الوقوف بوجه القوى المضادة، والتنازل في هذا المجال يقود الى الاستسلام وربما الى الفناء.

٣ - كذلك يركز الليكود على انه لايمكن المحافظة على الأمن والاستقرار الا من خلال استخدام القوة والتهديد بها والحفاظ على قدرة الردع والضرب بقوة ساحقة، وانه مهما كانت نوعية الاتفاقات والمعاهدات التي يمكن التوصل اليها مع بعض الاطراف العربية، ستبقى (اسرائيل) غرسة غريبة في المنطقة، وسيبقى التصميم على تدميرها، ولذلك يجب عدم اعطاء العرب اية ميزة اقليمية ام عسكرية.

٤ - ومع ان قادة الليكود يعترفون بأن المشكلة الديموغرافية قائمة وموجودة فعلاً، الا انهم يروجون، ان اخطار المشكلة الديموغرافية تظل اقل من الاخطار المستقبلية التي يمكن ان تنجم عن الانسحاب من المناطق المحتلة، وان من الأفضل للكيان الصهيوني مالم يتم تحقيق السلام الشامل مع العرب بالمفهوم الصهيوني (أبقاء مليون عربي في جيوبنا وتحت سيطرتنا بدلاً من ان يصبحوا خلف ظهرنا). ويشير منظرو الليكود بهذا الصدد الى ان المشكلة الديموغرافية ليست جديدة، وان هذه المشكلة كانت ولاتزال تواجه الحركة الصهيونية منذ قيامها، وان بالأمكان التعايش معها.[٢]

يتضح من خلال ذلك، ان الليكود ينظر الى الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧، على انها تمس (أمن اسرائيل) بالصميم، لأنها ذات قيمة عسكرية كبيرة، وان اي تراجع عنها او اجزاء منها يجرد الكيان الصهيوني من قدرته على الردع، ويعرض الهدف الصهيوني في تأسيس (دولة اسرائيل الكبرى) للوهن وعدم المصداقية، وبالمقابل يمكن تلافي او احتواء المشاكل الناجمة عن الاحتلال كالمشكلة الديموغرافية مثلاً.

الليكود والحل السياسي

يؤكد الليكود على تمسكه بسياسة «كامب ديفيد» باعتبارها الطريق الوحيد للحل السياسي للقضية الفلسطينية بما فيها مشكلة الاراضي المحتلة والصراع العربي - الصهيوني. وقد تأكدت تلك الرؤية عندما وافق وزراء الليكود في ٢٣ - ٢ - ١٩٨٨ بالأجماع على المبدأ الذي يؤكد ان اية مفاوضات قادمة يجب ان تنظم على اساس اتفاقيات كامب ديفيد ١٩٧٨.[٣]

واوضحت زعامة الليكود، في الوقت نفسه، على لسان اسحق شامير رئيس الوزراء الاسرائيلي «ان الليكود لاينوي التنازل عن اي شبر، وانه ليس ثمة مكانة للمصالحة الاقليمية في المناطق، لأن اتفاقيات كامب ديفيد لاتلزم اسرائيل بالانسحاب مليمتراً واحداً من هذه المناطق. فأسرائيل تعهدت فقط بأجراء مفاوضات حول المناطق، ولكن ليس في ذلك مايلزم بالأنسحاب او بابطاء عملية الاستيطان، ولايوجد في اسرائيل أية امكانية للمناورات والمصالحات الاقليمية، ولايوجد مايمكن التحدث عنه بشأن تغيير الخطوط والحدود».[٤]

يرفض الليكود رفضاً قاطعاً مبدأ الأرض مقابل السلام في أية تسوية مقبلة، وهو بذلك يضع نصب عينيه نتائج الانتخابات البرلمانية، حيث يعتقد ان الاحزاب الدينية تقف وراءه عن طريق رفض التنازل عما يسمى (بأرض الميعاد). ومن هذا المنطلق ستتحدد سياسات الليكود ومواقفه من المؤتمر الدولي ومشاريع التسوية المطروحة.

ويبدو ان الليكود مستمر في معارضته بشدة لعقد مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك حسب رأيه يمنع المفاوضات المباشرة، ويعرقل عملية السلام في المنطقة !

بيد ان التعديل الجديد الذي ادخله الليكود على برنامجه الانتخابي الأخير في هذه المسألة يتعلق بالأمور الاجرائية، حيث يطرح امكانية اجراء مفاوضات الحكم الذاتي مع سكان الأراضي المحتلة، وليس مع مصر والأردن كما نصت اتفاقيات كامب ديفيد.(٥) وتعليل ذلك، هو انه قد مرت عشر سنوات على توقيع اتفاقيات كامب ديفيد، ولايوجد لدى مصر استعداد للالتزام بالمواطنين (المحليين)، حسب مزاعم الليكود.(٦)

ولذلك يجري التأكيد على ان الليكود يسعى من أجل قيام الحكم الذاتي التام للمواطنين في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، الا ان هذا لايعني، ولاينبغي ان يفسر بمثابة منح السيادة لسكان الاراضي المحتلة، او منحهم حق تقرير المصير، لأن برنامج اللكيود الأخير كان قد احتوى مايتناقض وهذه الطروحات، عندما أكد على حق (دولة اسرائيل) في المطالبة بفرض السيادة على الضفة والقطاع.

ويتحدث الليكود عن الأفلاس السياسي لطروحات حزب العمل الاسرائيلي للتسوية، ولمقولاته حول التسوية الاقليمية، ويتهم حزب العمل بانه يطرح مشاريع لا اساس لها. كما يتهمه بالأنهزامية، وبأنه ليس له اتجاه. وفي فيلم دعائي انتجه الليكود ويدعى (المصيدة) يستخدم اللقاء الذي تم في (ميونيخ) عشية الحرب العالمية الثانية بين رئيس الوزراء البريطاني في حينه (تشمبرلن) وبين (هتلر) للايحاء بأن المؤتمر الدولي بالشكل الذي يقترحه (شمعون بيريس) سيؤدي الى كارثة، وتشبيه التنازلات التي يدعي الليكود بأن بيريس يقدمها من أجل التسوية بتنازلات تشمبرلن لهتلر.(٧) لذلك أعلن شامير فور فوز الليكود في الانتخابات الثانية عشرة معارضته لاشتراك (اسرائيل) في مؤتمر دولي بشأن الشرق الأوسط.(٨)

وحول (التسوية المرحلية) جاء في برنامج الليكود ان الحل الحقيقي هو ايجاد اتفاقية تتضمن أن (اسرائيل) مستعدة لأجراء مفاوضات مباشرة مع جميع الدول العربية حول اتفاقية سلام. ولكن الدعوة الى عقد مؤتمر دولي تمنع المفاوضات المباشرة، وتعرقل عملية السلام.(٩)

ونخلص من ذلك: ان الليكود يرى في اتفاقيات كامب ديفيد الأطار الأمثل للحل السياسي لمشكلة الاراضي المحتلة، لأنها تقود الى تطبيق الحكم الذاتي الذي تدعو له قيادات الليكود، لذلك يستمر في معارضته لعقد مؤتمر دولي بأي شكل من الأشكال، اي سواء عقد من أجل تسوية مشكلة الأراضي المحتلة، أم لتسوية كل مشكلات الشرق الأوسط الناجمة عن الصراع العربي ـ الصهيوني.

الليكود
وفك العلاقة بين الاردن والضفة الغربية

فتح الاعلان الاردني بفصل الضفة الغربية المحتلة ادارياً وقانونياً عن الاردن، باب النقاش حول وضع الأراضي المحتلة على مصراعيه، أمام المراقبين والأوساط السياسية الأسرائيلية، وذلك عشية التحضير المحموم للمعركة الانتخابية الأخيرة داخل (اسرائيل)، بشكل عزز كون الأراضي المحتلة موضوعاً رئيساً لتلك الانتخابات خاصة بعد أن سارع الاسرائيليون للتعليق على الحدث وأبعاده.

وقد فرض القرار الأردني نقاشاً ذا طبيعة حادة، على الأحتمالات التي يمكن حدوثها، كنتيجة للأجراءات المترتبة على التنفيذ العملي لمضامين الأعلان، اذ تركزت احاديث السياسيين الاسرائيليين، على الحدود المباشرة واللاحقة لما تحدث عنه الملك حسين، لاسيما السياسية منها، والمتعلقة بالدور الاردني في أية تسوية سياسية ممكنة للوضع في الضفة الغربية المحتلة، ومايمكن أن تقود اليه الخطوة الأردنية من تطورات، سواء كانت هذه الخطوة تكتيكية او استراتيجية.

ولعل اول رد فعل لتكتل الليكود جاء على لسان اسحق شامير، الذي رفض التعامل مع ما قاله الملك حسين في البداية، معتبراً اياه انه لم يضف جديداً على السياسة القائمة سوى انه اكد انسحابه من (شراكته) في التسوية الاقليمية، التي كان شامير نفسه مقتنعاً بعدم وجود مكان للحسين فيها، مشيراً بذلك الى خيار خصومه في حزب العمل، الداعي الى دور اردني اساسي في تمثيل الفلسطينيين في تلك التسوية، لكن شامير أكد على استعداده لأجراء تسوية سلمية مع الأردن، كطرف يقف على الحدود الغربية لنهر الأردن.(١٠)

وقد تمثل رد فعل الليكود الاولي في التأكيد على ان ماحدث مكسب (لاسرائيل)، وهو بالتالي لايستوجب أي تغيير سياسي، لكن طرأ تحول على موقف الليكود بعد ستة أيام عبر عنه شامير نفسه، اذ اتهم الملك

حسين بتسليم الفلسطينيين في الضفة الغربية الى منظمة التحرير الفلسطينية من خلال تلك القرارات.

ثم توالت ردود الفعل التي لخصت موقف الليكود بالنقاط التالية:

١ ـ التأكيد على ان (اسرائيل) سوف تمنع أية محاولة لشغل الفراغ الذي نشأ في الضفة بعد القرارات.

٢ ـ الاعلان عن اعتبار الوضع الدائم للضفة الغربية يجب ان يشكل قضية منفصلة في المفاوضات التي قد تعقد في المستقبل بين العرب و (اسرائيل).

٣ ـ اعتبار اتفاقيات كامب ديفيد وحدها قادرة على تحقيق السلام في المنطقة.

٤ ـ التأكيد على رفض فكرة التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية وان (اسرائيل) تؤمن بأجراء مباحثات مع الأردن.[١١]

٥ ـ الدعوة الى ضم الضفة الغربية الى (اسرائيل)، وقد تزعم هذا الموقف الوزير بلا وزارة (يستحاق مواداعي) من الليكود، الذي رأى ان تخلي الأردن عن الضفة الغربية ترك الأراضي دون سلطة، وهذا يعني ان (اسرائيل) لم تعد قوة محتلة، مما يستدعي فرض القوانين الاسرائيلية عليها، وانهاء الادارة العسكرية فيها.[١٢]

٦ ـ تأكيد الحكومة الاسرائيلية على انها لن تتخذ اجراء الضم الآن، لالتزامها بأتفاقيات كامب ديفيد التي تمنع تطبيق القوانين الاسرائيلية على الاراضي المحتلة، وكذلك لتفادي حدوث حركة ادانة دولية لهذه الخطوة.[١٣] وهذا ماذهب اليه شامير نفسه، عندما أبدى تحفظه حيال هذه الدعوات، تحت ذريعة عدم إثارة الرأي العام العالمي.[١٤]

ثم انفجر الموقف في (اسرائيل) عقب ماتردد عن استعداد منظمة التحرير للاعلان عن الدولة الفلسطينية، وقد جاء رد فعل الليكود على النحو التالية:ـ

اولًا: تأكيد تحالف الليكود على ان الحكومة ستستخدم (القبضة الحديدية) لسحق أية محاولة فلسطينية لأعلان سلطة او دولة في الأراضي المحتلة.

ثانياً: التأكيد على رفض اقامة حكومة المنفى الفلسطينية. وقد بلغت خطورة هذا التطور من وجهة النظر الاسرائيلية الحد الذي اضطر الكنيست الى قطع عطلته الصيفية، وعقد جلسة طارئة لبحث الموقف، وقد اكد شامير في هذه الجلسة انه لن تقوم دولة عربية اخرى على الحدود.[١٥]

ثانياً
الليكود والانتفاضة الفلسطينية

لما كانت الانتفاضة الفلسطينية هي العامل الأكثر تأثيراً من سواه في الانتخابات الاسرائيلية الثانية عشرة، ولما كانت الأحزاب الأسرائيلية الرئيسة لاتزال تراهن على مايسمى بـ (الحل العسكري الأمني) للانتفاضة كخيار أساسي، فقد اتسمت الحملة الانتخابية بالمزايدات بين الليكود، والعمل في هذا الصدد، بهدف تسجيل النقاط الأنتخابية، الأمر الذي انعكس على تصعيد اعمال القمع الاحتلالي في الضفة الغربية وقطاع غزة بشكل لم يسبق له مثيل حتى الآن.

وأبرز مايميز موقف الليكود بشكل عام هو الأصرار على الفصل بين الانتفاضة والحل السياسي، أي رفض مسألة الاعتراف بأن الانتفاضة قد خلقت وقائع سياسة جديدة تؤثر في طبيعة الحل السياسي.[١٦] لذلك فأن الليكود يسعى جاهداً الى تحييد أثر الانتفاضة وقمعها قبل البدء بأي جهد لحل سياسي.

على هذه الارضية تشكلت مواقف الليكود من التحركات السياسية العربية والدولية الرامية الى ايجاد حل سياسي في اطار الانتفاضة الفلسطينية. ولعل مبادرة الرئيس المصري حسني مبارك، ومشروع شولتز هما ابرز مايذكر على هذا المستوى.

مبادرة مبارك

كانت المبادرة التي طرحها الرئيس المصري حسني مبارك في ٢٢ ـ ١ ـ ١٩٨٨ أول تحرك ملموس بأتجاه الحل السياسي في اطار الانتفاضة الفلسطينية، وقد تألفت المبادرة من خمسة بنود هي:ـ

أولًا: وقف أعمال العنف في الأراضي المحتلة لمدة ستة اشهر.

ثانياً: وقف كافة عمليات الاستيطان الاسرائيلي في الاراضي المحتلة.

ثالثاً: احترام الحقوق السياسية والحريات الاساسية للشعب الفلسطيني تحت الاحتلال.

رابعاً: ضمان سلامة وحماية الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الاسرائيلي بواسطة فعاليات دولية مناسبة.

خامساً: التحرك نحو عقد المؤتمر الدولي للسلام بهدف التوصل الى تسوية سلمية شاملة تتضمن الاعتراف بحق كل دول المنطقة في العيش بسلام وتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقه في تقرير المصير.[١٧]

وقد كان موقف الليكود حاسماً من هذه المبادرة، اذ رفضها على

لسان اسحق شامير، الذي اكد إنه لن يكون هناك اي تجميد لعمليات الاستيطان واغتصاب الارض الفلسطينية.[١٨]

وعلى الرغم من ان مبادرة مبارك لقيت التأييد في اوربا، الا انها لم تحظ بهذا التأييد في الولايات المتحدة، اذ رحب الرئيس الامريكي بالبند الاول من مبادرة (وقف العنف)، بينما تجاهل البنود الاخرى، وهو ماكان متوقعاً. فالادارة الامريكية ليس لديها الاستعداد لتسليم الاراضي المحتلة للامم المتحدة بأي حال من الاحوال.

مشروع شولتز

طرحت الولايات المتحدة مشروعاً لايجاد حل سياسي في اطار الانتفاضة الفلسطينية، عرف بـ (مشروع شولتز للسلام في الشرق الاوسط).

وفيما يلي نص المشروع كما اوردته صحيفة (يديعوت احرونوت) الاسرائيلية:

اعرض لكم ادناه مذكرة تفاهم اعتقد انها ضرورية لتحقيق افتتاح فوري لمفاوضات على سلام شامل. ومذكرة التفاهم هذه نابعة من المناقشات التي اجريتها معكم(*) ومع قادة المنطقة الآخرين. انني اتطلع الى رسالة رد من حكومة (اسرائيل) تأكيداً لهذه المذكرة.

ان الهدف المتفق عليه هو سلام دائم يضمن أمن جميع الدول في المنطقة والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. تبدأ مفاوضات في موعد قريب ثابت بين (اسرائيل) واي من جيرانها الذي يرغب في ذلك. هذه المفاوضات يمكن ان تبدأ في اول أيار ١٩٨٨. كل من هذه المفاوضات سوف يرتكز على قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ بكل بنودهما. والاطراف المشاركون في المفاوضات الثنائية هم الذين سيحددون الاجراء والجدول الزمني لمحادثاتهم. وعلى جميع المشاركين ان يعلنوا رغبتهم في التفاوض كل مع الآخر.

وفي مايتعلق بالمفاوضات بين (اسرائيل) ووفد اردني ـ فلسطيني تبدأ المفاوضات على ترتيبات في الاراضي المحتلة لتحديد فترة انتقالية على ان يكون هدفها انجاز هذه الترتيبات خلال ستة اشهر، وبعد سبعة أشهر من بدء المفاوضات الانتقالية تبدأ مفاوضات على الوضع النهائي للأراضي المحتلة على ان تحقق هدفها خلال عام واحد. وهذه المفاوضات سترتكز على جميع بنود ومبادئ قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢، وتبدأ الفترة الانتقالية بعد ثلاثة أشهر من ابرام الاتفاق الانتقالي، وستستمر مدة ثلاث سنوات. ان الولايات المتحدة ستشارك في مرحلتي المفاوضات، وستسعى الى ان تنتهيا سريعاً الى اتفاق وستعرض الولايات المتحدة مسودة اتفاق على الاطراف المعنيين عند بدء المفاوضات الخاصة بالترتيبات الانتقالية.

وقبل اسبوعين من افتتاح المفاوضات يعقد مؤتمر دولي، ويطلب من الأمين العام للأمم المتحدة توجيه دعوات الى الأطراف المعنيين بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي والدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وينبغي على جميع الاطراف المشاركين في المؤتمر الدولي قبول القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ والتخلي عن العنف والأرهاب. ويستطيع الاطراف المشاركون في مفاوضات ثنائية ابلاغ المؤتمر بحال مفاوضاتهم وفقاً لصيغة يتفق عليها. والمؤتمر لن يكون قادراً على فرض حلول او الاعتراض على الاتفاقات التي يتم التوصل اليها.

يكون التمثيل الفلسطيني في اطار وفد اردني ـ فلسطيني والمسألة الفلسطينية تناقش في المفاوضات بين الوفد الاردني ـ الفلسطيني والوفد الاسرائيلي. وتجري المفاوضات بين الوفد الاردني ـ الفلسطيني والوفد الاسرائيلي مستقلة عن اي مفاوضات اخرى.

إن مذكرة التفاهم هذه هي كل متكامل. والولايات المتحدة تدرك ان موافقتكم ضرورية لتطبيق كل عنصر فيها بحسن نية.[١٩]

ويتضح من المبادرة المذكورة مايلي:ـ

أولاً: مؤتمر دولي دائم الانعقاد، يبدأ قبل اسبوعين من بدء المفاوضات، اي في ١٥/٤/١٩٨٨، ليس له اية صلاحيات، وانما مجرد مؤتمر مظلة صلاحيات.

ثانياً: تبدأ المفاوضات حول المرحلة الانتقالية في ١ ـ ٥ ـ ١٩٨٨ وتستمر لستة شهور، اي حتى نهاية تشرين الاول ١٩٨٨ حيث يتم توقيع الاتفاق الانتقالي.

ثالثاً: يباشر بتطبيق الاتفاق الانتقالي بعد ثلاثة اشهر من توقيعه، اي في اول شباط ١٩٨٩، ويستمر الوضع الانتقالي لمدة ثلاث سنوات.

رابعاً: تبدأ المفاوضات حول الوضع النهائي بعد شهر من توقيع الاتفاق الانتقالي وقبل شهرين من تنفيذه. ويبدو واضحاً ان الهدف من تأجيل تطبيق الاتفاق الانتقالي الى مابعد بدء المفاوضات حول الوضع النهائي بشهرين هو ضمان مسار الحل النهائي قبل اي انسحاب اسرائيلي. وبذلك تكون مفاوضات الوضع الانتقالي والوضع النهائي مترابطة بحيث يمكن الغاء الاتفاق الانتقالي في حالة تعثر المفاوضات حول الوضع النهائي.

أما الملاحظات الاخرى التي يمكن استخلاصها من المبادرة

المذكورة فهي:ـ
اولاً: اعتماد القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ على غرار مبادرة ريغان.
ثانياً: عدم ذكر القدس.
ثالثاً: الاشارة بأمكان اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في المفاوضات ضمن وفد اردني ـ فلسطيني في حالة أعترافها بالقرار ٢٤٢ ونبذ مايسمى (بالعنف والارهاب).
رابعاً: الاعتراف بالشعب الفلسطيني كـ (شعب) وليس كمجرد (فلسطينيين) ويشكل هذا تطوراً في الموقف الامريكي.
خامساً: لا لدولة فلسطينية مستقلة.[٣٠]

ويبدو ان الليكود برئاسة شامير قد رفض هذه المبادرة، لأنه يعتقد ان الاولوية ينبغي ان تكون لقمع الانتفاضة لا للحلول السياسية. ومع ذلك طالب شامير بأجراء تعديلات على تلك المبادرة، وفي مقدمة التعديلات التي طالب بها شامير تعديل الجدول الزمني، اي عدم البدء بالمفاوضات الخاصة بالحل النهائي الا بعد مرور ثلاث سنوات من الحكم الذاتي المنصوص عليه في اتفاقيات كامب ديفيد، اضافة الى معارضته لفكرة المؤتمر الدولي حتى لوكان مجرد مظلة، وذلك خوفاً مما قد يمارسه المؤتمر من ضغوط بطريقة غير مباشرة على الحكومة الاسرائيلية.

وضمن هذا السياق، تبادل شامير عدة رسائل مع شولتز، وعقد معه عدة لقاءات اثناء جولات الاخير في المنطقة، وكذلك في واشنطن.[٣١] وأعلن شامير بشكل لا لبس فيه، انه يتحفظ على اقتراح بدء مباحثات حول التسوية الدائمة بعد مرور نحو ستة أشهر على انتهاء مفاوضات التسوية المرحلية، واكد في احد لقاءاته مع شولتز على استعداده لأجراء مفاوضات مباشرة مع الأردن دون مظلة من الدول العظمى والمطالبة بتأسيس حكم ذاتي في المناطق المحتلة لفترة ثلاث سنوات، بهدف بدء مفاوضات حول التسوية الدائمة في نهاية تلك الفترة. وفي ١٠ ـ ٣ ـ ١٩٨٨ شن شامير، ولأول مرة، هجوماً على مبادرة شولتز قائلاً: ان المبادرة تتناقض ومواقف سابقة للولايات المتحدة، وهي المبادئ التي كانت بمثابة سياسة طويلة الأجل.[٣٢]

وعلى هذا الاساس، يرى الليكود تأجيل الحل السياسي الى مابعد قمع الانتفاضة، وهذا ماذهب اليه شامير فور اعلان فوز الليكود في الانتخابات البرلمانية الثانية عشرة، اذ أكد ان الحكومة الجديدة ستتخذ اجراءات فعالة لأنهاء الانتفاضة الفلسطينية المتأججة منذ (١١) شهراً في الضفة والقطاع المحتلين،[٣٣] بكلمة اخرى انه قطع وعداً على نفسه بمواصلة مايسمى بسياسة (القبضة الحديدية) لقمع الانتفاضة.

ومما سبق، يبدو ان سياسة الليكود، تقوم على اساس واحد هو عدم الاعتراف بجدوى الأنتفاضة، ويرفض امكانية ان يتاح لها احداث متغيرات سياسية على طبيعة الحلول السياسية التي يرتأيها الليكود. لذلك يراهن الليكود على قمع الانتفاضة بمرور الوقت، وتمكن (اسرائيل) من الدخول في اية مفاوضات من موقع القوة، وفي ضوء الوقائع التي تحققها على الارض.

الخاتمة

ان السياسة التي سينتهجها تكتل الليكود (بأعتباره حزب السلطة) في المرحلة المقبلة يمكن استخلاصها من هذا البحث، الذي تضمن برامج وتصريحات زعماء الليكود المحددة لموقفهم من قضايا التسوية والانتفاضة الفلسطينية.

وتبعاً لذلك، يمكن تحديد سياسات الليكود على الشكل التالي:ـ
أولاً: سيبقى الكيان الصهيوني يحتفظ بالضفة الغربية وقطاع غزة، ولن يتخلى عنهما في أية مفاوضات مستقبلية، لأعتبارات أمنية وتاريخية. وهذا ماذهب اليه منظرو الليكود في الاونة الاخيرة، من خلال التبريرات التي حاولت الهيئة التي اسسها الليكود لهذا الغرض والمسماة (ضباط واكاديميون من أجل الأمن والسلام) ان تجدها لاطلاع الجمهور على الاهمية الحيوية للضفة والقطاع واقناعه بذلك، وتأكيداً لهذا المبدأ سيعمل الليكود في المرحلة المقبلة ليس على تعزيز القاعدة الاستيطانية هناك فحسب، بل على توسيع وتكثيف تلك القاعدة.

أما عن المشكلة الديموغرافية التي يعاني منها الكيان الصهيوني، فيحاول تكتل الليكود معالجتها بشتى الوسائل غير المشروعة، وسيكون في مقدمة هذه الوسائل تشجيع حركة الهجرة اليهودية عن طريق بذل جهود مكثفة وعلى نطاق دولي لتحقيق هذا الهدف، وهناك بوادر لاحتمال تدفق الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي، نتيجة للنهج الجديد الذي بدأ يطبق هناك في ظل زعامة غورباتشوف.
ثانياً: سوف يرفض الليكود الدخول في أية مفاوضات تسووية مقبلة، الا في اطار (الحكم الذاتي) الذي أقرته اتفاقيات كامب ديفيد، لانه

يعد ذلك السبيل الوحيد الذي يقبل به، والمحور الوحيد الذي يمكن ان تجري المفاوضات على اساسه مع اي طرف عربي. وبلاشك ان (الكيان الصهيوني) على استعداد للتفاوض مع الاردن ومع اية دولة عربية على هذا الاساس، لأنه يحقق السلام بالمفهوم الصهيوني دون النظر للمصلحة العربية عموماً والفلسطينية خصوصاً.

ثالثاً: يؤكد الليكود رفضه التفاوض او الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، حتى اذا قبلت الأخيرة الاعتراف (بأسرائيل)، وعدلت الميثاق الوطني الفلسطيني، واعترفت بالقرار ٢٤٢ وغيره من القرارات. وكذلك يؤكد رفض اقامة دولة فلسطينية مستقلة في اي جزء من الاراضي العربية المحتلة، لأن ذلك يتعارض والهدف الصهيوني الاعلى المتمثل باقامة (دولة اسرائيل الكبرى) على كل ارض (اسرائيل) الموعودة، بما فيها الضفة الغربية.

ان السياسات المستقبلية لتكتل الليكود حيال قضايا التسوية لاتنطوي على اي جديد، بل هي امتداد لسياسات الليكود التقليدية حول فكرة (الحكم الذاتي) كوسيلة لضمان السيطرة والسيادة الاسرائيلية على هذه المناطق، وهذا ما ينسحب ايضاً على الدعوة الى اجراء مفاوضات مباشرة مع الاقطار العربية. وبهذا فأن دليل عمل الليكود في المرحلة المقبلة يعكس رسوخ وثبات المواقف المغالية في التطرف التي يتبناها الليكود.

رابعاً: سيبقى الليكود يصر في المرحلة المقبلة على ضرورة الفصل بين الانتفاضة والحل السياسي، اي رفض الاعتراف بأن الانتفاضة قد خلقت وقائع سياسية جديدة تؤثر في طبيعة الحل السياسي. لذلك فان الليكود سيركز جهده في المرحلة المقبلة على حصر أثر الانتفاضة وقمعها بقسوة، قبل البدء بأي جهد لحل سياسي.

إزاء ذلك، يبقى استمرار النضال وتصعيده، وتقديم الدعم بشتى الوسائل والاشكال للانتفاضة الفلسطينية الى ان تصل الى اهدافها، والتمسك بالثوابت الوطنية والقومية هو الطريق الوحيد لأرغام العدو الصهيوني على التراجع، ولدحر الاحتلال واستعادة الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني، وتحرير الأراضي العربية المحتلة.

الهوامش

(١) علاء سالم، الانتفاضة واتجاهات الراي العام الاسرائيلي، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، العدد ٩٤ / اكتوبر ١٩٨٨، ص ١٩١.
(٢) عطية مقداد، أجواء المعركة الانتخابية في الكيان الصهيوني، نشرة الأرض، العدد ٩ / ايلول ١٩٨٨، ص ٦ ـ ٧.
(٣) علاء سالم، مصدر سابق، ص ١٩١.
(٤) عطية مقداد، مصدر سابق، ص ٦.
(٥) هارتس ٣١ / ٨ / ١٩٨٨.
(٦) نشرة الارض، العدد ٩ / ايلول / ١٩٨٨، ص ٤٧.
(٧) عطية مقداد، مصدر سابق، ص ٩.
(٨) صحيفة الجمهورية، العراق، ٥ تشرين الثاني ١٩٨٨.
(٩) نشرة الارض، العدد ٩ / ايلول / ١٩٨٨، ص ٤٦.
(١٠) ملف (فك العلاقة الادارية والقانونية بين الاردن والضفة الغربية)، اعداد (نديم عيسى)، م.د.ف / جامعة بغداد / مطبوع بالرونيو ١٩٨٨، ص ٤٤.
(١١) احمد كمال ابو بكر، الضفة الغربية بين الاردن والمنظمة واسرائيل، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩٤ / اكتوبر ١٩٨٨، ص ٢٠٤.
(١٢) ملف (فك العلاقة الادارية والقانونية بين الاردن والضفة الغربية) مصدر سابق، ص ٥٠.
(١٣) احمد كمال ابو بكر، مصدر سابق، ص ٢٠٤.
(١٤) ملف (فك العلاقة الادارية والقانونية بين الاردن والضفة الغربية) مصدر سابق، ص ٥٠.
(١٥) احمد كمال ابو بكر، مصدر سابق، ص ٢٠٤.
(١٦) سلافة حسن حجاوي، الانتفاضة الفلسطينية وآفاق التسوية، م.د.ف جامعة بغداد، مطبوع بالرونيو ١٩٨٨، ص ١٤.
(١٧) مجلة شؤون فلسطينية، مركز الابحاث، م.ت.ف، العدد ١٧٩ ص ١٠٦.
(١٨) ملف (انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني في الاراضي المحتلة)، اعداد (نديم عيسى) م.د.ف / جامعة بغداد، مطبوع بالرونيو ١٩٨٨، ص ٢٠٨.
(*) المقصود اسحق شامير.
(١٩) المصدر السابق، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١.
(٢٠) سلافة حجاوي، مصدر سابق، ص ٩.
(٢١) شؤون فلسطينية، مركز الابحاث، م.ت.ف، العدد ١٨١ / ص ١٦٤.
(٢٢) المصدر السابق، ص ١٧١.
(٢٣) الجمهورية، ٥ تشرين الثاني ١٩٨٨.

أضواء على
دين خميني الجديد

ظل الفرس عبر التاريخ مشدودين الى ارثهم المجوسي وتراثهم الوثني وغطرستهم العنصرية، ولم تزدهم الايام الا إصراراً على الرعونة واقتناص الفرص للارتداد عن عقيدة الاسلام والطعن فيها وبذل الجهد من اجل نصب العداوة للعرب ولغتهم وتاريخهم ومآثرهم، فتنكشف لنا المقاصد والاغراض الدفينة والحقد لضرب السيادة العربية وهدم الخلافة الاسلامية وحرف البسطاء والمخدوعين عن اصول الدين الحنيف وعن مقاصده النبيلة. وهنا سأتطرق الى «دين خميني الجديد» من خلال طروحات الرفيق القائد صدام حسين واستقراء نهج خميني التآمري على الاسلام.

لم يكن مجيء الاسلام تقليدياً في عصره ولم يكن ديناً للوعظ والارشاد فقط وانما كان ديناً تحويلياً. أما الزمن الذي استغرقه الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بالتبشير في مكة فلم يكن الا لضرورة بناء انموذج الانسان الجديد الذي ينسجم مع الحياة الجديدة كما يراها الاسلام.

حدّد الاسلام النظرة العامة للحياة فأيقظ جوهر التكوين الشمولي العربي، وحدّد سمات المرحلة التاريخية، وايقظ الحس الحضاري عند العرب. وقد طرح الاسلام مسألة الظلم والاستعباد في العلاقات الانسانية وسبل معالجتها، فأيقظ في الانسان الشعور بالمسؤولية التاريخية تجاه المجتمع الانساني، واستطاع تحديد وتوضيح أسس الوحدة في المجتمع العربي القومي، فلم يجد العرب صعوبة في أن يتوحدوا، وسقطت في لحظة كل العقبات التي افرزتها مرحلة الاحتلال.[١]

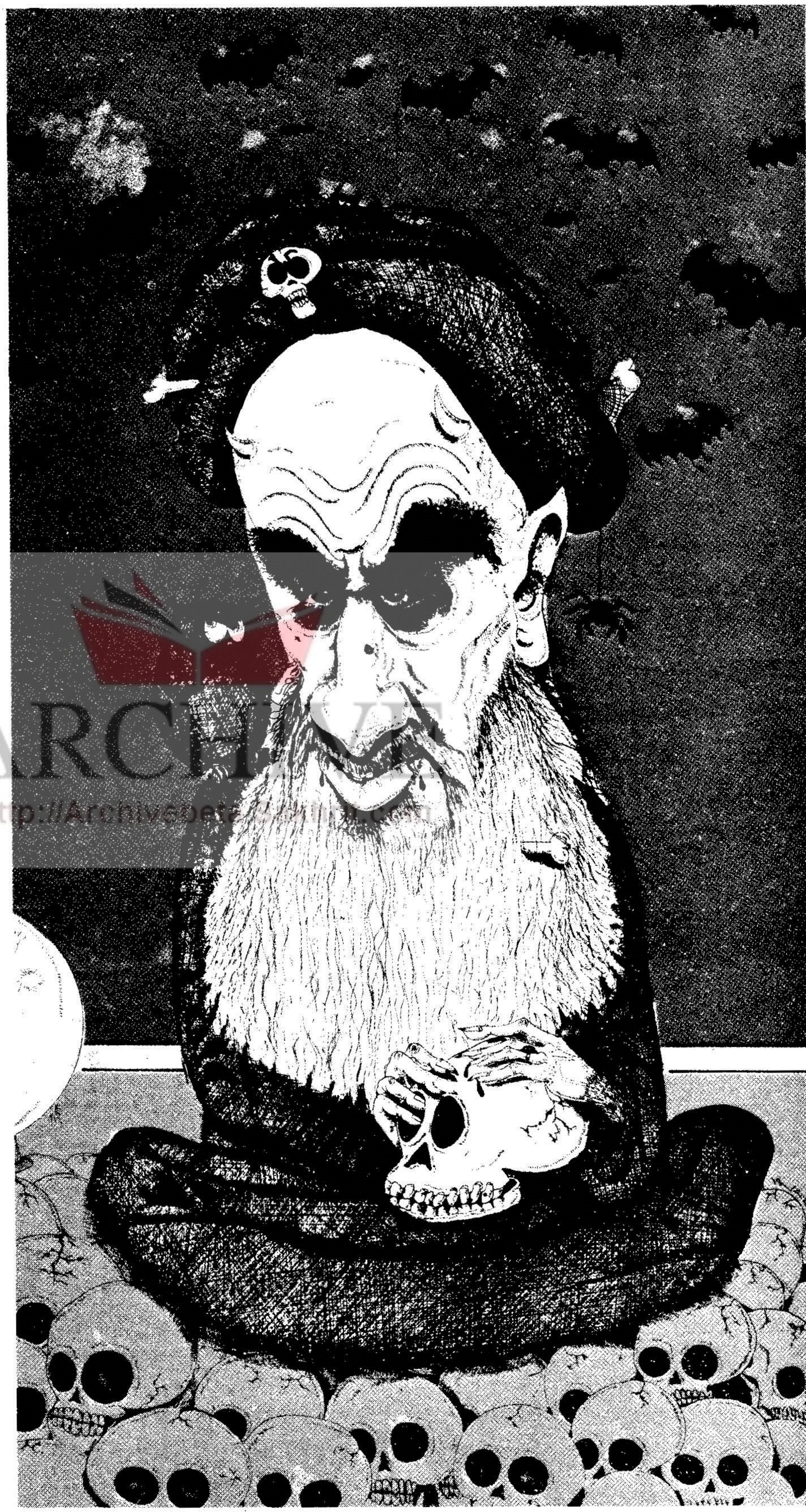
وعندما ظهر الاسلام وبلّغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) رسالته لم يشعر العرب ازاءه بالاستغراب فهم يعرفون محمداً (صلى الله عليه وسلم) اكثر الناس امانة وحكمة، وهو يبلغهم مايفهمونه لغة ومعنى ومبادؤه مألوفة لديهم، غير انهم لم يستجيبوا اليها اول الامر لعدم استيعابهم الخط الفاصل بين ماورثوه عن آبائهم وبين حاجة عصرهم..

وعندما حصل الالتقاء التاريخي بين الاسلام والعرب انتصر كل منهما بالآخر. فالعرب هم الذين اعطوا الاسلام الموقف الارادي وهم الذين اعطوه الانتشار الجغرافي والثقافي بعد ان اعطاهم الدولة التي قادت تلك العملية، والفرصة الانسانية فيه تحققت بالدور الذي لعبه العرب؛ ومن هنا اقترن الاسلام بالعروبة بوشائج لاتنفصم، إضافة الى كونه نزل على العرب. بلغتهم وعلى شخص من بينهم.. فأي انفصام فيها هو ضد منطق الاشياء، يجعل احدهما غريباً ويعطل فرص الثورة فيه.[٢]

بعد العرض الموجز للصلة العميقة بين العروبة والاسلام لابد ان نتعرف نهج خميني الذي استغل الاسلام غطاءً لتمرير مخططاته في مواجهة الامة العربية. فالخمينية المارقة تحذو حذو اسلافها من حركات الغلو والزندقة التي جمعت بين الشعوبية في الرأي والفساد في العقيدة، وتتظاهر بالاسلام قولاً وتعيد الى الاذهان كل مخططات البرامج الباطنية القائمة على التدليس والتلبيس.[٣]

ان الخميني في ايران يمثل حالة مختلفة بقياساتها ولكن متطلعة الى اقامة امبراطورية حقيقية. وهو يعتقد في كتاباته ان الشيعة في ايران هم اغلبية الشيعة، والثقل الاساس في كل المنطقة العربية ومنطقة الشرق الاوسط عموماً بسبب تطور تأريخي حصل..

كما يعتقد الكيان الصهيوني ان هنالك في الوطن العربي من الخلافات ماتتيح أمامه فرصة التصدي للعرب على مراحل، ثم وضع الامور في سياق الامر الواقع، الذي يحصل في عالم اليوم، الذي غالباً ماتغلب فيه المصالح على المبادئ؛ ففي تقديره انه بامكانه ان يقيم أمبراطورية ويعطي قدراً من المرونة في المصالح لهذا او ذاك في الشرق او في الغرب، مقابل الهيمنة على الوطن العربي ككل، ثرواتٍ وانساناً وفكراً، ويعتقد أن بأمكان السلطة مع الهيمنة ان تغير حتى المذاهب، اي ان باعتقاده وضمن عشرات السنين، ان بامكانه ان يحول المسلمين العرب او المسلمين في منطقة الشرق الاوسط الى (شيعة على النهج الايراني)، فيعتقد خميني ان كتلة من خمسين مليون بامكانها ان تسحق كتلاً صغيرة ومن ثم تكبر هذه الكتلة على انقاض من تسحقه معنوياً وفكرياً ومادياً لتواجه الحالة، وهكذا الى ان يقيم امبراطورية[٤]، دون أن ياخذ في الحساب بان العراقيين عرب، والمصريين عرب، والسوريين عرب، وان الدعوة انزلها الله الى محمد (صلى



الله عليه وسلم) بواسطة جبريل فيقول مادام هـذا ممكنـاً، وحصـل في زمن الاتـراك ان حكمت دولة اجنبية بأسم الدين فبأمكاننا ان نأخذ عشـرة ملايـين او سبعة مـلايين من الايرانيين وننشرهم ككادر في الدول العربية فنرسل الى العراق مليوناً مع من هم من اصل ايراني ليحكموا، ونرسل الى السعودية ربع مليون مع من يتعاطف معهم ليحكموا وكذلك في المكان الفلاني والفلاني.[٥] نحن نعرف ان اول من صلى على الطريقة الاسلامية كما ورد في القرآن الكريم هو محمد (صلى الله عليه وسلم). اذن فعلينا ان نأخذ بصلاته، كما ان اول من صام على الطريقـة الاسلاميـة هو محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلينا ان نأخذ بصومه، واول من قال ان على المسلمين ان يصلوا بالتوقيت الفلاني والتوقيت الفلاني وبـالكيفية المعـروفة ومـارسه بنفسـه ومع المسلمين هو محمد (صلى الله عليه وسلم). وعلينا ان ناخذ بهذا ولكي نهتـدي الى هذا بصورة صحيحة يجب ان نسمع من العرب وبالذات من عرب الجزيرة. فهناك من يحاول عن عمد ان يؤخر عيد الاضحى المبارك عن موعده يوماً او يومين وكل هذا يحصل بتأثير ايـراني وبمفـاهيم مـا أنـزل الله بهـا من سلطان. ان غرض الفرس من ذلك هـو ان يحولوا الاختلاف في الاجتهاد على طريقـة تعداد المذاهب الى اختلافات واسعة تتصل بجوهر الدين وأسسه المركـزية.[٦] ويضيف الرئيس القائد صدام حسين: من خلال كل هذه الظواهر توصلنا الى نتيجة انه لايمكن ان يفهم الاجنبي وحتى المتدين وحتى سليم

السريرة الدين في جوهره مثلما يفهم العربي الدين وطبقاً لذلك فأن على الامم الاخرى ان تعتمد في تفسيرات الدين على العرب، وفي الوقت نفسه اذا ما ظهر تناقض في هذا، فعليهم ان يركنوا الى الرأي العربي، ليس من الاشخاص الذين لايفهمون الدين وانما من العرب الفعليين في فهم الدين لان الفارسي لايستطيع فهم الاسلام مهما المّ باللغة العربية حتى لو اتقنها، لان اللغة ليست وسيلة مخاطبة وتفاهم حسب، وانما هي اعمق من هذا، فهي طريقة تفكير، اذن وطالما ان اللغة هي طريقة تفكير فلابد للفارسي الذي يريد ان يفهم الاسلام ان يعيش في الوسط العربي ويعيش تقاليده ومفاهيمه وظروفه وارهاصاته ويتصل بعمق تاريخه اتصالاً موروثاً.. وهو هكذا كما نرى، فكيف يمكن لرجل مثل الخميني لم يسجل في حياته خطاباً واحداً باللغة العربية ولم يتكلم امام احد باللغة العربية حتى الان؛ ان يكون ممثلاً للمسلمين ؟ فاذا كان يعرف العربية ولايتكلمها فهذا يعني انه يترفع عن العربية التي هي لغة القرآن او انه لايتفهمها.

ويضيف الرئيس القائد حفظه الله: (ان كل اجنبي يضع نفسه في موضع السيد للعرب في الدين لابد ان ينحرف بالدين عن موضوعه وهدفه. وعلى هذا الاساس فأن الخميني ومن هم على شاكلته لايريدون ان يبقى طريق الاجتهاد الذي يؤمنون به مجرد مذهب وانما يريدون ان يحولوه الى دين كامل يختلف في بنائه ومنطلقاته ومقاصده مع الدين الذي جاء به القرآن الكريم، وعليه فقد انصب الاختلاف في ممارسة الدين على كل شئ، ولم يعد المسلمون موحدين في ممارسة غير الحج ممارسة وتوقيتاً التي يحاول نظام خميني تحريفها).[7]

لذلك فأن الخمينية حركة سياسية تهدف الى اقامة دولة دينية على أساس من نظرية (ولاية الفقيه العامة)* او (حاكمية الفقيه) التي اتى على بيان تفاصيلها وأطارها العام خميني في كتابه (كشف الاسرار) عام ١٩٤١ ثم أجملها في صورة دعوة الى الحركة وبرنامج للانقلاب في كتابه (ولاية الفقيه) او (الحكومة الاسلامية) عام ١٩٦٩، ومن الخطأ احتساب الخمينية على هذا المذهب او ذاك وعلى هذه الفرقة او تلك، كما ان الخمينية تمثل امتداداً للحركات الغالية في الاسلام التي لعبت دوراً هدمياً في تاريخ الفكر الاسلامي والتي قالت بأستمرار النبوة وعدم ختمها بمحمد (صلى الله عليه وسلم) خلافاً لاجماع المذاهب والفرق الاسلامية.[8]

«ان الخميني ومن هم على شاكلته انما اتخذوا الاسلام واتخذوا من دعوة الانتصار لسيدنا علي (رضي الله عنه) متكأً وغطاءً ليرفضوا التأريخ العربي، فهم يريدون ان يجعلوا العرب بدون عمق تأريخي كيما يسهل عليهم تطبيق الافكار التي في ذهنهم».[9]

وقد حذّر الرفيق القائد صدام حسين في اكثر من مناسبة من الافكار الخمينية الجديدة التي تعتبر تحريفاً للاسلام وغايتها اقامة دين مختلف في كل شئٍ عن دين العرب والمسلمين لينفردوا بافتراض ممارسات ومفاهيم تجعل الدين الجديد للخميني *يأخذ اسم الاسلام* ويتمرد على التاريخ الاسلامي وما ورثه المسلمون من سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) منقولاً عبر الخلفاء الراشدين وصحبهم (رضي الله عنهم جميعاً).

مما تقدم يتضح بأن الخمينية دين جديد جاء من اجل التآمر على الاسلام عامة والعرب خاصة وبناء أمبراطوريتها الموهومة على أنقاض حضارة العرب وتاريخهم، انطلاقاً من «اذا كان الاتراك قد تمكنوا من ان يحكموا العرب مئات السنين من خلال خيمة الدين فلماذا لايستطيع الايرانيون أن يحكموا العرب لمئات السنين ايضاً من خلال خيمة الدين». وهذا التوجه الخطر يتطلب الفهم المسبق والمواجهة الحادة من قبل المسلمين جميعاً والعرب بالذات، لان الخمينية تستهدف العرب قبل أية امة اوفرقة او مجتمع، وهذا يقتضي الفهم المسبق من قبل العرب جميعاً والتصدي الحاسم لمحاولات ايران خميني تقديم نفسها انموذجاً للاسلام أمام العالم.

الهوامش

(١) المنهاج الثقافي المركزي ـ الكتاب الثاني / ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٥ ـ ٢٨٤.

(٣) فضائح الخمينية ـ منشورات منظمة المؤتمر الاسلامي الشعبي ص ١٥/بغداد ـ الدار العربية للطباعة

(٤) حديث الرفيق القائد صدام حسين (حفظه الله) مع رؤساء تحرير اليوم والمدينة والجزيرة السعودية بتاريخ ١٩٨٨/١/٢١

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) المصدر السابق نفسه.

* ولاية الفقيه مفهوم تقليدي لدى علماء المذاهب الاسلامية عامة والمذهب الشيعي الاثني عشري خاصة، مؤداه ان للفقيه العادل نوع ولاية في الاسلام تتمثل في الافتاء والقضاء. ولكن خميني طرح مفهوماً جديداً لها يتمثل بالاشراف العام والسلطة المطلقة على شؤون المسلمين نيابة عن النبي (ص) والامام، بمعنى ان للفقيه كامل صلاحيات الرسول والامام في تبليغ الدين وحراسته.

(٨) الخمينية ظاهرة لا اسلامية ـ منشورات المؤتمر الاسلامي الشعبي، الدكتور رشدي عليان، استاذ الاديان ـ كلية الشريعة ـ جامعة بغداد، ص ٣.

(٩) حديث الرفيق القائد صدام حسين مع رؤساء تحرير صحف المدينة واليوم والجزيرة السعودية بتاريخ ١٩٨٨/١/٢١.

حقائق عن
شبكة التجسس الصهيونية في العراق
١٩٥٠ ـ ١٩٥١

حوار: هناء العمري

في بداية الخمسينيات من هذا القرن استطاعت زمرة رجعية عُرفت بتبعيتها للاجنبي ، وبضعف ولائها وشعورها القومي والوطني ، ان تتسلل الى بعض مراكز الادارة والنفوذ في الدولة ، مما شكّل ارضية خصبة لزرع المؤامرات والفتن من قبل القوى المعادية للعراق وللأمة العربية ، وعلى راسها الصهيونية .

في هذه الصفحات نسلطَ ضوءاً على شبكة صهيونية ارتكبت اعمالاً ارهابية وتخريبية في اماكن متفرقة من بغداد ، وكانت تزمع القيام باعمال اخرى .

كيف تم اكتشافها ؟

كيف يروي القصة شهودها الحقيقيون ؟

ما الذي جرى اثناء سير التحقيق والمحاكمة لعناصر الشبكة من يهود وفرس كانوا يقيمون في القطر ؟

ماحقيقة الضغوط التي مورست لاعاقة اصدار وتنفيذ القصاص العادل بالمخربين ؟

ومن هي الجهات التي كانت تقف وراء ذلك ؟

اننا إذ نسعى لفتح مثل هذه الصفحات فاننا ننطلق اولاً من الحرص على التذكير المستمر بوحدة مصالح اعداء الامة من صهاينة وفرس ومستعمرين ، ومن الرغبة في ان يدرك القارىء أن محاولة العدوان على مر الزمان كانت واحدة وان تغير ثوبها الخارجي . لكن مامكّن الاعداء من إصابة بعض النجاح آنذاك وما جعلهم يندحرون اليوم ، وينقلبون على اعقابهم خاسرين ، هو ان الزمام أصبح بيد فتية ابرار رضعوا ، مذ قدموا الى هذه الحياة ، الولاء الكامل لهذا الوطن ، والايمان بالله وبالشعب وبالامة فاحاطوا العراق بسور عظيم مانع من القوة تكسرت عنده كل المؤامرات والشرور .

«افاق عربية»

في الفترة بين ٨/٤/١٩٥٠ و ٥/٦/١٩٥١ وقعت خمسة انفجارات في انحاء متعددة من العاصمة بغداد: في شارع ابي نواس وقرب كنيس مسعودة شنطوب وفي مكتب العلاقات الامريكي وفي شركة بيت لاوي وقرب شركة ستانلي شعشوع التجارية. واثارت تلك الانفجارات انذاك خوف الناس وتساؤلاتهم لانها بدت وكأن يداً خفية حركتها ولم تكن هناك فكرة مبدئية تشير الى جهة ما عُرفت بمثل تلك الممارسات لتنصب الشكوك عليها، ولم يكن الانفجار الواحد ليعطي دلالة نهائية على الجهة المنفذة لها. الا ان صورة الاحداث قد وضحت، وعرفت الأبعاد السياسية للأحداث على المستويين المحلي والعالمي بعد أن تدارس المحلّلون والمراقبون نتائجها فمَنْ الذي كان وراء ذلك كله؟ ومن هي الجهة المقصودة، ولمصلحة مَنْ؟

كانت تلك الاسئلة تدور في الأذهان وكانت الاتهامات تكال الى الحركة الوطنية عامة والحركة القومية في العراق خاصة. وبدأ الذعر يدب في أوصال يهود العراق خوفاً من الانتقام والمطاردة والقتل الجماعي، كما روَّج لذلك اليهود أنفسهم مذكرين الناس بما حدث لهم في دول أوربا في اثناء حكم هتلر لالمانيا النازية، تلك الاحداث التي استغلت من قبل الحركة الصهيونية العالمية في محاكمات نور مبرغ المشهورة والتي شكلت جزءاً من خطة مدروسة لتنشيط حركة الهجرة الى فلسطين. كما استغلت هذه الاحداث ضد العراق اعلامياً في بريطانيا وأمريكا خاصة بقصد التأثير في تسهيل هجرة يهود العراق الى الارض المحتلة.

لم يكن نشاط المنظمات الارهابية الصهيونية في العراق مقتصراً على العاصمة بغداد، وانما شمل البصرة وخانقين وكانت قيادة منظمة الشباب اليهودي الصهيوني (تنوعة) في خانقين الواقعة على حدودنا الشرقية قد اتخذت الاجراءات اللازمة لتسهيل مهمة تهريب اليهود الى فلسطين المحتلة عبر الاراضي الايرانية، وكان ليهود العراق، أفراداً وشركات ومنظمات، فروع في قصر شيرين الايرانية لانجاز أعمال الصهاينة في العراق معتبرين كل يهودي يُهجّر من العراق الى ايران مواطناً ايرانياً حسب قانون كورش الذي أزال حكم بابل بمعونة يهود السبي في العراق.

ولكن ماذا حدث في العراق آنذاك؟ وما هي التفاصيل؟ قد نعثر على الجواب بالعودة الى الخيوط الاولى للقضية. والتوجه إلى أعضاء اللجنة التحقيقية أو الى هيئة القضاء التي أصدرت الاحكام ضد المتهمين بالتورط فيها أو بدراسة ملفات الادعاء العام! ولم يكن ذلك بالامر اليسير فلقد مضى على الاحداث ثلاثون عاماً أو اكثر.

أمكنني الوصول الى مسؤول التحقيق في القضية كما امكنني تحديد الخطوط الرئيسة لشخصية المدعي العام والحاكم الذي قضىٰ في الأمر. واطلعت على (حيثيّات) القضية التي يحتفظون بها شخصياً وسألتهم عن تلك المستمسكات واللوائح، فأجاب مسؤول التحقيق السيد عبد الرحمن حمود السامرائي (٧٣ سنة) قائلاً «لم اكن ادري انها مفقودة الّا منذ سنتين اذ طُلبت مني رسمياً معلومات عنها فأردت الاستعانة بالملفات لاعطائهم المعلومات الدقيقة وذهبنا نفتش في دائرة الشعبة الخاصة التي كنت مسؤولاً عنها حيث حفظت الوثائق في سجلاتها في غرفة خاصة... فتشنا عن اضابير القضية فلم نجد منها شيئاً، لا الاضابير التحقيقية ولا الوثائق التي ضبطت في وقتها (علماً بان الوثائق كانت كثيرة سعة سيارة حمل؟!) وذهبنا الى المحاكم وفتشنا كثيراً فلم نعثر على الملفات.. تصوري يا سيدتي حتى ملفات المرافعة لم نعثر عليها ايضاً. فاضطررنا الى الرجوع الى المركز القومي لحفظ الوثائق كي نرجع الى اعداد (جريدة اليقظة) إذ كنت قد استعنت بصاحبها الاستاذ سلمان الصفواني لمواجهة الضغوط التي كنت أتعرض لها في ذلك الوقت.. وكل محاضر المرافعات موجودة في الجريدة».

وكان جواب رئيس الادعاء العام الاستاذ شاكر العاني (٧٢ سنة): «مع الأسف لقد فُقدت المستمسكات التي كانت محفوظة لدى الادعاء العام وعند الشرطة كما فقدت في المحاكم.. من الذي سرقها؟ ولماذا؟ لابد ان تكون الاصابع الصهيونية وراء ذلك!».

اما عضو اليسار في هيئة المحكمة القاضية في الاحداث الاستاذ سلمان بيات (٧٣ سنة) فقال: «لا ادري.. ولربما رميت في النهر أو أحرقت، لأن مخازن المحاكم مليئة ومكدسة بالوثائق ومن سوء الحظ انهم لم يفرزوا الوثائق وربما جاء رزّامون اوكتّاب لاتلاف الاوراق القديمة فاتلفت معها وهم لايعرفون انها ستكون قضية تاريخ».

مفتاح قضية شبكات التجسس الصهيوني في العراق كان ضائعاً أو مُضيّعاً. والمصادفة وحدها هي التي جاءت بمواطن فلسطيني من مواليد ١٩٢٤ في حيفا، قتلت قواتُ الاحتلال الصهيوني والده وعوّقت أخاه وشُفي هو من اطلاقات نارية أصابته، فكان في هذا المواطن الفلسطيني مفتاح أخطر قضية سياسية كشفت

النشاط الصهيوني وشبكات تجسسه في العراق. وبحثت عنه كثيرا حتى عثرت على عنوانه إذ انه ما زال يقيم في العراق وله خمسة أولاد. ومنذ لحظة عثوري على السيد «اسعد الياس سكوري» عرفتُ انني أمسكت برأس خيط من الخيوط المتشابكة لقضية شبكات التجسس الصهيونية.

يبلغ اسعد الياس سكوري الان الرابعة والستين من العمر. كان أحد الباعة في «مخازن اورزدي باك» سنة ١٩٤٩. وهو الآن يعمل مترجماً في سفارة المانيا الديمقراطية ببغداد.. هذا العربي الفلسطيني من حيفا هو الذي كان وراء اكتشاف بعض عناصر شبكات التجسس الصهيونية وساعد في القبض على يهودا مئير منشي تاجار اخطر جاسوس صهيوني ارهابي دخل العراق بجواز سفر ايراني «بأسم اسماعيل صالحون» وباعتقاله واعترافاته انكشفت شبكات التجسس الصهيوني الاستعماري في العراق في الوقت الذي كانت فيه أجهزة التحقيقات الجنائية آنذاك والشعبة الخاصة في الشرطة العامة في حكومة نوري السعيد تطارد الوطنيين الشرفاء وتغض النظر عن الفاعلين الحقيقيين اعضاء شبكات التجسس الصهيونية المرتبطة بسفارة احدى الدول الغربية المعروفة بعلاقاتها الوثيقة بحكومة نوري السعيد والتي كانت تمد يد المساعدة لتلك الشبكات وتمكنها من تنفيذ أغراضها.

التقيت المواطن الفلسطيني أسعد سكوري في مسكنه المتواضع في منطقة المسبح ببغداد. بدا اشيب الشعر اسمر اللون متوسط الطول وطلبت اليه ان يروي القصة كما وقعت، قال: «كنت افتش في عام ١٩٤٩ عن عمل ومررت مصادفة بمخازن اورزدي باك في شارع الرشيد فدخلت مستفسراً عن وجود فرصة عمل، وقابلت المديرة الفرنسية آنذاك وكنت أجيد الانكليزية وتم تعيني بائعاً في قسم الملابس الرجالية على ان يكون دوامي صباحاً ومساءً وبراتب عشرة دنانير شهرياً وبعمولة عن المبيعات لاتتجاوز الخمسة عشر دينارا، فباشرت العمل وفي سنة ١٩٥١ ـ بطريق المصادفة، شاهدت يوماً بين الناس المشترين في اورزدي باك شخصاً كنت اعرفه. اذكر انه كان ارهابياً صهيونياً في حيفا ـ مدينتي، ففوجئت وقلت لنفسي: ما الذي أتىٰ به الى هنا؟ كان هذا الغريب المجهول للعراقيين، معروفاً لدي بالشكل والجسم والبطش دون أن أعرف اسمه ولقبه. كان ممتلئ الجسم متوسط القامة ينظر للناس باستعلاء وبدأت افكر مع نفسي واتساءل: أين شاهدت هذا من قبل؟ أفي ميناء حيفا؟ ام في معمل الدبابات بالطيرة؟ أم في المصفى؟ وكنت في حيرة من أمري. ثم اخبرت شخصاً كان يعمل معي في القسم نفسه وهو من ابناء الموصل اسمه جوري قطة أو جوري بطي لااذكر بالضبط لقبه. قلت له: هذا ـ وأشرت للغريب المجهول لهم والمعروف لدي ـ يهودي اسرائيلي ارهابي.

فقال لي جوري: ماذا تقول؟ هذا كلام مجانين. اسرائيلي يأتي من فلسطين للعراق.. لا.. لا.. انت مجنون.

وخرج الغريب ـ المعروف المجهول ـ وبعد عشرين يوماً أو اكثر جاءني جوري وقال لي: يبدو ان صاحبنا قد جاء مرة اخرى فقلت له: ما العمل؟

وبالمصادفة ايضاً جاء هذا المعروف المجهول اليهودي الاسرائيلي في بغداد الى القسم الذي اعمل فيه يسأل عن (ربطة عنق) حريرية فلسطينية قال لي: هذه الكرافته بقديش؟

فاجبته بلهجة تعمدت ان تكون عراقية (هاي سعرها ٢٧٠ فلساً) وانصرف. فبادرني جوري الموصلي قائلاً: هل رأيت؟ انه ليس اسرائيلياً.

قلت له: انا أعرفه وأصرّ على ذلك.

بعدها كثرت زيارات هذا الاسرائيلي «لأورزدي باك» وكنت كلما أراه ارتجف غضباً، واتساءل مع نفسي كيف دخل العراق العربي وكيف يسكتون عنه؟

جاء هذا الرجل ذات مرة... قلت للموصلي جوري: اريد ان اثبت لك اسرائيلية هذا الغريب.. سأتحدث باللغة العبرية وعليك أن تراقب ما يحدث له من ردود فعل.

كان طريق الخروج من «اورزدي باك» يمر بين قسمي العطور، والالبسة الرجالية حيث كنت أقف هناك. وكان أمامي دفتر وصولات بيع، أحنيت رأسي و(جوري) الى جانبي وقلت بالعبرية، وأنا منكب على الدفتر وقد اخفيت وجهي (آنيمي آرتس اسرائيل) ومعناها (أنا من أرض اسرائيل) فالتفت الاسرائيلي إلى جوري متصوّراً انه هو الذي تحدث..

انتهى الدوام في الثانية عشرة والنصف ظهراً.. انصرف جوري لبيته في محلة (البوليسخانة) وعندما عاد بعد الظهر الى العمل اخبرني مرعوباً ان هذا الصهيوني كان ينتظره عند باب «اورزدي باك» وقد لحقه وصعد معه في الباص وجلس الى جانبه دون ان يتحدث معه حتى نزل جوري الى بيته في البوليسخانة فنزل الآخر ليعرف محل سكناه.

فقلت له: ياجوري مَنْ المجنون: أنا أم انت؟

كان لي صديق اسمه علي صادق العزاوي صاحب شركة سيارات العلمين للاجرة مقابل وزارة الدفاع وكان اكبر مني سناً فذهبت اليه وأخبرته بما وقع لاني غريب ولاأعرف احداً في السلطة حتى ابلغه بالامر. فقال لي العزاوي: انا حاضر. وكان لديه مسدس

كبير يسموه ١٤ قدّمه لي وطلب مني ان أتّصل به من (اورزدي باك) عندما ارى الصهيوني ووعدني بانه سيحضر عندما اتصل به خلال دقائق. وكان للعزاوي اصدقاء في الشرطة يبدو انه قد أخبرهم بهذا الموضوع. وعلى الرغم من ان الاخبار كان يجب ان يكون للتحقيقات الجنائية الا أن المصادفة ايضاً هي التي دفعت بهذا الاتجاه.

بعدها جاءني مفوضا شرطة، الاول اسمه صلاح، والثاني فخري وقالا لي: عمك ابو خالد يريدك اليوم بعد انتهاء الدوام في مكتب السيارات (وابو خالد هو علي العزاوي). فذهبت، وشاهدت عنده ثلاثة ضباط شرطة تعرفتهم وهم عبد الرحمن حمود السامرائي، وعبد الجبار القاضي، وسالم القريشي، وطلب مني العزاوي ان اقص لهم القصة منذ البداية. بعدها جاءني عبد الرحمن حمود السامرائي وقال لي: ياأسعد هذه سيارة والسائق بأمرتك لتفتش عن الصهيوني ونحن وراءك في سيارة ثانية.. دخلت كل السينمات والملاهي ومحلات الخمور، ولم اعثر للصهيوني على اثر.

ولم يحقق التفتيش شيئاً، ولاحظت ان ضباط الشرطة ساورهم الشك بمعلوماتي وبي فأولموني الى سهرة أثقلوني فيها بالشراب واستنطقوني مرة اخرى.. بعدها اقترحوا علي بعد ان صدّقوني نصب كمين أو فخ في «اورزدي باك» للصهيوني.. اثنان من المفوضين يتجولان في «اورزدي باك» ويقفان عند بوابته واثنان عند المصور عبوش. وطلبوا مني ان اتصل بأي منهم في حالة ظهوره.

وبالمصادفة مرة رابعة ـ وما أطيبها من مصادفة ـ دخل الصهيوني ـ مع أحد اليهود المسؤولين عن تنفيذ التفجيرات كما علمتُ بعد ذلك ـ وكان هذا يضع نظارات كانت تغطي وجهه، ودخلا الى القسم الرجالي، حيث موقعي وموقع عمل (جوري الموصلي) والقوا على الحاجيات نظرة.. عندها أبلغت المفوضين الموجودين في «اورزدي باك» عنهما فخطفوهما في سيارة كانت معدّة للغرض واخذوهما للتحقيق في مركز تل محمد كما علمت.

● **هل استعانت الشعبة الخاصة بك في الترجمة عن العبرية بعد القاء القبض على الجاسوسين؟**

ـ كلا.. لكنهم استعانوا بمترجم فلسطيني من القدس اسمه طه البشيتي، وقد توفي رحمه الله.

تاريخ عريق في الاجرام

اذا اردنا ان نأخذ الصور الثلاث التي قدمها لنا شهود العيان، فلابد ان نأخذ بنظر الاعتبار، التسلسل الزمني الذي جرى فيه التحقيق واصدار الحكم وسنبدأ بمسؤول التحقيق الذي جمع الأدلة الاولى، وننتقل الى رئيس الادعاء العام الذي قدم وثيقة الادانة الرئيسة لتجريم المخربين بمطالعة تاريخية وقانونية استعرض فيها تاريخ الحركة الصهيونية وجرائمها واساليبها التخريبية.

أما دور القاضي وأعضاء المحكمة فقد ارادوا ان يقدموا الدليل على عدالة القضاء العراقي واستقلاليته (كما اكد القاضي بنفسه) على الرغم من ان الاحكام التي صدرت بحق المخربين توحي بان هناك اتجاهاً لتخفيف الاحكام وذلك لعدم تناسب الوقائع مع قرارات التجريم والحكم.

ان مسؤول التحقيق في هذه القضية موظف اداري في إحدى الشركات العراقية التقنية تتميز ذاكرته بالقدرة على خزن وحفظ المعلومات عن تلك الاحداث على الرغم من عمره الذي جاوز السبعين عاماً أشيب الرأس متوسط القامة مع بدانة ظاهرة. أنه عبد الرحمن حمود السامرائي مدير الشرطة آنئذ المتقاعد حالياً، وكان معاوناً للشعبة الخاصة في شرطة بغداد عام ١٩٥١ وهو الذي تولى التحقيق في قضايا التفجيرات والمنظمات الصهيونية. وقد مُنح في حينه وسام الرافدين تقديراً لجهوده.

● **حدث ما حدث، في مجال عملك محققاً في الشعبة الخاصة، من جرائم متفرقة يجمعها إطار واحد مشبوه. كيف جمعت المعلومات؟ كيف جرى التحقيق حتى وصلتم الى الادلة التي قدمت الى القضاء الذي أصدر قراره بالادانة؟ وهل يمكن القاء الضوء على كل ذلك بحكم موقعك الوظيفي؟**

ـ في الجواب اطالة.. ولكن ما أتذكره من حوادث ما زالت أمامي كأنها مشاهد حيّة. صور الانفجارات الكثيرة التي دوّت في مناطق متعددة من بغداد، والتي كان أولها الانفجار الذي وقع يوم ١٩٥٠/٤/٨ قرب كازينو البيضاء في مدخل شارع ابي نواس والذي سببته قنبلة يدوية جرحت عدة أشخاص. وبتاريخ ١٩٥١/١/١٤ وقع انفجار ثان قرب كنيس مسعودة شنطوب في الباب الشرقي لقنبلة يدوية اخرى وقتل جرّائه اثنان وجرح عدد اخر من الاشخاص، وهذا المحل كان معداً لتسفير اليهود الذين اسقطت عنهم الجنسية العراقية. وقد شهد يوم ١٩٥١/٣/١٩ وقوع انفجار ثالث في مكتب العلاقات الامريكية في شارع الرشيد (باب الآغا) نتيجة قنبلة يدوية ايضا وجرح بسببه عدد من الاشخاص.. وبتاريخ ١٩٥١/٦/٥ وقع انفجار رابع عند شركة بيت لاوي في شارع الرشيد تسببت عنه أضرار في المبنى وكان بسبب مادة متفجرة وليس قنبلة. وفي ليلة ٩ ـ ١٩٥١/٦/١٠ وقع انفجار خامس عند شركة ستانلي شعشوع في

شارع الرشيد حدثت عنه أضرار في واجهة المبنى واستعملت فيه ايضا المواد المتفجرة.

تلك الاحداث المتتابعة أثارت ضجة في البلد، وكان التحقيق في اسبابها من صلاحيات مراكز الشرطة المختلفة. كل حادثة ضمن مسؤولية مركز شرطة معين. وكنت انا بوصفي معاوناً للشعبة الخاصة أحضر محل الحادثة ضمن ذلك المركز فتكونت عندي فكرة عامة عن هذه الانفجارات التي لم يظهر التحقيق فيها أية نتيجة وبقيت غامضة في مصدرها ومنفذيها واهدافها.

وتقرر ان تجمع هذه القضايا كلها وتودع في معاونية الشعبة الخاصة (شعبة التنظيم السري) على ان يشرف على التحقيق حاكم تحقيق الرصافة الشمالي المرحوم كامل شاهين. فتسلمت القضايا كلها وباشرت التحقيق.

● **من كان المتهم الاول في نظركم؟ ولماذا؟**

ـ استبعدنا احتمال قيام الاحزاب والاتجاهات السياسية الموجودة في البلد آنذاك بمثل تلك الاعمال لكننا مع ذلك تأكدنا عن طريق القيام بمسح عام حتى نتوصل الى الجهة التي كانت تقوم بهذه الاحداث.. بقي لدينا ان نتجه نحو التيار المتطرف بين اليهود المقيمين في العراق والذي كانت اكثر الشكوك تدور حوله. تابعناه وراقبنا أشخاصاً كانوا يمثلونه الى ان تمكنا من كشف جمعية صهيونية سرية اسمها (تنوعة بابل) وهي فرع من فروع المؤسسة الصهيونية الكبيرة في مايسمى (اسرائيل) ولها فروع أخرى في الاقطار العربية.. فصرنا نلاحق العاملين فيها ومن بينهم، العاملون أنفسهم في دائرة تسفير اليهود بعد أن أسقطت عنهم الجنسية العراقية.

وكان من جملة ما توصلنا اليه وجود عناصر مدربة أرسلتها سلطات الكيان الصهيوني للعمل في العراق، واستطعنا ان نتوصل الى أوصاف أحدهم وكان يتردد إلى المؤسسة التي تسفّر اليهود وبعض الكازينوهات ومخازن «اورزدي باك»، فرتبنا تشكيلات خاصة لملاحقة هذا الاجنبي ساعين الى كشف هويته.

اول الخيط

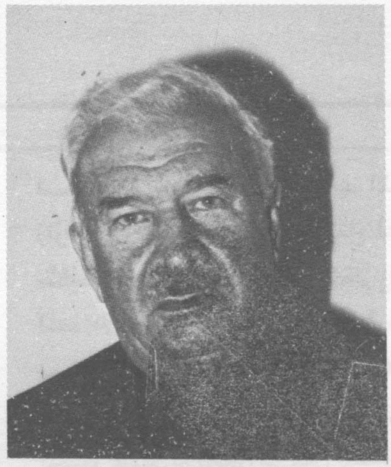
● **لكن معلوماتي المتواضعة تقول ان أحد الفلسطينيين من حيفا هو الذي اكتشف الجاسوس الصهيوني وقام باخبار الشرطة بعد تعرفه إيّاه!**

ـ اسمحي لي ان اوضح الحقيقة.. فلقد كان هناك شاب فلسطيني اسمه اسعد الياس سكوري يجيد اللغة العبرية، هو من جملة من رأوا هذا الشخص. ولما استقدمناه أعطانا أوصافه بشكل جيد منطبقة عليه. فطلبت الى أحد مفوضي الشعبة الخاصة واسمه (خالد أحمد الاعظمي) ان يرافقه ويرابط في محلات «اورزدي باك» لمتابعة تحركاته كما وُضعت مفرزة أخرى تتألف من اثنين من المفوضين ترافق هذين الشابين.. وحددنا (نقطة) في شارع الرشيد عند محل المصور عبوش للاتصال بي حال القبض على المتهم. وكانت التعليمات تنص على انه اذا جرى القبض على الاجنبي وكان متجهاً الى الباب الشرقي فعليهما أن يضعاه في سيارة أجرة ويتجهان به الى مركز شرطة تل محمد. ومن هناك عليهما ان يتصلا بي هاتفياً وكذلك مسؤول النقطة أيضاً. واذا كان الشخص المطلوب متجهاً الى باب المعظم فحينئذ يتم احضاره الى مركز شرطة الصليخ ومن هناك يتصلان بي هاتفياً ويتصل بي كذلك مسؤول النقطة.. على اية حال.. استمرت عملية الانتظار هذه عدة أيام حتى شوهد هذا الاجنبي في «اورزدي باك» وعند ذلك اقترب منه خالد وأسعد.. فانتظراه الى ان خرج من محلات «اورزدي باك» متجهاً الى الباب الشرقي.. وكانا يتبعانه كما التحقت بهم المفرزة المكونة من مفوضين آخرين.. ووضعوه في سيارة أجرة واتجهوا بها الى مركز شرطة تل محمد بعد ان أعطوا خبراً للنقطة.. وقد اخبرني مسؤول النقطة بالهاتف. فركبت سيارة واتجهت الى المركز نفسه مباشرة وهناك وجدتهم.. (كانوا اثنين وليس واحداً)!!

الاول كان الشخص المطلوب والآخر يهودي عراقي.. فرقتهما وبدأت بتفتيشهما.. الشخص المطلوب كان يحمل هويته وعنده جواز سفر إيراني باسم (اسماعيل بن مهدي) ولقب العائلة (صالحون) وأمه تدعى (صغرى) وكان يحمل (القرآن الكريم) في جيبه..

حدثته بالانكليزية فاكتشفت ان لغته الانكليزية ركيكة جداً.. وقال انه ايراني لايجيد الانكليزية.. ولما حدثته بالقليل الذي اعرفه من اللغة الفارسية وجدت ان لغته ضعيفة جداً ايضاً. وكذلك كانت لغته العربية. آنذاك تأكدت شكوكي. أما الثاني، فكان اسمه (نسيم موشي نسيم) انه الآن عضو الكنيست ووزير في اسرائيل يدعى مردخاي بن فرات.

القينا القبض عليهما وباشرت التحقيق.. اتصلت بمدير شرطة بغداد عبد الجبار فهمي هاتفياً، فجاءني الى مركز شرطة تل محمد. تحدث بالانكليزية الى صالحون فاكتشف ايضاً عدم معرفته بها.. انتظرنا حتى الظهيرة.. وضعناهما في سيارة وجئنا بهما الى الشعبة الخاصة في مركز شرطة السراي.. اتصلت بمدير الشرطة العام علوان حسين وطلب مني شخصياً أن آتيه بالمتهم.. كان علوان



عبد الرحمن حمود السامرائي.. تولى التحقيق في قضايا التفجيرات والمنظمات الصهيونية في عام ١٩٥١ .

حسين يجيد اللغات الانكليزية والفرنسية والفارسية فصار يحدثه بهذه اللغات دون جدوى. سألناه: أين تربيت ونشأت؟ قال: في الارجنتين. واصلنا التحقيق معه حتى العصر.. بعدها قال لي: ان الشيء الذي تريدونه عندي وتعالوا معي لأدلكم عليه.. أخذنا الى بيت يقع في البتاوين كان فيه هاتف رقم (٤٤٤٤) وهو بنسيون تديره امرأة أجنبية بيضاء تدعى (بربارا) وتكنى بـ(مدام اغابوف) دخلنا الغرفة التي يسكنها فوجدنا فيها أكداساً من الوثائق والمستمسكات والتقارير، وهي ما لم نكن نحلم بان نعثر عليه، كانت هذه الوثائق موضوعة في صندوق كارتون كبير كالصناديق التي توضع فيها الثلاجات.. في تلك اللحظة قلت لنفسي ان أهم شيء الآن هو إحضار حاكم التحقيق. اتصلت به هاتفياً في بيته وقلت له: من المهم جداً ان تحضر الآن. ارسلت له سيارة وحضر فرأى كل شيء وبدأنا بتصنيف الوثائق.. كانت الوثائق المأخوذة من العراق كلها باللغة العربية. أما التقارير الواردة فكانت باللغة الانكليزية، وهناك مجلات وتقارير باللغة العبرية، ووجدنا تقارير مكتوبة عن الاوضاع السياسية والعسكرية في العراق.

بدأنا نحقق معه حول التقارير المكتوبة باللغة العربية وسألناه من اين أتى بها وكيف حصل عليها؟ وأتينا بمترجم من التحريات الفنية اسمه عزيز بطرس لترجمة التقارير المكتوبة بالانكليزية.. كما أتينا برجل فلسطيني يجيد العبرية فترجم لنا الوثائق والاوراق المكتوبة بالعبرية واستعنّا به في الترجمة.

واعترف اسماعيل صالحون باسمه الحقيقي وشخصيته.. وتبين انه يهودي اسمه (يهودا مئير منشي تاجار) يعمل أجيراً لمكتب الوكالة اليهودية في طهران وانه جاء لبغداد بصفته ممثلاً لشركة (كاشانيان) الايرانية للسجاد ولديه عملاء في بغداد.

وقد كشفت لنا الاوراق والمستمسكات عن شخص آخر هو (هنري روبرت رودني) دخل العراق باسم ممثل لشركة (ألثم) للراديوات وشركة (أمون) التجارية للاقمشة البريطانيتين، ومقرها مانشستر.

بدأنا نفتش على عنوان (رودني) ذهبت الى الاقامة وأخرجت هوية دخوله ومكان سكنه فتبين انه يسكن في فندق (زيّا) في شارع الرشيد. دققت سجل الفندق فوجدته مرتحلاً وقد ترك عنواناً له في بيت يقع في (كرد الباشا) في الكرادة الشرقية.. باغتنا البيت.. فوجدته هناك.. ألقينا عليه القبض وفتشنا البيت فعثرنا على مستمسكات ووثائق كان يرفعها اسماعيل صالحون اليه وكان رودني يعلّق عليها ويرسلها بالبريد الى ايران لرجل اسمه (بينيت).. وبينيت هذا كان رئيس الوكالة اليهودية التي تدير النشاط الصهيوني في العراق وايران ويدير عمليات التسفير والهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة.

باشرنا التحقيق مع رودني.. اكتشفنا انه يهودي ألماني كان قد اشتغل في الجيش البريطاني في قلم الاستخبارات وسبق له ان سافر من لندن الى باريس سنة ١٩٥٠ وهناك زوده السفير الاسرائيلي بجواز سفر دبلوماسي إسرائيلي سافر به الى تل أبيب والتحق بمكتب الاستخبارات الخارجي الذي يرأسه (اشير بن ناثان) وعرض عليه مهمة العمل في العراق فقبلها وسافر الى ايران ومكث فيها ستة أشهر لدى مكتب الوكالة اليهودية في طهران الذي يتولى إدارة النشاط الصهيوني في العراق ليدرس الاوضاع والمعلومات التي تساعده على القيام بمهمته في العراق. ثم جاء الى العراق بصفة ممثل لشركتين بريطانيتين وكان يحمل جواز سفر بريطانياً صادراً في لندن.

استمر التحقيق (١٢) شهراً.. وكنّا في سلسلة مطاردات وتحقيق.. وبدأنا نمسك بالخيوط الأولى.. وبرزت اسماء المتهمين من المستمسكات ومن مفكراتهم الشخصية.. وكان من بين المتعاونين مع شبكة التجسس يهود من القاطنين في العراق.. وقد تعرضنا خلال التحقيق لضغوط شديدة من جهات لاتؤمن بقوميتها ووطنيتها، مما اوقعني في فراش المرض بعد صدور الاحكام.

● مَنْ؟ وكيف؟

ـ في كل مجتمع يوجد اناس وطنيون مخلصون واناس غير مخلصين وكان الضغط يمارس على بعض المسؤولين الكبار فيأبى الوطني الشريف ويضعف من كان شعوره الوطني والقومي ضعيفاً. وكان هذا الضغط بالتالي يمارس علينا. أما كيف فعن طريق الاسئلة الحادة: لماذا ألقيتم القبض على فلان؟ لماذا أوقفتم فلاناً؟ ماذا عمل فلان؟ وهكذا.

● من هم الذين مارسوا الضغط عليكم في موضوع شبكات التجسس الصهيونية؟

ـ لقد مات قسم كبير منهم.

● ولو.. القارىء يريد ان يعرف..

ـ حسناً.. كان عندنا في الشرطة العامة رجل اسمه (ص.ح) كان وكيلاً لمدير الشرطة العام وهو من كبار الضباط.. لقد كان هذا الرجل اكثر مَنْ مارس علينا الضغوط.. لقد كان (ص.ح) من أزلام (صالح جبر) ولا يتردد في ان يعمل ما يرضيه. وقد عرفنا آنذاك ان شابة يهودية تدير بيت صالح جبر وتعمل سكرتيرة عند زوجته.. وعن هذا الطريق كنا نتلقى الضغوط من (ص.ح) في شكل اعتراضات على اجراءاتنا.. ولمّا لم يجد اي تجاوب لاعتراضاته كفّ عن ذلك..

ومن ناحية اخرى، فان المحكمة الكبرى آنذاك مارست ضغوطاً مؤذية لانها وقعت تحت تأثير شخصيات يهودية وصهيونية اذ كنا بمجرد ان نلقي القبض على شخص مشتبه به يقدم عريضة الى المحكمة الكبرى فتطلق سراحه ونضطر للانشغال بلوائح تمييزية، نميّز بها قرارات المحكمة الكبرى عند محكمة تمييز العراق..

كان ذلك يعطّل أعمالنا ويضيّع وقتنا. وكان تأثير الاشخاص الذين يريدون ان يغيّروا وجهة التحقيق كبيراً.. ولهذا السبب أضطر في كل القضايا عندما نقدم اللوائح ان آخذ معي حرساً، اثنين من المفوضين أو أكثر ونذهب لمحكمة تمييز العراق لنقدم الاوراق ونبقى ننتظر في الباب الى ان يصدر القرار فنتسلمه حتى لايقع في يد أحد وربما يضيع.

● ولكن.. من كان وراء ذلك وما هي أبعاد هذا التأثير الذي تشير اليه؟

ـ لقد وجدنا في المحكمة الكبرى بعض اليهود يهمسون في آذان بعض الموظفين هناك.. ففي حين كنا نميز قرارات المحكمة ونتابع القرارات التي سوف تصدر كان اليهود يتصلون بهم على مرآى العين ويذهبون ليتهامسوا معهم خارج المحكمة في الساحة لدرجة اننا لم نعد نأمن جانب بعض موظفي المحكمة.. وبدأنا نخشىٰ الكادر الذي يعمل تحت سلطة الحكام. استَمْرَرْنا على هذا المنوال.. نحن نوقف المشبوهين والمحكمة الكبرى تطلق سراحهم لانها وقعت تحت تأثير اليهود. فنعود نحن لتمييز قرارات المحكمة بلوائح تمييزية نقدمها ضد قرارات المحكمة الكبرى.. وهكذا، حتى تشكلت محكمة كبرى ثانية غير المحكمة الكبرى الاولى نتيجة اللوائح التي قدمناها.

وترأس المحكمة الكبرى الثانية المرحوم حمدي صدر الدين وعضوية: المرحوم برهان الدين الكيلاني عضو اليمين والسيد سلمان بيات عضو اليسار.

● لم تحدثني عن المقبوض عليه الثاني (نسيم موشي نسيم)!!

ـ جاءنا محامي المتهم (ج.ب) حاملاً معه وكالة عنه وعريضة محالة من المحكمة الكبرىٰ لانه ميّز قرار توقيفه من قبل حاكم التحقيق لدى المحكمة الكبرى وبمجرد ان ارسلنا الاوراق التحقيقية الى المحكمة الكبرى الاولى حتى قررت اطلاق سراحه بكفالة قدرها (٦٠٠ دينار) وكان الكفيل مع المحامي وهو رجل من تجار الشورجة. وتنفيذاً لقرار المحكمة نظمنا الكفالة. بعدها ميزنا قرار المحكمة الكبرىٰ لدى محكمة تمييز العراق ولدى مطالبة الكفيل باحضار المكفول أخبرنا بعدم وجوده وكان قد جلب معه حين استدعائه مبلغ ٦٠٠ دينار دفعها للمحكمة.. وهكذا هرب هذا المتهم الخطر..

● وبعد..؟

ـ استمررنا في التحقيق الى أن أنجزناه. وخلال التحقيق والاعترافات عثرنا على كثير من المخابيء المعبأة بالأسلحة المختلفة مثل القنابل اليدوية والمواد المتفجرة والرشاشات واعداد هائلة من المسدسات وكميات كبيرة من الذخيرة والعتاد والاسلحة ذات الانواع الخفيفة. ووجدنا خرائط لمدينة بغداد مثّبتاً عليها بالالوان كل أماكن المحولات الكهربائية وكيبلات التلفونات وخزانات إسالة الماء والوزارات المهمة كالدفاع وغيرها، ونقاط أخرى ثُبتت عليها بلون مختلف الاماكن التي يوجد فيها المخربون حملة الرشاشات والمكلفين بالقاء القنابل وهم في سيارات منطلقة، واكتشفنا أماكن لخزن الاسلحة تحت الارض في كنائس اليهود، وفي بيوت بعض اليهود أيضاً.

كان كل هذا يحدث ـ كما قالوا ـ لتنفيذ الاعمال التخريبية في حالة حدوث جولة ثانية من الحرب العربية مع الكيان الصهيوني، كي يخلقوا جواً مربكاً يمكن ان يؤثر في الجيش العراقي لمصلحة هذا الكيان.

وثبتت على الخرائط جميع الامكنة المطلوب تخريبها وبوضوح كامل.. وقد سلمنا التقارير الخاصة بها الى وزارة الدفاع. واستمر

التحقيق فوجدنا من جملة الوثائق التي عثرنا عليها تقارير مرفوعة من قبل اشخاص عراقيين تتضمن البحث في كيان العراق الاجتماعي.

ووجدت تراجم حال لاشخاص رمز لهم بما يلي:(L) والثاني (ماسكل) والثالث (مكي) اضافة الى (كاكلان) و (Z) و (حبيب) وقد امكن حل الرموز في اثناء التحقيق.

فكان (كاكلان) هو (يوسف مراد عبدالله خبازة) شقيق (سليم خبازة) سكرتير الطائفة اليهودية في العراق. و(Z) هو الحرف الاول لشخص يدعى (صهيون) وهو يهودي عراقي يسكن بغداد. و(ماسكل) (ممدوح زكي) وهو شخص تركي الاصل كان موظفاً في سلك الخارجية وطرد للاشتباه في ان له صلات مع اليهود وكان يعمل مخبراً صحفياً في وكالة الصحافة الفرنسية (فرانس پريس). و (L) هو لطيف أفرايم، يهودي عراقي مساعد كيمياوي في المستشفى التعليمي ببغداد. و(مكي) هو (مكي عبد الرزاق)، موظف صغير بدرجة كاتب في وزارة الخارجية و(حبيب) هو (نسيم موشي نسيم)، المقبوض عليه الثاني مع صالحون والذي هرب بعد ان دفع الكفيل مبلغ كفالته كما حدثتك.

● **كيف اكتشفتم هذه الرموز؟**

ـ لقد توصلنا الى حل هذه الرموز والاسماء المستعارة للجواسيس بأنفسنا وعن طريق المعلومات التي جمعناها نحن.. فمثلاً عندما وجدنا كلمة (ماسكل) وجدنا ورقة لشركة طيران (أيرفرانس) مكتوباً عليها مبلغ.. كان هو الذي تسلم المبلغ وأعطاهم وصلاً وجدناه في بيت اسماعيل صالحون مع الوثائق.. كان ممدوح زكي يعمل في شركة ايرفرانس وقد استعمل هذه الورقة. عدا هذا فالتعريف الذي يخصه يقول: انه كان استاذ تاريخ وقد ابعدوه عن وزارة المعارف اعتراضاً على طريقته في تدريس التاريخ العربي الاسلامي، وصار بعد ذلك موظفاً في الخارجية.

● **عجباً!!**

ـ وفي الخارجية اكتشفوا انه كان يسيء استعمال منصبه.

● **كيف؟ هل اعترف انه كان يقدم نسخاً من وثائق وزارة الخارجية الى اليهود الصهاينة؟**

ـ لم يعترف بهذا.. ولكننا حين نقول انه كان يعمل في وزارة الخارجية وهو في الوقت نفسه من جواسيس (اسرائيل) فمعنى ذلك انه كان يقدم معلومات.

ـ هناك شخص يرمز له(L). ثمة ترجمة عنه تبين: (انك اذا رأيته لاتستطيع ان تميزه عن بقية المسلمين في لونه وشكله ولهجته وهذا يساعده على الاندماج في المجتمع والمحيط وهو طالب في المدرسة الفلانية) ذهبنا الى المدرسة وفتشنا سجلاتها. وجدنا اسم (لطيف أفرايم) وهو يهودي. استدعيناه، فاعترف عن اتصالاته وأعماله ومن جملة ما اعترف به: (ان المنظمة الصهيونية في العراق تلقت اشعاراً يقول: ان مجموعتكم قد قبض عليها) وقد ثبتت هذه الاقوال في ملفات التحقيق وفي المحاكمات.؟

وفعلاً تم إلقاء القبض عليهم جميعاً وصاروا يعترفون ويدونون اعترافاتهم وتشعبت المعلومات نتيجة هذه الاعترافات فتم القبض على أشخاص آخرين من جملتهم (سليم معلم) اليهودي الذي كان يشغل وظيفة مدير فرع مصرف الرافدين في بغداد وقد اعترف وَجَرَّ أسماء أشخاص كثيرين من أخطرهم كان (شالوم صالح شالوم) الذي قبض عليه في كنيس مسعودة شنطوب.

● **إذن.. انتم اكتشفتم الشبكات والتنظيمات الصهيونية في العراق بالمصادفة من إخبارية مواطن فلسطيني.. أين كانت عيون أجهزتكم منها في الوقت الذي كانت الحركات السياسية القومية الوطنية في العراق تحت ملاحقتكم ومطارداتكم وعيونكم؟**

ـ أنا اعرف ماالذي تقصدين من سؤالك.. لكن جوابي سيكون على قدر معلوماتي ومسؤولياتي، لانني نقلت الى بغداد سنة ١٩٤٧ من (حركات الشمال) وفي سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ اشتغلت في مراكز شرطة بغداد كضابط مركز، وفي سنة ١٩٤٩ تقرر نقلي الى الشعبة الخاصة (اي العمل السري) وخلال اشتغالي بها انفتحت أمامي آفاق لم اكن اعرفها من قبل، وهي الحركات السياسية بمجموعها إضافة الى الحركة الصهيونية في العراق.

وعندما حدثت الانفجارات في بغداد تقرر جمع التحقيق عنها وعُهد بها اليّ. ولما اندفعت بالتحقيق عثرت على خيوط جمعية (تنوعة) الصهيونية وخلال الملاحقات والقبض على بعض الاشخاص جاءنا الشاب الفلسطيني أسعد الياس سكوري مفيداً بأنه شاهد شخصاً يعتقد انه «اسرائيلي» فنظمنا الكمائن حتى قبضنا عليه وعلى البقية الباقية منهم ولهذا السبب فان كل ما استجد لي في هذه المواضيع كان جديداً عليّ. أما أجهزة الدولة الاخرى ومسؤولوها فلا أدري ما اذا

كانوا يعلمون بهم ام لا.

● **هل أذكّرك بكلام لطيف أفرايم في المحكمة؟!**

ـ عندما أربط كلام لطيف افرايم في اعترافاته بالمحكمة حين قال ان (بهجت العطية) أخبر الدكتور البير الياس اليهودي بأن (الشرطة قبضت على جماعتكم).. هل ان ذلك يدل على ان مديرية الامن العامة انذاك كانت تعلم بأمر تنظيماتهم أو لا؟ هذا ما لا أعرفه. أضيف على ذلك ان رجال الامن في ذلك الوقت كانوا يلاحقوننا على دراجات هوائية ويخبرون مراجعهم عن أماكن وجودنا وما عثرنا عليه من مخابىء أسلحة ومن قبضنا عليهم من أشخاص فاذا كنا حسني النية نقول ان رجال الامن أصبحوا يشعرون بحالة إحباط في عملهم وفشلهم في مجهودهم عندما وجدوا الشعبة الخاصة في شرطة بغداد قد اكتشفت هذا الاكتشاف الهائل في الوقت الذي لم نكن نملك إمكاناتهم!

● **ماذا عن الحضور الشعبي في المحاكمات؟**

ـ شيء لايمكن تصوره.. لقد كان حضور الجمهور العراقي وضغطه كما أتصوره مشرفاً لقد كان طلاب وطالبات الصفوف المنتهية في كليات الاداب والحقوق ودار المعلمين العالية وغيرهم يحضرون الى المحكمة لمتابعة المرافعات.. والمحامون على الاطلاق كانوا يؤجلون دعاواهم حتى في المحافظات ويأتون الى بغداد كي يحضروا المحاكمات ويسمعوا الحقائق. كانت القاعة لاتكفي فكان الناس يتجمعون خارج المحكمة.

● **كنت الشاهد الاول والأساس في قضية شبكة التجسس الصهيونية كما كنت المحقق.. هلا حدثتنا عن ملاحظات خاصة بقيت في الذاكرة؟**

ـ ثلاث جلسات متواصلة وانا أدلي بافادتي، المدعي العام الاستاذ شاكر العاني كان طيلة فترة التحقيق معي وفي المرافعات كنت أرجع اليه في كثير من القضايا من الاستشارات وكان يتعاون معي تعاون انسان يشعر بخطورة هذه الشبكات وبعد الجلسات الثلاث طلب الاستاذ شاكر العاني من المحكمة الكبرى تفريق هذه القضية الى ثلاث قضايا وقال ان في الباب الثالث عشر من قانون العقوبات البغدادي مواد عديدة يمكن تطبيقها على كل نوع من أنواع التجسس، فالامور العسكرية لمنظمة (شورا) المسلحة طُبّقت عليها مادة. وقضايا الانفجارات والنسف طُبقّت عليها مادة اخرى. وكان لقضية التجسس مادة اخرى. ولهذا فقد طلب تفريقها الى ثلاث قضايا وقدمت الى المحكمة وجرت المرافعات فيها.

● **ماذا عن محامي الدفاع الذين توكلوا عن هذه الشبكات؟**

ـ جبهة الدفاع من المحامين كانت ضخمة وكان يقودهم (ذ.غ) وهو محام ونائب في مجلس النواب وقد بقي لنصف الجلسة الاولى في المحكمة وهو يفند شرعية المحكمة الكبرى الثانية وكان معهم المحامي (ع.أ.ت) والمحامي (ف.ت) وكانت جبهة الدفاع تصل بين ٨ ـ ١٠ محامين وكانوا في الجلسات(معبأين ضدي). والحقيقة اني كنت استفيد من اسئلتهم ، لذلك فعنده بدأوا يوجهون لي الاسئلة بدأوا ينبهوني على بعض النقاط فاستثير ذاكرتي بالمعلومات التي اختزنتها في التحقيق. فكان اي محام يسأل عن موكله تستجد معلومات جديدة فاسردها في المحكمة فقرر المحامون بعد ذلك ان لايسألوني: وفعلاً هذا ما حدث.

● **(ع.أ.ت) هو احد مؤسسي حزب الشعب. وقد استقال (ذ.غ) بعد ذلك كما عرفت.**

ـ نعم.. اود ان اقول انه قدم استقالته وخرج. وكما اذكر من نص استقالته انه قال فيها (ان توكلي في هذه القضية استغل ضدي سياسياً وعليه فانا اترك الموضوع). وقد قدم استقالته وخرج من المحكمة واستمرت المرافعات. كما ان المحامي (ف.ت) كان مسؤولاً عن شركة اوريان اكسبريس في العراق وهي شركة نقل ايرانية لها وكالة في العراق وكانت مرتبطة بردوني.

● **في كتاب (سموم الافعى الصهيونية) نشرت المحاكمات وقد لاحظت ورود اسماء عديدة ضمن شبكة التجسس تم الافراج عنهم في قرار الحكم.**

ماذا أقول!؟ لقد اصدرت المحكمة حكمها باعدام اثنين فقط من شبكات التجسس وحكم على الباقين بين السجن المؤبد والسجن لمدة ١٥ سنة أو ١٠ سنوات أو ٧ سنوات أو ٣ سنوات. والبنات حكم عليهن ستة اشهر قدر مدة التوقيف ثم اطلق سراحهن.

● **هل من تعليق على الاحكام؟**

بقي الكنيست الاسرائيلي يقف لحظة حداد سنوياً في ذكرى يوم

اعدام هؤلاء.. وقد هاجم وايزمان، بن غوريون قائلاً له: انت سبب ارسال هؤلاء الى العراق وكل ما حدث لهم كان بسببك على الرغم من ان القضاء العراقي كان عادلاً في احكامه. فرد عليه بن غوريون في الجلسة نفسها قائلاً: انا كنت أقصد ان يحدث هذا الذي حدث ويعدم بعض الشبان اليهود في العراق كي يبقى اليهود في (اسرائيل) يتذكرون ان العراقيين أعدموا الشباب اليهودي في الشوارع حتى لاتبقى لهم فكرة العودة الى العراق مرة ثانية. آشير بن ناثان رئيس مكتب الاستخبارات الخارجية الصهيوني كان هو الذي بعث هؤلاء الى العراق وعمل هذه التشكيلات، وبعد هذه الاحداث أصبح سفيراً للكيان الصهيوني في المانيا.

● **هو الذي هاجمه الطلاب الالمان عام ١٩٦٧ واسموه بن نابالم.**

ـ ولقد دمر المانيا بقضية التعويضات فاخذ يسحب أسلحة ومساعدات من المانيا ويبعثها للكيان الصهيوني.

● **ابتزاز..**

ـ نعم. بعدها نقل الى فرنسا في عهد الجنرال ديغول، وهو الذي اسهم في السرقة الغامضة للزوارق الحربية الفرنسية الخمسة. كنت اتعقب أخباره لأنه خصمي في هذه القضية ولأنني دمرت تشكيلاته في العراق. وفي حرب ١٩٧٣ سقط ابنه الضابط الطيار في سيناء وقد رجع من فرنسا وحضر تشييعه في الارض المحتلة ورجع.

● **ماذا بعد ذلك؟**

ـ بقي اعضاء الشبكة الصهيونية في السجن حتى جاء عبد الكريم قاسم الى السلطة فاستقدمهم من سجن بعقوبة (وكانوا محكومين بالاشغال الشاقة المؤبدة) ووضعهم في طائرة وبعث بهم الى اهلهم.

اما عني فقد حاكموني في محكمة المهداوي بتهمة الاعتداء بالضرب على رجل اسمه (دنّي مريوش) وحكموا عليَّ بالسجن مدة اربع سنوات.

● **كيف ومتى علمت بنبأ إطلاق سراح شبكة التجسس؟**

ـ في أثناء وجودي في السجن.. قالوا لي ان أحدهم يريد مواجهتك.. وكانت المواجهة لمدة خمس دقائق.. التقيت خلالها شخصاً أعرفه، كان مأمور بدالة في بعقوبة يوم كنت ضابط شرطة هناك. قلت له: ما الخبر؟ انت جئت تزورني! قال: نعم لقد أرسلني أبو حقي لأقول لك انهم سيطلقون سراحهم وسيسافرون الى الارض المحتلة. قلت له: من هو أبو حقي؟ قال: اسماعيل صالحون. قلت له: هل انت مخبول كيف يطلق سراح هؤلاء الجواسيس الصهاينة؟ انها حكاية لاتصدق.

قال: سترى.

بعد عدة أيام رأيت في الصحف صورة اسماعيل صالحون (يهودا مئير تاجار) وكتابة تقول (لقد دخل العراق بعض الاجانب وتقرر تسفيرهم بعد اسبوع فعليه ان كان هناك أحد عنده اعتراض او طلب فليراجع).

وهكذا فقد جيء بالجواسيس الصهاينة كلهم الى وزارة الدفاع (وسمعت ان كريم قاسم واجههم) بعدها وضعوا في طائرة غادرت العراق الى بلد اوربي ومنها الى الارض المحتلة.

● **كيف تأكدت من هذه المعلومات وقد كنت في سجن بغداد في حين كانوا هم في سجن بعقوبة؟**

ـ علمت من الذين رافقوهم من السجن وأوصلوهم الى الدفاع حيث تم تسليمهم بيد وصفي طاهر (مرافق عبد الكريم قاسم) علمت ذلك من مأمور السجن المدعو (جاسم)، وربما هو موجود حتى الآن، ولك ان تبحثي عنه وتسأليه. إضافة الى هذا فان متعهد الارزاق لسجن بعقوبة جاءني وأخبرني انهم سيخرجون.. رآني يوماً بعد خروجي من السجن وقال لي: (ان اسماعيل صالحون كان قد كلفني ان اوصل رسالة منه الى السفارة الامريكية ببغداد. وانا في الحقيقة خفت من الذهاب الى السفارة وخفت من ان أُسأل. لكن هناك متعهد أرزاق ثانٍ اسمه (ابن ويّس) وهو أيضاً من أهل بعقوبة قبل القيام بهذه المهمة ودخل السفارة وهو الذي أوصل الرسالة من اسماعيل صالحون الى السفارة الامريكية وعلى اثر الرسالة اطلق سراحهم.

● **هل معنى هذا ان السفير الامريكي ببغداد تدخل لدى قاسم لاطلاق سراحهم؟**

ـ لقد طلبت من هذا الرجل ان يكتب لي هذه المعلومات تحريرياً وفعلاً كتبها لي وهي موجودة عندي واذا أردت يوماً ان اؤلف كتاباً حول هذا الموضوع فسأنشرها.

أحب ان أضيف ان اسماعيل صالحون كان يحمل رتبة كولونيل عندما جاء الى العراق وبقيت ترفيعاته مستمرة حتى أصبح

«بريجيديرا»، وكانت الرسائل تأتي اليه من امريكا الى سجن بعقوبة تنبئه بذلك.

● **سالم جاسم القريشي كان الشاهد الثاني في المحاكمات.**

ـ كان سالم ضابطاً نشطاً وكان معاوناً لشرطة كرادة مريم وبسبب نشاطه كنت استدعيه ليشاركني التحقيق في القضايا المهمة كهذه القضية وغيرها لأجل خلق جو منافسة بيني وبينه وكنا ننجح فعلاً..

● **حققتم مع المتعاونين مع شبكات التجسس الصهيونية.. بماذا كانوا يبررون موقفهم؟**

ـ كانوا يتحججون بحجج واهية.. أكثرهم مرتشون يبحثون عن منافع مؤقتة.

● **الم تحصلوا على نسخ من التقارير التي كانوا يرسلونها؟**

ـ كلا.. تقاريرهم كانت تسلم للتنظيم الصهيوني في العراق (تنوعة بابل) وهذه بدورها تبعثها الى الكيان الصهيوني. يكتبها رودني بخط يده وتذهب. لقد وجدنا عند رودني في بيته حبراً سرياً كما ان لديه مواد أخرى يضعها على الحبر السري لتظهر الكتابة..

● **رودني كان يحتفظ بسجل لضيوفه وزائريه، والذين يترددون عليه كانوا يكتبون اسماءهم في السجل، فما هي الغاية من ذلك؟**

ـ لقد سمي بيته وقتها (وكر الغرام) كان بيتاً لطيفاً في كرد الباشا وكان وكر دعارة ومشروبات.. ولقد ألقينا القبض على امرأة ايرانية شابة تعيش معه اسمها (طاهري مجيدي) كان قد أتى بها من إيران.. ثم سفرناها. وحتى في دفتر الضيوف وجدنا ان الضيوف سموا البيت بهذا الاسم.

● **عدا الاسماء التي ذكرتها لي.. هل تذكر من اسماء السياسيين العراقيين أحداً كان يتردد عليه؟ ألم تجدوا اسماءً لهم في السجل، أو اسماء وردت في التحقيق؟**

ـ كلا.. لم نجد اسم أحد منهم.

● **عند اعتقال الجواسيس.. الم يطلب أحدهم الاتصال بأحد المسؤولين.. أو مقابلتهم؟**

ـ رودني ألح إلحاحاً فظيعاً لكي يواجه اثنين من الشخصيات لكنا منعناه.

● **من هما؟**

ـ نوري السعيد، وتوفيق السويدي. تصوري موقوفاً يريد مقابلة رئيس وزراء ورئيس وزراء سابق.. ما معنى هذا؟ لقد منعناه من ذلك.

● **بالمناسبة ـ والشي بالشيء يذكر ـ في فترة رئاسة توفيق السويدي لمجلس الوزراء صدر قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود.. وقد سافر الكثير من يهود العراق الى الارض المحتلة. هل تعتقد ان هذا القانون صدر نتيجة تاثير اليهود في رئيس الوزراء وحكومته؟**

ـ نعم هذا صحيح.. لكني أقول من ذلك اليوم ان تعبير اسقاط اليهود عن الجنسية العراقية تعبير أصح.. أما بالنسبة للسؤال فمن الصعوبة بالنسبة لي كضابط أمن قول هذا.

● **هل من ضغوط اخرى.. من سفارات اخرى مثلاً؟. لقد كان رودني عميلاً بريطانياً صهيونياً مزدوجاً يحمل جواز سفر بريطانياً!**

ـ نعم كانت هناك مواجهة ثانية. كان الالحاح فيها من السفارة البريطانية ـ لاحظي.. ان اسئلتك تثير الكثير من المعلومات في الذاكرة ـ لقد طلبت السفارة البريطانية رسمياً السماح للقنصل البريطاني بمواجهة رودني بعد ان اعتقلناه.. وبالضبط في اليوم الذي قرر فيه ان يعترف وطلب آلة طابعة وكاربوناً وأوراقاً

● **وهل واجهه؟ وكيف؟**

ـ استدعاني مدير شرطة بغداد عبد الجبار فهمي تلفونياً وعندما وصلت مكتبه أطلعني على مذكرة صادرة من السفارة البريطانية الى وزراة الخارجية وقد حولتها وزارة الخارجية الى وزارة الداخلية وحولتها وزراة الداخلية الى مديرية الشرطة العامة وحولتها مديرية الشرطة العامة الى مدير شرطة بغداد. كل هذا في اليوم نفسه.. لقد تمت هذه الاجراءات كلها في يوم واحد فتصوري مبلغ اهتمام هؤلاء بالقضية.

وقد حوّل عبد الجبار فهمي المذكرة لي بالتاريخ نفسه فاخذتها وعدت الى دائرتي. وما هي الا فترة قصيرة حتى جاءني القنصل البريطاني الى دائرتي ووقف أمامي يتحدث.. كان بجانبي المترجم عزيز بطرس..

قال: انا قنصل دولة صاحبة الجلالة. وقد أتيت لمقابلة المواطن البريطاني رودني.

قلت للمترجم: قل له ان يتفضل ويستريح.. فجلس.

قلت لعزيز: أفهمه العبارات نصاً كما سأقولها لك، قل له: (ان الدولة العراقية دولة مستقلة ذات سيادة ولها قوانينها الخاصة وهي التي تنفذ قوانينها وهذا الرجل الذي جئت لتواجهه متهم بقضية تجسس والقضية تحت تصرفي الآن.. انا القائم بالتحقيق وعندي صلاحية بأن أمنع أية مواجهة تضر بسلامة التحقيق وسيره.. ولان مواجهتك له الآن ونحن في دور التحقيق تضر فانا أمنع مقابلتك له الان واذا أردت ان تشتكي فهذا موضوع يخصك وباستطاعتك مراجعة من تريد).

امتعض القنصل البريطاني وخرج غاضباً.. هذه واحدة من الضغوط التي تعرضنا لها.

● **يقال انكم عثرتم لدى رودني على قائمة تحوي ٣٦ اسماً لأشخاص تعاونوا مع جهات أجنبية ماهي الاجراءات التي اتخذت بحقهم ؟ وماذا حلّ بالقائمة ؟**

- بقيت عندي مدة من الزمن، ولما اعتقلت بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ قام السيد صبحي عبد الحميد بزيارة المعتقل، فأعلمته بالمكان الذي اخفيت فيه القائمة ليأخذها الى عبد الكريم قاسم ويطلعه عليها. وانتظرت.. ثم علمت ان القائمة سُلمت الى عبد الكريم قاسم فعلاً وانه وضعها في درج مكتبه، ولم يتخذ أي اجرآء بحق مَنْ وردت اسماؤهم فيها.

● **الم تحتفظ ببعض تلك الأسماء في ذاكرتك ؟**

- (لم يجب على السؤال).

● **سمعت ان المستمسكات والوثائق المتعلقة بشبكة التجسس الصهيونية فقدت.. فكيف فقدت؟ وهل لديك معلومات عن هذا الموضوع؟**

- احتجت الى هذه الوثائق بعد ان كلفت رسمياً بالبحث عنها.. فلا الاضابير التحقيقية ولا الوثائق التي ضبطت في وقتها موجودة الآن. علماً ان الوثائق كانت تملأ سيارة حمل (بيك آب)! لقد كانت كثيرة.. وذهبوا الى المحاكم وفتشوا عنها كثيراً الا ان محاولتنا في العثور عليها ذهبت ادراج الرياح. حتى أضابير المرافعة لم نعثر عليها أيضاً.. اضطررنا للرجوع الى المركز القومي لحفظ الوثائق كي نرجع لاعداد جريدة اليقظة بصورة خاصة لانها كانت تنشر كل شيء بالتفصيل. ولابد من القول ان جريدة اليقظة كانت قد ساعدتنا مساعدة كبيرة في نشر وفضح كل ما يتعلق بهذه القضايا، اذ كان الاستاذ سلمان الصفواني انساناً واعياً وكنت قد استعنت به كثيراً ضد الضغوط التي كنت أتعرض لها في ذلك الوقت.. كنت اتصل به مباشرة بالتلفون وأوصل له الاخبار أولاً بأول واذا بجريدة اليقظة تصدر في اليوم التالي وبها مقالة تهاجم أصحاب هذه الضغوط.. لقد عاوننا كثيراً.. وقد عثرنا عليها في اعداد الجريدة، فصوّرتها الجهات الرسمية.

هذه هي قصة الوثائق.. كيف اختفت؟ كيف سرقت؟ لماذا غيرها موجودة وهي غير موجودة؟ ماذا يقال حول هذا الموضوع؟

● **الا يمكن تحديد الوقت الذي اختفت بها الوثائق؟**

- بالنسبة لي لا أستطيع تحديده.

● **تحدثنا عن تنظيمات الصهاينة في العراق.. فهل قادتكم المعلومات والوثائق الى كشف شبكات صهيونية داخل الاقطار العربية الاخرى؟ وماذا كانت اجراءاتكم في حينها؟**

- بعد ان حققت مع اعضاء التنظيم الصهيوني في العراق واعترفوا جميعاً.. سألتهم ان كانت هناك منظمات صهيونية تعمل في الاقطار العربية الاخرى فاعترفوا لي عن منظمة موجودة في سوريا وكان اسمها منظمة (گيمل) وكان يرمز لها بالحرف (ج) واعترفوا لي عن منظمة في مصر كان اسمها (سام). وسام هو رئيس المنظمة، دخل مصر على انه مهندس راديو في وقتها.. أبرقنا الى سوريا ومصر فجاءنا الى بغداد مدير المباحث الجنائية المصري اللواء (محمد يوسف) ومن سوريا جاءنا مدير الامن العام السوري (تحسين القواص) وكنا نجلس سوية كل يوم ساعات أشرح لهم عن التنظيمات الصهيونية في العراق وعلاقاتها بالتنظيمات الصهيونية في أقطارهم وقد اخذوا

المعلومات ورجعوا الى اقطارهم. وقد اتخذت الحكومة السورية في وقتها اجراءات سريعة وحازمة جداً، إذ ألقت القبض عليهم وحسب ما سمعت فقد أعدموا (١٨) جاسوساً صهيونياً. أما الحكومة المصرية آنذاك فلم تتخذ أي اجراء حتى بعد سنة، حين حدثت انفجارات سنة ١٩٥٣ على ما اذكر وكانت مشابهة لما حدث في العراق، فألقوا القبض على مجموعة من اليهود كان بينهم واحد اسمه (ماكس بينيت) وتبادر الى ذهني ان (بنيت) هذا هو نفسه الذي كان في طهران وكنت قد جمعت عنه وعن تشكيلاته في طهران معلومات عن مبناهم وسياراتهم وارقامها وكانت معلومات واسعة فكتبتها في تقرير وأرفقت بها الصور وبعثناها بيد الملحق العسكري العراقي الى المباحث الجنائية في مصر وواجهوا بها (بنيت) في المعتقل.

● **ماكس بينيت هو رئيس الوكالة اليهودية التي تدير النشاط الصهيوني في العراق وايران وكان يدير عمليات التسفير والهجرة الى فلسطين المحتلة من طهران. كيف جمعتم عنه المعلومات؟**

- كان هناك احد العراقيين هو المرحوم (حسين جريدان) صاحب شركة نقليات جريدان في الكاظمية، وقد اتصلت به حيث كانت لي صداقة سابقة معه وكلفته بجلب ما يستطيع جلبه من معلومات عن الوكالة العراقية وعن بينيت فسافر رحمه الله الى ايران وأقام هناك بعض الايام يوقف سياراته قرب الوكالة اليهودية. وصادف ان احتاجت الوكالة سيارات الى نقل موظفيها الى نزهة خارج طهران، وبهذه الطريقة تمكن من جلب صور الوكالة اليهودية بكامل اعضائها وصور سياراتهم وأرقامها وكان بينهم نساء، وهذا ما تمكنا من الحصول عليه بهذه الطريقة. ولما قبض عليه في مصر ارسلنا هذه الصور والمعلومات لغرض تطبيقها ومعرفة ما اذا كان هو المطلوب بالذات. ولما علم من رجال المباحث المصرية بانه مطلوب في العراق عن قضية عقوبتها الاعدام، انتحر.

● **لماذا اعتمدتم على مدير شركة نقليات كصديق ولم تعتمدوا على اجهزتكم الأمنية او تطلبوا المعلومات من السفارة العراقية او ملحقياتها في طهران؟**

- لم تكن هناك امكانية مرصودة لدى الحكومة لصرف مبالغ كثيرة خارج العراق خاصة وان ما يُصرف من مبالغ لم تتجاوز أكلة طعام لبعض مفارز الشرطة ترفيهاً عنهم (٥ - ١٠) دنانير لا اكثر ولا اقل.. لاسيما اننا لم نكن نملك ما تملكه أجهزة الشرطة الآن وانما كنا كمن كمن يعارك بذراعيه.

●

كان يهمني بعد هذه المقابلة ان اعرف مصير القائمة التي كانت عند رودني والتي تحوي اسماء بعض عملاء شبكات التجسس.. فتوجهت الى الاستاذ شاكر العاني المدعي العام للمحكمة الكبرى في وقتها اسأله عنها فقال:

«هذه الغلطة التي ارتكبتها ولا أغفرها لنفسي.. لقد سلمتها لوزير العدل جميل عبد الوهاب وأعطاها بدوره الى الوصي عبدالاله وذهبت. ومع الاسف اني لم استنسخها.. انا أعض اصابعي ندماً الان.. واعترف باني اخطأت خطأً كبيراً»

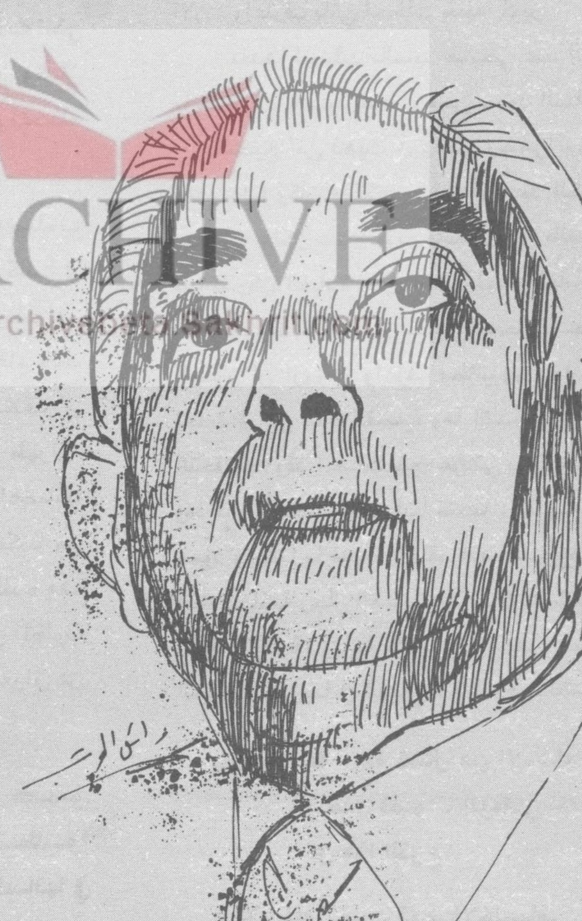
بعدها اتصلت بالسيد صبحي عبد الحميد هاتفياً.. رويت له ما حدثني به السيد عبد الرحمن حمود السامرائي، فاجابني:

«صحيح اني ذهبت في واجب رسمي لرؤية أحد المعتقلين وهو (عمر علي) وكان قد كتب برقية الى عبد الكريم قاسم يطلب فيها مواجهته.. لكن عبد الكريم قاسم رفض طلبه هذا وكلفني بصفتي - ضابط ركن القيادة - ان اذهب لهذه الغاية.. وفعلاً ذهبت. وكان الموقوفون قد ألحوا على مدير السجن بمطاليبهم فرجاني مدير السجن ان ازورهم واعرف مطاليبهم.. وانا اذكر ان عبد الرحمن تحدث لي عن هذه القضية وما أتذكره ان هذه الاوراق كانت في التحقيقات وقد اتصلت حين عودتي بمجيد جليل مدير الامن العام.. وقد قال لي مجيد جليل اننا فتحنا (القاصة) التابعة لعبد الرحمن حمود واخذنا ما فيها، واعتقد انهم سحبوها الى الهيئات التحقيقية اثناء محاكمة رجال العهد البائد اذ كانت ترفق بقضاياهم وتذهب الى القيادة العامة، وربما كانت في أرشيف المحكمة العسكرية العليا الخاصة، او ربما في الدفاع.. لا أدري بالضبط».

● **ألم تسأل عن الاسماء؟! الم تقرأ القائمة؟ الم يأخذك فضولك الوطني للاطلاع على قائمة خطيرة من هذا النوع؟**

- كلا.. لقد أخبرت ذوي الاختصاص.. ولم تكن لي علاقة بهذا الموضوع اذ أن هناك هيئة استشارية مؤلفة بمرسوم جمهوري تختص بذلك الموضوع. كانت تضم حسين محي الدين وعبد الامير العقيلي، وكان عبد الستار عبد اللطيف هو ضابط ركن القيادة.

إتصالات نوري السعيد بدول المحور في عام ١٩٤٠



تقول الانسة بيل، سكرتيرة المندوب السامي البريطاني في بغداد، التي التقت بنوري السعيد لاول مرة بعد عودته الى العراق في خريف عام ١٩٢٠ وتعيينه بمنصب رئيس اركان الجيش في الوزارة النقيبية الاولى عندما كان صهره جعفر العسكري يشغل منصب وزير الدفاع: «في للحظة التي رأيته ادركت بان أمامنا قوة صلدة مرنة، فاما ان نستخدمها او نشغل انفسنا بخلافات صعبة معها..».[1] لذا اصبح نوري السعيد منذ البداية رجل بريطانيا القوي في العراق. وكما يقول ناصر الدين النشاشيبي في كتابه «ماذا جرى في الشرق الاوسط ؟» عن نوري السعيد: «إن الانكليز هم الذين خلقوا نوري السعيد وهم الذين قتلوا نوري السعيد»[2] اذ ربط نوري السعيد مصيره بمصير بريطانيا الى النهاية. وكان نوري السعيد يعتقد بان حركة القومية العربية في حاجة الى العطف والدعم البريطاني، وعلى الرغم من تناقض المصالح العربية والبريطانية بسبب القضية الفلسطينية فقد كان رأي نوري السعيد أن بالامكان تسوية هذه التناقضات، الا انه لم يوضح كيف. وكما اختلف نوري السعيد مع عزيز علي المصري حول موضوع التعاون مع الالمان لتحقيق الحكم الذاتي للعرب ضمن الامبراطورية العثمانية قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى (اذ كان نوري يدافع عن اتباع نهج سياسي ينحاز للبريطانيين) فقد اختلف مع رشيد عالي الكيلاني خلال الحرب العالمية الثانية الذي كان يفضل التعاون مع قوى المحور ضد بريطانيا التي اصيبت بنكسات عسكرية هائلة في سني الحرب الاولى وتعادي تحقيق الاماني العربية في الاستقلال

د. وليد محمد سعيد الاعظمي

والتحرر. واستمرت سياسة نوري السعيد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تسير في اتجاه السياسة الغربية وموالاتها. اذ كان نوري يعتقد بأن الاتحاد السوفيتي والشيوعية يشكلان التهديد الاول للوطن العربي متناسياً الخطر الصهيوني الذي داهم فلسطين. وقد تكلل هذا الترابط المصيري بين نوري السعيد والغرب بسلسلة من الاحلاف انتهت بحلف بغداد في شباط ١٩٥٥، وقد دفع نوري السعيد ثمن صداقته لبريطانيا في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي اودت بحياته.

وتشير الوثائق الخاصة بوزارة الخارجية الالمانية التي تم وضع اليد عليها من قبل القوى العظمى خلال الحرب العالمية الثانية، والتي اصبح بامكان الباحثين الاطلاع عليها، الى أن نوري السعيد قام باتصالات سرية مع ممثلي قوى المحور عندما كان خصومه السياسيون يتفاوضون مع قوى المحور (ويقصد رشيد عالي وناجي شوكت والحاج امين الحسيني مفتي فلسطين) حيث تعد هذه الاتصالات مناقضة للنهج السياسي الموالي لبريطانيا الذي اختطه نوري السعيد لنفسه.

وتشير هذه الوثائق بانه في خلال فصل الخريف من عام ١٩٤٠، عندما كان نوري السعيد يشغل منصب وزير الخارجية في حكومة رشيد عالي الكيلاني، كان القلق والاهتمام يساور الاوساط القومية في العراق بسبب الانتصارات الكاسحة التي كان الالمان يحققونها في جبهات القتال ضد الحلفاء وخاصة بريطانيا، والتفكير بمستقبل العراق السياسي. فدعا بعض زعماء الحركة الوطنية في العراق الى ضرورة التعاون مع قوى المحور وتجاهل معاهدة التحالف البريطانية ـ العراقية لعام ١٩٣٠. وقام الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين الذي وصل العراق في شهر تشرين الاول ١٩٣٩، بتشكيل اللجنة العربية التي بادرت الى اجراء الاتصالات السرية مع العناصر النازية. وكان نوري السعيد نفسه قلقاً على مستقبل العراق واخذ منذ اوائل شهر ايلول ١٩٤٠ يقدم خدماته من اجل التعاون مع العناصر الموالية للمحور. فاجرى اتصالات مع بعض العناصر الفلسطينية في العراق مثل جمال الحسيني وموسى العلمي وطلب ان يعمل معهم ومع المفتي سوية اذا ماتمكن العراق من الحصول على الضمانات اللازمة للاستقلال من قوى المحور. وقد رفض المفتي هذا العرض لعدم اطمئنانه الى نوري السعيد باعتباره احد وكلاء بريطانيا الذين كرسوا خدمتهم وحياتهم لخدمة المصالح البريطانية. وقد فسر المفتي المبادرة التي جاء بها نوري السعيد بانها تهدف لكشف المخططات السرية للمفتي مع قوى المحور لاطلاع الانكليز عليها فيما بعد، وكذلك لمعرفة الوعود التي حصل عليها كل من رشيد عالي الكيلاني والمفتي من قوى المحور.(٢)

وعلى الرغم من اخفاق نوري السعيد في محاولته هذه فانه تحول نحو الوزير الايطالي المفوض في بغداد، غابريلي، فعرض عليه استعداده للتعاون مع ايطاليا. وكان وزير الخارجية الايطالي الكونت تشيانو قد حمل مبادرة نوري السعيد محمل الجد واعتبرها مفيدة لمصالح ايطاليا. الا انه لم تكد تصل اتصالات نوري السعيد بايطاليا الى مسامع الفون بابن، السفير الالماني في انقرة، الذي كان على اتصالات سرية مع مفتي فلسطين الذي يمثل الجانب العربي في المفاوضات السرية، حتى حذر بابن حكومته من اتصالات ايطاليا بنوري السعيد. وفي ١٤ ايلول ١٩٤٠ كتب بابن رسالة الى وزارة الخارجية الالمانية يخبرها بانه على اتصال مع المفتي من خلال وزير العدل العراقي ناجي شوكت الذي اخبره بدوره بان العناصر الوطنية في العراق تعتبر نوري السعيد «خائناً». وحذر السفير الالماني في انقرة حكومته مرة اخرى في ٢ تشرين الاول بان التعاون الايطالي مع نوري السعيد سيسبب خيبة أمل للقوى الوطنية والقومية العربية ولايمكن ان يبقى هذا التفاهم السري مخفياً عن العالم لفترة طويلة بل سينكشف أمره. وقام وزير الخارجية الالماني الفون ريبنتروب بابلاغ هذا التحذير الى وزير الخارجية الايطالي الكونت تشيانو الذي بادر بدوره بالكتابة الى الوزير الايطالي المفوض في بغداد غابريلي بوقف التعامل مع نوري السعيد.(٣)

لم تكن هذه كل القصة لمحاولات نوري السعيد للاتصال باقطاب المحور اذ يبدو ان نوري السعيد قد قام بالاشارة والتلميح لعدد من القادة من بطانة المفتي بانه مستعد للتعاون مع قوى المحور. ففي كانون الاول ١٩٤٠ اشار نوري السعيد الى المفتي بحضور رئيس الوزراء السوري السابق جميل مردم الذي كان انذاك في بغداد بان على العراق ان يسعى للتحالف مع قوى المحور وبأنه مستعد للعمل سوية مع المفتي لتنفيذ مثل هذه السياسة والنهج. فلم يظهر المفتي اي حركة لتشجيع نوري السعيد في مسعاه.

ويقول مجيد خدوري مؤلف كتاب «العراق المستقل» و«العراق الجمهوري»

كلية العلوم السياسية ـ جامعة بغداد

والاستاذ في معهد الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز بانه خلال مقابلته للمفتي في القاهرة في مايس ١٩٥٨ سأله ان يبدي رأيه في ماتضمنته الوثائق الالمانية لوزارة الخارجية الالمانية حول عروض نوري السعيد للتعاون مع قوى المحور فاجاب المفتي مؤكداً هذه العروض التي تقدم بها نوري السعيد وقال بأن اول عرض وصله بهذا الصدد كان من خلال العميد طه الهاشمي. ويقول طه الهاشمي، والكلام للمفتي، بان نوري السعيد مستعد للتعاون اذا ماسمح له المفتي ان يشارك في المفاوضات السرية التي كانت اللجنة العربية العليا تجريها باسم العرب مع قوى المحور. وفي اجابته على طه الهاشمي رد المفتي ناكراً ان تكون هناك مفاوضات سرية مع قوى المحور. واضاف المفتي، خلال المقابلة مع مجيد خدوري، قائلاً بانه ليس من الحكمة الكشف عن طبيعة هذه المفاوضات السرية لطه الهاشمي الذي سيطلع، بدوره، نوري السعيد عليها. ويضيف المفتي قائلاً: ان نوري السعيد شكا له في احدى المرات بعد احدى زياراته لمصر في صيف عام ١٩٤٠ بان الحكومة البريطانية سوف تتعهد او تلتزم بأي شئ يريده العرب لتكسبهم الى جانبها على الرغم من حراجة الموقف العسكري البريطاني في الصحراء الغربية في مصر. لذا فقد أشار نوري السعيد بانه مستعد لأن يبدل موقفه من البريطانيين اذا مارغب المفتي في التعاون معه.(٤)

وعندما قابل مجيد خدوري نوري السعيد في ٧ حزيران ١٩٥٨ قبل مقتله بشهر واحد اراد ان يتأكد من بعض المعلومات المتعلقة باتصالاته بالمفتي بهذا الصدد، ولكي يتجنب الاستاذ خدوري احراج نوري السعيد حول صيغة التعاون التي كان مستعداً لها مع قوى المحور صاغ خدوري السؤال الموجه لنوري كما يلي:

«لقد سمعت بان بعض اصدقاء المفتي حاولوا خلال الحرب الاخيرة ان يصحموا علاقاتكم مع المفتي لكي تتمكنا انت والمفتي من اتباع نفس السياسة الخارجية». فلم ينكر نوري السعيد اتصالاته بالمفتي وبانها لم تقطع وبقيت مستمرة. واضاف بانه غالباً ماكان يتناقش مع المفتي في القضايا العربية الا ان المفتي الذي كان يجري مفاوضات سرية مع المحور رفض ان يكشف طبيعة هذه المفاوضات له. وقال نوري السعيد بانه حاول اصلاح العلاقات بين بريطانيا والمفتي عند قيام العقيد اس. اف. نيوكمب بزيارة بغداد في تموز عام ١٩٤٠ واجراء حوار شبه رسمي مع القادة الفلسطينيين في بغداد. فأظهر المفتي الرغبة في قبول حل القضية الفلسطينية على اساس الكتاب الابيض الذي كان سيضع النهاية للتطلعات الصهيونية في اطلاق الهجرة الى فلسطين. وقد حاول العقيد نيوكمب ان يعرف الحد الادنى من المطالب الفلسطينية التي قد تدرسها الحكومة البريطانية وتقبل بها كاساس لحل القضية الفلسطينية. فتم عقد عدة اجتماعات في وزارة الخارجية العراقية حضرها من بين الشخصيات الفلسطينية جمال الحسيني وموسى العلمي. وتم الاتفاق اخيراً على حل المسألة الفلسطينية وتقديم مقترح بالموضوع للسلطات البريطانية.

وكان الحل يعتمد الكتاب الابيض الاساس في حل المعضلة الفلسطينية وان تتحدد الفترة الانتقالية للدولة الفلسطينية بعشر سنوات. وتم رفع الحل المقترح من قبل رشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد الى مجلس الوزراء العراقي لتصديقه واقراره حيث تم ذلك في شهر آب ١٩٤٠ على ان يقوم العراق بالمقابل باعلان الحرب بشكل رسمي ضد قوى المحور وان يخصص نصف قواته العسكرية (فرقتان عسكريتان) ويضعها تحت تصرف القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الاوسط (القاهرة) للخدمة خارج العراق. ولهذا السبب غادر نوري السعيد العراق الى القاهرة لابلاغ الجنرال ديفل، قائد القوات البريطانية هناك بقرار الحكومة العراقية. وتم عرض الموضوع على حكومة لندن الا ان الجواب لم يأت من الحكومة البريطانية، اذ رفض رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل مقترحات العقيد نيوكمب والمقترح العراقي، ورحب بالمطالب الصهيونية التي كانت تطالب بتسليح اليهود في فلسطين للدفاع عنها ضد قوى المحور. ويقول نوري السعيد بانه منذ تلك اللحظة اصبح موقف القادة العرب معادياً لبريطانيا. ولاشك ان هناك علاقة بين فشل مهمة العقيد نيوكمب في بغداد للنظر في حل القضية الفلسطينية وبين قرار نوري السعيد بفتح الاتصالات السرية مع المحور. اذ بعد ان يئس المفتي ونوري السعيد من وصول دعوة من الحكومة البريطانية لاقامة حكومة فلسطينية مؤقتة في فلسطين ولم يصلهم اي جواب على مقترحات نيوكمب ونوري السعيد، وفي اعقاب زيارته القاهرة لعرض المقترح ورد فعل العراق مقابل خدمة المجهود الحربي البريطاني، بادر نوري السعيد الى الاتصال باحد المقربين للمفتي لاجراء مفاوضات علنية مع قوى المحور رداً



مس بيل



رشيد عالي



ناجي شوكت



امين الحسيني

على نكاية الانكليز وعجرفتهم ولاقرار وحل القضية الفلسطينية بشروط افضل. ويقول موسى العلمي بانه لم يتمكن من القيام بهذه المسؤولية الصعبة واقترح تكليف الامير عادل ارسلان الذي تردّد بدوره في القيام بالمهمة. وبعد فشل نوري في العثور على الشخص المناسب للقيام بالمهمة اتصل نوري السعيد بجمال الحسيني لابلاغ المفتي باستعداده للتعاون مع المحور، الا ان المفتي رفض عرض نوري السعيد. ولايستبعد ان تكون نوايا نوري السعيد مخلصة بهذا الصدد بعد ان اصيب بالخيبة والفشل بسبب تجاهل الحكومة البريطانية مصالح العرب ورفضها عرض الحكومة العراقية في المشاركة في الحرب مقابل الحل المرضي للقضية الفلسطينية. وقد ادرك نوري السعيد بان عدم استعداد بريطانيا لحل القضية الفلسطينية خلال الحرب سيضعف مركزه في العراق وبين اوساط القادة العرب الساخطين على بريطانيا، اذ بدأ يشارك هؤلاء القادة سخطهم على بريطانيا.

ولاشك في ان شكوك المفتي بنوري السعيد تعود الى ايام مؤتمر المائدة المستديرة في لندن حول القضية الفلسطينية في عام ١٩٣٩ حيث ايد كل من نوري السعيد وجمال الحسيني وموسىٰ العلمي وعوني عبد الهادي المقترحات البريطانية الواردة في الكتاب الابيض الذي يعالج قضية فلسطين وفق مصالح بريطانيا الذي رفضه المفتي كما رفض اي تفاهم مع بريطانيا. وقد اعتبر جمال الحسيني والعلمي زعيمهما المفتي عنيداً وصلباً. وبقي موسىٰ العلمي منذ ذلك الحين على اتصال مع نوري السعيد جاعلاً من صهره جمال الحسيني حلقة اتصال بينهما، ولكنه فقد ثقة المفتي الذي لم يعد يكلفه بمهمات تتعلق بالسياسة الخارجية.(٥)

ويقف السفير الالماني في بغداد انذاك الدكتور غروبا موقف المخالف لرأي وشكوك المفتي بصدد نوايا نوري السعيد من الاتصال بقوىٰ المحور وهل كان رداً على موقف بريطانيا السلبي من العرب وقضيتهم الرئيسة، ام انه فعلاً كان يهدف الى الحصول على المعلومات عن موقف المانيا من مسألة استقلال العرب والقضية الفلسطينية ؟ واعتقد اني اخالف رأي المفتي في التشكيك بنوايا نوري السعيد واعتقد انه كان جاداً في تبديل موقفه والتقرب من قوىٰ المحور بعد ان وصل الى طريق مسدود مع بريطانيا بعد افشال مهمة العقيد نيوكمب. ويميل السفير الالماني الى جانب نوري السعيد واهتمامه بمستقبل العراق في محاولاته التقرب من دول المحور. ويضيف السفير الالماني في مذكراته بان نوري السعيد لم يكن مجرد العوبة بيد الانكليز وانما كان يحاول كمواطن عراقي التعاون حتىٰ مع المانيا وايطاليا عندما تستدعي مصلحة العراق ذلك.(٦)

وكان نوري السعيد بصفته وزيراً للخارجية في حكومة رشيد عالي الكيلاني قد وجه كتاباً سرياً الى وزير العراق المفوض لدى تركيا بتاريخ ٨ ايلول ١٩٤٠ مع مجموعة من التعليمات تضمنت مايلي:

«ارجو ان تكونوا على اتصال دائم برجال السلك السياسي جميعهم وبالمراجع الهامة وان تزودونا بما يهم من التطورات في سياسات دولهم المتبعة تجاه سوريا وفلسطين والبلاد العربية الاخرى بصورة عامة، وما يطرأ من عوامل على توجيه تلك السياسات متمنياً لكم النجاح المطرد في مساعيكم لخدمة بلادكم في هذه الظروف».(٧)

وقد ارفق نوري السعيد هذا الكتاب بتعليمات سرية للغاية هذا نصها:

١ ـ اتصلوا مباشرة، او بصورة غير مباشرة، حسبما تقتضي ظروف المصلحة، ولكن على الدوام بشكل لايلفت النظر بسفراء المانيا وروسيا وايطاليا للاطلاع على نوايا دولهم تجاه سورية وفلسطين وبقية البلاد العربية ومقدرات هذه البلاد ومستقبلها.

٢ ـ انتهزوا جميع الفرص الممكنة للتأثير في هؤلاء الممثلين ليقنعوا حكوماتهم بفائدة وضرورة اعلان استقلال الاقطار المشار اليها والاعتراف به وحق اهل البلاد لتقرير مصيرهم.

٣ ـ حرضوا وشجعوا رجال سورية الذين هم على اتصال بكم، ان يتصلوا هم انفسهم بالمراجع المذكورة وان امكن السفر الى عواصم البلاد المذكورة بقصد الحصول على الغايات الملمح اليها على ان تكون الخطة محكمة والاساس موحد.

٤ ـ لاتكتفوا بالاتصال بالممثلين المشار اليهم مرة واحدة، بل استمروا في العمل وانتهزوا كل فرصة ممكنة وزودوا المركز بكل ماتحصلون عليه من النتائج.

٥ ـ ان السفير الافغاني وغيره من الشخصيات التي تتمتع بنفوذ لدى المراجع المشار اليها والذين هم موضع اعتمادكم هم من الوسائل الحسنة لتيسير الاتصال. وكان ناجي شوكت ـ الذي كان انذاك في زيارة لتركيا للاتصال بالسفير الالماني في انقره الفون بابن ـ قد اطلع على رسالة نوري السعيد وسخر منها. وهذا ماأشار اليه شوكت في مذكراته، «سيرة وذكريات ثمانين عاماً»، بان رسالة نوري السعيد هذه كانت تهدف كشف الاسرار التي تحيط باسفار واتصالات ناجي شوكت الى تركيا،(٨) وهي وجهة نظر مفتي فلسطين امين الحسيني صديق ناجي شوكت واحد المقربين اليه في العمل السياسي العربي.

ولاشك في ان تمسك نوري السعيد ببريطانيا كان اعتقاده الدائم وادراكه الاستراتيجي بان النصر حليف بريطانيا في هذه الحرب وبان شهر العسل بين المانيا والاتحاد السوفيتي سوف لايستمر. كما يبدو انه كان واثقاً من دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب بريطانيا وروسيا لتدمير المانيا النازية. يبدو ان هذا الاحساس جعله يعود الى تمسكه ببريطانيا والوقوف الى جانبها، ليتمكن بعد ذلك من ممارسة نفوذه على بريطانيا لحل القضية الفلسطينية بالشكل الذي يرضي مصالح الفلسطينيين العرب ومصالح بريطانيا في المنطقة العربية.

وقد جاءت المبادرة من بريطانيا عندما اعلن

وزير الخارجية البريطاني انطوني ايدن في ٣٠ مايس ١٩٤١ عن ترحيبه بأية مبادرة عربية للوحدة. فاستغل نوري السعيد الفرصة وبادر الى تقديم مقترحاته بصدد الموضوع وبصدد القضية الفلسطينية الى الوزير البريطاني في الشرق الاوسط ريتشارد كيسي.[٩] واصبحت مذكرة نوري السعيد ومقترحاته حول استقلال العرب ووحدتهم اساساً للنقاش والمداولة بين الزعماء العرب خلال فترة الحرب والتي ادت اخيراً الى قيام جامعة الدول العربية ولكنها فشلت في ايجاد حل للمعضلة الفلسطينية.

ولاشك في انه حتى في حالة قبول المفتي التعاون مع نوري السعيد وتشجيعه له للاتصال بقوى المحور فان من المشكوك فيه ان توافق الاوساط المعنية وترتاح الى اتصالات نوري السعيد بها لعلمها المسبق بتورط نوري مع بريطانيا وحلفائها. ولايعتقد بان نوري السعيد سيوافق على ان يكون معاوناً او مساعداً للمفتي في هذا الصدد. ولا يعتقد ايضاً ان المفتي كان سيوافق على التخلي عن موقعه القيادي في القضية العربية لنوري السعيد كما حدث من صراع ونزاع بينه وبين رشيد عالي الكيلاني في منفاهم في المانيا.

ويبدو ان اتصالات نوري السعيد مع قوى المحور جاءت في لحظة ضعف عندما وصل به اليأس الى نقطة اعادة حساباته ومواقفه من البريطانيين وشكك في صدق النهج الذي اختطه لنفسه بربط مصيره ومصير بلاده بالعجلة البريطانية، لذا قرر التحول الى الالمان وسلوك الطريق البديل. لكن اموراً حالت دون تحقيق امانيه في مبادلة الحصان البريطاني بالحصان الالماني، منها عدم رغبة المفتي في التعاون مع نوري السعيد وتشككه بنواياه. ولايستبعد انه لو كان الانكليز قد علموا بمحاولات نوري السعيد للاتصال بالمحور لقدموا شروطاً افضل لحل القضية الفلسطينية اولكانوا قد قبلوا بمقترحات بعثة العقيد نيوكمب التي اجتمعت في بغداد.

واخيراً، بعد انكشاف سر الاتصالات التي كانت حكومة رشيد عالي الكيلاني تقوم بها مع دول المحور، بادرت الحكومة البريطانية الى الطلب من سفيرها في بغداد السير بازل نيوتن الاتصال بالوصي على عرش العراق عبد الاله ليطلب من رشيد عالي تقديم استقالته. آنذاك بادر نوري السعيد الى تقديم مذكرة الى رئيس الوزراء مؤرخة في ١٥ كانون الاول ١٩٤٠ يشير فيها الى انعدام التضامن والصراحة بين اعضاء الحكومة الكيلانية. والذي آزر نوري السعيد وشجعه على التمسك بآرائه ومواقفه من معسكر الحلفاء موقف الولايات المتحدة وطلبها من الحكومة العراقية ان تشدّ من ازر بريطانيا في الحرب لان خسارة بريطانيا في الحرب تؤدي الى فقدان العراق استقلاله، على حد قول الوزير المفوض الاميركي في بغداد.[١٠] اذ كان وقع ذلك على نوري السعيد كبيراً. كما اشار نوري السعيد في مذكرته هذه الى فكرة ارسال وفد عربي الى الولايات المتحدة لشرح القضية الفلسطينية والقضية السورية. وكان نوري السعيد قد رفض في احد الاجتماعات السرية التي عقدها رئيس الوزراء، رشيد عالي الكيلاني، لمناقشة مسألة اعادة علاقات العراق الدبلوماسية مع المانيا، المقترح الذي تقدم به الكيلاني لاعادة العلاقات، وطالب بالتمسك بصداقة بريطانيا. فبادر الوزراء الذين كانوا يميلون الى تأييد المحور ضد الحلفاء الى اتهامه بالخيانة مما حمل نوري السعيد على الانسحاب من الاجتماع والتفكير بتقديم استقالته بعد فشله في احتواء العقداء الاربعة: العقيد الركن صلاح الدين الصباغ، وكامل شبيب، ومحمود وسلمان وفهمي سعيد، بالاضافة الى يونس السبعاوي، والمفتي. ثم اخذ نوري السعيد يقاطع اجتماعات وزارة الكيلاني حتى انتهت مقاطعته بتقديم استقالته من حكومة الكيلاني في ١٩ كانون الثاني ١٩٤١.

المصادر

العربية

١ - احمد فوزي، ١٢ رئيس وزراء. بغداد ١٩٨٤.

٢ - د. فريتز غروبا، رجال ومراكز قوى في بلاد الشرق، بغداد، ١٩٧٩ ترجمة فاروق الحريري.

٣ - عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، جـ ٥، الطبعة السابعة بغداد، ١٩٨٨، دار الشؤون الثقافية.

٤ - ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عاماً، بيروت ١٩٧٧، ط ٣.

٥ - نوري السعيد، استقلال العرب ووحدتهم، بغداد، ١٩٤٣.

الاجنبية

6 — Fo371 / 27068

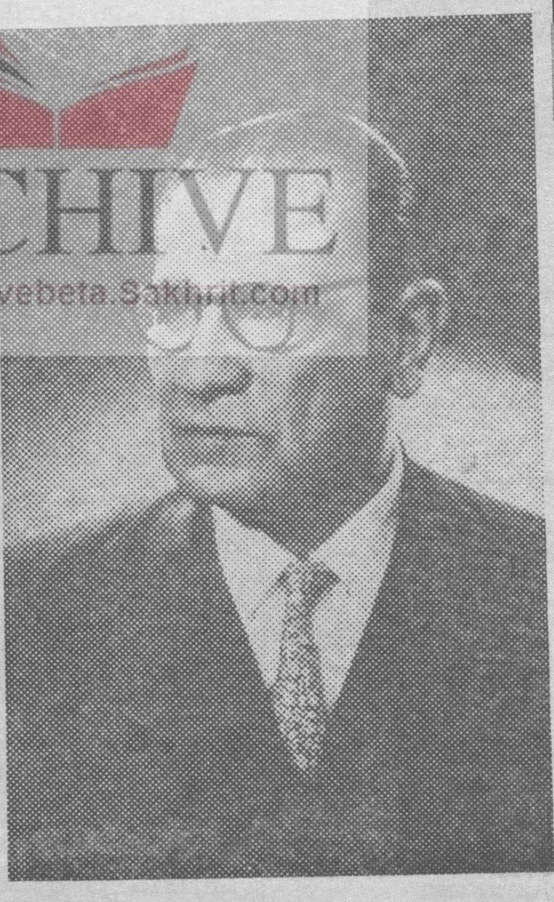
7 — LADY Bell, The Letters of G. Bell Vol. 2 London 1929.

8 — Majid Khadduri, Independent Iraq 2nd ed. (Oxford Umiversity, London 1960).

9 — 10Majid Khadduri, (General Nuris Flirtations With The Axis Powers, Middle East Journal Vol. XVI Summer 1962.

بين الجادرجي والرصافي

معروف الرصافي وكامل الچارچي ، من اعلام الحركة الوطنية في تاريخ العراق المعاصر . اشتغل الأول بالشعر واللغة ، وأنصرف الثاني الى شؤون السياسة لكنهما اشتركا في الاهتمام بمصير الوطن والاحداث المصيرية التي عصفت به . في اوقات مختلفة من العام ١٩٤٤ دارت بينهما حوارات متصلة ، قصد الاستاذ الچادرچي منها اضاءة جوانب ظلت مجهولة او معتمة من حياة المرحوم الرصافي وتوثيقها خشية ضياعها وضياع الحقيقة بوفاته ، إذ كان الرصافي آنذاك يكابد المرض والهزال .



من خلال هذه الحوادث تبدو شخصية الرصافي الفذة وآراؤه الطريفة ومواقفه الشجاعة ، كما يبدو زهده واباؤه وصدقه وقدراته الشخصية الخاصة . وآفاق عربية حريصة على فتح مثل هذه الصفحات المطوية وتقديمها لقرائها في نطاق عنايتها بتاريخ العراق الحديث وباعلامه .

ويحتفظ المجمع العلمي العراقي بأصل هذه الوثيقة التي اهداها اليه الاستاذ كامل الچادرچي وقصد منها حفظ تاريخ الشاعر الوطني معروف الرصافي (رحمهما الله).

«آفاق عربية»

■ الرصافي بعيدا عن الشعر
■ همومه الوطنية
■ حياته بين بغداد والاستانة والقدس
■ انتخابه نائبا في البرلمان



الجادرچي :لااظنكم تذكرون يااستاذ ان عهدي بمعرفتكم يرجع الى حوالي ال ٣٥ سنة حينما كنتم تدرسون قواعد اللغة العربية في مدرسة «الاعدادي الملكي» . فانا اذكر انكم كنتم اكثر المدرسين هيبة بالنسبة الينا نحن التلاميذ . فكنتم تتخطون في صالة الدرس وكأنكم غارقون في بحر من التفكير وكان يبدو لي على ماأذكر انكم كنتم في غير وادينا واذا كنت لااذكر شيئا عن الدروس التي تلقيناها منكم فاني لاانسى ابدا اهتمامكم وعنايتكم الخاصة بصدق التلاميذ ، والحقيقة ، مقتكم للكذب . فلا أنسى ثورتكم في يوم من الايام على أحدنا لكذبة بسيطة لاتخرج عن المألوف في عرف التلاميذ فخرجتم عن طوركم فصفعتموه صفعة قوية كان صداها لايزال يرن في تلك القاعة . وقد مرت السنوات الطوال وأنا اتعقبكم فتغير كل شيء فيكم ، تغيرت بنيتكم المشيقة الى ضخمة وتغير زيكم «العلمي» الملائي ـ العمامة والجلباب ـ الى زي «افندي» على آخر طراز ثم الى زي عربي كما هو الآن . تغيرت كل مظاهركم الاشيئا واحدا هو تعصبكم الشديد ضد الكذب . فاذا سمحتم لي واخبرتموني من الذي غرس في نفسيتكم هذه الفضيلة وان شئت فقل هذه العادة او هذا الطبع ، لانني اعتقد يااستاذ ان هذا النوع من الطباع ليس له علاقة بغرائز الانسان وانما تلقن بشتى الطرق المباشرة منها وغير المباشرة ، اذ لم تكن المدارس في ذلك الحين عامة.فالتربية فيها كانت غير موحدة كما تعلمون . أمن المدرسة أم من بيئتكم الخاصة تسلّمتم هذا المشعل ، مشعل الصدق ، ومن الذي سلمه لكم ؟

الرصافي :انا لااتذكر في ايام صباي لافي البيت الذي نشأت فيه ولا في المدرسة ان شخصا ذم الكذب امامي او نهاني عنه سوى ماكنت اسمعه من الناس اذا تشاتموا يقول احدهم للآخر انك « كذاب» .فكنت اشعر بذلك ان الكذب قبيح وممقوت ، هذا في أيام صباي وأنا دون البلوغ ثم لما قرأنا القرآن في الكتاتيب وأخذنا نؤدي احيانا الفروض الدينية كالصيام والصلاة ونتردد الى المساجد لاستماع الواعظين او الخطباء فكان ذلك له تأثير في نفوسنا وماعدا ذلك لم اتذكر شيئا خاصا أو مؤثرا خاصا كرّهني الكذب سوى اني كنت اشعر عندما اقرأ ما في القرآن او اسمع واعظا كنت اشعر ان الكذب قبيح ولا اتذكر لماذا كنت اعتقد بذلك ، ولهذا اعتقد ان



الجادرجي



الرصافي

المسائل الاخلاقية لها ارتباط ظاهر بالجبلة الانسانية والجبلة لابد ان تكون موروثة عن الاجيال القديمة قد يمت فيها الشخص الى جد اعلى يجوز ان يكون الشخص كذابا وابوه صادقاً والعكس بالعكس .

الجادرجي : الانسان ياسيدي يرث عن أبويه بعض الصفات البنيوية وهي من دون شك لها علاقة بقوة اعصابه وقابليته للتحمل وهي لها علاقة وثيقة بتكوين الغدد . فقد يرث الانسان الخوف وبالمعنى العلمي قد يرث الضعف في الاعصاب ونقصا بينا في تكوين بعض الغدد التي لها علاقة بالخوف والجرأة . وهذه الصفات بنظري لاتشبه قضية الكذب . لان الكذب لم يكن منشؤه سببا بنيويا او ما ماثل ذلك من الامور الموروثة وانما هنالك أمور تخص التربية اكثر من اي شيء آخر . وبهذا الاعتبار يجب ان نتحرى ذلك في المحيط او البيئة او المدرسة التي نشأتم فيها .

فهل تسمحون لي أن تبينوا شيئا عن نشأتكم ؟

الرصافي :ولدت في بغداد في بيت يقع في محلة القراغول يدعى بيت جاسم القراغولي الذي هو والد والدتي . اما ابي فكان حسب ماأذكر عريفا في الدرك الذي كان يسمى الجندرمة . ولما كان ابي دائما في الوظيفة كان اتصالي به قليلا جداً فوالدتي هي التي تعهدت نشأتي .

(وعلى سؤال آخر عن اسم ابيه وامه اجاب الرصافي ان اسم ابيه عبد الغني محمود واسم امه فاطمه بنت جاسم القراغولي)

ولدت وعشت فقيراً ، اشعر بضنك العيش ، فيصادف ان طعامنا لم يكن غير الخبز والخيار.

الجادرجي :في أية سنة ولدتم ؟

الرصافي :حسب تذكرة النفوس التي كانت تدعى «بالعثمانية» إنّي ولدت في سنة ١٢٩١ هجري وذلك ماكان يدعى بالتاريخ الرومي . ولكن اعتقد ان هذا التاريخ مغلوط لأني سمعت من والدتي تقول ان عمري كان تسعة اشهر لما اعلن الجهاد وتقصد بالجهاد حرب الدولة العثمانية مع روسيا . وهذه الحرب التي ذكرتها والدتي وقعت في سنة ١٢٩٣ كما تعلمون فيكون تولدي الصحيح اما في هذه السنة او في سنة ١٢٩٢ واعتقد ان الرقم الاخير هو الاصح .

كانت والدتي دائما تحب ان تراني اذهب الى المدرسة ولا اعلم السبب لهذا الدافع مع ان البيئة التي كنا نعيش فيها لم تكن توحي ذلك لانها كانت بيئة فقراء واصحاب صنائع.فاولاد خالي الذين كانوا يعيشون معنا في البيت كانوا صناعا في سوق الاحذية «اليمنيات»

فارسلتني والدتي الى اول مدرسة قريبة من دارنا وكانت القائمة بالتدريس في هذه المدرسة امرأة لاأتذكر اسمها حتى ولا صورتها لأني أُرسلت مبكراً جداً الى هذا المكتب والظن الغالب اني كنت في الثالثة من عمري ولا اتذكر اني تعلمت شيئا في هذا «الكتّاب» وبعد ذلك انتقلت الى مدرسة في الحيدرخانة كانت تدعى مدرسة «الملابايز». وهي بالحقيقة عبارة عن ساحة مسقوفة في جانب منها يجلس الملا بايز «وهو شيخ كبير في رأسه عمامة» ونحن التلاميذ مبثوثون في تلك الساحة نجلس على الحصير ولدى كل واحد منا كتابه في حجره وبما ان الملا المذكور كان عاجزاً عن القيام فقد وضع بجانبه قصبة طويلة مثل الرمح . وكلما كان يريد تأديب احدنا مد اليه القصبة . وقد تعلمت الحروف الهجائية في تلك المدرسة بكتاب يدعى « جزء يافتاح » فأكملت هذا الجزء الذي لم يكن يحتوى على غير الحروف الهجائية . ثم انتقلت الى مدرسة في محلة الميدان تدعى «منيف افندي». ومنيف افندي هذا كان موظفاً لدى الحكومة بوظيفة كتابية وكان يأتي كل يوم الى المدرسة فيكتب الى التلاميذ الذين يكتبون سطراً نموذجياً يدعى بالمشق وهذا السطر ينقسم الى قسمين قسم بالقلم الثلثي وهو يشتمل على كتابة الحروف الهجائية والقلم النسخي يشتمل على سطر نموذجي باللغة التركية يمشق عليه التلميذ حتى يملأ تلك الصحيفة . هذه هي وظيفة منيف افندي في المدرسة. وهنالك شخص آخر في المدرسة يدعى السيد احمد وكان اعرج وهو المدرس الدائم في المدرسة فكان هذا يدرسنا القرآن. وقد اتممت القرآن أي «ختمته» في هذه المدرسة ولما أنهيتها كان عمري حوالي تسع أو عشر سنين او اقل من ذلك . فعلى كل حال كان عمري حينما انتهيت من هذه المدرسة دون العاشرة

الچادرچي :فهل كان لهذين المدرسين تأثير في شخصكم ؟ اي هل تأثرتم شخصياً بهذين المدرسين ؟

الرصافي :لم يكن لي اتصال بهذين المدرسين اتصالا مباشرا لان الذي كان يدرسني هو احد التلاميذ وهو متقدم علي في الدروس ولا أذكر اني قرأت شيئا على يد السيد احمد مباشرة الا يوما واحدا وهو يوم ختمي للقرآن فجلست امامه والقرآن على الرحلة امامي وقرأت آية من سورة البقرة وهي الآية التي فيها «ختم الله على قلوبهم ...» فلما وصلت الى تعبير « ختم الله على قلوبهم ...» انهالت أيدي التلاميذ على رأسي وأخذوا منه الطاقية وذهبوا بها ركضا الى والدتي اشارة الى اني ختمت القرآن .

ثم ذهبت الى مدرسة الحاج حسن الافغاني الكائنة في مسجد نجيب الدين فهذه المدرسة كان فيها شيء من الانتظام وهي تحتوي على ساحة كبيرة مظللة بالحصران كالسقيفة. وفي هذه المدرسة ان التلاميذ لم يكونوا يجلسون على الاراضي كالمدارس الاخرى بل كانوا يجلسون على تخوت شبيهة «بالرحلات» التي تستعمل في المدارس الآن. فكنا جميعاً نجلس على هذه التخوت وكل واحد منا قد وضع القرآن امامه مفتوحا والحاج حسن يقف امام الصفوف وبيده القرآن ايضا ويقرأ بصوت عال ونحن نتبعه باصوات عالية ايضا. فالمار بالطريق كان يسمع ضجيج التلاميذ في القراءة الا ان التلاميذ كانوا يقرأون بلهجة واحدة وبصوت واحد. اما الدرس الثاني في هذه المدرسة فكان الكتابة اذ كان مع الحاج حسن رجل آخر يدعى «الخلفة» وهذا يقوم بتعليمنا الكتابة يكتب لنا سطوراً فيعطي لكل تلميذ سطرا للمشق للكتابة عليه . وكان احيانا يملي علينا بعض الحكم والامثال ونحن نكتبها وبعد الكتابة كان يصحح لنا فردا فردا ماكتبناه .

وهذه المدرسة كانت مخرجا للمدرسة الرشدية العسكرية . وعلى هذا الاساس تخرجت في هذه المدرسة مع ٢٠ تلميذا تقريباً وذهبنا الى المدرسة الرشدية العسكرية فامتحنونا بالقراءة والكتابة فقط واكثرنا نجح وكنت انا من الناجحين فدخلت المدرسة الرشدية وكان عمري حوالي الاحدى عشرة سنة تقريباً.

ودخولنا في هذه المدرسة كان بالنسبة لنا حياة جديدة. فالملبس كان يختلف فيها عن المدارس الاهلية كمدرسة الحاج حسن حيث هناك الازياء كانت مختلفة واهلية. اما في المدرسة فكانت الازياء موحدة وهي عبارة عن البدلة الافرنجية مع الطربوش .

اما الاحساس الذي غمرنا نحن ووالدتي فكان عظيماً اذ ان والدتي فرحت فرحاً عظيما لدخولي مدرسة حكومية ولان زيي اصبح زي الافندي وانا ايضا شعرت بسرور عظيم لهذا التغيير في مجرى حياتي . وهذه المدرسة كانت تحتوي على اربعة صفوف. فنحن دخلنا في الصف الاول بطبيعة الحال وكان التدريس فيها بسيطا فهو عبارة عن قراءة واملاء وكتاب ديني يدعى «علم الحال» وشيء بسيط من الحساب لايتجاوز الاعمال الاربعة كالجمع والطرح والضرب والتقسيم . وكتاب آخر يقوم مقام القراءة يدعى «اسماء تركية» .

وفي هذه المدرسة كان التدريس في اللغة التركية واغرب شيء مر علي في هذه المدرسة هو ماشعرت به بعد خروجي من المدرسة من التعجب لنجاحي في صفوف المدرسة الاربعة واجتيازي الامتحانات سنة بعد اخرى مع اني كنت اجهل اللغة التركية الاشيئا قليلا منهـا فكنت اتعجب من نجاحي ولكني كنت ازيل هذا التعجب لاني كنت احفظ الدروس واجتاز بها الامتحان حفظا فكان النجاح يستند الى الحفظ لا الى الفهم .

وكنت امقت هذه المدرسة مقتا شديدا لانها كانت تـابعة الى نظام شديد كل الشدة.فالتلميذ لم يتمكن من ان يشغل نفسه بشيء خارج عن الدرس مطلقا، وهذا النظام لم نألفه في المدارس الاهلية السابقة . والحقيقة كان احد المعلمين ، و يـدعى سعيد العـزاوي، شديدا جدا فكان يضربني ضربا مبرحاً ولهذه الاسباب كنا نحن التلاميذ نفرح فرحا لامثيل له عند خروجنا يوم الخميس من المدرسة لأنا لانعود اليها في الغد كما اننا كنا نشعر بغم وحزن مساء الجمعة لاننا كنا مقبلين على السبت الذي فيه نذهب الى المدرسة.سقطت في الصف الثالث من هذه المدرسة وقد رسبت في درس الحساب،ذلك العلم الذي لم اتعلمه حتى الان.ولهذا السبب خرجت من المدرسة المذكورة والتحقت باحدى المدارس العلمية وكانت وقتئذ في الجوامع وهي مدرسة الحيدرخانة التي كان يقـوم بالتـدريس فيها شكـري افندي الالوسي . اما كيف التحقت بهذه المدرسة ومن الذي ارشدني اليها فلا اتذكر ذلك مطلقاً وعندما دخلت في هذه المدرسة كان عمري حوالي ١٢ سنة ولم اكن اعرف من اللغة العربية شيئا عدا قـراءة القرآن الذي تعلمته في الكتاتيب . وقد تركت الزي القديم اي زي (الافندية) ولبست العمامة والعباءة حسب ماكـان يتطلب الوضـع آنذاك واول كتاب درسته في هذه المدرسة هو كتاب (الاجرومية) وقد احالني الاستاذ شكري على تلميذ متقدم لتدريس هذا الكتاب وبعد اتمام هذا الكتاب كان يوجد شرح يسمى شرح خالد.فهذا ايضـا بدأت بدراسته على ذلك التلميذ ـ الذي لم اذكر اسمه ـ وبعد مدة قليلة اخذ شكري افندي نفسه يدرسني مباشرة . ولما اتممت هذا الكتاب صرت اشـعر ان شكري افندي اخذ يعتني بي اعتناءً خاصاً لما صرت اقرأ عليه كتاب «قطر الندى» لابن هشام وهذا الكتاب فيه متن وشرح وكان التلميذ الذي يدرسه يجبر على ان يحفظ متنه وكنت احفظ متن هذا الكتاب ولم اتعلم مبادىء العربية الا عن طريق هذا الكتاب.واني ارى الآن ان هذا الكتاب هو احسن كتاب يبدأ به لتعليم النحو وترك الاجرومية . فصار شكري افنـدي الآلوسي يستبقيني فيؤخرني عن بقية التلاميـذ وذلك لغايـة التطويـل معي في الدرس والاعتناء بي اعتناء خاصا وكان قبل البدء في الدرس يأمرني بقراءة الدرس السابق على الحفظ وكان يعتني بتفهيمي على الرغم من كونه عصبي المزاج وقد كان يكرر علي الدرس عندما يستعصي علي فهمه . ولما انتهيت من هذا الكتاب كانت العادة الجارية في المدارس هي أن يقرأوا (شرح الفاكهي) لمتن قطر الندى وبعد الفاكهي يدرسون ألفية ابن مالك . اما انا فلم اتقيد بذلك.بدأت رأسا بألفية ابن مالك وكان ذلك بموافقة شكري افندي وكان يتشدد علي في حفظ الالفية اكثر من قطر الندى وكنت اذا لم احفظ الدرس جيداً يمتنع عن تدريسي في ذلك اليوم . وكان شكري افندي يعطيني بعض كتب الشواهد في اثناء درس الالفية للمطالعة ولفهم الشواهد التي ترد في السيوطي ولهذا السبب صرت احفظ من الشعر العربي شيئا كثيراً بهذه الواسطة حتى ان شكري افندي سماني مرة ـ وكان يـدرس احد التـلاميذ وصادف ان تكلم عن بيت من الشعر من ابيات الشواهد- «الشواهد» شخصياً ،وكان يقصد بذلك اتقاني لهذه الاشعار، اذ كان قد سألني عن بيت من الشعر جاء في الشواهد وعما قبله من ابيات وعما بعده وعن قائله فاجبت جواباً صحيحاً وكان هذا الجد مني في الدرس يشجع الاستاذ الآلوسي في مثابرته على الاعتناء بي وقد اصبح معجباً بي وهذا كان يشجعني على مثابرة الدرس وتذوقه وما كدت اصل الى حفظ نصف الالفية حتى صرت اقلد ابيات الالفية فأنظم ابياتاً من الرجز مثلها .

كنت في اول الامر ادرس في الحيدرخانة وكنت اسكن في غرفة من غرف جامع الخاتـون ، وبينما كنت في الدرس يـوماً في جـامع الحيدرخانة أُخبرت بأن الغرفة التي كنت اسكن فيها قد احترقت فذهبت حالاً ووجدتها محترقة . وكـان لي فيها بعض الكتب وكـان يوجد فيها ايضا كتب تعود الى السيد شكري الآلوسي . اما وقوع الحريق في هذه الغرفة فقد اوقعه المدرس في ذلك الجامع المدعو جعفر افندي الواعظ وهذا المدرس كان يتضايق من وجودي .. ومن جملة الاشياء التي احترقت دفتر يحتوي على اوائل شعري التي لاأذكر منها شيئا مطلقا وكان من جملة الاشياء التي احترقت كتاب يعود الى شكري افندي وهو كتاب الشواهد.وبعد هذه الحـادثة انتقلت الى

جامع الحيدرخانة واخذت هناك غرفة للسكنى ، فصرت أدرس في جامع الحيدرخانة واسكن فيه في الوقت نفسه . اما في هذا الجامع فلم اقض اكثر الليالي فيه بل اذهب الى دارنا وهناك ابيت في دار والدتي لان غرف جامع الحيدرخانة لم تكن صحية كما كانت غرفتي في جامع الخاتون .

وقبل ان انتهي من دراسة الالفية باشرت بدراسة كتاب (مغني اللبيب) على الشيخ عباس القصاب في جامع الشيخ صندل في جانب الكرخ بينما كنت اواصل الدرس في الوقت عينه لدى الاستاذ شكري افندي الآلوسي وهو كتاب السيوطي . وفي الوقت عينه ايضا كنت ادرس بعض كتب الفقه عند عبد الوهاب افندي النائب في جامع الخاتون الكبير الواقع في محلة عباس افندي او قنبر علي وكنت متصلاً بشكري افندي اكثر من جميع هؤلاء المدرسين وكنت ملازماً له في اكثر اوقاته فلم اكتف باتصالي به في الجامع بل كنت اذهب الى داره واجلس مع الجالسين في مجلسه اما اتصالي ببقية المدرسين فكان في وقت الدرس فقط .

الجادرجي : من اي مدرس استفدتم اكثر من غيره ؟

الرصافي : من شكري افندي الآلوسي طبعاً لانه كان يعطيني كل فرصة لاجل الاستفادة منه فلم يكن يضجر من سؤالاتي واستفهاماتي المتكررة . والحق كان شكري افندي من المتضلعين في العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وبيان وعروض وغير ذلك من العلوم العربية .

الجادرجي : هل استفدتم منه في نظم الشعر؟

الرصافي :لم استفد منه في النظم غير انه كان يشجعني على الشعر حتى اذكر يوماً اني قد نظمت مقطوعة صغيرة في مدحه ولكن لم اذكر فيها اسمه ولما انشدته اياها سر بها وصار يبين لي طريقة الشعراء في ذكر اسم المدوح واورد لي امثلة من الشعر مما يسمى بحسن التخلص .

الجادرجي : من الذي حبب اليكم الشعر ؟

الرصافي :لااذكر ان شخصاً في بداية الامر حبب لي الشعر . وقد سبق ان قلت لكم بأني بدأت بالنظم بتقليد الالفية في نظم بعض الابيات من الرجز وكان عمري حينئذ لايتجاوز ال ١٥ سنة وقد بقيت مدة من الزمن انظم الشعر ولااقصد في اظهاره على الناس ولكن بعد سنتين او ثلاث او اكثر قليلا عندما بلغ عمري ١٨ عاما صرت انظم بعض القصائد وكنت اعجب بها فصرت اطلع الناس عليها من اصدقائي ولم يكن بينهم من هو اكثر مني فهما للشعر. وكان في هذه القصائد شيء من المديح للاصدقاء وفيها غزل وفيها مقطوعة أخرى. ويوجد في ديواني الاخير بعض هذه المقطوعات واكثرها من الغزل كالمقطوعة التي تبدأ في :

اسمعي لي قبل الرحيل كلاما ودعيني اموت فيك غراما

الجادرجي : اي شعر كنتم تفضلون مطالعته او دراسته في تلك الايام ؟

الرصافي :كنت الازم ديوانين اثنين:المتنبي والمعري واقصد اللزوميات من المعري . واذكر لكم شيئا غريبا في هذا الصدد . اذ مع ان ديوان المتنبي المطبوع كان لديّ اخذت استنسخه بخطي ولا اتذكر باني اكملته . اما لماذا قمت بهذا العمل فلا اعلم ذلك بالضبط . والراجح انه كان لشدة اعجابي به . وكنت آخذ من شكري افندي بعض الكتب فاخذت منه خزانة الادب الكبرى والعقد الفريد وغيرها من الكتب. فأقرأها واعيدها اليه بعد قراءتها وكنت انتفع من مكتبة شكري اذ اني لااملك كتبا .

الجادرجي : من الذي كنتم تعرضون شعركم عليه للنقد ؟

الرصافي :كنت اقرأ للسيد شكري افندي بعض شعري وكان يرشدني من حيث اللغة والاعراب وغير ذلك . اما الآخرون الذين كنت اقرأ شعري عليهم فكانوا اقل مني من حيث اللغة لذلك لم اكن استفيد منهم . وهنا اود ان اذكر لكم حادثة طريفة وقعت لي مع مسعود افندي اخ شكري افندي الآلوسي ، فكنت اتصل به دائما لانه كان يسكن الجامع مثلي . وفي يوم من الايام قرأت عليه بيتا من الشعر فاعجب به وكتبه وبعد كتابته سألني عن قائله فلما قلت له انا الذي نظمته ازدراه ومزق الورقة ورماها على الارض فتأثرت كثيراً من هذا الحادث لكن لم اظهر له تأثري . وبعد ايام نظمت بعض الابيات فقرأتها عليه وقلت له هذا من شعر المتنبي فاعجب بها وكتبها وبعد ذلك اخبرته انها لي فلم يقل شيئا . فقلت له هذه الجملة التي لاانساها مطلقاً (انت ممن يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق) وكنت في هذا الدور في سن تجاوزت العشرين عاما.وهكذا استمررت على الدراسة حتى سن الخامسة والعشرين ادرس العلوم العربية التي تقرأ في المدارس الدينية وبذلك أكون قد درست العلوم الآتية : الصرف والنحو والبلاغة والبيان والعروض وكتب العقائد والكلام

وأصول الفقه والحساب ايضا في المدارس الدينية.وبعد ان اكملت دروسي في المدارس الدينية وتجاوز عمري حسب ما اذكر خمسة وعشرين عاما ،عينت معلما لاول مرة في مدرسة الراشدية وهي قرية تقع شمالي بغداد على بعد عشرة كيلومترات من بغداد،فبقيت هناك سنة واحدة تقريبا ثم عينت معلما ثانيا في مدرسة ابتدائية تدعى مدرسة جامع علي افندي.وبعد ان بقيت في هذه المدرسة اقل من سنة شغرت وظيفة تعليمية في مندلي فقدمت امتحانا فنجحت ولكن كان من جملة المطالبين بها رجل من سكان مندلي ،فعين نتيجة التوسط ولكن الوالي لم يشأ ان يحرمني من وظيفة مماثلة لها فأمر مدير المعارف ان يجد لي مجلا فاقترح تعييني معلما للغة العربية في مدرسة الاعدادي الملكي فعينت بتلك الوظيفة وكان ذلك حوالي ثلاث سنوات قبل الانقلاب العثماني . وتعييني في هذه المدرسة يعتبر حياة جديدة بالنسبة لي لاني صرت اختلط مع الناس بينما كنت منعزلا في الجامع .

★ علاقته بجميل صدقي الزهاوي

وفي هذه الفترة من تاريخ حياتي التي قضيتها في التدريس في الاعدادي الملكي وهي لاتتجاوز ثلاث سنوات صرت ابعث قطعا من شعري الى مجلة «المقتبس» التي كانت تصدر في مصر لصاحبها محمد كرد علي وكان يحرر في جريدة المؤيد اليومية ايضا فصرت انا والاستاذ جميل صدقي الزهاوي نرسل قطعا من شعرنا فينشره في المجلة . وفي بعض الاحيان في جريدة المؤيد للشيخ علي يوسف ايضا .

ويظهر ان الاستاذ كرد علي كان معجبا بشعري فنشر قصيدتي في محل بارز من مجلته بعنوان «اكبر الشعر» وكانت المقطوعة «اليتيم في العيد» ويظهر ان الزهاوي اغتاظ من ذلك فبعد اطلاعه على هذا النشر انقطع عني وصار لايكلمني ولا يواجهني مدة من الزمن .

الجادرجي : هل تأثر تم بشعر الزهاوي بوقته ؟

الرصافي :لم اتأثر بشعر الزهاوي مطلقا لاني لم اكن ارتضيه وكنت اجد في شعره بعض الاغلاط النحوية واللغوية وكنت أنبهه الى ذلك . وكانت هذه القصائد تصل الى اميركا في ذلك الوقت وكان في اميركا جريدة لصاحبها نعوم البعلبكي اللبناني وكان يقتبس هذه القصائد وينشرها في جريدته (المناظر) فكتب يوما يقول: ان معروف الرصافي اسم مستعار لاسم حقيقي.واورد أدلة على ذلك منها انه لايمكن في البلاد العثمانية ان يقوم رجل وينشر هذه القصائد وتتركه الحكومة وشأنه ولاتعمل له شيئا.فكتب محمد كرد علي كتابا خاصا الى صاحب المناظر يقول له فيه:انك مخطىء لان معروف الرصافي رجل حقيقي ولنا معه مكاتبات وهو في بغداد.فنشر البعلبكي هذا الكتاب في جريدة وعلق عليه بأنا لانسلم لمحمد كرد علي هذا القول مالم ينقض الدليل الذي اقمناه على ادعائنا . فكرد علي ارسل الي هذه القطعة فكتب الي:أن يافلان اترك هذا الرجل وما يقول لان الرجل يخدمنا من هذه الناحية.لماذا ننبه الحكومة على ان هذا الاسم حقيقي فهذا قد يسبب اضطهادنا.ثم كتب كرد علي مقالا افتتاحيا في جريدة المؤيد تكلم فيه اولا عني ثم عن الزهاوي.فاغتاظ الزهاوي من ذلك ايضا واخذ يجادلني ثم انقطع عن الكلام معي مدة تقارب ستة أشهر . وبمناسبة ذكر الزهاوي وحالته معي اذكر لكم واقعة وان كانت متأخرة اي انها لم تحدث في ذلك الوقت وكانت الواقعة حوالي سنة ١٩٢٥.أخذ يتكلم عني الزهاوي في كثير من المجالس بأني اجهل العلوم العصرية . وهذا الكلام كان ينقل الي فكنت اقول لهؤلاء الناس:انا والزهاوي قد تخرجنا في مدرسة واحدة وهي المدارس العلمية الدينية التي كانت موجودة في بغداد ،ولم يكن غيرها وقتئذ فاذا كان هو قد تعلم العلوم العصرية من المجلات كالمقتطف وغيرها فانا أيضا اطالع هذه المجلات فما الفرق بيني وبينه ؟

ثم لما تمادى على هذا الكلام في مجالسه اجبته بهذه الابيات :

قل للزهاوي اني كنت لاقيه
مقالة كان منها بادي الحذر
فصرت علامة الدنيا وواحدها
وصرت في كل علم جد مقتدر
وتلك معجزة في طي مخزية
لم يعطها قط الا انت من بشر
فأن اتيت بدعوى العلم فارغة
فما اتيت بشيء غير منتظر

قال الاستاذ انه فاتني ان اذكر لكم نبذة عن تاريخ حياتي في جامع الخاتون . كنت متدينا جدا وكثيرا ماكنت اترك غرفتي وانزل الى المصلى ليلا وابقى اصلي في بعض الاحيان طوال الليل.وكانت تعتريني حالات غريبة فأبكي بكاءا متواصلا بعد الصلاة . وهنا اود ان اشير الى طرف من حياتي ومناسباتي مع الاشخاص حينذاك.كان

يوجد شخص يدعى مخلص بك ، وظيفته طابور اغاسي وهو ضابط جندرمة (درك) . وكان له ولد يسمى رؤوف وكان موظفا مع والده وكان هذا الشاب متدينا للغاية فكان يتردد كثيراً الى الجامع . وبهذه المناسبة حصلت بيننا صداقة قوية صرت اتردد كثيراً الى دارهم التي هي بالقرب من الجامع.وهذه الصداقة جعلت ان مخلص بك يعطف على والدي فرقاه من رتبة (أونباشى) نائب عريف الى عريف وقد زرت سجن بغداد يومئذ بواسطة رؤوف . وهذه الزيارة أثرت في تأثيراً كبيراً. وهذه الزيارة هي التي الهمتني قصيدة (السجن في بغداد) التي هي تصوير لحقيقة ماشاهدته في السجن .

★ حياته في الاستانة

وبقيت في التدريس في مدرسة اعدادي ملكي في اعلان المشروطية . وبعد ان اعلنت المشروطية في سنة ١٩٠٨ ذهبت الى الاستانة بدعوة من صاحب جريدة «اقدام» احمد جودت بك لغاية اصدار جريدة باللغة العربية.وقد ذهبت مع النواب الذين سافروا الى الاستانة.. ذهبت معهم وبما انه لم يحصل اتفاق بيني وبين احمد جودت على اصدار الجريدة بقيت في الاستانة بدون عمل . وقد اتصلت هناك بالاستاذ جميل صدقي الزهاوي الذي كان يسكن الاستانة وقتئذ ، وسكنت معه في دار واحدة حتى ٣١ مارت او اكثر من ذلك . وقد نفدت دراهمي في تلك المدة فاتصلت ببيت المطران «ندرة مطران ونخلة مطران» من أهل بعلبك وقد قاما بمساعدتي لتسديد مصاريفي الشهرية ، وكان لهما دور في القضية العربية .

وعندما كنت في الاستانة حصلت لي فكرة الاتصال بحكمت سليمان بك وخالد بك سليمان اللذين كانا في سلانيك مع اخيهما محمود شوكت باشا قائد الجيش في سلانيك والذي شجعني على ذلك ذهاب احد الاتحاديين عمر فخر الدين بك.فذهبنا سوية الى سلانيك وفي اثناء الطريق صادف ان حصلت الحركة الارتجاعية في استانبول فتحرك الجيش من سلانيك بقيادة محمود شوكت باشا.ولهذا السبب صادفت بعض الصعوبات عند وصولنا الى سلانيك فاوقفت ليلة واحدة ظنا منهم باني احد المشاركين بحركة العصيان فاشتبهوا بي للعمامة التي كنت ارتديها فبقيت لمدة بضعة ايام في سلانيك ثم عدت الى الاستانة فوجدت الحالة هناك مضطربة حيث ان جيش الانقاذ استولى على الاستانة وخلع عبد الحميد ونادى بالسلطان محمد رشاد خليفة . وفي تلك الأونة ابدلت العمامة بالطربوش حيث كما قلت ان الذين قاموا بالعصيان كانوا من المتطرفين ، وكان كل شخص صاحب عمامة يشتبه به . ففي تلك الاثناء نزعت العمامة وابدلت الملابس الشعبية بالملابس الافرنجية .

اردت أن اعود الى بغداد ولكن المطران ندرة الذي اتصلت به بواسطة زكي مغامز الحلبي (مترجم كتاب تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان من اللغة العربية الى التركية) أبقاني هناك وقد تعهد أن يدفع نفقاتي في الاستانة.فبقي ستة اشهر يدفع لي مقدار عشر ليرات شهريا فبقيت حتى أتى مراد بك بن سليمان بك الاستانة فعدت الى بغداد بمساعدة المطران ندرة .

وهنا فاتني ان اذكر انني لما توجهت مع نواب العراق الى الاستانة وصلت الى بيروت واستبقاني ادباء بيروت الذين احتفوا بي احتفاء كبيرا ولكنني تضايقت من جهة قلة الدراهم التي كانت معي فاقترح علي محيي الدين الخياط ان اطبع ديواني في بيروت وتعهد بأن يقوم بتصحيحه وان يكتب له مقدمة فاعطتني احدى المطابع ٣٠ ليرة فرنسية ذهباً.وبعد قضاء ١٥ يوما تقريبا سافرت الى الاستانة بحرا . وقد عدت الى بغداد في تلك السنة او في السنة الثانية للانقلاب . ولكن لم يمض على بقائي في بغداد اكثر من شهر واحد حتى عدت الى الاستانة بناءً على طلب عبيد الله افندي من اهالي أيدين وكان نائبا عن ازمير حينئذ،وهذا الشخص كان قد اعتزم على اصدار مجلة شهرية عربية باسم «سبيل الرشاد» فاتفقت معه على اصدار المجلة المذكورة فاصدرناها ولكن باسم آخر وهو «العرب». وبهذه المناسبة توسط لتعييني مدرسا في الملكية الشاهانة فاتفقت معه على اصدار المجلة المذكورة وبنفس الوقت ادرس اللغة العربية في مدرسة الملكية الى أن الغيت هذه المدرسة ثم توقفت المجلة عن الصدور،ثم عينت في مدرسة تعود الى وزارة الاوقاف في الاستانة (تسمى مدرسة الواعظين) مدرسا لدرس الخطابة العربية.وقد بقيت بهذه المهمة الى المدة التي أكمل فيها مجلس النواب دورته وهي اربع سنوات حتى انتخبت نائبا .

★ انتخابه نائبا في البرلمان

الجادرجي :كيف تم انتخابكم ومن الذي توسط لكم في النيابة مع ان الاتحاديين لم يرشحوا الا الاشخاص الذين يعتمدون عليهم ؟

الرصافي :كنت اسكن في دار واحدة مع عبيد الله افندي الذي كنت اصدر معه مجلة « العرب».وكان طلعت بك وزير الداخلية جارنا

ففاتحني ذات يوم عبيد الله افندي قال:ان طلعت بك يودُّ أن يدرس اللغة العربية فهل تتمكنون من تدريسه ؟

فقبلت ذلك بكل ترحاب وبدأت اذهب الى داره ولكن لم نبدأ بالدرس ، لانه كان يتحدث معي في شؤون شتى وبصفة خاصة عن شؤون البلاد العربية فكنت ابين له رأيي بصراحة.وقد دامت هذه المقابلات حوالي الاسبوعين ثم انقطعت عنه غير انه بقيت صلة بيني وبينه . ولما انتهت دورة المجلس يظهر ان طلعت بك رشحني شخصيا الى النيابة ، فاتصل بي أحد الاتحاديين وهو جمال الغزي فقال:ان مركز جمعية الاتحاد العام رشحك الى النيابة.وسألني عن المحل الذي اريد ان اكون عنه نائبا فرجحت المنتفك فانتخبت عن المنتفك وانا في الاستانة .

الچادرچي : هل دخلتم جمعية الاتحاد والترقي بعد ان صرتم نائبا ؟

الرصافي :لم ادخل قط ، كما انه لم يطلب الي ذلك احد وقد كنت حرا وفي كثير من المسائل كنت ضدهم كما اني كنت اوافقهم في بعض القضايا .

الچادرچي :هل كان لكم صلة بالجماعات الذين كانوا يشتغلون بالقضية العربية ؟

الرصافي :كنت اجتمع بهم دائما ولكن لم ادخل معهم بصورة رسمية في حزب او جمعية ، غير اني كنت اعطف على كل جماعة تطالب بحقوق العرب على شرط الاتستمد قوتها من الاجانب.وكان في تلك الاونة قد تألفت جمعية في بيروت (وهي الجمعية التي طاردها جمال باشا في اثناء الحرب) وقد حبذت اعمالهم في بداية الامر فنظمت قصيدة عنوانها «في معرض السيف» دعوت فيها الى النهضة العربية ولكن بعد ذلك اطلعت على منهاج تلك الجمعية ولما علمت بان لهم اتصالاً بالاجانب نظمت قصيدتي التي عنوانها «ماهكذا ....» ارد بها عليهم وافند آراءهم اذ قد شممت منها رائحة التفرقة والذي يقرأ القصيدة يفهم ماذا كان قصدي من ذلك .

الچادرچي :متى انتخبتم نائباً ؟

الرصافي :لااذكر التاريخ ولكن انتخبت نائبا في المجلس الثاني بعد اعلان الدستور ويجب أن يكون في سنة ١٩١٢.وقد قضى هذا المجلس سنتين اثنتين من الحرب غير انه بسبب ظروف الحرب لم ينتخب مجلس آخرولما انتهت مدة المجلس في سنة ١٩١٦ على ما أذكرلم يجر انتخاب مجدد وانما مددت مدته . فبقيت في الاستانة الى سنة ١٩١٩ فاردت أن اتوجه الى بغداد فاضطررت الى البقاء في الشام سبعة اشهر تقريبا بسبب عدم أمنية الطريق . وبعد أن بقيت مدة بضعة اشهر في الشام طُلبت الى التدريس في دار المعلمين في مدينة القدس وذلك بوساطة محمد كرد علي.فذهبت الى القدس ووافقت على شروطهم وهي أن ادرس آداب اللغة العربية في تلك المدرسة براتب شهري قدره ٢٥ جنيها مصريا مع الاكل والمبيت . فسافرت الى القدس في سنة ١٩١٩ او اوائل سنة ١٩٢٠ على ماأذكر .

أما حياتي في القدس فكان التدريس يشغلها.وكنت اجتمع مع بعض الاصدقاء كاسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني وغيرهم من الادباء فبقيت في القدس مقدار سنة ونصف السنة . وكيفية انفصالي من القدس كانت عجيبة غريبة ؛ إذ كانت قد تألفت حكومة وطنية برئاسة النقيب - ويقصد عبد الرحمن النقيب - وكان طالب باشا النقيب احد اعضائها وكان كل واحد من هذين يطمح ان يكون ملكا للعراق ثم اتفقا على أن يكون النقيب (عبد الرحمن النقيب) الملك على أن لاينتقل الملك منه الى اولاده وقررا اصدار جريدة للدعاية في سبيل «العراق للعراقيين» فاتفقوا على تولي اصدار هذه الجريدة وادارتها - جرى كل ذلك وانا لااعلم عنه شيئا - وبما اني من المخالفين لطالب النقيب ومن الذين يبغضونه لم يصدر دعوة الي بهذا الشأن بنفسه بل بواسطة حكمة بك سليمان.فجاءني تلغراف باسم حكمة بك يدعوني الى العراق مستعجلا لمسائل وطنية مهمة فكتبت اليه برقية اسأله:بأي صفة تدعوني انت ثم على حساب من آتي الى العراق ؟

فلم يجبني حكمة بك ولكن الحكومة العراقية كتبت - والظاهر ان طالب باشا هو الذي تولى هذا الامر - الى المندوب السامي في فلسطين ان يسفرني الى العراق على حساب الحكومة العراقية وكان آنذاك السر هربرت سموئيل - فاستدعاني الموما اليه بواسطة احد موظفي المندوبية وفاتحني بالامر فوافقت على السفر الى العراق . فاعطوني كتابا بأن لذهب الى السويس وانتظر باخرة تأتي واركب تلك الباخرة واسافر الى العراق عن طريق الهند.وقد سافرت من السويس الى القاهرة لقضاء بضعة ايام ثم العودة الى السويس لاخذ الباخرة الى الهند. فصادفت في القاهرة الاستاذ فهمي المدرس وجعفر العسكري وكانا قد اتيا الى القاهرة لمواجهة بعض الشخصيات وكان

السر برسي كوكس موجودا في القاهرة وهؤلاء جميعا حضروا مع المس بل لمواجهة المستر شرشل لتقرير الملوكية في العراق . فلما علم السر برسي كوكس أنني ذاهب الى العراق عن طريق الهند اقترح علي ان اسافر معهم الى العراق رأساً بدون الذهاب الى الهند فقبلت الفكرة وسافرت معهم.وكان في الباخرة فهمي المدرس وجعفر العسكري ومس بل والسر برسي كوكس . ولما وصلت الى بغداد وواجهت النقيب عبد الرحمن افندي علمت بعد ذلك انهم يريدون تأكيد مبدأ «العراق للعراقيين» ثم اجتمعنا عند النقيب مع السيد طالب ولم يسفر الاجتماع عن اتفاق في الرأي وانقضى على ان نجتمع مرة اخرى.

فاتصلت بتوفيق الخالدي - الذي كان حاضرا في الاجتماع - وقال لي انه سوف نذهب سوية بباخرة صغيرة انا وانت وطالب باشا وهناك نتذاكر في الموضوع.ولكن قبل ان يحصل هذا الاجتماع نفى الانكليز السيد طالب باشا . ولما نفي طالب باشا النقيب علمت انه لم يبق لي شأن في هذا الموضوع . كل ذلك جرى قبل مجيء فيصل الى العراق. وقبل مجيء فيصل كنت قد اتصلت بالمس بل فشرحت لها وضعي وقلت أن الحكومة العراقية هي التي استدعتني الى العراق بينما كنت موظفا في القدس وانا لايمكنني ان ابقى عاطلا.فكتبت لي كتابا الى ناظر المعارف يومئذ فواجهته ففاتحني بوظيفة وهي «نائب رئيس لجنة التأليف والترجمة» براتب قدره ٦٠٠ ربية شهريا ولما لم تكن اللجنة موجودة ولا رئيسها استثقلت هذا الوضع بعد بضعة اشهر فاتصلت بالمستر سميث الذي كان مستشارا للمعارف وشرحت له الحال فأقترح علي أن القي بعض المحاضرات على المعلمين ففعلت ذلك.ولما تألفت الحكومة الوطنية بعد مجيء فيصل عينت مفتشا للغة العربية ولكن بعد أن أخذ الاستاذ ساطع الحصري الشغل في المعارف علمت انه لم يبق لي شأن في المعارف فقررت ان اهجر العراق واذهب الى تركيا فذهبت فعلا الى استانبول كي اتجنس الجنسية التركية واذهب الى انقرة ، ولكن لم اجد هناك من معارفي غير سليمان نظيف ولكن سليمان نظيف لم يتمكن من التوسط الى ذهابي الى انقرة فبقيت هناك في استانبول حوالي ثلاثة اشهر - في بدء تأليف الحكومة الكمالية في انقرة - ثم عدت الى بيروت وهناك سعى بعض الاصدقاء لان اتجنس بالجنسية اللبنانية.وقد القيت هناك قصيدتي المشهورة البائية «هي النفس» بمناسبة مجيء امين الريحاني الى بيروت.وفي تلك الاثناء ابرق لي عبد المحسن السعدون بلزوم العودة الى العراق فسافرت على حساب الحكومة العراقية الى بغداد واراد عبد المحسن بك أن اتصل بالملك فيصل لاجل ان يزول بيننا البرود فواجهته ولم يتسن لي ان اواجهه بعد ذلك .

بعد هذه الحوادث لم اتصل بالملك فبقي عبد المحسن بك السعدون يرعاني ويعينني في المعيشة . ولما ساءت حالتي المعيشية نظمت قصيدتي المشهورة مخاطبا عبد المحسن السعدون التي مطلعها الى غرة آل سعدون وهي همزية وبعض ابياتها :

فان لم تدرك الايام عريي	بثوب منك يااحمر الرداء
لبست قرار بيتي في نهاري	ولم اخلعه الا في المساء
فان جاء المساء لبست منه	ظلاما ماتمزق بالضياء

فاحدثت هذه القصيدة ضجة في بعض الاوساط فتأثر بذلك الملك فيصل فأوعز الى ساطع الحصري باعادتي الى المعارف فعدت وبقيت في المعارف من سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٢٨. ولم ترق لي تلك الحالة فنويت الاستقالة والذهاب الى الهند فتوجهت الى البصرة وهناك تعهد عبد اللطيف المنديل بارسالي الى الهند ولكن تلقى كتابا من عبد المحسن السعدون يطلب اليه الا يسهل مهمتي فعدت الى بغداد ولم اتوظف حتى سنة ١٩٣٠ حين انتخبت نائبا في ذلك المجلس الذي صدق معاهدة ١٩٣٠ ، فعارضت المعاهدة وبقيت نائبا في ذلك المجلس ثم انتخبت مرة ثانية . ولما لم ارشح مرة اخرى للنيابة بقيت مدة من الزمن محتارا في امر معيشتي حيث ان راتبي كان لايزيد على اثني عشر دينارا فقررت أن اهجر بغداد لسببين : الاول ان راتبي لايكفيني في بغداد والثاني : اردت أن اشتغل اشتغالات فكرية بعيدا عن صخب العاصمة . فقررت الذهاب الى الفلوجة فذهبت الى هناك سنة ١٩٣٣ او سنة ١٩٣٢ وبقيت هناك اشتغل بكتابي «الشخصية المحمدية» حتى سنة ١٩٤١ . ولما وقعت الحرب بين العراق والانكليز اضطررت على العودةُ الى بغداد .

الجادرجي :هل اكملتم كتابكم المذكور ؟

الرصافي :لم اكمل هذا الكتاب لان الكتاب كما تعلمون هو عبارة عن ملاحظات كنت ادونها كلما خطر لي خاطر حول هذا الموضوع .

الجادرجي :هل في النية طبع كتابكم المذكور ؟

الرصافي :لو كانت الظروف تساعدني لَذَهَبْتُ الى اوربا او الى تركيا فاطبعه هناك .

هل يتوحد المغرب العربي؟

تمثل هذه المقالة وجهة نظر للكاتب هشام القروي، قد تثير وجهات نظر متفاوتة، لكن المجلة تطرحها على هذا الأساس بغية الحوار الهادف داخل الأوساط الثقافية القومية الطليعية.

لمدة طويلة نسبياً كان لمصطلح «المغرب العربي» وفكرة توحيده صدى سلبيّ في المشرق العربيّ، وكان ثمة تخوّف واضح من تلك الفكرة التي كانت مرادفة لدى البعض لفكرة «الهلال الخصيب». وكان البعض يعتقدون أنّ مسألة توحيد المغرب العربيّ أصل منشئها إستعماريّ وهدفها تكريس القطيعة بين جناحي الوطن العربي الكبير. وإذا كان لهذا الإعتقاد ما يبرّره في أحداث التاريخ، فإن فكرة توحيد المغرب العربي، علاوة عن كونها سابقة للمناورات الإستعمارية، تبقى هامة وهامة جداً، بل هي تمثل أحد أهمّ الإختيارات الإستراتيجية على طريق الوحدة العربية الشاملة، خاصة وقد ثُبت بوضوح بعد العدوان «الإسرائيلي» المتكرر على تونس ومنظمة التحرير الفلسطينية (: ضربة حمّام الشط في تشرين الأول ١٩٨٥، واغتيال أبو جهاد في نيسان ١٩٨٨) أنه بالنسبة إلى الكيان الصهيوني لايوجد فرق بين «دول مواجهة» و «دول الخط الثاني أو الثالث»، وإنما العرب جميعا أعداء بما فيهم «المعتدلون»، والراكضون خلف وهم «السلام الإسرائيلي».

ولكن قبل أيّ حديث عن الفكرة المغاربية وضرورتها الحيوية الإستراتيجية، علينا أوّلا أن نبدّد الشكوك حول هذه الفكرة ونسائل التاريخ. فما هي الأسباب التي جعلت بعض العرب يتخوّفون من فكرة توحيد المغرب العربي؟

مغرب عربي ـ فرنسي

كانت السياسة التي عرفت بها حكومات الجمهورية الفرنسية الرابعة إزاء مستعمراتها في الشمال الافريقي معروفة بالجمود والإنغلاق وعدم التفطّن إلى طبيعة التّغيّر الذي طرأ على العالم بعد الحرب العالمية الثانية. وقد ظهر هذا الجمود في مواجهة قضايا المستعمرات سواء في الهند الصينيّة أو في تونس أو في المغرب أو في الجزائر. ولهذا بدت السياسة التي نادى بها منداس فرانس في الهند الصينيّة باسم الحزب الرّاديكالي قبل أن يدعى لرئاسة الحكومة في نهاية ربيع ١٩٥٤ جريئة للغاية، وكان ذلك أحد العوامل التي جعلته يدعى لرئاسة الحكومة إثر هزيمة «ديان بيان فو» الشهيرة.

وما أن تخلّص منداس فرانس من قضيّة الهند الصينية في عملية رهان لم تكن الجمهورية الرابعة متعوّدة عليها حتّى اتّبع الخط

هشام القروي

الجديد نفسه بالنّسبة إلى القضيّة التّونسية. فكان تصريح قرطاج الشهير في صيف ١٩٥٤ الذي حرص على أن يكون فيه إلى جانبه الماريشال جوان كغطاء يمينيّ لمبادرة بدت جدّ يسارية!

إلّا أن هذه السياسة التي انتهجتها حكومة منداس ظهرت آنذاك كما لو كانت من وضع شخص واحد، ولا تدخل ضمن إستراتيجية إستعمارية حديثة شاملة. ومن هنا، كانت مخاوف اللّيبراليين التونسيين والمغاربة كبيرة بعد سقوط حكومة منداس ومجيء إدغار فور بعده. إلّا أنه سرعان ما تبيّن أن إدغار فور حريص على مواصلة خطة سلفه في تونس وعلى انتهاج خطة مماثلة لها في المغرب الأقصى. أي أنّ تغييرا وقع في سياسة باريس الإستعمارية. وكانت أسباب هذا التغيير هي التالية:

١ـ القضاء على أسس وحدة الكفاح في الأقطار المغربية.

٢ـ الحيلولة دون تدعيم وتطور الجبهة المسلّحة المشتركة بينها.

٣ـ عزل الثورة المسلّحة في الجزائر بين تونس والمغرب مستقلّين ضمن إطار إستعماري حديث، وإجهاض الثورة الجزائرية.

وقد تبلورت سياسة باريس الجديدة من خلال إطلاق سراح العناصر القيادية في حزب الإستقلال، وإعادة محمد الخامس من المنفى، وبداية المفاوضات مع تونس والمغرب وإبراز بعض العناصر «الفرنسية» من المغاربة بعد إظهارها في مظهر وطنيّ من أجل استغلالها بعد ذلك لتكون مركزا فرنسيّا في لبوس وطنيّ، مثل بكّاي الذي كان ضابطا في الجيش الفرنسيّ، ومثل أوفقير المعروف الذي كلّفوه بمباشرة عمليّة إزالة ابن عرفة وأخذه إلى طنجة... إلخ.

لكنّ حكومة «الإشتراكي» غي موّليه كانت في حاجة إلى ترويج المزاعم حول «سعيها إلى السلم» في الوقت الذي تواصل فيه حربا لا هوادة فيها. ومع ذلك، فقد كانت الجمهورية الرابعة أضعف من أن تفرض تسوية جزائرية مهما كانت، ضدّ إرادة عسكرييها. ومن هنا اتجهت باريس إلى التفكير في استغلال فكرة وحدة المغرب العربيّ بعد إفراغها من مضمونها الإيجابي الثوريّ وتسخيرها لتأمين مصالحها، وتسوية المشكل الجزائريّ وتعزيز الروابط بين فرنسا والشمال الافريقي.

ومن هنا شرعت باريس في وضع سياسة جديدة ترتكز على الأسس التالية:

١ـ فصل الصحراء الجزائرية عن الجزائر.

٢ـ عزل جبهة التحرير الجزائرية عن الشعب بدعوة المسؤولين الفرنسيين إلى «إصلاح زراعي» وترقية عدد من الموظفين الجزائريين إلخ...

٣ـ وضع حلف عسكريّ متفرّع عن الحلف الأطلسي يضمّ دول البحر الأبيض المتوسط، نظير حلف بغداد في المشرق وحلف جنوب شرقي آسيا.

ولاشك أن قيام حرب التحرير الوطني في الجزائر منذ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤، والصدى الذي لقيته في المشرق العربيّ، والمساعدات التي قدمتها الحكومات العربية على اختلاف أنظمتها في المشرق العربي للثورة الجزائرية، وحملات التبرعات والدعم المالي والسياسي والإعلامي الذي لقيته الجزائر من المشرق... كل ذلك يشكل عاملا أساسيّا يجعل تصوّر وحدة المغرب العربي مرتبطا بوحدة عربية أشمل. في حين أن الأمر يختلف بالنسبة للحركة الوطنية في تونس والمغرب، فقد كانت رحلة بورقيبة إلى المشرق، قبل ثورة ١٩٥٢ في مصر، مخيّبة للآمال. كما أنّ وجود علال الفاسي في القاهرة لم يحل دون تطور قيادة حزبه في نطاق الإحتكاك بالأوساط الفرنسية، دون أدنى محاولة لاستغلال تراث عبد الكريم الخطابي الثوريّ في الريف المغربي، ثمّ جاءت الطريقة التي تمّت بها تسوية المشكلين التونسي والمغربي، فأعطت الثقل للميزان وللبعد الأوروبي الغربيّ على حساب البعد العربي.

ان هذا الوضع يرجع إلى حدّ كبير الى وجود تصوّر لوحدة مغرب عربيّ منفصل عن مشرقه إن لم يكن موجّها ضدّه. إن هذه الفكرة وهذا الوضع أراد أن يستغلّهما الإستعمار الفرنسي لإقامة مجموعة مغاربية مرتبطة بفرنسا، وتكون قاعدة للإستعمار الفرنسي والغربي، يتحكّم منها في إفريقيا ويضغط بها على الشرق الأوسط. وهذا هو منشأ التخوف الموجود في المشرق من مصطلح «المغرب العربي»[1].

وحدة المغرب وحركات التحرر

قامت دولة الموحّدين في القرن السادس (هـ) وبسطت سلطانها عن المغرب العربي - بما في ذلك الأندلس - (١١٤٧ - ١٢٦٩) وبين ١٢٦٩ - ١٨٣٠ تاريخ احتلال الجزائر، تداولت دول متفرّقة الحكم في أقطار المغرب الذي فقد في الأثناء جزءا مهمًا من أجزائه، وهو الأندلس. وبداية من سنة ١٨٣٠ حاول الإستعمار الفرنسي أن يبسط سلطانه على كامل شمال إفريقيا، وبعد أن احتل الجزائر فرض الحماية على تونس (١٨٨١) ثم على مراكش (١٩١٢). وكاد يكوّن من الأقطار الثلاثة كياناً باسم شمال إفريقيا الفرنسية على غرار دولة إفريقيا الجنوبية لولا ما لقيه من معارضة شديدة ومن مقاومة عنيدة من الحركات الوطنية المغربية وقيام الحرب العالمية الثانية التي كان من نتائجها القضاء على الإمبراطوريات الإستعمارية وتصفية الإستعمار.

إن دراسة تاريخ الحركات الوطنية يفيد أن هذه الحركات بدأت تتضامن في اللجنة التونسية - الجزائرية التي ألفها السيد محمد باش حانبه الزعيم التونسي المهاجر في جنيف في أعقاب الحرب العالمية الأولى والتي أصدرت مجلة تدافع عن مصالح المغاربة باسم «المغرب»[١].

وكان الإتجاه السائد يومئذ لدى النخبة الوطنية في شمال إفريقيا، وبكيفية خاصة لدى أعضاء حركة «تونس الفتاة» التي تأسست عام ١٩٠٨ - وكان علي باش حانبه (وهو أخو محمّد) من أبرز زعمائها - هو الإستعانة بالدولة العثمانية من خلال الإرتباط بها في إطار «الجامعة الإسلامية» التي نشط في الدعوة إليها رجال السلطان عبد الحميد والمتعاطفون معهم من السلفيّين في العالم العربي والإسلامي وذلك لمقاومة الإحتلال الفرنسي. ولكنّ انهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وإلغاء الخلافة من طرف كمال أتاتورك عام ١٩٢٤، دفع الحركات الوطنية في المغرب العربي إلى الإعتماد على إمكانياتها الذاتية، مع الحرص على التنسيق فيما بينها لتنظيم الدعاية وشرح المطالب وتحديد الأهداف[٢].

ثم إنّ ثورة الأمير عبد الكريم في الريف (١٩٢١ - ١٩٢٦) أثارت الشعور الشعبي في مختلف أرجاء شمال إفريقيا. وهو الشعور الذي أثارته حرب طرابلس قبل سنوات. وكان للبطولة والهزيمة أثرهما الفعال في إذكاء الروح الوطنية والشعور بواجب التضامن. ويرى علال الفاسي أن الزعيم التونسي علي باش حانبه. كان أول زعيم فكر في ضرورة توحيد المغرب العربي في ميدان الكفاح. وقد مدّ يده للمقاومين الجزائريين وأسس أخوه في المهجر لجنة تسمّى باللجنة التونسية الجزائرية، وفي الوقت نفسه اتصل برجال الحركة في مراكش في الوقت الذي كانت فيه هذه البلاد تدافع عن كيانها، وعاون في الآستانة مع المجاهد المغربي السيد العتابي بعد ذلك[٣].

ابتداء من أواسط العشرينات توالت في باريس، اللقاءات بين رجال الحركة الوطنية، التونسية والجزائرية والمغربية، كما اسست جمعيّات إجتماعية للعمّال من أبناء المغرب العربي، كان أبرزها جمعية «نجم شمال إفريقيا» عام ١٩٢٣ من أجل إغاثة العمّال المغاربة، والتي اصبحت ابتداء من آذار/ مارس ١٩٢٦ جمعية سياسية تعمل للدفاع عن كيان المغرب العربي وذات جريدة باللغة الفرنسية تحمل إسم «الأمة». وكان رئيس هذه الجمعية هو مصالي الحاج، أحد زعماء الحركة الوطنية الجزائرية البارزين[٤].

يقول الرشيد إدريس - وهو أحد المناضلين التونسيين الذين شاركوا في إنشاء مكتب المغرب العربي بالقاهرة في الأربعينات - متحدثاً عن جريدة «الأمة»:

«كنّا سنة ١٩٣٣ و ١٩٣٤ وفيما بعد نتّصل بأعداد منها بمركز جمعية قدماء الصادقية حينما كنّا أعضاء بالشبيبة المدرسية نطالعها بلهفة وقد انفصلت منظّمة النجم عن الحزب الشيوعي، انفصالا تاما وأكدت صبغتها القومية ممّا دفع بالحكومة الفرنسية إلى منعها عدّة مرات كان آخرها في عهد الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٧ حيث قرر مصالي الحاج تأسيس حزب الشعب الجزائري والعودة إلى الجزائر»[٥].

على أن الجمعية التي ظلت مطبوعة بطابع مغربيّ ومستمرّ، مجسّمة وحدة العمل من أجل التحرير، ومبلورة فكرة «المغرب العربي» وعاملة بوحي منها، هي «جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين»، الجمعية التي قامت بدور بالغ الأهمية في إقامة علاقات صداقة شخصية بين طلاب المغرب العربي الذين كانوا يدرسون في الجامعات الفرنسية والذين سيصبحون فيما بعد، في كلّ من المغرب والجزائر وتونس، العمود الفقري للنخبة المسيّرة في الأقطار الثلاثة قبل الإستقلال وبعده.

وبظلّ «طلبة شمال إفريقيا» يحملون فكرة «المغرب العربي» التي سرعان ما ارتفعوا بها من مجرّد التنسيق في دائرة العمل السياسي الظرفي، إلى مستوى التنظير والتأسيس الواعي. وهكذا طالب مؤتمرهم الخامس الذي انعقد في تلمسان سنة ١٩٣٥ بـضرورة توحيد البرامج التربوية توحيدا من شأنه أن يبعث

الشعور بالوحدة الوطنية في شمال إفريقيا، تلك الوحدة التي ترتكز على ذهنية موحّدة ودين واحد وعواطف مشتركة... ولا يحق لأحد أن يدّعي أننا نعمل على إنشاء وحدة مفتعلة. والحال أننا نعمل على إحياء وحدة سجّلها التاريخ، وهو ضامنها».[٧].

ومع أواسط الثلاثينات انتقلت فكرة «المغرب العربي» إلى أقطار شمال إفريقيا ذاتها، حيث اصبحت إحدى الموجهات الرئيسة في عمل الحركات الوطنية الثلاث. هكذا تضمن برنامج الحركة الوطنية لعام ١٩٣٦ في المنطقة الشمالية التي كانت تحتلها إسبانيا من المغرب، فقرة بـ«إعادة ربط العلاقات بين الجهات الثلاث تونس والجزائر والمغرب، وإعادة العلاقات بين هذه المناطق والبلدان العربية الإسلامية»، ومن أجل توثيق العرى بين أبناء شمال إفريقيا يقترح البرنامج المذكور «توحيد اسلاك التعليم وتأليف كتاب مشترك في التاريخ يدرس في الأقطار الثلاثة». وفي نفس السنة سيبادر احد الشبان الوطنيّين في تونس إلى تأسيس جمعية «شباب الشمال الإفريقي» ـ وهو محمد العيد الجباري ـ ويتعهد أعضاؤها بالإعتراف بأن شمال إفريقيا واحدة لاتقبل التجزئة وأنها وطن واحد يجب على أبنائه تكوين جبهة واحدة للدفاع عنه»[٨]. أما في الجزائر، فقد ظلت «جمعية العلماء المسلمين» التي أسسها الشيخ ابن باديس في ١٩٣٨ تبث الوعي القومي ـ العربي الإسلامي ـ ليس في الجزائر وحدها، بل في كل من تونس والمغرب، وذلك من خلال مجلتها «الشهاب» ونشراتها الأخرى، كما أن «حزب الشعب الجزائري» الذي خلف عام ١٩٣٧ جمعية «نجم الشباب الإفريقي» دعا في برنامجه إلى تكوين جبهة واحدة من التونسيين والجزائريّين والمغاربة للنضال ضدّ الجبهة الإمبريالية. بينما بقيت فكرة المغرب العربي حيّة في باريس بين صفوف الطلاب والعمّال واللاجئين السياسيّين من أبناء شمال إفريقيا. وهكذا اكدّ الشيخ عبد الهادي السنوسي في (٤ شباط ١٩٣٩) في مؤتمر جمعيته ـ جمعية الثقافة الإسلامية ـ أن «شعب شمال إفريقيا شعب واحد وأن الحدود التي تفصل بعضه عن بعض ليست سوى حواجز مفتعلة»[٩].

إن من يتتبع مظاهر وأشكال الصّلات والتأثيرات المتبادلة بين المغرب والمشرق العربيّين يتيقن أن هذه الصّلات لم تنقطع حتى في أسوا الظروف. إن استمرارية هذه الصلات عبر العصور دليل على التأثيرات والتفاعلات المتبادلة ممّا خلق نمطا من التواكب في الأحداث والتقلّبات السياسية والإجتماعية، وحافظ على توثيق عرى اللحمة بين سكّان الوطن العربي عبر الأجيال وبين مختلف الأقطار وخلال مختلف المراحل التاريخية.

وقد كان للمغرب العربي حضور في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس عام ١٩٣١، وجمع رجال دين وشخصيّات سياسية بارزة من ٢٢ بلدا عربيًا وإسلاميًا ودام انعقاده قرابة أسبوعين وانتخب لجنة تنفيذية لها فروع في البلدان المشاركة. وقد افتتحه الحاج أمين الحسيني وضمت اللجنة التنفيذية: سعيد ثابت وسعيد الجزائري وشكري القوتلي وضياء الدين الطباطبائي وعبد الرحمن عزام وعبد العزيز الثعالبي ومحمد إقبال ومحمد حسين كاشف الغطاء ومحمد رشيد رضا ومحمد علي علوبة ومحمد العربي بنونة ورياض الصلح. واغلب هؤلاء كانوا أعضاء في جمعية «العربية الفتاة» وجمعية «العهد» (١٩٠٨ ـ ١٩١٨)، ويعني ذلك أن اغلب هؤلاء يحملون وجهات نظر قومية عربية اكثر منها إسلامية، كما لاحظ عفيف البوني[١٠] وقبل انتهاء المؤتمر اجتمع خمسون عضوا منهم ووضعوا «الميثاق القومي العربي» الذي جاءت أهم مواده كالتالي:

١ ـ إن البلاد العربية وحدة تامة لاتتجزأ وكل ما يطرأ عليها من أنواع التجزئة لا تقرّه الأمة ولا تعترف به.

٢ ـ توجّه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى جهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحّدة ومقاومة لكلّ فكرة ترمي إلى الإقتصار على السياسات المحلية والاقليمية.

٣ ـ لمّا كان الإستعمار بجميع أشكاله وصيغه يتنافى كلّ التنافي مع كرامة الامة العربيّة وغايتها العظمى، فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها...»[١١].

في هذا السياق يجب البحث أيضاً عن الدور الذي لعبه شكيب ارسلان في شمال إفريقيا، سواء عن طريق اتصالاته الشخصية مع سياسيّين ومصلحين أو عن طريق مؤلفاته وكتاباته في الصحف، وخاصة المجلة التي كان يصدرها في سويسرا بالفرنسية والتي تحمل عنوان «الامة العربية»، فقد كان شكيب أرسلان متتبعا لكلّ ما يجري في أقطار الشمال الإفريقي، ويراسل رجالاته ومثقفيه، ويعقب على ما يصدر فيه من مقالات وكتب، وكانت توجيهاته لاتخلو من أثر، فيما يتعلق بتقارب بعض المشارب السياسية والثقافية في الأقطار الثلاثة.

ولاشك أن امتزاج العروبة بالإسلام في الكتابات السياسية

المشرقية والمغربية فيما بين الحربين، كان عنصرا من عناصر التقريب التي جعلت الوحدة تبدو أحيانا أقرب منالا ممّا هي عليه في واقع الأمر. فقليل هم السياسيون أو المثقفون الذين كانوا «واقعيّين» وكانوا يقدرون طبيعة الفروق التي أوجدها الإستعمار وحقيقة الدور الذي تلعبه ضدّ قيام حركة وطنية واحدة في الأقطار الثلاثة. ومن هنا كان الطابع الذي اتّسمت به مشاريع العمل النضالي الوحدوي فيما بين الحربين، تغلب عليه المثالية. فالعلاقات التي كانت موجودة بين شخصيّات سياسية ودينيّة جزائرية وبين شخصيات مثل عبد العزيز الثعالبي في تونس، وعمر المختار وسليمان باشا الباروني في ليبيا لم تندرج في إطار عمل منظم، ولكنها كانت تدخل في إطار تعاطف طبيعي وروحي لم يخل من أثر[١٢].

أمّا بعد الحرب العالمية الثانية، فإن مركز نشاط الحركات الوطنية المغربية تحول مع إنشاء الجامعة العربية عام ١٩٤٥ إلى القاهرة ممّا يؤكّد أكثر على البعد العربيّ للفكرة المغاربية. وفي القاهرة عقد الوطنيون المغربيّون ما بين ١٥ شباط/ فيفري و٢٢ منه عام ١٩٤٧ «مؤتمر المغرب العربي» بحضور الأمين العام للجامعة العربية وشخصيّات عربية أخرى. وفي السنة نفسها تكونت «لجنة تحرير المغرب العربي» برئاسة زعيم الثورة الريفية المغربية عبد الكريم الخطابي[١٣].

لقد برهنت فكرة «المغرب العربي» عن فعاليتها الإجرائية في ميدان النشاط السياسي خلال الثلاثينات والأربعينات، واخذت تتحول مع أوائل الخمسينات إلى إطار مرجعي لحركة تحريرية مسلّحة امتد إشعاعها بعيدا إلى أدغال إفريقيا. وهكذا، فما أن انطلقت ثورة «الفلاقة» في تونس في أوائل ١٩٤٥، حتى انطلقت في السنة ذاتها في المغرب حركة الفداء التي تطورت بعد بضعة شهور إلى جيش للتحرير سرعان ما دخل في تنسيق فعلي عبر «قيادة مشتركة» مع جيش التحرير الجزائري الذي انطلق في فاتح تشرين الثاني ١٩٤٥. وما أن مرّت سنة واحدة حتى رأت فرنسا أن عليها أن تعترف باستقلال تونس والمغرب (عام ١٩٥٦) كي تتفرّغ إلى (إخماد) الثورة الجزائرية، وآنذاك فكرت في إنشاء «مغرب عربي فرنسي» كما سبق القول... ولكن هيهات!

وإذا كانت فكرة «المغرب العربي» قد رافقت الكفاح الوطني لابناء شمال إفريقيا منذ أوائل هذا القرن، فإن ميلادها الرسميّ تمّ في نيسان ١٩٥٨، إذ كان مؤتمر طنجة هو الذي اقرّ مضمونا واضحا لفكرة «مغرب عربي موحّد».

التجزئة في ظلّ الإستقلال

حوالي سنة ١٩٦٠، وفيما كانت إفريقيا جنوبي الصحراء تصل إلى عتبة الإستقلال، كانت أربعة أقطار من بين الخمسة التي كانت تشكل الشمال الإفريقي قد استطاعت التخلّص من النّير الإستعماري. ففي هذه المنطقة كان عقد الخمسينات مطبوعا بتحولات كبرى وخطيرة.

لعلّ أوّل هذه التحولات يتمثل في الحدث الكبير الذي وقع يوم ٢٣ تموز في مصر ١٩٥٢. ففي ذلك اليوم، سقط النظام الملكيّ الفاسد ووصل إلى الحكم مجموعة الضباط الأحرار. وبفضل أحد هؤلاء الضباط، وهو جمال عبد النّاصر، كان للثورة المصرية تأثير في الأقطار العربية، بل حتى بلدان العالم الثالث.

أمّا الحدث الثاني الخطير، وقد لاتكون مصر النّاصرية غريبة عنه، فقد وقع في الجزائر يوم تشرين الثاني ١٩٥٤، عندما اندلعت شرارة الثورة الكبرى التي انتهت بعد سبع سنوات من النضال الدّامي، إلى استقلال الجزائر، حيث كان الإستعمار يظنّ انه مدّ جذورا لايمكن اجتثاثها أبدا.

ولم تكن سنة ١٩٥٦ أقلّ أهمية بالنسبة إلى المغرب الأقصى الذي أحرز استقلاله يوم (٢) آذار أو تونس التي أحرزته يوم ٢٠ آذار من السنة ذاتها.

قدر غريب هو قدر ليبيا التي شهدت فجر استقلالها يبزغ مع نهاية الحرب العالمية الثانية والذي حصلت عليه بالصدفة... ألم يكن هذا الإستقلال الذي ناضلت من أجله أولا في مقاومة الطليان طوال فترة الإستعمار، ثم بإشراك خمس كتائب مع جنود الحلفاء، ألم يكن هذا الإستقلال بفضل سهو ممثل «هايتي» في الأمم المتحدة الذي كان لصوته فضل ترجيح الكفّة لصالح ليبيا في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٩؟ إنه استقلال غريب! فإذا كانت الأمم المتحدة قد أوصت قبل الأول من كانون الثّاني/ جانفي ١٩٥٢ بخلق دولة ليبية مستقلة ذات سيادة، تضمّ طرابلس وبرقة وفزّان، وإذا كانت قد قرّرت دعوة جمعية تأسيسية وتسمية مندوب للفترة الإنتقالية، وإذا كان الإستقلال قد أعلن رسميّا في ٢٤ كانون الأول ١٩٥١ وأعلن معه الدستور الجديد للدولة الإتحادية... إذا كان كل ذلك قد حدث، فليس في هذا الدستور المفصّل بتخطيط أوروبي. ما يتفق مع الواقع المحلي. ولم تكن بريطانيا وفرنسا بعيدتين عن ذلك التخطيط... كما أن

الولايات المتحدة لم تتأخر هي أيضا عن تأمين مكان مميّز لها في المملكة الليبية الجديدة. لكن في عام ١٩٥٢ انضمّت ليبيا إلى جامعة الدول العربية.

ولكن عقد الخمسينات لم يكن مهما بالنسبة إلى الأقطار المغربية وحسب، بل انه شهد وقوع أخطر أزمة بعد الحرب بين العرب والحلفاء الغربيين المتمثلة في العدوان الثلاثي على مصر عقب تأميم قناة السويس من قبل عبد الناصر، في حين كانت لاتزال تهب على العالم رياح «باندونغ» التحرّرية.

بعد عامين، وعندما عقد مؤتمر طنجة لبحث إمكانيات وضع أسس هيكلية لتوحيد الأقطار المغربية في نطاق نظام فيدرالي، أسفرت أعمال هذا المؤتمر على توصيات بتشكيل جهازين لتنسيق الجهود من أجل تحقيق الوحدة المنشودة، سمي أحدهما جمعية استشارية مغربية تتكون مبدئيا من ممثلي الجمعيات الوطنية في المملكة المغربية وتونس ومجلس الثورة الجزائرية، والثاني عبارة عن سكريتارية للمؤتمر مهمّتها العمل لتنسيق أعمال السلطات لهذه الغاية.

فأمّا الجمعية الإستشارية فلم يقدر لها قط أن تجتمع، وأما السكريتارية فقد شكلت فعلا، ولكنها ولدت ميّتة[١٤]. وكذلك تحول اهتمام المسؤولين إلى تنمية العلاقات بين الأقطار التي يسود بينها حظ من التفاهم على أساس ثنائي كما تشهد بذلك مختلف الإتفاقات والمعاهدات المبرمة. وهذه المحاولات وقعت في الفترة بين ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩ لكن الفترة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٣ لم يقع فيها تطور يستحق الذكر في المساعي لتوحيد المغرب. وفي ١١ تشرين الأول ١٩٦٤، أدّى «مؤتمر وزراء الإقتصاد في بلدان المغرب» الذي عقد في تونس، وانضمّت إليه ليبيا أيضا، إلى بروتوكول اتفاق ينصّ على إنشاء لجنة دائمة استشارية للمغرب.

إن هذه اللجنة ما زالت موجودة بعد قرابة ربع قرن، ولعلّها لم تعد سوى حافظة للأرشيف، لكن بقاءها يسجّل تذكيرا بالمسؤوليات. فأكثر من ٦٠ بالمائة من سكّان المغرب (في عام ١٩٨٦) هم دون العشرين. وهؤلاء سيصبحون الفاعليات الإقتصادية وأصحاب القرار في العام ٢٠٠٠ والحال أنهم يعيشون فعلا منذ الآن، وعلى حساب أنفسهم، التحديات الموجّهة إلى منطقتنا. وهؤلاء الشبان لم يعرفوا النضال من أجل الإستقلال. وهم يحضّون على الإنتقال من التعليلات التبريرية إلى الإنجازات التحريرية[١٥]. فهل أن مجموعا مغربيّا تبلغ مساحته ٦٠٦٨٠٠ كلم² (: الجزائر، ليبيا، تونس، المغرب، موريتانيا) وعدد سكّانه ٥٥ مليون نسمة لن يكون أفضل تجهيزا من أي من مكوّناته للإجابة عن مطامح هؤلاء السكان؟

إن مجموعة بهذا العدد من السكان ومواردها الطبيعية وبناها الصناعية وغيرها وأهمية سوقها الداخلية وواجهتها البحرية المزدوجة المتوسطية والأطلسية، ستكون شريكا لايستهان به ليس في الحياة الإقتصادية والسياسية للحوض المتوسطي وحسب، بل في مجمل الحياة السياسية والإقتصادية العالمية، كما أنها ستمثل امتدادا استراتيجيّا طبيعيّا للمشرق العربي الذي يواجه أشرس الأخطار والتحديات.

وسيحسن في الواقع الحديث عن «حدود جديدة» تؤكد عروبة وإفريقية المغرب. فعند التخوم الشرقية لليبيا ستكون المجموعة على اتصال طبيعي (حسّي) مباشر بالشرق العربي. وبحدودها الجنوبية ستكون المجموعة على اتّصال طبيعي مباشر بالسنغال ومالي والنيجر والتشاد والسودان... وإن عملية إعادة التركيز هذه سيكون لها الفضل في إخراج «المغرب الكلاسيكي» (: تونس، الجزائر، المغرب) من وضعه «وجها لوجه» مع أوروبا. وهذا الوضع «وجها لوجه» تعيشه حاليا هذه الأقطار في شكل تبعيّة موضوعية[١٦].

وتشير التحذيرات من أنه ليس بإمكان أية مجموعة «جيو ـ سوسيو ـ إقتصادية» تبلغ أقلّ من ١٠٠ إلى ١٥٠ مليون ساكن أن تعيش في بداية القرن الحادي والعشرين فما هو مصير موريطانيا مثلا بثلاثة ملايين ساكن وليبيا بخمسة ملايين ونصف من السكان سنة ٢٠٠٠؟[١٧]

إنّ تجربة حركات التحرر الوطني والسياسة التي تتبعها الحكومات المغربية منذ ربع قرن على الأقل تفرض بلا شك مراجعة تامة للتصوّرات الكلاسيكية التي نرى بها الوحدة المغربية. وكما يقول سامي ناير، لابدّ من تمرير أطروحتين على غربال النقد، وهما الأكثر شيوعا. من جهة، الأطروحة القائلة بإمكانية تحقيق الوحدة المغربية دون تغيير العلاقات الإجتماعية داخل كل دولة، هذه الأطروحة التي تفترض تراكما تدريجيّا للإتفاقات بين الدول في مختلف المجالات الإقتصادية والثقافية، لم تصمد أمام التناقضات بين أقطار المغرب العربي على الصعيد الجيو ـ إستراتيجي ولا أمام التأثيرات التي حثتها النماذج المجرّبة في الأقطار المغربية. وإذ تبقى ثوابت البؤس قائمة: البطالة، أزمة الزراعة، الإفقار المائي، تهميش شرائح من السكان يرتفع عددها أكثر فأكثر... فإن الإتجاهات الإقتصادية خلال ثلاثة عقود من «اللاتنمية» تتباعد بين الدول

وتجعل من الصعب جدا قيام سياسة مغاربية متجانسة: تزداد زراعة المغرب فقرا، ولا يتطابق التصنيع في الجزائر، غير الفعال والمكلف، مع الطلب الإجتماعي للسوق الداخلي الممكن في المغرب العربي، في حين يتقهقر الجهاز الإنتاجي التونسي بالمقارنة مع تراكم الارباح الناتجة عن قطاعات غير منتجة كالسياحة... وبعبارة أخرى، فإن الإفقار بالمعنى الحقيقي هو اليوم أهمّ بكثير ممّا كان عليه قبل (٢٠) عاما. إذن فالسياسات الإقتصادية المتّبعة لم تؤدّ إلى خلق جدلية تبادل بين الدول[١٨].

من جهة أخرى، لايمكن ايضا قبول الأطروحة الإدارية التي ترى أن بناء المغرب العربي حقيقة موجودة في قلوب الشعوب، كتناقض مع شوفينية الطبقات الحاكمة لكلّ شعب من هذه الشعوب، حقيقة لاتتطلّب إلاّ أن تصبح أمرا راهنا ومجسّدة. وبالرغم من أنها تحتوي على بعض العناصر العميقة للحقيقة، فإن هذه الأطروحة تخطىء بسبب عدم واقعيتها: فهي تستهين بشكل خطير بتأثيرات الدعاية الشوفينيّة على تكوين الشخصية المغربية المتميزة، وخصوصا فقدان الإحساس بالهوية الجماعية والموحدة في أوضاع البؤس الإجتماعية: في الحقيقة، بقدر ما يتزايد التهميش الإجتماعي، يتنامى التغريب الإجتماعي ويتسع انخفاض الإحساس ـ الوعي ـ بالإنتماء إلى مجموعة تاريخية معينة[١٩].

وعلى الرغم من أن موضوع الوحدة بين أقطار المغرب العربي يظهر بعد الإستقلال كمشروع مرتبط كليا بإرادة حكومات وشعوب تلك الأقطار، إلا أنه ليس كذلك تماما. ذلك أن الظروف التي ألمت باستقلال كل قطر ونوع النظام الذي اختارته وسياستها الإقتصادية وعلاقتها الخارجية، أصبحت أموراً وعوامل مؤثرة في مشروع الوحدة المغربية.

ومن هنا ظهرت فكرة «مغرب الشعوب» و «مغرب الحكومات» و «مغرب المنظمات» و «مغرب التكامل الإقتصادي»... ظهرت هذه التصورات كبديل عملي للوحدة الإندماجية أو تعويضا عنها أو مرحلة من المراحل المؤدية إليها. بل إن الوحدة بمعناها العفوي المطلق أيام الكفاح الوطني أصبحت بشهادة عدد من السياسيين في بعض الأقطار المغربية ممن كانوا آنذاك من زعماء الإستقلال ـ أصبحت حلما من أحلام الشباب وأمنية يصعب تحقيقها في ضوء الواقع السياسي الحالي، وفي المستقبل المنظور، لأقطار المغرب العربي.

ومن «مغرب عربي كبير» إلى «مغرب عربي أكبر» إلى «مغرب عربي» وكفى، كان شعار الوحدة ـ على حد تعبير المنجي الكعبي ـ يخضع إلى تقليص وتمديد يعكس مستوى الحرارة في العلاقات السياسية بين الحكومات الشقيقة في المنطقة[٢٠].

أزمة الدول القطرية

إن المجتمعات المغربية تعيش اليوم نهاية عهد بناء الدولة الوطنية، وبداية عهد جديد يبحث عن صيغ مواتية وأكثر فاعلية لتخطيط التقدم الفردي والجماعي، ذلك أن كل شيء يدلّ على أن برامج الحركات القطرية قد استنفدت طاقاتها، ولم تعد قادرة لا على الإنجاز التنمويّ ولا على سدّ الفراغ الإيديولوجي الرهيب الذي تشكو منه الأفواج المتتالية من الشباب.

لقد شهدت السنوات الأخيرة العديد من المؤشرات التي تدلّ على أنّ الأنظمة أصبحت تدرك أنها في وضع مغلق الآفاق. وأخذت تحاول البحث عن إمكانيات جديدة لتجديد نفسها، عبر رفع شعارات مثل «التفتح السياسي» و «اللاّمركزية» و «بناء المغرب العربي الكبير».

وبعد ثلاثين سنة مرّت على مؤتمر طنجة، بدأت فكرة الوحدة المغربية تطرح من جديد، وتكمن وراء هذا الطرح جملة من الأسباب بعضها مشترك وبعضها خاص. من العوامل المشتركة، بالزيادة عن الإنجازات والمكاسب التي لايمكن نكرانها على الصعيد القطري، نجد الخيبات والشعور المتزايد بأن الهياكل القطرية أصبحت تحدّ من أسباب التقدم ووسائله، وشعور القيادات بالهوة التي تفصلها عن الشباب، هذا الشباب الذي ملّ تكرار الأسطورة الوطنية، وملّ احتكار البطولات وافتقر إلى إمكانيات واقعية لتحقيق ذاته.

ولكن هناك عوامل أخرى سوف يكون لها الوزن الأكبر على ما هو ممكن أو غير ممكن بالنسبة لبناء المغرب العربي، ولعلّ أهمّها اختلاف القادة المغاربة فيما يخصّ الأهداف النهائية للوحدة، والتنافس للسيطرة.

والإختلاف في تصوّر الهدف من الوحدة المغربية، هل هي وحدة مرحلية على طريق الوحدة العربية الشاملة؟ أم هي وحدة على شاكلة مجلس التعاون الخليجي؟ ولا يخفى أن المسؤولين التونسيين يميلون إلى هذا الشكل الأخير من التعاون.

إن وجود «الأنانية المقدسة» للدول وتغليب طابع السيطرة لايؤديان للبناء الوحدوي بقدر ما يؤديان إلى المعاهدات الثنائية والثلاثية كصيغة تمهيدية لقيام الوحدة، ولكنها في الحقيقة توسع الهوّة وتكرس سياسة المحاور. فبعد أن ابرمت الجزائر وتونس

معاهدة الإخاء والوفاق (٩ آذار ١٩٨٣) ودعتا أقطار المغرب للانضمام اليها، لبّت موريطانيا الدعوة، بينما اتجهت كل من ليبيا والمغرب الى ابرام اتفاقية ثانية، (الاتحاد العربي الافريقي بوجدة في شهر آب ١٩٨٤) في وقت يطلب فيه المغرب الأقصى بصفة غير مباشرة أن يصبح عضوا في المجموعة الإقتصادية الأوروبية، و «بأن المجموعة الأوروبية اختيار سياسي، وأن المغرب الأقصى قد حسم في هذا الخيار بتشجيعه التعدّدية السياسية والحريات النقابية وحرية التبادل الاقتصادي»، مما يجعله «اكثر البلدان العربية قربا من الغرب».

إن المغرب العربي حاليا فاعل طبيعي، سواء في الخط الأول أم في الخط الثاني، في عدّة منازعات. هناك بادئ ذي بدء، المنازعات الصحراوية التي تخصّ المغرب بالدرجة الأولى: الصحراء الغربية والتشاد. والنزاع الأول قد أضرّ بالقليل من التلاحم الذي كان في المنطقة. وطالما هو يجمّد العلاقات المغربية ـ الجزائرية، فهو يحول دون أن تمضي كل دينامية وحدوية بعيدا. والنزاع الثاني في التشاد يطرح المسؤولية على مجمل الصحراء المغربية. وهناك أيضا نضال الشعب الفلسطيني، والنزاع العربي ـ «الإسرائيلي» الذي يثيره ذلك النضال. إن أقطار المغرب العربي هي اليوم أقطار مجابهة. وقد كان قصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس عام ١٩٨٥، والعدوان الذي أدّى إلى اغتيال «أبو جهاد» بفعل الإرهاب الصهيوني خير دليل على ذلك. وهذا الوضع يستلزم أن تزيد أقطار المغرب من تلاحمها إلى جانب الشعب الفلسطيني.

وفي لبنان تتسع هذه النزاعات بين العرب وتشتدّ بتداخلها في مجملها مع الإنشقاقات ذات الطابع الديني التي يغذيها أساسا التوسع الايديولوجي الفارسي. فعلى هذا المستوى من مفهوم الإسلام وعلاقاته مع الدولة توجد أقطار المغرب على خط المجابهة. والعنف الذي وقع مؤخّرا في تونس والجزائر والذي كان وراءه الجماعات الدينية المتطرفة التي لاتخفي تعاطفها مع إيران الخمينية دليل على ذلك أيضاً.

إن الخيار يبقى هنا سياسياً، وإن كانت الضرورات الإقتصادية والازمات الإجتماعية والمناخ السياسي العالمي والفراغ الإيديولوجي الذي يعاني منه قطاع واسع من الشباب العربي في المغرب تتجه كلها نحو إنجاز شكل من أشكال الوحدة.

الهوامش:

(١) محمد الميلي: المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب ـ دار الكلمة ـ بيروت ـ ط 2 ـ ص: 26, 27, 37, 38, 42, 43

(٢) الرشيد إدريس: كيان المغرب وآفاقه ـ اشغال ملتقى بناء المغرب العربي (تونس تشرين الاول/ اكتوبر 1981) ـ منشورات الجامعة التونسية 1983 ص 16.

(٣) محمد عابد الجابري: تطور فكرة المغرب العربي ـ مجلة دراسات عربية ـ العدد 7 ـ ايار/ ماي 1983. ص 5,4.

(٤) علال الفاسي: الحركات الإستقلالية في المغرب العربي، نقلا عن الجابري. ولابدّ من الإشارة إلى اختلاف في تحديد الأمكنة بين الجابري وإدريس. ففي حين يقول هذا الأخير إن اللجنة التونسية ـ الجزائرية تاسست في جنيف على يد محمد باش حانبة، يذكر الجابري ان مقرها كان ـ برلين.

(٥) الجابري: المصدر نفسه. ص ٦

(٦) إدريس: المصدر نفسه. ص ١٦، ١٧

(7) «CH. Anche Julien. P'Afique du nord en menche» p. 23. Julliand. Paris 1952.

(8) Ibid. p. 24

(9) Ibid. p. 24

(١٠) عليف البوني: وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث ـ ص ٩٥ منشورات العالم العربي، باريس، بلا تاريخ إصدار

(١١) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، نقلا عن البوني. ص ٩٥ ـ ٩٦

(١٢) الميلي: المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢١

(١٣) راجع من اجل المزيد من الإطلاع على هذه الفترة كتاب الرشيد إدريس: ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس ١٩٨١.

(١٤) إسماعيل العربي: التكتل والإندماج الإقليمي بين الدول المتطورة ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر ـ ط ٢ ـ ص ١٢٩.

(١٥) محسن التومي: تصوّر جغرافي لوحدة المغرب العربي ـ ضمن مؤلف جماعي: وحدة المغرب العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية. ط١ كانون الثاني ١٩٨١. ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(١٦) التومي: المصدر نفسه. ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

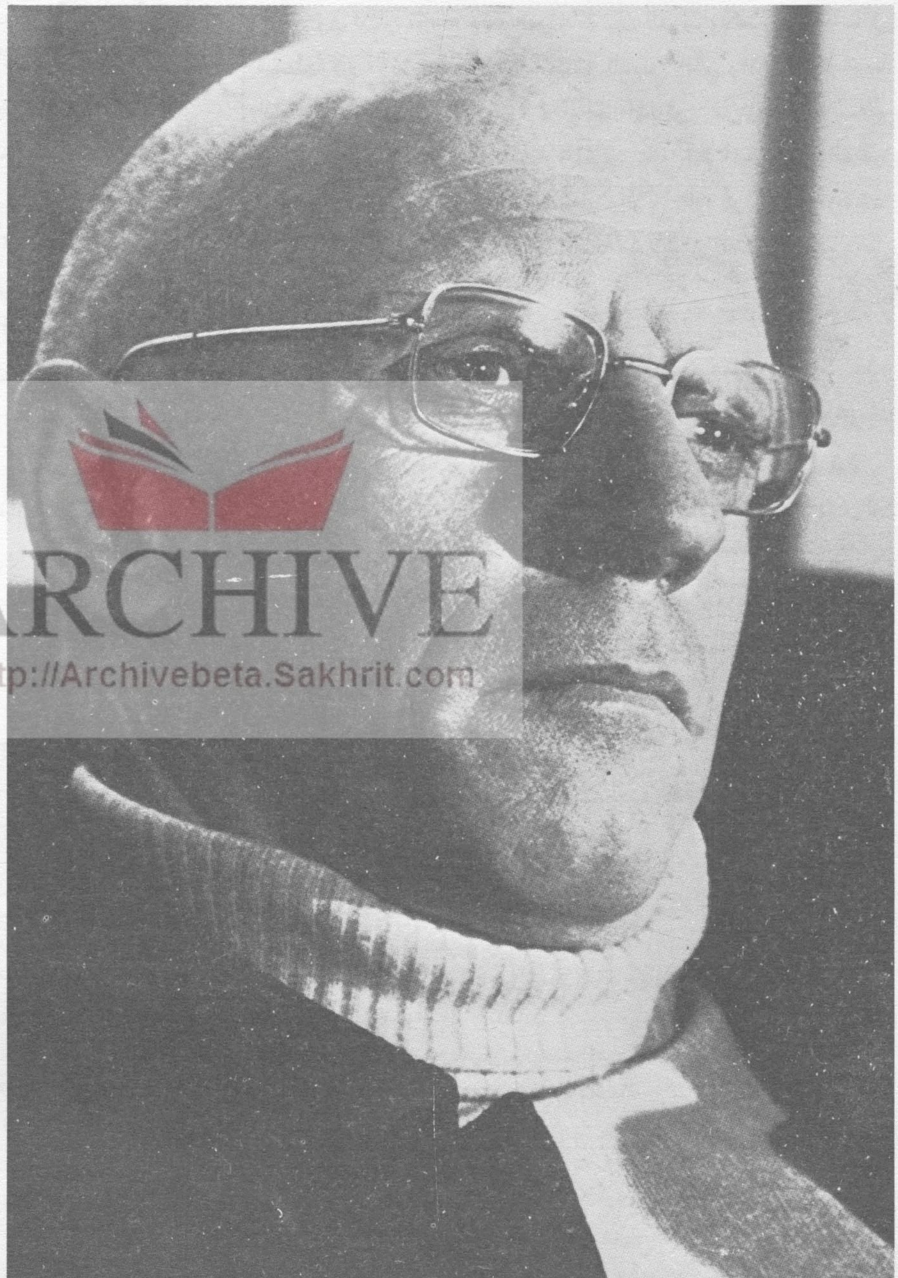
(١٧) المهدي المنجرة: المغرب الكبير سنة ٢٠٠٠. مجلة ١٥ ـ ٢١ ـ تونس ـ العدد ١ ـ تشرين الثاني ١٩٨٢.

(١٨) سامي نابر: سبع اطروحات حول المغرب العربي ـ ضمن المؤلف الجماعي المذكور اعلاه. ص: ١٩٣.

(١٩) نابر: المصدر نفسه. ص ١٩٤.

(٢٠) المنجي الكعبي: المغرب العربي بين الوحدة والإستقلال ـ ضمن اشغال ملتقى بناء المغرب العربي المذكور آنفا. ص: ٢٣٤.

مفهوم «السلطة» عند ميشال فوكو



يعد ميشال فوكو M. Foucault (١٩٢٨ ـ ١٩٨٤) واحدا من المفكرين القلائل المعاصرين الذين اكتسحوا الساحة الفكرية والفلسفية في الآونة الأخيرة، وفرضوا اسلوباً جديداً في التفلسف وفي التأريخ للوقائع الانسانية، ومن أبرزها **الجنون أو الحمق، الحبس والعقاب و الجنس**.

ويمكن القول اجمالاً: إن الاسلوب الجديد الذي طرحه هذا الفيلسوف الفرنسي، والذي يطلق عليه اسم **المنهج الحفري أو الحفريات أو الاركيلوجيا** يندرج ضمن سياق معين هو التحول المنهجي الجديد الذي أصاب الفكر الاوربي المعاصر؛ وهو تحول يدخل في اطار ثورة معرفية اساسية، بدأت بوادرها في الظهور منذ نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر؛ وتتمثل في الثورة اللسانية مع «دوسوسير»، والثورة المعرفيّة مع «بشلار» والتيار الوضعي الجديد، والثورة التحليلية النفسية مع «فرويد» و «جاك لاكان» فيما بعد، والثورة البنيوية مع «ليفي ـ شتروس» والثورة التاريخية مع مدرسة الحوليات الفرنسية بزعامة المؤرخ فرنان بروديل، ناهيك عمّا رافق ظهور الفيزياء المعاصرة والرياضيات المعاصرة من خلخلة لمفهوم البداهة العقلية.

في كل هذه الميادين، تم فصل المعنىٰ عن الوعي، كما تم التأكيد في أن المعاني لاتصدر عن ذات سيكلوجية أو استعلائية وانما تتولد في اللغة ومنظومات القرابة ومختلف المنظومات الرمزية أو النظرية، كما تم اثبات أن الذات ليست فاعلاً، بل حصيلة مفاعيل أو مكان مفاعيل.

سالم يفوت

كلية الآداب والعلوم الانسانية

الرباط - المغرب

ففي المدرسة التاريخية الجديدة ألغي الفرد او الذات وتم احلال العصر محله. وفي علم الإشارة الغيت الذات واستغني عنها باحلال النص محل المؤلف والحركات الادبية، بل بدأ الحديث عن موت المؤلف، واستعيض عنه بالكتابة كعبارة أو تعبير، كلعبة دلائل ، كخطاب يخضع في مجموعة لشبكة من القواعد والاكراهات والضغوط، لكنها اكراهات وضغوط لا توجد خارج اللغة، في الذات، في تلك المنطقة الغابرة التي لاقدرة للكلمات على كشف أسرارها، بل في اللغة نفسها التي لايمكن لدراستها قط أن تكون دراسة لما وراءها، كالقصد او الوعي...

انه الاتجاه الذي اتخذته نظرية الرموز مع «شارلز ساندرز بيرس»، وهو اتجاه سيتعمق مع الزمن على يد فلاسفة ولسانيين، سيبلورون «لسانيات لاديكارتية»، عكس لسانيات شومسكي، من خلال الثورة على مفهوم الذات والمعنى والحقيقة والوعي والفكر، وانتقاد الثنائيات التي اقامتها الفلسفة، ومعها اللسانيات، مع ابراز انها ثنائيات تكرس ميتافيزيقا الوعي وفلسفة الكوجيتو، كثنائية الفكر واللغة، والمعنى واللفظ... وسيتعمق هذا الاتجاه اللاديكارتي في اللسانيات خصوصاً مع «مدرسة اكسفورد»، لاسيما مع «جي. إل. أوستين» في كتابه الشهير «How to do things with Words»، حيث التأكيد في أن المعنى ليس وليد الذات أو الوعي، بل وليد أوضاع سلوكية.

أكد «فرويد» والتحليل النفسي أن الوعي عرض من الاعراض وانه «مكان» مفعولات المعاني. كما أوضح «لاكان» أن الذات ليست «ذاتية» إلا في مجال معين من بنيتها، وهو المجال الذي يكون فيه للذات صورة عن نفسها، اي مجال الأنا. وان مجموع المستويات التي تحدد الذات تتجاوز حدود هذا المجال. فالذات ليست هي الانسان ولا الفرد. انها ليست نقطة منفردة وانما بنية معقدة. انها حاملة مفعولات اللاشعور وهي ليست إلا معبراً وقنطرة، وحاملةً للغة وللتفاعل بين المستوى الرمزي والواقعي والخيالي.

ليس من سماح الوعي الحضور، بل انه يغيب، يكبت، وربما كان المكبوت غير الحاضر اهم من الواعي المكتوب الحاضر، باعتباره يمارس ضغطاً على وعينا ويحدده متخذاً تجليات تكتم حقيقته ولا تبوح بها: اي أن الحضور لا يحضر، والكتابة نفسها، في منظور التحليل النفسي، لاتعكس فيه الكاتب، ولا تنطوي عليها، بل تنطوي على ما لم يفكر فيه.

ويمكن القول ان فكرة «اللامفكر فيه» هذه، كانت الركن الأساسيّ في تقويض تراث الميتافيزيقا المؤسس على فلسفة الوعي او فلسفة الكوجيتو. وكما يلاحظ تم هذا التقويض، ليس من داخل الفلسفة، وانما على هامشها، ذلك الهامش الذي أصبح يشكل الامكانية الوحيدة للفلسفة كي تحيا وتجدد نفسها.

ويكمن «الانقلاب الحفري» الذي دشنه فوكو، في استثمار هذا الجانب، جانب التركيز على نقد فلسفة الوعي. فقد لاحظ أن تاريخ الافكار التقليدي، بوصفه المنهجية الشائعة المعتمدة، هو مأمن متميز لسيادة الوعي. خصوصاً وأنه تاريخ يتبنى رؤية يعتبرها بديهية أساسها اعتبار الاحداث متصلة يحدد السابق منها اللاحق ويؤثر فيه، مع انطلاق ضمني من أن ما يدرك وحدة الاحداث والافكار واتصالها، ذات او وعي يحدس الوحدة خلف التباين. فالتاريخ المتصل هو الرديف الملازم للدور التأسيسي للذات. فهو الذي يضمن لها أن تستعيد كل ما ضاع منها، ويؤكد أن الزمان لايفرق بين الاشياء إلا لكي يعيد اليها وحدتها، ربما يعد بان كل هذه الامور التي أزاحها الاختلاف، في مقدور الذات - في صورة الوعي التاريخي - أن تتملكها يوما ما، لتبسط عليها هيمنتها وتجد فيها ما يمكن أن نسميه مقرها. ان جعل التحليل التاريخي خطابا للمتصل، والوعي البشري ذاتا هي مصدر كل صيرورة وممارسة: هما وجهان للنظام الفكري نفسه؛ انه نظام يَعُدّ الزمان تجميعا كليا للأحداث والثورات التي هي مظاهر ليقظة الوعي. وهو انقلاب كانت له ممهدات استلهمها فوكو، باعترافه هو نفسه، ومن أبرزها ماركس الذي حلل روابط الأنتاج والتحديدات الاقتصادية والصراع الطبقي، ونيتشه صاحب علم الأنساب، فضلاً عن أبحاث التحليل النفسي واللسانيات، التي سبقت الأشارة اليها. وحاول، في بحثه في المعرفة، تحليل مجموع العلاقات المعرفية التي بامكانها أن توحد في فترة معينة بين مختلف الممارسات الخطابية وتجعلها تخضع للقواعد العقلية ذاتها إذ يمكن الوقوف على حضورها في الانتاجات التي



تعرفها الفترة على الرغم من اختلاف الميادين وتباين الفنون، لكن ذلك يتطلب عملية حفر. وهو ما حاول فوكو أن يبسطه في كتاب **حفريات المعرفة** الذي يعد تنظيراً لكتاب **الكلمات والاشياء**. وقد انصب الاهتمام في «الحفريات» على رسم الخطوط العريضة لمنهج الحفر مثلما تم اعتماده في «الكلمات والاشياء» مع تأكيد التشكيلات المعرفية الاساسية التي عرفها الفكر أو المعرفة الغربيان منذ النهضة حتى نهاية القرن التاسع عشر، او كما يسميها «التشكيلات الخطابية». غير أنه مع صدور كتابه «الحبس والعقاب» ، طفا على السطح مفهوم جديد هو مفهوم السلطة، صحيح أن هذا المفهوم لازم كل مؤلفاته السابقة، باعتبار أن السؤال الذي استبد به فيها هو كيف تحايث السلطة المعرفة وكيف تتخفى فيها؟ بل كيف تولد السلطة معرفة؟ إلا أن الجديد في الكتاب الأخير أنه انطلاقاً من مثال ملموس أكثر التصاقاً بالمؤسسة الاجتماعية والقانونية وهو الحبس ، حاول التساؤل عن السلطة نفسها مقدماً ما يمكن اعتباره اطروحات اساسية بخصوصها.

وعلى الرغم من أن فوكو لايخصص للمسألة، في كتابه، سوى بضع صفحات، إلا أن تناوله لها كان واضحا يتجه بالاساس نحو مراجعة عدد من القضايا التي طبعت الموقف التقليدي لليسار والتخلي عن عدد من المسلمات الشائعة.

من تلك المسلمات، مسلمة الملكية، ومفادها أن السلطة «في ملك» طبقة ما، وان ملكيتها لها اساسها الفلبة. واعتراض فوكو هنا، هو أن السلطة لاتمارس نفسها بهذا النحو، فهي استراتيجية اكثر منها ملكية؛ لاترجع آثارها ومفاعيلها الى تملك ما، بل تعود الى تدابير وحيل ووسائل وتقنيات واعمال، فهي تمارس أكثر مما تتملك، ليست حقا تحتفظ به لنفسها الطبقة السائدة وتحتكره، بل هي مفعول مجموع مواقعها الاستراتيجية.

لاتطعن هذه النزعة الوظيفية الجديدة، بطبيعة الأمر، في وجود طبقات وصراعات طبقية، بل ترسم لها لوحة مغايرة، بمناظر طبيعية مختلفة، واشخاص ليس الاشخاص انفسهم، وطرق غير تلك التي عودنا ايّاها التاريخ التقليدي، بما فيه التاريخ الماركسي: «نقط لاحصر لها، بؤر عدم استقرار مع ما ينذر به كل واحد منها من انفجار، صراعات، انقلاب، ولو مؤقت، في علاقات القوى»، ومجمل القول ؛ ليست السلطة سلطة متجانسة، بل تتحدد بفرديات ونقط فريدة تمر عبرها السلطة وتتخفى فيها.

إنّ مسلمة انحصار موقع السلطة وتركزها في موقع بعينه، وهي ان السلطة هي سلطة الدولة، وانها تتجسم في جهاز الدولة، الى حد ان السلطات التي لاتنتمي الى الدولة، لاتتمتع إلا بانفصال مظهري عن سلطة هذه الاخيرة، لهذا فهي اجهزة خاصة في يد الدولة. على العكس من هذا، يؤكد فوكو أن الدولة ذاتها مفعول وأثر للمجموع، ونتيجة لعدة دواليب وبؤر تجد موضعها في مستوى مختلف اتم الاختلاف عن ذلك الذي توجد فيه السلطة، ومن بين الافكار الاساسية التي جاءت في كتاب **الحبس والعقاب**، أن المجتمعات الحديثة، يمكن ان ينظر اليها على انها مجتمعات «انضباطية»، لكن الانضباط، لايفهم هنا كمرادف مؤسسة ولا حتى لجهاز، بل هو، على الاصح، لون من السلطة، اساليب وفنون تتخلل سائر انواع الاجهزة

والمؤسسات لربطها من جديد وتصل بينها وتجعلها تتضافر ممارسة نفسها بطريقة جديدة. لاينبغي كذلك أن يفهم على انه مرادف لقطاعات ودواليب خاصة تنتمي للدولة انتماءاً صريحا، كالشرطة والسجن، فالاصح أن يقال: ان «السجن» لايجد أصله في «البنيات القضائية والسياسية للمجتمع»، ومن الخطأ ربطه بتطور القانون، والقانون الجنائي على الخصوص. فالسجن بوصفه يضطلع بتنفيذ العقاب، يتمتع هو الآخر بنوع من الاستقلال الذاتي الذي يعد شرطا ضروريا له، ويقوم شاهدا، هو الآخر، على أن ثمة «هيئة تضطلع بعملية التأديب»، وتتجاوز سلطتها سلطة الدولة نفسها، والتي جاءت، هي كهيأة لتخدمه.

وقصارى القول: تتجاوب وظيفية فوكو مع نظرة حديثة تنظر الى موقع الشيء، بالنسبة الى الاشياء الأخرى، ولا تعتبره موقعا مطلقا ومتميزا؛ فالسلطة لاموقع لها لانها لاتنحصر في مكان، بل تنتشر في كل الامكنة، لكن لها موقعا باعتبارها غير شمولية.

إنّ مسلمة **التبعية**، مفادها ان السلطة المجسدة في جهاز الدولة، تابعة لنمط انتاج ما، يعد بنية تحتيّة لها. ومما لاريب فيه أن بالامكان ربط كبريات النظم العقابية بانظمة انتاج، كما لايمكن فصل التدابير التأديبية، خصوصا، عن الضغط السكاني الذي عرفه القرن الثامن عشر، وعن تزايد انتاج كان يسعى الى رفع مردوديته، وائتلاف القوى، واستثمارها فيما هو نافع. غير انه من المتعذر النظر الى كل ذلك على ان الاقتصاد هو مُحدِّده في نهاية المطاف، حتى إن تصورنا البنية الفوقية مستقلة نوعيا وتتمتع بالقدرة على الفعل أورد الفعل. فالاقتصاد بأكمله، كالمعمل او المصنع مثلا، هو الذي يفترض آليات سلطة، وهي آليات تفعل فعلها فيه مثلما تفعل فعلها في الاجساد والنفوس من الداخل؛ تتخلل الحقل الاقتصادي وقوى الانتاج وعلاقات الانتاج؛ فعلاقات السلطة لاتوجد في موقع برائي بالنسبة لسائر انواع العلاقات... ولا تمثل بنية عليا، بل توجد ماثلة في كل البنيات. وبدل الهرمية التي ما انفكت تطبع التصور الماركسي، يطرح التحليل الوظيفي الدقيق نوعا من المحاثية او المثول الثاوي، حيث تشكل بؤر السلطة والتقنيات التأديبية عددا من القطاعات المترابطة التي تحكم سلوك الافراد كالاسرة والمدرسة والمصنع.

أمّا مسلمة **الجوهر والاعراض**، فمفادها ان للسلطة جوهرا كما أنها عرض يظهر على أولئك الذين يملكون زمامها من خلال تميزهم عن اولئك الذين تسلط عليهم. وخلافاً لهذه المسلمة، يؤكد فوكو أن ليس للسلطة جوهر، بل هي اجرائية. ليست كذلك عرضا، بل هي علاقة: وعلاقة السلطة هي مجموع علاقات القوى التي لاتخترق القوى الغالبة أكثر من اختراقها للقوى المغلوبة؛ هذه وتلك، تشكلان معا فرديتين. «تحاصر السلطة المحكومين وتتخللهم مرتكزة اليهم بالكيفية نفسها التي يرتكزون هم بدورهم على التأثير والسطوة اللذين تمارسهما عليهم في صراعهم ضدها». وسيؤكد فوكو من خلال التحليل للاوامر الاستبدادية بالحبس والنفي التي كان يصدرها ملوك اوربا، أن «تعسف السلطان» تعسف لايتجه من أعلى الى اسفل، كصفة لسلطته المتعالية، بل هو استجابة لطلب، يتقدم به اليه أبسط الناس والآباء والجيران والزملاء الذين يرغبون في حبس أحد مثيري الفتن التافهين او المحرضين على الشغب، ملتمسين بذلك معونة الملك المستبد، كما لو كانوا يلتمسون معونة «مصلحة عمومية» قائمة، قادرة على فض النزاعات العائلية والزوجية والطرقية والمهنية. لذا فان الامر الاستبدادي بالحبس او النفي، يبدو هنا كشكل اولي او صورة بدائية لما يسمى حاليا في الطب العقلي «الحجر الاداري» ذلك أن علاقة السلطة، بدلا من أن تمارس نفسها داخل دائرة عامة أو خاصة، تتغلغل في كل جانب، حيثما توجد فرديات مهما كانت بسيطة ومتناهية في الصغر، حيث توجد علاقات قوى، مثل «الشجار الذي ينجم بين الجيران، نزاع الآباء وابنائهم، الخلافات الزوجية، الافراط في الشراب، الدعارة، الشجار في الاماكن العامة، الرذائل الممارسة خفية».

إنّ مسلمة **انماط التاثير**، مفادها أن السلطة تتصرف بعنف أو تمارس نفسها كايديولوجية، تخدع وتموه. يؤكد فوكو، خلافا لهذه المسلمة، أن السلطة لاتمارس نفسها كايديولوجية، حتى عندما تتسلط على النفوس، لاتلجأ بالضرورة الى العنف، لاتقمع في الوقت الذي تتسلط فيه على الاجساد، بل الاصح أن العنف مظهر او أثر للقوة المسلطة على شيء ما، موضوعا كان أمْ كائنا، وليست تعبيرا عن علاقة السلطة او مظهرا لعلاقة القوة بالقوة.

فالسلطة تنتج الواقع قبل ان تقمع، تنتج الحقيقة قبل أن تضفي عليها رداء ايديلويجيا، قبل ان تموه. وكتاب ارادة المعرفة هو الكتاب الذي سيبرز فيه فوكو بوضوح، انطلاقا من مثال متميز هو «الجنس» إذْ كيف نستطيع التأكد من وجود

قمع جنسي يفعل فعله في اللغة لو وقفنا عند الكلمات والجمل، وهو شيء لانتمكن فيه لو استخرجنا العبارات الشائعة وعلى الخصوص اجراءات الاعتراف التي تمارس في الكنيسة والمدرسة والمستشفى والتي تبحث في آن واحد في واقع الجنس، وفي حقيقته، سيبرز كيف أن القمع والايديلوجيا لا يفسران شيئا، بل يفترضان تنظيما أو «تجهيزا» ضمنه يفعلان فعلهما، وليس العكس. لايعني هذا أن فوكو يجهل كل شيء عن القمع والايديلوجيا، بل يعتبرهما في الحقيقة، شانه شان نيتشة، لايشكلان معركة القوى، بل ذلك الغبار أو النقع الذي تثيره سنابك الخيل في المعركة، والذي يخفي المعركة نفسها ويسترها عن الانظار.

فمفاد مسلمة **الشرعية**، هو أن سلطة الدولة تتجلى في القانون مع اعتبار هذا الاخير تارة على انه سلم مفروض على القوى الوحشية، وأخرى على انه حاصل حرب أو صراع حالف الاقوياء فيه النصر. ومن بين الافكار المحورية الاساسية، في كتاب فوكو، **الحبس والعقاب**، ضرورة الاستعاضة عن التقابل غير الدقيق بين القانون وغيابه. ذلك أن القوانين دوما، جمع وتركيب لنزوعات لاشرعية عن طريق التفريق بينها بتقنيتها. ويكفي الرجوع الى قانون الشركات التجارية للتأكد من أن القوانين لاتتعارض كلية واللاشرعية، بل بعض القوانين يقنن ويدبر بصورة صريحة سبل مراوغة القوانين الأخرى، فالقانون تنظيم لنزوعات تنظيما يبيح بعضها، يجعله ممكنا أو يقدمه امتيازا للطبقة المسيطرة السائدة، وتنظيم كذلك لنزعات لاشرعية اخرى يجيزها كتعويض للطبقة المسودة، أو يجعلها تخدم مصالح

هذه الاخيرة، انه أخيرا، تنظيم لتلك النزوعات التي يمنعها ويعزلها ويتخذها كموضوع أو كوسيلة من وسائل السيطرة، والتي كان اساسها، التوزيع الجديد للنزعات اللاشرعية، وهو توزيع لم يكن مرده أن طبيعة الخروق القانونية بدأت تميل نحو التغيير وتدور اكثر فأكثر حول الملكية بدل الاشخاص، فقط، بل لأن السلطات التأديبية نظمت تلك الخروق وقننتها بشكل جديد يفسح المجال لتحديد شكل لم يكن معهودا من قبل، يطلق عليه «الجنوح»، ويسمح بتمييز جديد وبمراقبة جديدة للنزوعات اللاشرعية.

وتعود اسباب ما عرفته الثورة الفرنسية من مقاومة، بالتأكيد، الى أن نزوعات لاشرعية معينة كان النظام الملكي يبيحها ويعتبرها شرعية، صارت محرمة من قبل النظام الجمهوري. لكن ما تلتقي فيه الانظمة الجمهورية والملكية الغربية، هو كونها وسعت من حقيقة القانون وحولته الى مبدأ مفترض للسلطة، حتى تعطي لنفسها صورة ممثل واحد للقانون: أي «أن الغطاء القانوني»، جاء ليخفي الخارطة الاستراتيجية ويقنعها. إلا أن خارطة النزوعات اللاشرعية، تسترسل في عملها مع ذلك تحت غطاء الشرعية. وهذا ما جعل فوكو يؤكد أن القانون ليس حالة من السلم، ولا حتى حاصل حرب ربحها البعض: بل هو الحرب ذاتها، والتخطيط لها بالفعل، والقانون في هذا مثله مثل السلطة التي ليست ملكا دائما وقارا للطبقة السائدة، بل هي ممارسة فعلية لاستراتيجيتها.

لذا فان:

١ـ السلطة ليست شيئا يحصل عليه وينتزع او يقتسم، شيئا يحتكر او يترك، انما تمارس انطلاقا من نقط لاحصر لها، وفي خضم علاقات لا حصر لها.

٢ـ لاتقوم علاقات السلطة خارج انواع أخرى من العلاقات، كالعلاقات الاقتصادية والمعرفية والعلاقات الجنسية... وانما هي محاثية لها.

٣ـ تشمل السلطة الجسم الاجتماعي كله، كما تسرى في كل القوى المكونة له، وليست مجرد بناء يحدد ابنية اخرى ويجعلها انعكاساً له.

ومن مهام المنهج الحفري تحليل آليات السلطة في المعرفة ابراز اوجه تخفيها في هذه الأخيرة. ومثلما أبرز علم سلالة الاخلاق عند نيتشة بأنّ ثمة تواطؤا بين اللغة والسلطة، فما يجعل الكلمات الاوربية الدالة على القيم الاخلاقية تفعل ذلك لتستر اشياء اخرى تخفي رغبة المتفوقين في التفوق، والغالبين في الغلب... كذلك **الحفريات** الفوكوية تبرز أن كل معرفة تخفي سلطة معينة وتنتج عنها.

المصادر

1- M.Foucault, les Mots et les choses, Paris, 1966.

2-M.Foucault, L Archeologie du Savoir, Paris, 1969.

3- Foucault, Surveiller et Bunir, Paris, 1975.

4-M. Foucault, La volonte de Savoir, Paris, 1976.

5- G. Deleuze, Foucault, Paris, 1986.

٦ـ ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، بيروت، ١٩٨٦.

٧ـ جيل دلوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، بيروت، ١٩٨٧.

الاقناع والترغيب في وسائل الإتصال



«وبالأقناع المباشر تلعبون الدور الحقيقي.. لأن الصحيفة مثلاً تكتب مقالاً ولكنها لاتدخل في حوار مباشر بالأخذ والعطاء مع المواطن مثلما يدخل الى هذا المواطن نفسه اي مواطن آخر مع مواطن يحتاج الى نوع من الأجابة على اسئلة معينة.. وحتى تكونوا محاورين جيدين فأنتم بحاجة الى ان تكونوا مثقفين جيدين أي بمعنى أناساً تستطيعون تأشير الوسيلة عندما تحددون الهدف وتتقنون القدرة على الاقناع العقلي كتابة وقولاً وتلمون بما يستوجب من شؤون الحياة وروافدها.»

الرئيس القائد صدام حسين

د. وليد الحديثي

كلية الفنون الجميلة/ جامعة بغداد

تمهيد

منذ ولادة الخليقة وموضوع الاقناع وترغيب الناس اخذ اشكالاً وصوراً عديدة من اجل الوصول الى صيغة حياتية في التعامل الفردي والجماعي الى ان وصلت الحياة الى تعقيدات العلوم والمداخلات السياسية والفكرية والتنوع في الولاءات والالتزامات. وهكذا فأن الفرد يجد نفسه اينما كان وحيثما يذهب وكيفما يتصرف تجاه اي موضوع يواجهه او بتعبير ادق يخضع لعملية الاقناع والترغيب التي تنشر ظلالها الوسائل الاتصالية. ولذا يمكننا القول ان الوسائل الاتصالية والاعلامية كافةً هي وسائل اقناعية، ولولا حالة الاقناع لما كان هناك فعل ورد فعل معرفي،، ثقافي، حضاري، يأخذ دائرته الكاملة من خلال العملية الاتصالية التي يكون اطرافها المرسل والرسالة والوسيط والمستقبل، مؤطرة بالتغذية الراجعة. ان الانسان يسعى دائماً الى اقامة نسق او بناء من المعرفة وهو نسق يستند اصلاً الى سلوك اتصالي اقناعي يرتبط بين الانسان والواقع. فالجنس البشري بشكل عام هو مقنع ومرغب وهو مرسل المستقبل. ومن الملاحظات التي ينبغي ان يدركها المعنيون بعمليات الاتصال بوجوهها كافةً، ان المرسل الجيد يجب ان يكون مستقبلاً جيداً من اجل ان تكون عملية اتصاله مؤثرة. ولهذا فان المقنع المؤثر في وسطه يكون دائماً متلقياً جيداً يفهم الاشارة والرسائل عموماً بحساسية وصبر من خلال عين ثاقبة مميزة للاحداث. واقرب الامثلة حول العملية الاقناعية ـ الاتصالية هو الاقناع السياسي والدبلوماسي وما تترتب عليه من مستلزمات ومواصفات خاصة في الاوقات التاريخية والحرجة. والانسان بما يمتلكه من قدرات اصبح هدفاً لكل انواع الاستمالات الخاصة، فهو مطالب يومياً باتخاذ قرارات متعددة تتراوح في اهميتها حيث تدخل المضامين الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية وغيرها في هذا الشأن. كما ان تعقد الحياة في القرن العشرين والتقدم الحاصل في عالم الاتصالات اضافة الى تطور وسائل الاعلام جعل هذا العالم قريباً من بعضه مما زاد من المعرفة الانسانية وتعقيداتها وصولاً الى قرار معين. وان أي قرار لايتخذ لا يؤمن به ما لم يمر بعدة خطوات اقناعية تؤكد قدرتها في الدخول والرسوخ في العقل الانساني. وهناك عدة مضامين اقناعية نمارسها جميعاً في حياتنا اليومية ومن هذه المضامين الاعلان والعلاقات العامة وطبيعة الاساليب والاموال التي ترصد لذلك. ومن تلك المضامين ايضاً، المضمون الاقناعي المتمثل بعملية الدعوة المقصودة من خلال المقالات الافتتاحية والنشرات الخاصة ذات الدلالات التي تؤدي بالقارىء الى الوصول الى استنتاج. والمضمون الاقناعي الاخر، هو مضمون الاعلام والترفيه وفي هذا يكون الاقناع فرعياً وغير مباشر. كما ان التعبئة الجماهيرية تعتبر من المضامين الاقناعية ذات الاهمية الكبيرة في خلق اتفاق موحد، ورأي عام حول قضية معينة قد تكون حاسمة. وكل المضامين الاقناعية هي عملية اتصال. ان حضارتنا هي حضارة اعلام واتصال لانها اصلاً حضارة فكر. ومجتمعاتنا هي انساق ثقافية، تعبر كل منها عن روح شعبها، حيث تنبثق عن الفلسفة والاخلاق والدين.

لقد اثبت علم الاجتماع ان للعوامل الاجتماعية، والمصادر الثقافية الأثر الكبير في اكتساب المعارف ونشأة الايديولوجيات وصدور التيارات والاتجاهات الفكرية. والثقافة هي همزة الوصل التي تحقق الاساس الاتصالي بين مفاصل المجتمع وبين المجتمعات عامة.

ان كل اساليب المعرفة وحلقاتها من تعليم وتثقيف وتوعية وتوجيه وارشاد اضافة الى الرعاية والتدريب وتقديم الخدمات الاجتماعية واللقاءات في المناسبات المهمة، كلها من اساليب الاتصال. لان لكل عملية من العمليات الحياتية التي نمارسها صلة اجتماعية ذات مدلولات ومعانٍ؛ وهذه الصلة في التعبير لابد لها من ان تكون مقنعة..

كما ان الانظمة والاحزاب والحكومات بأنواعها كافةً قد ادركت اهمية الاقناع في كسب ولاء الجماهير بعيداً عن اساليب البطش والعنف، حيث اصبحت وسائل الاعلام بمحاورها كافةً واشكالها الشخصية والجمعية قادرة على تحقيق الهدف الذي تتوخاه تلك التشكيلات. ولكن هذا يحتاج الى قدر اكبر من الاتصال والى فهم واعٍ لعملية الاقناع والتأثير، لان طبيعة العنصر وطبيعة المداخلات تستوجبان معلومات اكثر وقدرات متميزة من أجل التأثير في الصورة الذهنية التي يمتلكها الفرد.

الاقناع وعلاقته بالتعليم والدعاية والاعلام

يمكننا ان نبدأ البحث في هذا الموضوع بالسؤال التالي:

ما هو الفرق بين التعليم والدعاية وما هي علاقتهما بالاقناع؟

وعلى الرغم من ان انحياز الناس بشكل قوي الى التعليم فلابد لنا من اطلاق التعريف المقارن كمرحلة اولى لفهم صيغة التبادل الموضوعي بين الاثنين، ضمن سياق المعرفة الانسانية والحاجة الى كسب الاكثرية.

فالتعليم هو عملية اتصال وتوصيل حقائق واراء ومعارف ونظريات ومبادىء. ولتحقيق هذا الغرض فأن المربي يكون مهتماً في اكتشاف الطريقة التي من خلالها يجعل المتعلم (الطالب) قادراً على الوصول الى الحقيقة بنفسه.

اما الدعاية فانها عملية اتصال لتعميم معرفة حقائق او افكار او آراء لاتحددها قناعة الجمهور بل قناعة وفائدة واغراض رجل الدعاية الذي يعمل على ترويج حالة ما.

ولقد ولدت الدعاية منذ زمن طويل وهي كلمة اقتبست من الكلمة اللاتينية (بروباكير propagare) والتي معناها زراعة الفلاح لنوع من النباتات من اجل انتاج نباتات جديدة. ولهذا السبب فقد اخذت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هذا المعنى عند تأسيسها لكلية الدعاية في عام ١٦٢٢ من اجل اعداد رسل خاصين للتبشير بالدين المسيحي[١].

اما طلبة اليوم فقد اعتمدوا على تعريف «هارولد لوسويل Harold Lasswel» والذي يقول: (الدعاية هي التعبير عن الاراء والافعال التي يحملها الافراد او المجموعات عن قصد لنهايات مسبقة ومن خلال المعالجة النفسية)[٢]. وعليه فأن اية محاولة لاقناع اي فرد تعتبر صيغة من صيغ الدعاية لموضوع معين، وان اية محاولة اعلامية هي عملية تربوية ولهذا فأن الدعاية تحتوي الشيء الكثير والجيد من المعلومات، وهناك الكثير من عمليات الاقناع في التربية.

ان الفرق بين التربية والدعاية يعتمد على الغرض الذي يحمله المرسل. واكثر الناس قدرة على فهم طريقة وطبيعة وغرض الترغيب والاقناع هم رجال العلاقات العامة. ولقد ادركت المجتمعات الحاجة الى هذا التوجه لانجاز المهمات الحياتية الاساسية ولجعل كل فرد من افراد المجتمع يعبر عن افكاره وارائه بشكل حر. وقد وقفت بعض المعوقات في هذا السبيل اولها الكلفة العالية لوسائل الاتصال التي خلقت الصعوبات للمواطن العادي في استخدام الصحافة كوسيلة من وسائل التعبير لأنَّ اصحاب الاموال هم المتحكمون فيها، وبذلك اخذوا يكتبون مـا يحلو لهم من اجل اقنـاع القراء. وفي الوسـائل الاعلامية تلعب الاخبار دوراً كبيراً في عملية الاقناع الصريح لعموم الرأي العام.. وخاصـة فيما يتعلق بنشـرات الاخبار التلفـزيونيـة والامكانية العالية التي تحملها في العصر الحديث بعد دخول التقنيات الحديثة التي جعلت تزامن الواقعة والحدث شيئاً محققاً وموثقاً في ظل ظرف زماني قصير. يضاف الى ذلك ان الاخبار قد تكون ذات قوة اكبر في تشكيل الاتجاهات العامة من المقالات والاعمدة السياسية في قول (هودلي كانتريل): (ان الرأي يتحدد عموماً بالاحداث اكثر مما يتحدد بالكلمات)[٣].

والحقيقة ان تفسير السلوك الاتصالي يحتاج الى عناصر لفهم اي حادثة لكي تكون قيمة الاقناع ثابتة وراسخة ولكي تؤدي فعلها بما يؤشر حالة اعلام واخبار وتغيير في القناعات السابقة، وعناصر الفهم التي تتحدد بـ:

١ـ **التفسير او التأويل**

٢ـ **المعنى**

٣ـ **الظاهرة العينية الشخصية**

٤ـ **تحليل ودراسة انماط السلوك**[٤].

ترتبط بخـط عميق بين المرسل والمستقبل حيث ان جميع التأثيرات والتداخلات التي تطرأ على الرسالة الاعلامية تعطي قيمة تقديرية للرسالة ليس من خلال رجع الصـدى بل من خـلال تطور الزمن والوسيلة الاعـلامية والدعـوة الصريحـة الى التمييـز بـين الاحداث والكلمات.

وهناك معادلة مهمة وهي ان كل عملية اقناعيـة تمر بعـدة مراحل بدءاً بالمرسل والرسالة والوسيط والتغذية الراجعة.

اجهزة الاعلام← المـادة الاعلاميـة← وسائل الاتصال← الجاهير.

(المرسل)← (الرسالة)← (الوسيط)← المستقبل.

رجع الصدى

ولهذا فان على القائم بالاتصال حينما يقدم على رسالة اقناعية اتخاذ عدة قرارات قبل قيامه بهذه الرسالة، فعملية تحديـد الادلة والثوابت والشواهد، ودراسة مضمون الرسالة تضعان المرسل في موقع تحليلي ويحسب الكثير من الحسابات والاحتمالات التي قد تؤثر في العملية الاقناعية[٥].

واذا كان الهدف الاقناعي يلعب دوراً في عملية الاقناع فأن خصائص الجمهور وتكوينه واتجاهه اضافة الى مهـارات المتحدث تقف جميعاً في خندق الاقناع وتجعل العملية الاقناعية تسير في دائرة مستمرة[٦].

«تهدف أغلب وسائل الاعلام والرسائل الاعلامية الى التأثير، فالهدف من اي رسالة ان كان تعاوناً علىٰ بناء او افهام ظرف ما لشخص آخر، او التأثير فيه هو أن يقوم بعمل بمشاعر معينة»[٧].

وهنا تبرز المهمة الاقناعية من حيث الطريقة والمضمون اللذان تحملهما الرسالة الاعلامية، وقد عرف شرام المعلومات بأنها أي مضمون يقلل عدم اليقين او عدد البدائل الممكنة في ظرف معين، واذا ذكرنا ذلك بشكل آخر فنستطيع ان نقول ان المعلومات هي اي مضمون يساعد علىٰ بناء او تنظيم جوانب الظروف المحيطة المتصلة بالحالة التي سيعمل فيها ويقدم فيها على تصرف معين[٨].

واذا ما اتفقنا على ان علم النفس ونتائج أبحاثه قد أثر في الوسيلة الاعلامية فانه جعل الاعلاميين في دائرة البحث بشكل أوسع من أجل اكتشاف اي الاستمالات التي من الممكن أستخدامها في العملية الاقناعية، أهي أستمالة عاطفية.. أم عقلية.. ام أستمالة التخويف، حيث ان لكل واحدة من هذه الاستمالات ظروفها وقياساتها واتجاهاتها. وقد دلت الدراسات والتجارب المختلفة على ان الاستمالات المنطقية افضل في بعض الاحوال من الاستمالات العاطفية واكثر منها استقراراً ورسوخاً في الذهن.وقد تصلح الاستمالات العاطفية وتؤثر بشكل افضل في ظل ظروف اخرىٰ تبعاً لاعتبارات متعددة منها نوع الموضوع او (الرسالة) التي يعمل المرسل علىٰ استمالة المتلقي الىٰ مضامينها. ومنها ايضاً طبيعة المتلقي ذاته واستعداداته الذاتية للاستجابة مع هذه المضامين الاقناعية او تلك. ولقد اهتم الكثير من علماء انفس القدامىٰ والجدد بالعلاقة بين المنبه والاستجابة، لأنّ الانسان هو القائم بالاتصال واي فعل انساني هو سلوك يعبر عن استجابة معينة نتيجة لمثير او منبه معين[٩]. والسلوك الاتصالي للانسان يشمل:

اولاً:ـ كل ما يفعله الانسان ويقوله

ثانياً:ـ كل ما يصدر عنه من نشاط عقلي كالادراك والتفكير والتخيل.

ثالثاً:ـ كل ما يستشعره من تأثيرات وجدانية وانفعالية كالاحساس باللذة او الالم او الشعور بالضيق والارتياح والخوف والغضب مع ما يصاحبها من انشطة فسيولوجية شتىٰ.

ولهذا فان تأثير وسائل الاعلام كادوات اقناعية ليس عملاً بسيطاً بحيث يحدث هذا الاقناع للوهلة الاولى. بل ان عملية الاقناع تأتي بشكل تدريجي من خلال عدة وسائل اعلامية تختلف في اسلوبها التعبيري وربما في الوسيلة المستخدمة ايضاً. ويخطيء من يقول ان وسائل الاعلام من خلال رسالة واحدة وبأسلوب مثير اعلامي تتغير الاستجابة الفردية مباشرة. صحيح ان هناك استثناءات في هذا المجال، لكن الاطار العام للاقناع يفرض علينا عدة محاولات من اجل ترسيخ المفهوم الاقناعي لدىٰ الشخص، وان لايكون حالة مرحلية سرعان ما تزول.

«فالرسالة الاعلامية الواحدة ليس لها عادة سوىٰ القليل من التأثير المباشر في الاتجاهات او السلوك، ولا تؤثر وسائل الاعلام فينا الا تدريجياً، وبعد تعرض مستمر لها. وحتىٰ في تلك الحالة يرجح انها تعدل الاتجاهات اكثر مما تغيرها»[١٠].

ان هناك الكثير من التأثيرات تدخل علىٰ الرسالة الاعلامية في اثناء انطلاقها من المرسل الىٰ المستقبل، اذ لايمكن النظر للعملية الاتصالية علىٰ انها مجرد خطاب ينبعث بصورة مباشرة او غير مباشرة من المرسل الىٰ المستقبل. اذ لابد من دراسة الرسالة نفسها وما تشير اليه من سياق وشفرات (رموز) و (اشارات) وما تحققه من اتصال.

ان «النقطة الجوهرية التي تظهر في تفسير جاكوبسن للاتصال هي ان الرسالة لاتقدم ولا يمكن ان تقدم كل معنىٰ من التعامل وان نسبة عالية من المعنىٰ الذي يراد ايصاله يفهم من السياق والشفرة ووسائل الاتصال. فالمعنىٰ بأختصار يكمن في الفعل الاتصالي بمجمله»[١١].

وتبعاً لذلك ينبغي دراسة العملية الاتصالية بكل جوانبها بما في ذلك الرسالة وما يمكن ان يحدث عليها من التشويش. والتشويش نوعان:ميكانيكي ودلالي.والواقع ان افتراض حالة التأثير هذه تكمن وراءها عمليات تقنية وفكرية يدخل القانون والرقابة عاملاً في طبيعة الرسالة، اضافة الىٰ الشك الذي يدخل في اغوار النفس البشرية. وعليه فأن علىٰ صاحب الاقناع ان يضع عدة اعتبارات امامه كي يكون طريقة سهلاً ومحققاً للغاية التي ينشدها. وان من اهم هذه الاعتبارات، هي عملية اختيار المواد والمواضيع والمحتوىٰ والمعاني وان يكون اختياره ليس من باب التحدي لما اعتنقه الناس من قيم وآراء. «ويكمن بعض الشك في الاستجابة للاقناع في اغوار النفس البشرية نفسها وتتوقف الطريقة التي يستجيب بها كل فرد منا للاعلام علىٰ اتجاهاتنا وقيمنا وحاجاتنا وواقعنا، اي في التركيب الكامل لشخصيتنا»[١٢].

ويجب ان لايغيب عن بالنا ان الرسائل الاقناعية ترسل من خلال الاتصال الافقي والعمودي والاتصال بالادنىٰ اضافة الىٰ

القنوات الاعلامية الخارجية. وهذه الوسائل تسهل مهمة المؤسسة الاعلامية للتعاون والتنسيق واكمال مهماتها الاساسية باتجاه جمهورها المحدد.[١٣].

وسأدخل في تفصيل أقناعي يحمل جملة تصورات من خلال تعريف الاقناع والأسهاب في بعض مساراته.

تعريف الاقناع

هو محاولة يقوم بها شخص واحد لتغيير المعتقدات والمواقف او انه عملية قيادة شخص اخر من خلال الاتصال عن طريق الرسالة اللفظية مع ما يلائمها من رسائل غير لفظية. وهذا الاتصال يكون مباشراً حيث تكون التغذية الراجعة واضحة ومباشرة فيها. والاقناع هو محاولات تدخل فيها عدة رسالات توزع في وقت محدد، والاقناع هو اداة أجتماعية على الصراع او بتغيير سلوك الفرد. وفي جميع الحالات والاحوال فأن الناس جميعاً يناقشون ويحاورون باسلوب اقناعي[١٤].

ولكي تكون انساناً مقنعاً وتؤثر وتغير لابد ان تتوفر لديك عدة مهارات حيث يؤشر ارسطو الى ان هنالك نوعين من الادلة :ـ

١ـ **الادلة المنطقية**: وي[illegible] ف[illegible] ان يكون الجدل والنقاش عقلانياً، مستنداً الى الحقائق [illegible]لادلة الثابتة. وهذه المسألة تعتبر موضوعاً لتحقيق وتثبيت ورد [illegible]عتبار استناداً الى حالة قبول القواعد التي تقتضي ان الجدل المفهوم وان الأدلة والاثباتات المستقلة هي اكثر اقناعاً واقرب الى العقل من الادلة غير المستقرة. ولهذا فأن سمو العقل وسيطرته مهمة في تفكير وتفسير وتوصيل المرسل الى المستقبل.

٢ـ **الادلة النفسية**: وهذه الادلة هي الادلة غير العقلية وهي لاتعتمد على الادلة المنطقية او قواعد الادلة. وهنا يؤكد ارسطو على ان هنالك نوعين من الادلة النفسية:

أ. الادلة العاطفية: وهذه الادلة تقود الى اظهار الفعل لان هذا الفعل يلتقي مع حاجاته.

ب. الادلة الاخلاقية او الادبية: وهذه الادلة تقوم على ان المستقبل يظهر ميلاً او انعطافاً لقبول الاتصال الاقناعي وذلك لاعجابه واحترامه للشخص المرسل (المقنع)[١٥].

ان تحليل ارسطو هذا يشكل الاطار العام للاقناع وهو بالتأكيد حالة العصر الذي مثله ارسطو وطبيعته وخاصة فيما يتعلق بالاتصال الشخصي لأنّ اكثر الوسائل الاتصالية المتوفرة في ذلك العصر كانت على شكل حالة التقاء مباشر مهما كان العدد المستقبل وخاصة في المسرح . وعلى الرغم من المسافة الزمنية التي تفصلنا عن ارسطو كبيرة فأن ما جاء به يمثل قانوناً صحيحاً ينطبق بشكل عام على كل الرسائل الاعلامية التي تبثها الوسائل الاتصالية الشخصية والجمعية كافةً. ولكي تكون الرسالة الاقناعية كاملة لابد من ان تركز على تحريك الجانب النفسي في المتلقي لكي يغير ما في داخله. ليس من الضروري ومنذ البداية تحقق عملية تغيير المواقف او خلق سلوك جديد. تأمل الحالة التي يحصل فيها الاقناع، لان الاقناع لايقيم عقداً بين المرسل والمستقبل. وعلى المرسل ان يختار المعلومات ويحزمها بشكل دقيق كي تلبي أهدافه. وقد تكون أحدى وسائل التأثير التي تعتمد عليها الرسالة الاقناعية هي أطار الترفيه والمتعة من أجل الدخول الى غور النفس البشرية، لأن المستقبل دائماً يسأل ماذا في هذه الرسالة وما هي القناعات التي توفرها لي. بعض المستقبلين لديهم قناعات وآراء تختلف تماماً عما تحتويه الرسالة وبعضهم مرنون ومهيّأون لتسلمها دون أن يشكلوا اي موقف مضاد لها.

«ان خطوات الاقناع من الناحية الأولية هي خطوات الاتصال نفسها لأن اي عملية اتصال لاتحتوي على أقناع لاتكون مؤثرة في الوسط الموجه أليه. وتكون الخطوة الاولى هي تقديم المعلومات الاولية التي تقود المستقبل الى اعادة تقييم البيئة المحيطة به ومن خلالها اعادة تقييم حاجاته والسبل التي تقوده اليها أضافة الى علاقاته الأجتماعية ومواقفه واعتقاداته»[١٦].

ان هذه الحالة ليست بالسهلة اطلاقاً لكونها تشكل فعلاً عقلياً. وفي الجانب الآخر فأن الاستخدام الواعي لأستمالة التخويف تحرك الحاجة الى حفظ حياته الشخصية وتمثل طريقاً اولياً لتغييرها، ومع ذلك فأن هذه المهمة تشكل سيفاً ذا حدين. «ان عمليات التغيير من الممكن ان تكون كزناد السلاح لتغيير أدراك وشعور المستقبلين وعلاقاتهم الأجتماعية من بين ما يعرفون ويعتقدون وما يجب ان يفعلوه. ولقد أصبحت أجهزة الاعلام ذات قوة مؤثرة في حياة الفرد ولكن هنالك مسألة مهمة لابد من أدراكها وهي ان الناس يتابعون وسائل الاعلام بحثاً عما يريدون وليس ما تريد ان تقدمه وسائل الاعلام وذلك لتعدد قنوات الاتصال والخيارات المتعددة للمستقبلين في اختيار ما يريدون»[١٧].

ولهذا فأن قوة وسائل الاعلام تكمن في مقدرتها على بناء علاقة قريبة ومؤثرة في حياة المستقبلين. وعند تحقيق ذلك تصبح الاجهزة الاعلامية مقنعة وتحقق الرسالة الاعلامية المطلوبة.

ان المحاولات الحديثة في الاقناع أخذت أطارات جديدة ولذلك فأن المفاهيم التي ينطلق منها الاقناع عديدة من أهمها:

أـ النظريات العلمية في علم النفس وعلم الأجتماع والتي تؤثر في

المجمل العام.

ب ـ المعرفة في الوصف والملاحظة والتجريب.

ج ـ الاهتمام بمفهوم الجاذبية والاختيار.

د ـ مفهوم مشاركة المستقبلين في الحدث الذي ينطلق به المرسل حيث ان أفضل اقناع يولد من خلال مشاركة المستقبلين بشكل فعال[١٨].

ان مجمل ما نقوم به هو محاولات لتغيير المواقف او السلوك. ولذا يتوجب عليك تحديد طبيعة السلوك وتوجهاته ويجب الا يكون سلوك المقنع مغايراً لما يطرحه. ويرى قسمٌ من المنظرين أن تغيير المواقف يعني الاقناع، في حين أن تغيير التصرف، او السلوك يعني التحريض. وهذا ينطبق على الخطابات السياسية التي يتبناها المعارضون لانظمة الحكم، والذين يتنافسون على مقاعد الترشيح. ويقول الآخرون «ان العديد من الاشخاص يغيرون مواقفهم بعد ان يجبروا لتغيير سلوكهم وتصرفهم»[١٩].

ان عملية الاقناع بشكل عام لايمكن ان تكون مؤثرة ما لم يكن الموضوع المطروح قابلاً للطعن وبأسلوب تكنيكي واذا لم يكن كذلك فأن مسألة تغيير القناعات تكون صعبة وغير مجدية. وفي هذا الصدد لابد من أستخدام الحجة والاقناع والعمل على اعلام المستقبلين وتحذيرهم من بعض الطروحات التي قد يقوم بها الفريق الآخر.

واذا أردنا تأشير النقاط الناجحة في محاولة عملية الاقناع من أجل التأثير في أية مجموعة من المستقبلين لابد من أتباع الامور التالية:

١ـ احصل على انتباه المستقبلين لكي تضمن ان الرسالة الاعلامية قد وصلت اليهم بشكل كامل.

٢ـ استمل الجمهور المتلقي بجملة محركة تجعلهم مهيئين لاتخاذ فعل معين وتغيير موقفهم لصالح الرسالة وذلك عن طريق:

أ ـ استعمال دلالات تعطي للجمهور اهمية الرسالة وبخاصة فيما يتعلق بحاجاتهم الانسانية من الأمان والاحترام أضافة الى الحاجات الفسيولوجية وغيرها.

ب ـ أستخدام دلالات تقنع الحاجة العقلية للجمهور والسيطرة على تتابع الاحداث.

حـ ـ أستخدام الدلالات ذات القناعات التي تتطابق مع المعايير والتوقعات التي يلتزم بها علية القوم والمجتمع بشكل عام.

٣ـ ضرورة وضع الدافع في القناة الصحيحة من أجل جعل الجمهور قادراً على اتخاذ الفعل المحدد وذلك من خلال:

أ ـ الاعتماد على أفتراض محدد من الممكن ان يتبناه الجمهور.

ب ـ عند تبني الجمهور للافتراض فانه من الضروري عرض الاحتمالات الكبيرة لنجاح هذا الافتراض.

٤ـ الاعتماد على أسلوب المعارضة والمحاججة بطريقة أقناعية معاكسة وذلك من خلال:

أ ـ خلق جدل معاكس يقود الى ترسيخ المفهوم الذي تريده.

ب ـ تشجيع الجمهور على التعليق والاعتراض لترسيخ المفهوم والتوضيح الكامل له.

جـ ـ تحذير الجمهور من ان هنالك من يسعى الى تغيير أفكارهم وآرائهم[٢٠].

ان ما تم تأشيره آنفاً لاينطبق على الاتصال والمحادثات الشخصية حسب بل ينطبق على كل الوسائل الاتصالية. وهذه المعارف تحمل الأطارات المنطقية العقلية والنفسية أضافة الى المداخلات التي تدخل على الرسالة الاعلامية من تشويش ميكانيكي ودلالي. واذا كان هنالك من تساؤل حول: كيف يمكن لوسائل الاتصال تدارك بعض ما ينفرد به الاتصال الشخصي، فأن ذلك يمكن معالجته من خلال (التغذية الراجعة) او ما تسمى أيضاً «رجع الصدى» ـ (Feed Back).

اللغة والعملية الاتصالية

عندما يفكر الناس في موضوع اللغة فانهم ينساقون الى موضوع الكلمات التي ينطقونها او يكتبونها او في الجانب الاكثر تعقيداً أنهم يذهبون الى صور أخرى مثل علم الصوت المنطقي، علم الصرف، علم النحو، او علم الدلالة. وان عملية تحديد اللغة بهذه الاطر تعد تجاهلاً لقيمة اخرى في الاتصال هي القواعد التي يلعبها الاتصال غير اللفظي. يقول (ري. ال. بيرد وستل Ray. L. Birdwhistell) أحد أبرز المتخصصين في عملية الاتصال غير اللفظي:

«ان اي عملية محادثة بين شخصين تكون نسبة ٦٥٪ من المعاني الاجتماعية لهذه المحادثة تصل وترسل عن طريق الاتصال غير اللفظي وخاصة الاشارات»[٢١].

ان عملية الاتصال غير اللفظي تختلف من ثقافة الى أخرى، مثل لغة الكلمات. ويجب ان ندرك ان أية لغة تعد ناقصة في أطاراتها اللفظية ما لم تكملها الصلة غير اللفظية.

والاشارات والحركات الجسمانية يمكن التعبير عنها بوساطة أجزاء الجسم كافة وتعبيرات الايدي ـ الرأس ـ الاقدام ـ الوجه ـ الابتسامة ـ حركة العين او في وقفة معينة. ويمكن تصنيف بعض العلامات غير اللفظية، الى ما هو عام، وما هو أتصالي، وما هو

تعبيري.. وعلى نحو عام يقدم بعض تلك العلامات معلومة عن العواطف والمشاعر وبعضها يحمل معلومات عن موقف شخصي.

كما ان هناك ما يمكن تسميته (بالاصوات غير اللغوية) وهي أصوات يعمد الناس الى التعامل معها للتعبير عن عدد كبير من الانفعالات والأحاسيس والمواقف ولكن هذه الاصوات لايمكن معاملتها معاملة الكلمات لانها لايمكن ان تكتب او تدون كالفاظ مقروءة.. الا انها مستوفية للقدرة الدلالية للكلمة المكتوبة. اذ ان مدلولاتها يمكن ان تتنوع وتتباين وفقاً لاسلوب القائها ونطقها واماكن أستخدامها بين السياق اللفظي.

ان مصطلح الاتصال غير اللفظي عموماً هو الذي يستخدم لوصف كل الافعال الاتصالية التي تتجاوز الكلام والكتابة. وفي الوقت نفسه يجب ان ندرك عدة أحداث وافعال في الاتصال غير اللفظي تأتي تعبيراً عن أتصالات لفظية؛ والابحاث في الاتصال غير اللفظي تقسم الى عدة حقول هي:

١ـ حركات الجسم

٢ـ الخصائص العضلية

٣ـ طريقة اللمس

٤ـ الطبقات الصوتية وتلونها

٥ـ البيئة وتأثيراتها[٢٢]

والاتصال غير اللفظي يجب ان لايدرس ويبحث كحالة مُجزَّأة بل يجب ان يكون حالة موحدة، بحيث يكشف عن الدور الذي يلعبه في عموم النظام الاتصا!

ان الاشارات الكثيرة والمعلومات الواسعة التي تتضمنها أية حالة انسانية او موقف أنساني تشير الى الأهمية في أستخدام الاتصال غير اللفظي.

والاتصال غير اللفظي جزء منه مُتعلم، وجزء منه تقليدي نتيجة محاكاة والجزء الآخر منه غريزي. وهنالك نمو في الاتصال غير اللفظي مثلما تنمو اللغة اللفظية وهكذا يتعلم الانسان الكثير من خلال تصرفات وسلوك يومي يقع ضمن دائرة العلاقة الانسانية. وفي الوقت ذاته لايمكن ان يهمل دراسة اللغة كأداة ضرورية لنقل المعلومات، فلقد أصبحت من أهم وسائل الاعلام بأعتبارها أهم عنصر من عناصر الثقافة.

اننا دوماً بحاجة الى ثراء في اللغة وقدرة عالية على الاستخدام الصحيح لها لتكون مقنعة. واللغة كائن حي يعيش وينتقل ويهاجر وينمو وينتعش. فهي سلوك حضاري قبل ان تكون رموزاً مكتوبة ومقروءة. وهي طريقة منغمة للكلام تنبيء عن شخصية صاحبها وثقافته وجنسيته بأكتشاف كيفية النطق عن طريق معرفة اللهجة وطبيعة النبرات الصوتية والجرس اللفظي، تماماً كما يتصرف المذيع التلفزيوني والاذاعي في تقديم نشرة الاخبار بما يمكنه من حالة التوصل والاقناع، او كما يفعله الممثل من خلال عملية الاتصال اللفظي وغير اللفظي، باستخدام الكلمات والايماءات والحركات الجسمانية. «ويمكن النظر الى الاصوات ونبراتها والالفاظ ومعانيها بمثابة (رموز ثقافية) للتعبير عن مفهومات أجتماعية محددة بالذات. فالثقافة اذن هي نسق رتيب من الرموز Symbols التي تتناقلها أجيال الناس ويتبادلها البشر كوسيلة للاتصال والفهم والتعبير»[٢٣].

ولأن اللغة تمثل ثقافة ووعي مجتمع بكامله فهي بالتأكيد حالة اقناعية، وهي في الوقت نفسه وسيلة اقناعية. ففي الحالة الاولىٰ تحاور الشعوب بعضها بعضاً، وفي ضوء هذا تبنىٰ الروابط الحضارية. وفي الحالة الثانية تعي الامة قيمة وجودها وتفاعلها مع ذاتها. «لذلك فان معيار اللغة العربية والتراث القومي لاينفصلان عن معيار التفاعل الثقافي مع العصر.»[٢٤]

واذا كانت اللغة روح الامة وحيويتها فان اي دفق ونماء لغوي لأي انسان هو حالة متقدمة لتعميق الناحية المعرفية والثقافية. واذا كان الامر على مستوىٰ الافراد فانه بالتأكيد ينعكس على المستوىٰ العام لثقافة الامة وطموحها. وهذا المعادل المطروح هو معادل أقناعي بحيث أثبتت الدراسات والابحاث ان من يمتلك ثقافة جيدة ولباقة وقدرة ناضجة على طرح الامور هو اكثر أقناعاً من غيره، وما دامت اللغة روح الثقافة فأنها تنهض بالحالة الاقناعية التي تتطلب منا دوماً ان نكون في مستواها. «والثقافة هي رصيد أضافي يسبغه الانسان على الكون وعلى الطبيعة كما يضيفه في الوقت نفسه على نفسه وعلى تكوينه الحيواني حين يعدل من سلوكه علىٰ نحو دائم ومستمر في مواقفه وردود افعاله أزاء بيئة طبيعية فرضت نفسها على وجوده»[٢٥].

ان العلاقة بين الانسان واللغة علاقة تمتزج فيها كل المشاعر الانسانية وأطرها التعبيرية والتي من خلالها يمكن أيصال ما نريد بطريقة متباينة بين شخص وآخر. وهي بالتأكيد (اي اللغة) مجموعة من السمات والخصائص التي لاغنىٰ عنها في اي عملية اتصالية. «بين الانسان واللغة مثل ما بين الانسان والحياة، فالانسان لسان، والكلام هو الذي يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية، ويسمح لنا بالخروج عنه، ولقد كانت اللغة وما زالت وستظل أحدىٰ القوىٰ التي ساعدت الكائنات البشرية علىٰ الخروج من العالم الحيواني والانشطار الى الجماعات،وعلى تطور القدرة علىٰ التفكير وتنظيم الحياة، وتحقيق درجة التقدم التي عليها انسان اليوم»[٢٦].

وعودة اخرى الى موضوع اللغة ودورها في النظام الاتصالي والاقناعي تجعلنا نتوقف عند دور الشعر عند العرب. فلقد كان الشعر عندهم أداة أقناعية مهمة من حيث تمثيله للقبيلة وتكريسه كرسالة اعلامية، أو من حيث أستخدامه في المنافسات والنزاعات بين قبيلة واخرى.

وهكذا كان الشاعر الاكثر بلاغة ونظماً هو الاكثر اقناعاً من غيره. بعد ذلك برز مصدر أقناعي ـ أتصالي اكثر سحراً وتأثيراً وحجةً وتغلغلاً الى النفوس الا وهو (القرآن الكريم) حيث أدى دور الرسالة والوسيلة الاعلامية في التعبير عن الافكار وقدرتها الكبيرة في سبر نفوس عامة البشر وقيادتها نحو الحق والعدل والايمان. ان المدى البلاغي للقرآن وتفوقه على الشعر اعطاه ميزة في القبول لما أحتوته آياته من معالجات لاشكال الحياة ورسمه لحالة جديدة عند العرب.

ولابد من الاشارة هنا الى أهمية الحديث النبوي الشريف ودوره المهم في تفسير وتوضيح سور القرآن ورسم البساطة والوضوح للمسلمين خاصة والعالم عامة من أجل الكشف عن الاساليب الاكثر أقناعاً وذلك بفضل حكمة الرسول محمد (ص) وسداد رأيه وصبره وشجاعته في مقابلة الناس وأقناعهم بما يتناسب وقيمة الدين الاسلامي وتعاليمه الكبيرة. ولعلنا نستخلص من السيرة النبوية الشريفة درساً بليغاً في العملية الاتصالية والاعلامية.

في ضوء ما تقدم فأن القرن العشرين يعتبر المساحة الزمنية الاكثر استغلالاً لوسائل الاعلام في عملية الاقناع والدعاية.

ان مرحلة الستينات والسبعينات والثمانينات من هذا القرن قد شهدت العصر الذهبي للتلفزيون كوسيلة من وسائل الاقناع. كما اعتبرت السينما من اكثر اسلحة الاقناع انتشاراً وتوصيلاً وقدرة على التأثير في الوسط العالمي.

المراجع

(١) Ray Eldon and others, Mass Media introduction to modern Communication (New York: Longman Inc. 1979) P.401

(٢) Ibid. 401

(٣) Keith Brooks, The Communicative Arts and Sciences of Speech (OHIO:Charless E,Merrill Books, Inc. 1967) P.152

(٤) د. قباري محمد اسماعيل. علم الاجتماع الجماهيري وبناء الاتصال (الاسكندرية: منشاة المعارف ١٩٨٤) ص٢٣٥

(٥) وليم ل. ريفرز وآخرون. وسائل الاعلام والمجتمع الحديث (القاهرة. دار المعرفة للنشر ١٩٧٥) ص٢٥٨. ترجمة د. ابراهيم امام.

(٦) د. جيهان احمد رشتي. الاسس العلمية لنظريات الاعلام. (القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٧٥) ص٥٢

(٧) المصدر السابق نفسه ٥٩

(٨) المصدر السابق نفسه ٥٩

(٩) المصدر السابق نفسه ٥٣

(١٠) وليام ل. ريفرز وآخرون. مصدر سابق ص٢٨١

(١١) ترنس هركز. البنيوية وعلم الاشارة. ترجمة مجيد الماشطة (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٦) ص٧٧

(١٢) وليام ل. ريفرز وآخرون، مصدر سابق ص٢٨٢

(١٣) Lawrence W. Hugenberg and Donald D. Yoder. Speaking in the Modern organization (Illinios: Scott Foreeman and Company 1985). p. 184.

(١٤) Wayne C.Minnick, Public Speaking. (Boston: Houghton Miffin Company, 1979). p. 182

(١٥) Ibid. 182

(١٦) Robert Atwan and others, Americon Mass Media: Industries and Issues. (New York: Random House 1982). p. 14

(١٧) Ibid. p. 16

(١٨) Joseph A. Derito, Human Communication (New York: Harper and Row, Publishers 1985). pp. 373 - 376.

(١٩) Public Speaking. p. 203

(٢٠) Ibid. pp. 183 - 184

(٢١) Virginia p. Clark and others, Language: Introductiony Readings. (New York: St. Martin's Press Inc. 1981) .p. 609

(٢٢) Ibid. p. 622.

(٢٣) د. قباري. علم الاجتماع الجماهيري وبناء الاتصال. مصدر سابق ص١٦٦.

(٢٤) د. الياس فرح. في الثقافة والحضارة (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٧) ص٩٦.

(٢٥) د. قباري. علم الاجتماع الجماهيري. مصدر سابق ص١٧٤.

(٢٦) د. هادي نهر. نظرات في مشكلات حياتنا اللغوية. مجلة الضاد. (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٨) ص٥١.

منازل الطريق في ادب القرن التاسع عشر



د. محمد حسن علي مجيد*

شغف الانسان بالسفر والترحال منذ اقدم العصور، لان غريزة حب الاطلاع والمعرفة وارتياد المجهول من اهم غرائزه. فقد قام المصريون القدماء برحلات كثيرة، ثم الفينيقيون، فالاغريق والرومان، ثم رحلات العرب قبل الاسلام. وحسبنا ان نشير الى رحلتي (الشتاء والصيف) اللتين كان يقوم بهما الرحالة والتجار العرب في كل عام الى جنوب الجزيرة العربية وشمالها وجاء ذكرهما في القرآن الكريم. ثم جاء العرب المسلمون الذين جابوا مشارق الارض ومغاربها منذ البعثة النبوية المباركة حتى نهاية القرن الثامن الهجري[1] حيث دخل السفر والترحال في عصر هدوء نسبي وخمول في الحركة والتنقل، وذلك بسبب الاجتياح الاجنبي للبلاد وسيطرته عليها، وتخريب طرق المواصلات وقلة وسائط النقل، وسوء المسالك، وكثرة قاطعي الطرق، وفقدان الامن وسوء الادارة، حتى نشط الاوربيون في العصور المتأخرة ولاسيما في القرن التاسع عشر، وكثر سُيّاحهم ورحّالتهم،[2] فصاروا يجوبون بلاد الشرق بالعشرات تحت اسماء كثيرة متنوعة، من: منقبين عن الآثار، او مبشرين او تجار او رحالة او سُيّاح او خبراء او مهندسين او باحثين او بصفات اخرى غيرها.

هكذا نشط عهد السياحة والسفر مرة اخرى ودبت حركة جديدة في التنقل، وقام مرتحلون عراقيون ايضاً برحلات كثيرة في داخل العراق وخارجه سجلتها كتب الادب والتاريخ، ووضعوا فيها، رحلاتهم ومسالك سيرهم، ومشاهداتهم المتنوعة من طرق وبلدان وابنية وقصور وعجائب ومفارقات، لعل من اشهرها في القرن التاسع عشر رحلة العالم الجليل السيد محمود شهاب الدين ابي الثناء الالوسي (المتوفى سنة ١٨٥٤ م) صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ (روح المعاني) الى استانبول سنة ١٨٥١ ـ ١٨٥٢ م، التي سجلها (نثراً) في كتابه المعروف: (غرائب الاغتراب ونزهة الالباب في الذهاب والاقامة والاياب) المطبوع في بغداد سنة ١٣٢٧ هـ، وفي كتابيه الآخرين: (نشوة الشمول في السفر الى اسلامبول) و (نشوة المدام في العودة الى دار السلام) وقد طبعا بمطبعة الولاية في بغداد سنة ١٢٩١ هـ، ١٢٩٣ هـ ووضعا في مجلد واحد. ثم رحلة الشاعر عبد الجليل البصري (ت ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣م) الى الخليج العربي واطراف البحرين عام ١٨٢٥ م، التي سجلها (شعراً) في (ديوانه المطبوع في القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ ص ٣٧ ـ ٤٣)، ثم رحلة الشاعر حبيب بن طالب البغدادي التي قام بها من لبنان الى بغداد سنة ١٨٤٧ م التي كتبها (شعراً) ايضاً، ووصف بها معالم سفرته الممتعة تلك في كثير من الروعة والدقة والتي حفظتها كتب التاريخ والادب.[3] ومنها ايضاً رحلة الشاعر عبد المحسن الكاظمي (ت ١٩٣٥ بمصر) التي قام بها بين عامي ١٨٩٧ ـ ١٨٩٩ م من بغداد الى البصرة فايران فالهند ثم الى مصر، ووصف فيها معالم رحلته هذه وطرق المواصلات البرية والبحرية وصفاً ممتعاً دقيقاً.[4] ثم هناك الرحلات التي كان يقوم بها الرحالة العراقيون الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج، ويسجلونها في مدوناتهم شعراً ونثراً باسم: الرحلات المكية او الحجازية. يضاف الى هذا كله الرحلات التي كان يقوم بها المرتحلون العراقيون داخل العراق على طريق البر والنهر ويسجلون مشاهداتهم فيها، وقد حفظت كتب الادب والتاريخ الكثير منها.

فاذا كان السفر والتنقل والرحلات قد نشطت في العراق في القرن التاسع عشر كل هذا النشاط، فيكون من الطبيعي ان تستأثر الطرق التي يسلكها السُياح والرحالة والمسافرون و (منازل الطريق) التي كانوا يأوون اليها باهتمام شديد من لدنهم. ونحن في هذا البحث المختصر نحاول ان نلقي ضوءاً في (منازل الطريق) هذه، ثم تكون لنا عودة في بحث آخر الى معالم وطرق ومدن وقصور وغرائب ومفارقات.

قلنا انه من المنشآت والأبنية التي استأثرت باهتمام الرحالة العراقيين والاجانب في رحلاتهم في القرن التاسع عشر (منازل الطريق) او ما كان يسمى (الخانات)،[5] وهي امكنة تشاد لاستراحة السُيَّاح والمسافرين، وكانت تقام بين المدن العراقية او داخلها يقصدها المسافرون والتجار وناقلو البضائع والسواح، يقضون فيها ليلاً مكفهراً، او نهاراً ممطراً، او يلوذون بها من هاجرة القيظ او سعير الشمس او زمهرير الشتاء او لينالوا فيها قسطاً من الراحة بعد عناء سفر طويل. والخانات هذه كانت في ذلك الوقت ضرورة ملحة لمواصلة التنقل والسير من مكان الى آخر، ونقل البضائع وتأمين وصولها الى اصحابها، ولولاها لتعذر على المسافرين اجتياز المسافات النائية وقطع الفيافي والقفار، اذ كان يراد بها تهيئة اماكن تضمن الراحة

* كلية الاداب / جامعة بغداد

والامن للانسان والحيوان على حد سواء، بعد قطعهم مسافات طويلة. وقد كثر انشاء هذه المنازل على كثير من الطرق الخارجية بين المدن او تنشأ في داخل المدن لاقامة الزوار والمسافرين. فهي بمثابة (الفنادق) في الوقت الحاضر.

اما الذين يقومون بانشاء هذه المنازل والنفقة عليها، فهم غالباً الموسرون من الناس وسراتهم، ومبتغو الخير والثواب، او بعض الوجهاء والاعيان او بعض الولاة والمتنفذين وامثالهم لتكون لهم ذكرى، ويشار بعدها الى اعمالهم الخيرية. فقد ذكر المؤرخ ابراهيم الدروبي ـ في كتابه (البغداديون ـ اخبارهم ومجالسهم): ان بعض الموسرين من المسلمين كان يقوم باعمال ومشاريع خيرية ومنها بناء (الخانات)، وكان البعض من هذه الخانات كبيرة والبعض الآخر صغيرة، وفيها عدد من الغرف والاواوين والمخازن، وغالباً ماتكون خالية من الاثاث.[٦] كما ذكر الشاعر السيد حيدر الحلي (ت ١٣٠٤ هـ/١٨٨٧م) في كتابه القيم (العقد المفصل): ان بعض الموسرين من اسرة آل كبة ببغداد شيد الكثير من الخانات لايواء المسافرين والزوار على طريق بغداد ـ كربلاء، وبغداد ـ الحلة وبغداد ـ سامراء. وقال: «وقد بنيت تلك المنازل في مفاوز قاحلة يكثر قطع المسافرين لها، في حين لا كُنَّ يقيل به مسافرٌ من هاجرة ولا مأوى يعرس فيه من اعياء او خوف».[٧]

ولما كانت هذه المنازل مؤسسات قائمة ومتطورة وذوات نفع عام ووظائف مهمة تؤديها للمسافرين والتجار، وانها ضروريّة للسفر والتجارة، لم تكن من مبتكرات القرن التاسع عشر، انما هي قديمة في العراق. فقد ذكرت المصادر اسماء الكثير مما شيّد منها في العصور السابقة. فقد اشار ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) الى وجود خان يسمى (خان وردان) وكان يقع شرقي مدينة بغداد وقال انه يعود الى العصر العباسي الاول.[٨] كما ذكر المؤرخ اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) في تاريخه، خاناً في بغداد يعرف بـ (خان النجائب).[٩] ومن اشهر خانات بغداد الماثلة حتى اليوم (خان مرجان) الذي يعود تاريخ انشائه الى سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م الكائن في سوق البزازين في محلة (باب الاغا) حالياً، وقد امر ببنائه حاكم بغداد امين الدين مرجان في عهد السلطان اويس بن الشيخ حسن الايلخاني، وكان يعرف بخان (الاورتمة) اي الخان المسقوف بالتركية، وانه يتكون من طابقين الاول يحتوي على ٢٢ غرفة والثاني ٢٣ غرفة وكان التجار والمسافرون يحتلون غرف الخان، وكان يجري فيها وفي ساحته الوسطى عملية البيع والشراء مدة تقارب سبعة قرون.[١٠]

ومن خانات بغداد المشهورة ايضاً (خان جغان) ويعود زمن بنائه الى سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م ايام حكم السلطان مراد الرابع العثماني وقيل انه شيّد على نفقة (جغان زادة سنان باشا) والي بغداد بين عامي (٩٩٩ ـ ١٠٠١ هـ)،[١١] الذي بقي يعرف بهذا الاسم نسبة لمؤسسه حتى الوقت الحاضر، والذي بقي على حاله حتى سنة ١٩٢٩ م حيث هدم وعمرت مكانه اسواق ودكاكين.

كما ذكر السُيّاح الاجانب اسماء الكثير من الخانات واوصافها مما لم يبق لقسم منها اثر الآن، فقد اندرس كثير منها بفعل عوامل الطبيعة، ومرور الزمن وحوادث التخريب، والغارات والمعارك، فقد ذكر الرحالة الفرنسي (تافرنييه) الذي زار العراق في القرن السابع عشر الميلادي وجود عشرة خانات كانت بحالة غير جيدة غير اثنين منها كانا يوفران الامن والراحة للمسافرين.[١٢] كما اشار الرحالة الالماني (كارستن نيبور) الذي زار العراق في القرن الثامن عشر (سنة ١٧٦٦ م) الى وجود اثنين وعشرين خانا، كان اربعة منها تقع في ضواحي بغداد والباقي في داخلها، وكان قسم منها جيد البناء واسع المساحة يسكنه التجار والقسم الآخر صغيراً.[١٣]

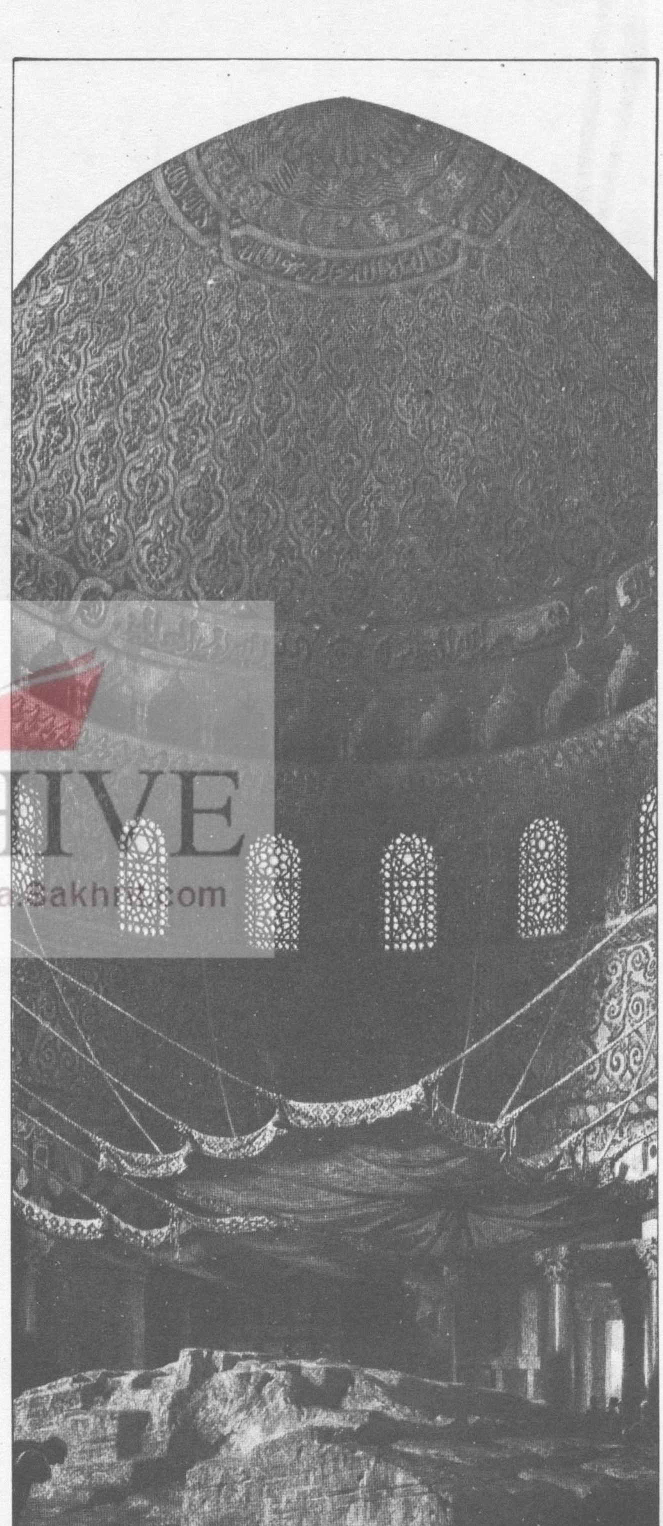
اما الرحالة الانكليزي (بكنغهام) الذي زار العراق في مطلع القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة ١٨١٦ م فقد اشار الى وجود خانات كثيرة في بغداد وعلى الطرق المؤدية اليها، وقال انها عموما متشابهة في بنائها، وانها مشابهة الى حد كبير الخانات الموجودة في ديار بكر ثم تحدث عن خان مرجان باسهاب.[١٤] كما تحدث عن قسم من هذه الخانات الرحالة الانكليزي (جيمس بيلي فريزر) في رحلته التي قام بها الى العراق سنة ١٨٣٤ م في كتابه (رحلة فريزر الى العراق سنة ١٨٣٤) (الذي ترجمه جعفر خياط والمطبوع ببغداد عام ١٩٦٤)، ومثله الرحالة الفرنسي (پيير دي فوصيل) في كتابه (الحياة في العراق منذ قرن) الذي ترجمه الدكتور اكرم فاضل والمطبوع ببغداد سنة ١٩٦٨.

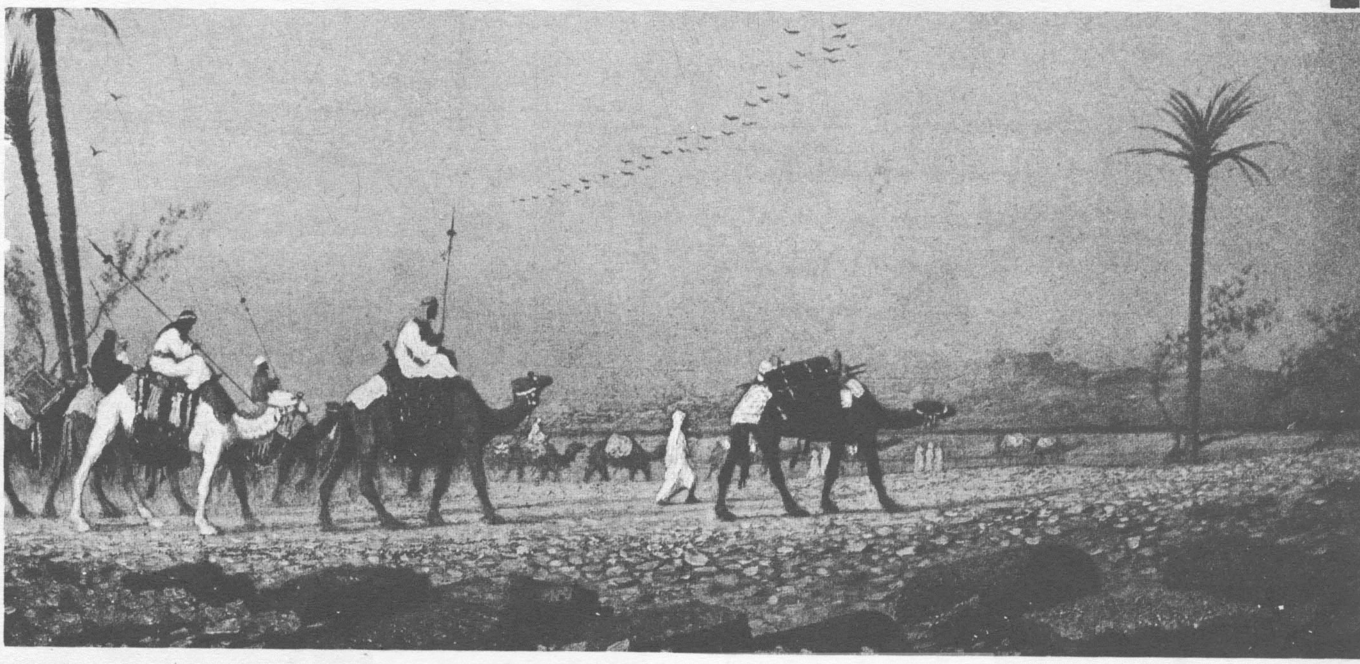
قلنا: ان سبب كثرة هذه المنازل وانتشارها يعود الى كونها شرطاً

اساساً في استمرار تدفق التجارة وتأمين وصولها، ومواصلة التنقل والترحال والسياحة والحج وأمثالها. ولسنا نحن الآن بصدد تعدادها او احصائها بقدر مانهدف الى اعطاء فكرة عن وجودها وكثرة عدد ماشيد منها في العراق حتى ذكر بعض الباحثين المحدثين ان عدد خانات بغداد بلغت في اواخر العصر العباسي ٩٨٠ خاناً.(١٥) وهو عدد هائل لو صحت الرواية. ويدل على اهميتها وماتقدمه من خدمات ضرورية للناس. وقد ذكر الباحث نفسه انه بقي منها في القرن التاسع عشر ١١٨ خاناً كان اكثرها خاص بـ (المكارية) وايواء الدواب وحفظ الاموال. والمهم منها ماكان في الاسواق وكانت مشغولة من قبل التجار، وذكر اسماء ٣٤ خانا وحدد مواقعها وذكر وظائفها وصفات بنائها واسماء بُناتِها واصحابها وتواريخ بنائها،(١٦) هذا في بغداد وحدها، يضاف الى هذا العدد، الخانات التي كانت مشيدة على الطرق الخارجية بين المدن العراقية ولاسيما بين بغداد وسامراء وبغداد وكربلاء، وبغداد والحلة والنجف وكربلاء وغيرها مما ذكره الرحالة والمسافرون والشعراء في قصائدهم، وسجلته كتب الادب والتاريخ مما يؤكد اهميتها، واهتمام الناس بها واشادة الشعراء بمن بناها من المحسنين والموسرين.

اما من حيث ادارة هذه المنازل وانظمتها، فقد ذكر الرحالة الانكليزي (السير واليس بدج) الذي زار العراق سنة ١٨٨٨ - ١٨٨٩ م في كتابه (رحلات الى العراق): ان النازل في الخان لايدفع اجراً سوى ان العرف يقضي بان يكرم النازلون في الخان الشخص (القيم) على ادارته قدر مايستطيع؛ نظير مايقدمه للمسافر من خدمات، ولما يقوم به عادة باستئجار جماعة، تلقى عليهم مهمات تنظيف الخان وحراسته، كما يقوم ايضاً بتزويد النزلاء بالحبوب والاطعمة والوقود وكثير من اللوازم التي يحتاجونها على ان تدفع له قيمة هذه المواد. كما وصف (السير بدج) في كتابه ذاك تلك الخانات وصفاً دقيقاً مما رآه منها في تجواله في العراق وتحدث عن ادارتها، وعمن يقوم ببنائها وطريقة النزول فيها والخدمات التي يقدمها للمسافر، كما تحدث عن هندستها وطرز بنائها وعدد الغرف فيها واقسامها المختلفة، كما ذكر اسماء العديد من الخانات التي نزل فيها ووصف كل واحد منها من حيث سعتها واماكنها.(١٧)

فاذا كان لمنازل الطريق هذه الاهمية الكبيرة؛ ويقوم بانشائها محسنون من سراة الناس، فانه من الطبيعي ان يتناولها ادباء القرن





التاسع عشر بالوصف ـ والكثير منهم لاشك نزل فيها خلال تجواله ـ وان يشيدوا باولئك المحسنين. ولا اكتم خبراً حين اذكر ان اكثر ماجاء من قصائد في وصف تلك المنازل جاء ضمن قصائد مدح بُناتِها المحسنين، فجاء فيها شعر كثير. ولسنا بقادرين في هذا البحث الموجز على ايراد ذلك الشعر كله او الاشارة اليه او تفصيل القول فيه فهو موجود بغزارة في ادب تلك الحقبة، انما سنورد توضيحاً لذلك مثلين شعريين لشاعرين حليين وصفا تلك المنازل وصفا دقيقاً وطريفاً.

اولهما الشاعر مهدي بن داود آل السيد سليمان الحلي (١٢٢٢ ـ ١٢٨٨ هـ) الذي وصف في شعره الكثير من الخانات التي شاهدها ونزل بها، نورد هنا منه قسماً من قصيدته التي «وصف بها احد الخانات التي بناها (بعض ال كبة) بين بغداد والحلة، وكان قد لجأ اليه بسبب نزول المطر في زيارة قام بها لبغداد»[١٨] حين قال فيه:

وبيتٍ على ظهر الفلاة بناهُ مَنْ	له همةٌ من ساحة الكون اوسعُ
نزلنا به والغيث يسكب ماءه	كأن قطره من سيب كفيه يهمعُ
ومنه وقتنا ان تبلَّ ثيابنا	مقاصيرُ من شاو الكواكب ارفعُ
ولم يُرَ في الدنيا مقاصيرُ جنة	لشمل بني الدنيا سواهن تجمعُ
كأنّا حلولٌ في منازلنا بها..	ولم تتضمنّا مهامه بلقعُ[١٩]

ونلاحظ ان الشاعر هنا نقل للخان صورة واضحة من حيث موقعه في الطريق واتساعه وكثرة غرفه ومنافعه للنزيل والمستجير، وهو وصف يتسم بنقل المشاهد بحقيقتها المنظورة بعيداً عن عنصر الشعور بالدفء فيه او الاحساس الظاهر بالسعادة، والراجح انه نظمها بعد مدة طويلة من مفارقة المنزل ونسيان الدفء الذي اضفاه عليه الخان حين دلف اليه هارباً من الغيث الغزير وهو يسكب ماءه مدراراً على ثيابه، ولكنه تذكر كل ذلك حين وقف امام الموسر الذي انشأ الخان وجلس بمجلسه وصار يمدحه في هذه القصيدة.

اما الشاعر الآخر فهو محمد بن الخلفة الحلي (ت ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ م) الذي كان اكثر طرافة واجمل وصفاً لمجموعة منازل الطريق التي تقع بين الحلة وبغداد، والتي كان قد شاهدها واكثر من النزول بها وهو في رحلاته المتكررة بين الحلة وبغداد، فوصفها بخبرة الرحالة المجرب والمسافر الدؤوب الذي كرر السفر وعرف الاماكن وخبر الناس وارتاد الطرق، فوصفها وصفاً يدل على الشعور بالسعادة والراحة وهو ينزل في قسم منها، والاحساس بالامتنان لما يقدمه القائمون عليها من خدمات طيبة واستقبال حسن، ومايلقاه النزلاء عموماً فيها من امان وطعام وشراب، كما ذكر في قصيدته، من تلك المنازل مالايحسن النزول فيه او التوقف عنده اما لسوء خلق القائمين عليها، او لعدم توفر الراحة والامان فيها. كل ذلك وصفه بشعر من نوع البند. والبند ـ كما هو معلوم ـ نوع من الشعر العربي شاع في وسط العراق وجنوبه وفي بلاد الاحواز منذ القرن السابع عشر الميلادي وقوي وكثر النظم فيه في القرن التاسع عشر، يقوم الوزن فيه على اساس التفعيلة بدل الشطرين ووحدة البيت، وهو يشبه الى حد كبير الشعر الحر في العصر الحديث، ولكنه يكتب على شكل اسطر النثر.[٢٠]

لقد وصف الشاعر ابن الخلفة في بنده هذا رحلته مفصلةً من الحلة الى بغداد، بداها بوصفٍ مسهب لجواده ومزاياه وشكله وقوته، ثم وصف مختلف مظاهر الطريق، والطبيعة والناس، والمراحل التي قطعها والمنازل التي حط فيها؛ نجتزئ منها وصفه لمنازل الطريق التي سماها (الخانات) وهي محور بحثنا قال:

«وسر يحفظك الحافظ من كيد الغدر، لئام القوم كم خانـوا وكم مـابينهم ضاع دمٌ هـدر. واياك ومكـر السيِّ الخُلق من الخَلق. فلا تصحب سوى السيف. وكن فرداً وحيداً حذراً حتى يـراك الناس كالطيف. وعوّد نفسك الغربة واقطع مهمه البيد.. وجرّد صارمَ العزم من الحزم. على غارب مهريٍّ لقد فصّله الصانع في احسن تفصيل.. فَحرِّكْهُ من الجسر،[21] لكي يخترقَ الارضَ كما النسر. وان جئت الى النيل، وجاوزت المحاويل فلا تأو الى خان، ولا ترفق بمن خان، سوى (خان ابن نجار) شريفٍ تاجرٍ اشرف تجار. سقى الله ثرى تـربته مزنة غفران من الرحمة مالم يسقها من قبل انسان، واعلا قصرَه في جنة الخلد بفضل منه مادام واحسان. فبتْ فيه ولاتبرح حتى مطلع الشمس، ورحَ (كذا) بالَكَ لاتذكر ماصابـك بالامس. وقم وأسـرع بمسـراك ولا تمش على مهـل، ليُطوى لك بـالمسرى جميـع الوعـر والسهل. وان جئت الى البير[22] تجنبها فما فيها اهل تدبير. نعم من (خانِ زادٍ) استطعم الزاد. هنيئاً واصطبح واغبق به طرفك مازاد. ضحى ثم اشرب القهوة من كف سخي ذكره شاع. قنوع كلما تعطيه يهتز يشكر لك مافيه عطاءُ أبداً ضاع. فودعه ودع عن نفسك البخل، ولاتصغ لذي عذل. فذاك الناقص الرذل. (وخان / الكهية) المشهور ان وافيته لاتتخذ فيه نزولا، إن قرب البلد الطيب مخفيه، ومل عنه يساراً تنظر اليسر بعينيك عيانا، وترى يرحل عن ساحتك العسر بيانا. وسيهديك سنا النور الالهي كمشكاة، وفيها ضوء مصباح. بدا وسط زجاجٍ، فتظن الكوكبَ الدريَّ قد اشرق ياصاح..».[23]

الهوامش والمصادر

١ ـ انظر عن حركة العرب المسلمين في الرحلة والسياحة في هذه المرحلة: ادب الرحلات وتطوره في الادب العربي ـ احمد ابو سعد ـ دار الشرق الجديد ـ بيروت ١٩٦١، و: ادب الرحلات عند العرب في المشرق ـ علي محسن مال الله ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧٨.

٢ ـ انظر اسماء الكثير من الرحالة الاجانب الى المشرق والى العراق وكتاباتهم فيه منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى مطلع القرن العشرين: اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ لونكريك ـ ترجمة جعفر خياط ط ٣ ص ٣٣٧ ـ ٣٤٨.

و: بغداد كما وصفها السُيّاح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ـ ترجمة عن الالمانية سعاد هادي العمري ـ مطبعة دار المعرفة بغداد ١٩٥٤.

٣ ـ انظر الرحلة في كتاب: شعراء بغداد ـ علي الخاقاني ـ مطبعة اسعد ـ بغداد ١٩٦٢ جـ٢/ ٤٢٠ ـ ٤٣٠،

و: شعراء كاظميون ـ محمد حسن ال ياسين ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٨٠ جـ١/ ١٦٦ ـ ١٧٨.

٤ ـ انظر الرحلة في: (ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب) مطبعة ابن زيدون ط ١ المجموعة الاولى / ص ٤٦ ـ ٧٦.

٥ ـ انظر تعريف (الخان) لغة واصطلاحاً، وتطوره: مجلة المورد (البغدادية) مجلد / ٨ العدد / ٤ لسنة ١٩٧٩ ص ٢٩ ـ ٣١ ـ مقال بعنوان (خانات بغداد من القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين)

٦ ـ البغداديون ـ اخبارهم ومجالسهم ـ ابراهيم الدروبي ـ مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٨ ص ٣٩٤.

٧ ـ العقد المفصل ـ حيدر الحلي جـ ١/ص: ي ـ مطبعة الشابندر بغداد ١٣٣١ هـ.

٨ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ بيروت ١٩٥٦ مجلد ٢/ ٣٤١.

٩ ـ البلدان ـ اليعقوبي ط ٣ المطبعة الحيدرية ـ نجف ١٩٥٧ ص ١.

١٠ ـ انظر: دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ـ مديرية الآثار العامة ـ بغداد ـ القسم الاول ١٩٣٨.

١١ ـ كلشن خلفا ـ نظمي زاده ـ ترجمه من التركية موسى كاظم نورس. النجف ١٩٧١ ص ٢٠٩ ـ ٢٠١.

١٢ ـ العراق في القرن السابع عشر ـ تافرينيه ـ نقله الى العربية: بشير فرنسيس وكوركيس عواد. مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٤ ص ٨١.

١٣ ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ـ ترجمه عن الالمانية ـ محمود حسين الامين ـ بغداد ١٩٦٥ ص ٤٤.

١٤ ـ رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦: بكنغهام ـ ترجمه ـ سليم طه التكريتي ـ مطبعة اسعد ـ بغداد ١٩٦٨ جـ ١/ ١٩٧.

١٥ ـ مجلة المورد ـ المجلد/٨ العدد/٤ لسنة ١٩٧٩ ص ٣٣.

١٦ ـ المرجع اسابق ٣٤ ـ ٣٦.

١٧ ـ رحلات الى العراق ـ السير واليس بدج ـ ترجمة فؤاد جميل ط ١ بغداد ١٩٦٦ ص ١٢١ ـ ١٢٧.

١٨ ـ نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ـ محمد مهدي البصير مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٦ ص ٣١٧.

١٩ ـ ديوان مهدي بن السيد داود آل السيد سليمان (مخطوط) جـ٢ الورقة ١١٠ ـ موجود لدى اسرته في الحلة.

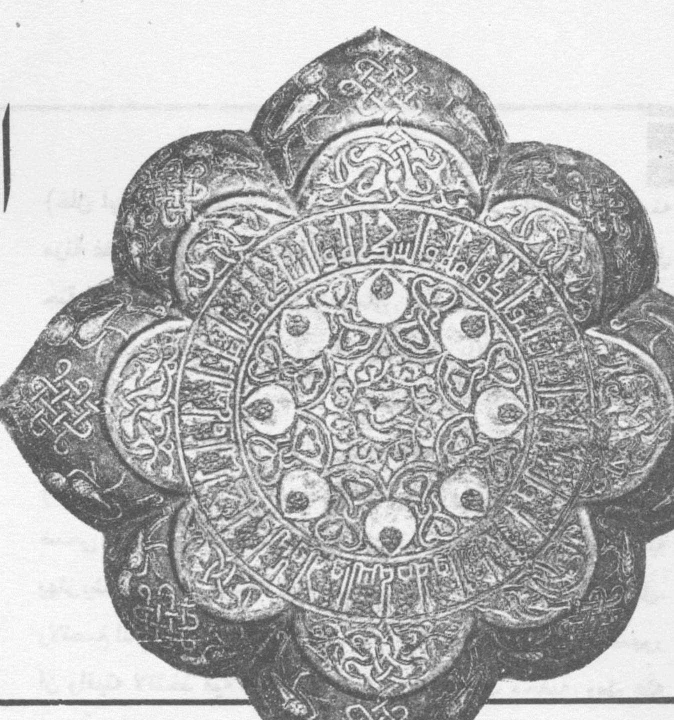
٢٠ ـ انظر عن البند ـ البند في الادب العربي ـ عبد الكريم الدجيلي مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٩.

٢١ ـ المقصود بالجسر هنا ـ جسر الحلة القديم.

٢٢ ـ البير ـ منطقة بين الحلة وبغداد في منتصف الطريق، كانت تسمى (خان النصف) او (بير النصف).

٢٣ ـ مجلة اليقين (البغدادية) لصاحبها السيد محمد الهاشمي ـ السنة الاولى ـ عدد ١١ تموز ١٩٢٢ القسم ٦ ص ١٨٢ ـ ١٨٤، والبند في الادب العربي ـ الدجيلي ص ١٧١ ـ ١٧٢.

المرايا في التراث العربي الاسلامي



فريال داود المختار

مقدمة تاريخية

عرف الانسان المرآة منذ العصور الاولى، وهناك انواع عديدة منها؛ مختلفة الاشكال والحجوم؛ تحتفظ بها المتاحف العالمية، وهي تنطق بمهارة الصناع القدماء وخبرتهم الفنية وتحسسهم بالجمال الذاتي. كما تعتبر هذه المجموعات من المرايا آثاراً فنية مهمة لدراسة اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية عبر العصور التاريخية. وتدل دراسة المرايا القديمة على انتقال الانسان من مرحلة الافادة من المرايا التي تعكس مدى اهتمام الانسان بنظافته وحسن مظهره الى مرحلة الرغبة في تزيين وزخرفة هذه المرايا بعناصر زخرفية مختلفة تم التفنن في تطويرها وابتكار مايزيد في جمال مظهرها.[١] وقد ذهب بعض الباحثين الى تعرُّف مفاهيم الانسان ومفرداته الرمزية من خلال دراسة المرايا، نذكر بعضا منها: (ان الكون بمثابة مرآة ناطقة تتحدث عن جلاله وجمال بدائعه) وان (الرؤية فيها تبعث الغبطة وتثير السرور)، وان (الضمير هو بمثابة مرآة تعكس طريق الحق والحقيقة، وان العين نفسها هي كمرآة صغيرة تعكس ماتراه) وان (الوجه مرآة الروح).[٢] وقيل عنها ايضاً انها (تخبر عن مجهول مراته)[٣] اي ان ظاهره يدل على باطنه. وفي حين تصف المعتقدات الصينية القديمة المرآة بأنها (تصور الصدق والثبات) يرى الغربيون عكس ذلك، اذ يقول البعض ان (المرآة عنوان الكذب والنفاق).[٤]

والمرآة لغة (بكسر الميم) التي ينظر فيها،[٥] هي مصدر الشئ المرئي،[٦] وقيل مرائي على وزن (مراغ)[٧] اذا لم يزد عددها على ثلاث فقط[٨] اما اذا زاد على ذلك فيطلق عليها مرايا[٩] وقيل مرآة وهو فعلاة من مرأ وهو اسم لقرية مأرب[١٠] في اليمن، وجاء ايضاً (رأرأ) وتعني المرأة اذا نظرت وجهها في المرآة.[١١] وللمرآة اسماء عديدة ذكرتها المراجع القديمة كما ورد ذكرها ضمن الاشعار العربية والامثال نذكر منها الزنجنجل او السجنجل. قال امرؤ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل[١٢]

كما عرفت ايضا بالماوية (بتشديد الياء) نسبة الى الماء لصفائها، وان الصور ترى فيها كما ترى في الماء الصافي،[١٣] وسميت ايضا بالبيضة لبياضها وصفائها.[١٤] كما اطلقت المرايا اسماً لبعض الاسلحة، فسميت الدروع الاسلامية في القرن السابع الهجري باسم (ذات المرايا الاربع) وفيها يكون الدرع مؤلفا من اربع قطع كبيرة من الحديد.[١٥]

تعددت المصادر في ذكر المرآة، ومنها بعض الكتب المقدسة[١٦] ومصادر اللغة والاساطير القديمة. كما ظهرت المرآة مصوّرة على الاختام والمنحوتات الجدارية، اضافة الى ماوجد منها في قبور السراقيين والمصريين القدماء، وكان معظمها مغطى بقماش من الياف نباتية للمحافظة عليها.[١٧] كما وجدت اعداد كبيرة من المرايا القديمة في كثير من المواقع اليونانية والرومانية والصينية في الفترة السابقة للاسلام، وجميعها يدل على ان صناعتها محلية تعكس مميزات الفترة التي صنعت فيها. وسوف نتناول دراسة ذلك بالتفصيل من حيث المادة والشكل ثم الزخرفة حسب التسلسل التاريخي لها.

ادرك الانسان منذ القدم امكان الافادة من انعكاس صورته على سطح ماء راكد في وعاء او بئر او نهر، ثم عرف المرايا المعدنية والزجاجية من بعدها. فالعراقيون القدماء كانوا قد عرفوها منذ العصور القديمة كما دلت على ذلك آثارهم. فقد كشفت التنقيبات الآثاريّة عن العديد من النماذج، منها اناء من الفخار يعود الى عصر جمدة نصر وعليه زخرفة آدمية تمثل راقصات تظهر كل واحدة منها

كلية الآداب / جامعة بغداد



تحمل مرآة شبه بيضوية. كما تم العثور على اناء آخر من الفخار في خفاجي،[١٨] يرجع زمنه الى بداية الالف الثالث ق.م، مصنوع من الفخار مصبوغ باللون الاحمر القرمزي،[١٩] وقد زخرف بدنه برسوم آدمية تمثل نساء يحملن بايديهن وامام وجوههن اشكال مرايا دائرية الشكل تقريبا.[٢٠]

وعثر ايضا على ختم اسطواني يمثل آلهة تحمل بيمناها مرآة ذات مقبض طويل وامامها سيدة ترفع يمناها في حالة تعبد، وفي متحف اللوفر بباريس مشهد يمثل آلهة جالسة تمسك بمرآة.[٢١] اما في النصوص الكتابية فقد وردت كلمة مرآة في النصوص المسمارية (Mamru, mamara)؛ وتعني رسم حركة الوجه او رسم الوجه، وهي مشتقة من المصدر الاكدي (amara)[٢٢] وتعني النظر. كما تشير المصادر المسمارية الى وجود مرايا صنعت اطاراتها من الجلد[٢٣] والخشب في العصر الاكدي.

وهناك نصوص مسمارية ايضا تشير الى صناعة مرايا من الفضة والذهب من العهد البابلي الوسيط نذكر منها (mamru hurasu) وتعني مرآة من الذهب و (mamru kaspu) وتعني مرآة من الفضة.[٢٤]

ومن الجدير بالذكر ان معظم المرايا المصنوعة من المعدن قد سبقت بكلمة (musal)[٢٥] وتعني مرآة معدنية، وهي مشابهة للكلمة العربية (مثال)، ومنها كلمة (مثل) اي شبه الشيء. ومما لاشك فيه ان عمل المرآة يعطي شبه الشيء الذي امامه او يعكس صورته.

استمر صنع المرايا خلال الفترات التاريخية حتى نهاية العصر الاشوري المتأخر وكان معظمها دائري الشكل صُنع من معدن مصقول لامع وبخاصة البرونز،[٢٦] وكذلك الفضة والذهب.[٢٧] وبالاضافة الى هذه الاشارات عن المرايا في النصوص المسمارية التاريخية، تم الكشف عن مجموعة من المرايا المعدنية والزجاجية في عدد من المواقع الآثارية مثل مقبرة ابي صخير في الحيرة وفي تل سليمة وتل ابو غرق في بابل وتل (ام خشم) في الحيرة، ثم تل محمد عرب (سد صدام)، وكذلك في سفوح عانة وموقع سبار. وهناك بعض منها يعرض في خزانات المتحف العراقي منها خزانة في القاعة الخامسة عشرة تحتوي على مجموعة من المرايا البرونزية تعود الى الالف الاول ق.م. ومعظمها دائرية الشكل ذات مقبض بنهاية مدببة، الوجه الاول منها صقيل جدا يعكس الصورة الساقطة عليه، اما الوجه الخلفي فانه مزين بزخارف محززة ومحفورة تضم عناصر زخرفية مختلفة. وهناك مرآة دائرية الشكل من البرونز، الوجه الاول منها صقيل خالٍ من الزخرفة، يعكس الصورة الساقطة عليها، اما الوجه الثاني فمقسم الى اربعة ارباع بواسطة مستقيمين متقاطعين عند المركز يضم كل ربع منها دائرة تحصر داخلها عنصر وردة خماسية الفصوص، كما يوجد عنصر البطة عند طرف كل مستقيم مجموعها اربع بطات.

اما المرايا الزجاجية فقد وجدت اعداد منها في بعض المواقع الآثارية وهي صغيرة الحجم نسبيا يحيط بها اطار جصي يظهر احيانا مزخرف بزخارف بسيطة محفورة على الجص ملونة باللون الاسود على ارضية حمراء. الا ان معظم اطارات هذه المرايا خالية من الزخرفة وهي مقعرة لتثبيت زجاجة المرآة الداخلية بعد طلائها بطبقة من الرصاص المذاب او اوكسيد الزئبق او نوع اخر من الغراء يمنع نفاذ الضوء خلاله، بل يعكسه. وهذا النوع من المرايا محدبة قليلا من الخلف، وينتهي اطار المرآة بحافة ملساء او مقرنصة لايزيد قطر الواحدة منها على ٩ سم.[٢٨]

وقد كشفت التنقيبات في سبار عن مرآة خلال فترة الموسم الخامس (١٩٨٢ ـ ١٩٨٣م) في احد قبور المدينة من عصر نبوخذنصر الثاني مع مجموعة من الاثار. وهذه المرآة زجاجية دائرية الشكل ذات اطار دائري من الجبس يزدان بوحدات زخرفية متكررة تمت بطريقة التحزيز. اما ظهر المرآة فقد زخرف بزخرفة نسج الحصير المعروفة في تلك الفترة.[٢٩] ومما يؤسف عليه ان معظم المرايا الزجاجية العراقية قد تعرضت بسبب الرطوبة الى حالة الكمخ[٣٠] فاصبحت ذات عدة الوان.

ومما يؤكد معرفة الانسان للمرايا منذ القدم العثور عليها في مواقع آثاريّة في بقاع العالم المختلفة سواء في بلاد وادي النيل او بلاد الشام، وكذلك في اليونان وبلاد الهند والصين. ففي بلاد وادي النيل صنع الفنان المصري القديم مرايا جميلة مزخرفة اعتبرت من الحلي، فكان منها المرايا النحاسية ذات الاشكال المنتظمة يعود اقدمها الى عصر الامبراطورية الوسطى (١٢٣٤ ـ ١٧٧٨ ق.م.). ويتألف قرصها من وجهين احدهما صقيل جدا، مسطح او محدب او مقعر. وللمرآة مقبض من العاج او الخشب او الحجر المصقول والمزخرف بحزوز بسيطة او زخارف حيوانية او آدمية تنتهي في الغالب برأس المعبود (حتحور) او بشبه جذع شجرة.[٣١]

وتحفظ المرآة احيانا في علب خشبية مزخرفة بزخارف عاجية تضم عناصر نباتية وحيوانية وبخاصة ما وجد منها مع مومياء الملكة حينتاوي (Henttaoui) وفي قبر آمينوفيس الثاني ١٤٩٥ ـ ١٤٩٠ ق.م)[٣٢] ولابد لنا ان نشير هنا الى مرآة منار الاسكندرية[٣٣] المصنوعة من الحديد المصقول، ويذكر انها كانت قبل ذلك مصنوعة من نوع من الاحجار الشفافة تشاهد فيها مراكب البحر اذا اقبلت نهارا من رَوما على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها. وقيل انها كانت من زجاج مدبر، وتعتبر من عجائب الدنيا، وقد قال عنها عبد الله عمرو: (وعجائب الدنيا اربع مرايا كانت معلقة بمنار الاسكندرية وكان يجلس الجالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر).[٣٤] ومن الروايات حول موضوع مرآة الاسكندرية رواية يذكرها ابن وصيف بقوله: (ان مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح كان قد بناها وجعل في وسطها قبة على اساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة اشبار فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان مما يهمهم وكان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فالقت شعاعها على ذلك الشيء فاحرقته).[٣٥] من هذا النص نفهم ان المرآة متحركة وهي من المرايا اللامة بحيث تجمع اشعة الشمس الساقطة عليها فتؤدي الى

الحريق.

وقد عرفت المرايا المعدنية والزجاجية في بلاد الشام منذ اقدم العصور. وصورت بعض المرايا على المشاهد الحجرية كالمشهد المنقوش على نصب آرامي المكتشف في مرعش ويمثل فتاة صغيرة واقفة قرب ابويها وبيمناها مرآة،[٣٦] وكذلك مشهد فينوس وبيدها مرآة بالفسيفساء وهناك مشهد اخر لحسناء تحمل بيدها مرآة وُجِدَتْ مصوّرةً على خزف اغريقي. ويوجد في المتحف الوطني بدمشق تماثيل برونزية احدها يمثل فينوس او حسناء مع مرآة، كما وجدت اعداد هائلة من المرايا يمكن تصنيفها الى مجموعات في ضوء مادة صنعها او مادة اطارها ثم شكلها ونوع زخارفها، فكان منها:

أ - مرايا معدنية فضية وبرونزية وحديدية ورصاصية وهي في الغالب تتألف من قرص معدني بسيط محدب ومصقول جيدا، بمقبض او خالية من المقبض بعضها محفوظ بغطاء او في علب خاصة[٣٧].

ب - مرايا زجاجية وكان قد كثر استخدامها في القرن الثالث الميلادي، حسب رأي (موران جان)، وقد تنوعت أطرها ومادة صنعها فكان منها المرايا ذات الاطر المصنوعة من مواد مختلفة، كالمعدن او الحجر او الجص او الخشب او العاج، كما تنوعت مقابضها فظهر بعضها بشكل انسان او حيوان.

كما تدل المرايا القديمة المكتشفة في فلسطين العربية والمحفوظة في متحف فلسطين بالقدس على اهمية المرايا في مختلف العصور، فكان بعضها بسيطاً خالياً من الزخرفة وبعضها يمتاز بالمقبض العاجي المزخرف بانواع العناصر الزخرفية. اما الشعوب القديمة الاخرى فقد عرفت هي الاخرى استخدام المرايا وصناعتها، حيث ظهرت في الهند باشكال مختلفة صقيلة جدا ومقابضها مزخرفة بالعاج. اما في الصين فقد لعبت المرآة دورا مهما في معتقداتهم الدينية حيث عدت من الادوات المقدسة يعلقونها حول اجسامهم لتجنبهم مواضع الزلل ويدفنونها مع موتاهم لتنير لهم المقابر وتبعد عنهم الارواح الشريرة[٣٨].

وقد تنوعت اشكال المرايا الصينية، فكان منها المستديرة والمربعة والمثمنة، مفصصة اوبشكل ناقوس، ويكون وجهها في الغالب مصقولا ومقعرا لكي يسمح بانعكاس الوجه كله، اما زخارفها فكانت من معدن المرآة نفسه وليس مضافا إليها.[٣٩] وانتشرت عادة استخدام المرايا عند الرومان حتى اصبحت من خصوصيات المرأة الرومانية ومكملة لزينتها وحليها. فتفنن الصانع الروماني في صناعتها وزخرفة سطحها وتم حفظها في علب من الفضة او الذهب غاية في الدقة والجمال. كما ظهرت في هذه الفترة المرايا الزجاجية الجدارية. وللآثاري موران جان رأي في اصل ابتكار المرآة الزجاجية الجدارية فهو يقول: (ان المرآة الزجاجية المعروفة (Mirorr Dantimse) تعود في الواقع الى العصر البيزنطي.[٤٠] اما بليني فيرى ان المرايا الزجاجية كانت من ابتكار الصيداويين،[٤١] سكان مدينة صيدا. ان صناعة المرايا لازمت التطور الحضاري للشعوب منذ القدم خلال الفترة السابقة للاسلام، ثم الفترة الاسلامية، وان المرايا الزجاجية لم تحل محل المرايا المعدنية التي كانت لها السيادة منذ القدم، وان ابتكار الفنان للزجاج وعمل المرايا الزجاجية كانت على نمط اشكال وزخارف المرايا المعدنية بل لقد تفنن في صناعتها وزخرفتها حتى غدت المرآة من ابرز مستلزمات الحلي الملازمة للمرأة بل اصبحت عنصرا مهما في زخرفة الاثاث والجدران في القصور والمساجد والاضرحة.

المرايا الاسلامية

عرف العرب المرايا قبل الاسلام، حيث ورد ذكرها في اشعارهم وامثالهم،[٤٢]، واستمر استعمالها في العصر الاسلامي، كما تدل على ذلك النصوص التاريخية، والاشعار العربية وكذلك صور المخطوطات.

ومن الملاحظ ان جلّ ما وصلنا من المرايا الاسلامية الموزعة بين المتاحف العالمية يعود اقدمها الى القرن الخامس الهجري، وليس معنى هذا انه لم تكن هناك مرايا قبل هذه الفترة اذ ان العديد من الاثار الاسلامية تعرضت على مر العصور للسلب والتخريب، اضافة الى ان التحف المعدنية يمكن صهرها والافادة منها في اشكال متعددة. وقد شمل ذلك المرايا المعدنية. اما الزجاجية فهي الاخرى سهلة الكسر والتهشيم ولكن على الرغم من ذلك فان هذه الصناعة كانت لها مكانة في المجتمع الاسلامي. وهناك تسميات عديدة للمرآة في المعاجم العربية كالسجنجل والزجنجل والبيضة ثم الماوية، مما يؤكد ان العرب المسلمين كانوا قد اهتموا بعمل المرايا واستعمالها.

يروي القزويني في هذا المجال:[٤٣] انه كان في وسط محراب مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة مرآة مربعة ذكروا انها كانت لعائشة (رض)،وجاء في «بغية الملتمس» ابيات من الشعر العربي في وصف مرآة معدنية دائرية الشكل نذكر منها:

ومشت عجلى الى مرآتها فاذا ورد كورد في طبق[٤٤]



اما المقريزي فقد وصف خزائن الجوهر والطيب والتحف المعدنية ومن بينها المرايا المعدنية والزجاجية وزخرفها المُمَوه بالمينا والذهب والفضة ومقابضها البديعة من العقيق حيث يقول: (ووجد عدة صناديق مملوءة مرايا من حديد صيني ومن زجاج المينا لايحصى، ولها مقابض من العقيق وغيره).[٤٥] وقال ابو بكر الحفيد (سنة ٥٠٧ هـ) أبياتا من الشعر يصف فيها مرآة معدنية مصقولة نختار منها:

اني نظرت الى المرآة اذ جليت — فانكرت مقلتاي كل ما رأتا[٤٦]

اما صور المخطوطات العربية الاسلامية فهي خير مصدر لنا في دراسة المرايا الاسلامية، نذكر منها بعض صور مخطوط جامع التواريخ (٧١٤ هـ) وقد ظهر في احداها امرأة في كامل زينتها تنظر في مرآة معدنية بيضوية الشكل وذات مقبض.[٤٧] وهناك لوحة ورقية مرسومة بالالوان يحتفظ بها متحف الفن الاسلامي بالقاهرة تمثل سيدة تتأهب لتزيين وجهها؛ وقد نثرت معدات التجميل ونصبت مرآة زجاجية مستطيلة الشكل، ذات اطار من الخشب ترتكز على قاعدة، بعد ان اخرجتها من علبتها الخشبية.[٤٨] كما توجد لوحة فنية من المدرسة الهندية للتصوير (القرن ١٢ هـ) تم تنفيذها على الورق وتمثل سيدة بكامل زينتها تجلس في شرفة القصر وقد جلست امامها تابعة لها تمسك مرآة مستطيلة الشكل لتكمل زينتها.

ان اقدم مرآة مؤرخة يحتفظ بها متحف الفن الاسلامي بالقاهرة تعود الى القرن الخامس الهجري، وهي مصنوعة في عام ٥٤٨ هـ، من البرونز تتألف من قرص دائري يبلغ قطره ١٧ سم، وذات وجهين: الاول صقيل والثاني يضم زخارف حيوانية محصورة داخل اشكال هندسية، تمثل سبع دوائر تحصر داخلها رسوم سبعة بروج وينتهي قرص المرآة بحافة عريضة مرتفعة عن مستوى السطح تضم كتابة نسخية تشتمل على البسملة ثم عبارات دعائية وتاريخ الصنع[٤٩]. ولايستبعد ان مثل هذه المرايا قد استخدم لاغراض سحرية اي بمثابة تميمة كما يحتمل انها كانت متأثرة بالمرايا الصينية.

ويظهر لنا ان المرآة العربية الاسلامية كانت قد صنعت من مادتين هما المعدن والزجاج. اما المعدنية فهي من البرونز والصلب او الفضة وتتألف بشكل عام من قرص دائري يتراوح قطره بين ٨ - ١٢ سم وهي وجهان الاول مصقول صقلا جيدا خالياً في الغالب من الزخرفة، وان وجدت فلا تتعدى شريطا كتابيا ضيقا يضم آيات قرآنية او عبارات دعائية او كتابات سحرية.[٥٠] اما الوجه الثاني للمرآة فهو مستوٍ ينتهي بحافة ملساء او مقرنصة وتثبت في المركز حلقة معدنية تتصل بجزء بارز ليمرر منها شريط لتثبيت المرآة على الجدار او يكون فيها ثقب في الاعلى للغرض نفسه ولبعض المرايا مقبض يصنع من مادة المرآة نفسها او يضاف اليها، خالٍ من الزخرفة، وان وجدت فتكون مختلفة تماما عن زخرفة قرص المرآة. ومهما تكن اجزاء المرآة فمن المهم ان نتعرف زخرفتها وما تشتمل عليه من عناصر زخرفية تظهر بشكل خاص على الوجه الثاني غير المصقول. ويمكن تقسيم هذه الزخارف على النحو الاتي:

أ - زخارف نباتية:

وتضم السيقان الملتوية والاغصان المتشابكة التي تنتهي باوراق رمحية وثلاثية او خماسية الفصوص وانصاف المراوح النخيلية. وكذلك انواع الازهار ومنها زهرة اللوتس. كما يظهر اسلوب الآرابسك مُنفّذاً في معظم المرايا الاسلامية اذ نشاهد مرآة من النحاس تعود الى القرن الثاني عشر الهجري من العراق يحتفظ بها المتحف العراقي[٥١] ويبلغ قطرها ١٤ سم، وهي تضم عناصر زخرفية بشكل شريط دائري قوامها رسوم حيوانات على ارضية نباتية كما تضم شريطا كتابيا بالخط الكوفي المُورّق على ارضية نباتية.

ب - زخارف حيوانية:

وتشمل في الغالب الاسد والغزال والكلب والوزّة وهي تظهر في الغالب بحالة الجري قريبة من الطبيعة واحيانا بشكل خرافي، فيظهر

حيوانان مجنحان لكل منها رأس ادمي متقابلان او متدابران او يظهر كل حيوان محصوراً داخل شكل دائري يتناوب مع حيوان آخر ليملأ سطح المرآة الدائري. وتحف بهذه المنطقة فروع واوراق نباتية واشرطة كتابية كما في انموذج من العراق يعود الى القرن الثاني عشر الهجري.(٥٣)

جـ - زخارف كتابية:

تم تنفيذها بخط النسخ او الخط الكوفي البسيط والمُورّق على ارضية نباتية وتضم في الغالب آيات قرآنية وعبارات دعائية مثل (العز الدائم والعمر السالم والاقبال الشامل والجد الصاعد والبقاء ابدا.. الخ). كما تضم عبارات سحرية وتاريخ الصنع ومن المواضيع الزخرفية الاخرى رؤوس ادمية متوّجة او مشاهد صيد(٥٣) او مناظر من البلاط.

اما تنفيذ الزخرفة على المرآة باختلاف عناصرها فكان يتم بعدة طرق منها:

أ - التكفيت بالذهب والفضة:

وتتم بحفر الارضية وملئها بمادة الذهب والفضة وترك الزخارف من النحاس او البرونز، وقد ازدهرت هذه الطريقة على يد الفنان العراقي في الموصل، او بملء العناصر الزخرفية بالفضة والذهب وترك الارضية من النحاس والبرونز. وقد شاعت هذه الطريقة في العراق والقاهرة ودمشق.(٥٤)

ب - الزخرفة بالمينا:

وتتم باستخدام مادة زجاجية نصف شفافة يضاف اليها بعض الاكاسيد لاعطائها الوانا مختلفة، مثل اوكسيد القصدير الذي يعطي اللون الابيض واوكسيد الكوبلت واوكسيد النحاس لاعطاء اللونين الازرق والاخضر على التوالي.

جـ - الصب في القالب:

وتظهر الزخارف فيه بارزة حيث تأخذ شكل القالب. وقد شاعت هذه الطريقة في زخرفة معظم المرايا المعدنية الاسلامية. والراجح ان المرايا المعدنية كانت لها السيادة خلال القرون الستة الهجرية الاولى، في حين قلّ استعمال المرايا الزجاجية التي كانت معروفة قبل الاسلام. ولكن في بداية القرن السابع الهجري عادت المرايا الزجاجية الى الظهور وتبوأت مكانتها جنبا الى جنب المرايا المعدنية.

ويقال ان الفضل في عودتها يرجع الى مدينة البندقيّة.(٥٥) وكان الفنان المسلم احيانا يجمع بين النوعين فيصنع ظهر المرآة وقاعدتها من المعدن والوجه الصقيل من الزجاج. والواقع إن المرايا الزجاجية بشكل عام عبارة عن لوح من البلور الاملس او الزجاج، يطلى الوجه الخلفي منه بطبقة من الفضة او القصدير الذي يقوم بعكس الضوء، والمنظر المحيط بالصورة الاساسية، وعليه فان الفرق بين المرايا المعدنية والمرايا الزجاجية يبدو في كيفية انعكاس الصورة والضوء. فالاولى تعكس صور الاشياء بواسطة السطح الامامي المصقول، اما الثانية فتعكس الصور والضوء بواسطة السطح الخلفي المطلي.(٥٦) وفي الحقيقة ان القيمة الفنية للمرايا الزجاجية تكمن في اطاراتها واغلفتها بانواعها المختلفة. فالمرايا الكبيرة كانت في الغالب تحاط باطار خشبي او معدني وتعلق بواسطة حلقات تمرر منها اشرطة او اسلاك لتثبيتها على الجدران او تستند الى قاعدة خشبية او معدنية على الارض.(٥٧) ويحتفظ المتحف العراقي بمرآة تعود الى نهاية القرن الثاني عشر الهجري وهي مؤطرة باطار من الحديد ويبلغ ارتفاعها ٧١ر٥ سم وعرضها ٤٤ر٥ سم. وهذه المرآة تقوم على مسندين كل مسند يتألف من قاعدة مقببة ذات نهاية مفصصة وبدن حلزوني ينتهي من الاعلى بنهاية مدببة ويحصر بين الحاملين بواسطة ثلاثة مفاصل سائبة من الطرفين. اما المفصل الاوسط فثابت يقوم بسند المرآة عند تحريكها الى الاعلى او الاسفل، كما تحف بالمرآة اغصان تظهر كانها عقود مدببة ومفصصة. وللمرآة غلاف معدني مستطيل الشكل. وابرز مايميز هذه المرآة البديعة زخارفها المكفتة بالذهب وتضم عناصر نباتية دقيقة تتمثل بالاغصان المتشابكة والاوراق وكذلك زخارف حيوانية تمثل اشكال طيور، كالطاووس والحمامة، محصورة داخل جامات مفصصة. كما انها تضم زخارف كتابية بخط النسخ تشمل آيات قرآنية وعبارات دعائية. ويوجد في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة(٥٨) مرآة يبلغ قياسها ٧٩ × ٤٤ داخل اطار من الخشب جزؤه الاوسط على شكل عقد لحفظ المرآة. وتزين العقد وردتان ذات خمسة فصوص، كما تحيط بجانبي العقد واسفله زخرفة نباتية بارزة تمت بطريقة الحفر المائل وعليها آثار طلاء. اما اعلى العقد فتزينه زخارف نباتية مفرغة ومذهبة يمتد عندقاعدتها شريط كتابي بخط النسخ نقرا فيه عبارة (ماشاء الله، تعالى الله. حسن أغا سنة ١٢٣٧ هـ).(٥٩)

وهناك مرايا زجاجية صغيرة الحجم تكون في الغالب ذات أطر

عاجية او خشبية مرصعة ومطعمة بالاحجار الكريمة او مزخرفة بطبقة من مآء الذهب او مدهونة بالالوان على طبقة من معجون خاص تغطيها طبقة دهنية شفافة تحميها من التلف. ومثل هذه المرايا تُحفظ بعلب خشبية او معدنية من الفضة او الذهب لاتقل زخارفها اهمية وجمالا عن زخارف اطار المرآة نفسها.

بقيت المرآة تحظى باهتمام المراة والرجل على السواء ولاتزال الى يومنا هذا سواء كان ذلك في المدينة أم القرية. نذكر على سبيل المثال انه لايزال عدد من النساء في الجزيرة من تعلق في رقبتها مرآة صغيرة ومكحلة تتدلى على الصدر. وكانت المرآة في مقدمة جهاز العروس العربية وتختلف احجامها حسب الحالة الاجتماعية. فالعائلة الغنية تكون مرآة عروسها كبيرة ومؤطرة باطار مطعم بالعاج والاصداف، وتثبت على الجدران فوق صندوق من الخشب تغطي سطحه قطعة من الرخام المصقول المزين بقطع صغيرة من المرايا حيث تحفظ به العروس حاجاتها وادوات زينتها. اما اذا كانت العروس متوسطة الحال او فقيرة فتكون مرآتها صغيرة وصندوق ملابسها من الخشب بسيط خالٍ من الزخرفة.

ولابد من الاشارة الى استخدام الفنان العربي المسلم المرايا عنصراً زخرفياً متعدد الاشكال، منها: الشكل النجمي بداخل مربعات او معينات تغطي الاجزاء العليا من الجدران والعقود والاقباء والقبة والمقرنصات في المساجد والاضرحة والقصور في اشكال غاية في الدقة والجمال. ولاتزال هذه الزخرفة مستخدمة في الوقت الحاضر حفظا لتراثنا العربي الاسلامي الاصيل.

والحق ان العناصر الهندسية كانت لها الصدارة في هذا النوع من الزخرفة. فقد استخدمت الاشكال الهندسية المستوية والمجسمة ذات القياسات المحدودة والمرسومة على وفق المساحات والسطوح المراد زخرفتها مهما كبرت او صغرت. ولابد لنا ان نذكر شيئا عن الزخارف الهندسية حيث بقيت لفترة طويلة صنعة تطبيقية فنية يقتصر عملها على الصناع الماهرين ولايجوز لهم كشف دقائقها لغيرهم، فهي تعتمد بشكل مباشر على الممارسة والتطبيق والذوق والقياس ثم الموازنة التي تبدأ من النقطة والخط ثم الى باقي الاشكال الهندسية. فالفنان الماهر يحفظ عن ظهر قلب الوحدات الزخرفية وكيفية رسمها ثم استنباط قطع زخرفية منها اوردّ اشكالها الى الاصل، اذ بتغيير او حذف وحدة زخرفية او خط من خطوطها فان شكلها يتغير تماما؛ بل حتى اسمها ايضا، اذ ان لكل وحدة زخرفية اسمها الخاص الذي تعرف به. والزخارف الهندسية بمجموعها تشبه في الغالب المنظومة الشمسية، ومن هنا جاءت التسمية العامة لها باسم الاطباق النجمية. كما تعرف لدى الفنان العراقي الماهر ايضا اسم (الربع)،[٢٠] فهي اكثر قبولا (من باب اطلاق الجزء على الكل) لان كل تصميم للشكل الزخرفي يرسم منه ربعه فقط (ربع المستطيل). بعبارة اخرى ان الفنان يرسم اول الامر ربع الوحدة الهندسية ثم يقوم بتكرارها باشكال مختلفة فتظهر تارة مكررة او مقلوبة على نفسها، وتارة تدور حول المركز او المحور الواحد. وتقسم في الغالب الى:

أ ـ ارباع زوجية: وهي مكونة رؤوس الطبق النجمي، رباعية او سداسية او ثمانية حتى تصل الى النجمة ذات ستة عشر رأسا.

ب ـ ارباع فردية: وفيها تكون رؤوس الطبق النجمي فردية، من سبعة الى تسعة رؤوس، وفي بعض الاحيان تخلط مع الارباع الزوجية.

جـ ـ كسور الارباع: وهي اشكال زخرفية تتم باستعمال وحدة زخرفية مع وحدة زخرفية اخرى تختلف عنها دون استعمال النجمة، والغرض منها ملء المساحات الضيقة في زوايا العقود.

كما تظهر المرايا في زخرفة وكسوة المقرنصات او الدلايات المعروفة ايضا بخلايا النحل[٢١] وهي عنصر معماري زخرفي ابتدعه العرب واصبح من ابرز فنونهم. والواضح ان الفنان المسلم ادرك اهمية المرايا في كسوة المقرنصات ومقدار سحرها، فهي تزيد في روعة البناء حيث تعكس بريق الذهب ولمعان القراميد الخزفية كما تنسجم والنور المنبعث من القناديل والثريات المعلقة داخل المساجد والاضرحة ليلا ونور الشمس نهارا. هذا من الناحية الفنية اما من الناحية الفيزيائية فان استخدام المرايا يزيد من انتشار الضوء اذ يشمل مساحة واسعة من البناء حيث انّ الاشعة الساقطة على السطح الاملس والعاكس تكون اكثر انتشاراً مما لو سقطت على سطح خشن؛ فينحصر ضوؤها في نقطة واحدة، ولهذا استخدمت المرايا كعنصر زخرفي اضافة الى كونه عنصراً فيزيائياً.

مما تقدم، تتوضح لنا اهمية المرايا، المعدنية منها والزجاجية، التي تحتفظ بها المتاحف الآثارية العالمية باعتبارها عملا فنيا متميزا يدل على مهارة الفنان العربي وسعة خبرته المهنية وذوقه الفني الرفيع سواء في صناعة المرايا أم طرق زخرفتها أم في استخدام المرايا عنصراً زخرفياً.

هوامش البحث

١ ـ زهدي، بشير، لمحة من المرايا القديمة ونماذجها، مجلة الحوليات الآثارية مجلد (٢٠) جـ ١ ـ ٢، ١٩٧٠، ص ١٠.

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ مرعشلي نديم واسامة (تجديد صحاح الجوهري في اللغة والعلوم) المجلد الاول، ص ٤٥٣، بيروت ١٩٧٤.

٤ ـ حمدي، احمد ممدوح، معدات التجميل، ص ٧٠ القاهرة، ١٩٥٩.

٥ ـ مرعشلي، المصدر السابق، ص ٤٥٣.

٦ ـ الازهري، ابو منصور محمد، تهذيب اللغة، جـ ١٥، ص ٢٨٦.

٧ ـ المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

٨ ـ مرعشلي، المصدر السابق، ص ٤٥٣.

٩ ـ المصدر نفسه الا ان الازهري يذكر ان (العوام يقولون في جمع المرآة مرايا وهو خطا) الازهري، ص ٢٨٤.

١٠ ـ الزبيدي، محب الدين، تاج العروس، جـ ١، ص ١١٨، مصر ١٣٠٦ هـ.

١١ ـ المصدر نفسه، ص ٦٨.

١٢ ـ الرصافي، معروف، الالة والاداة، ص ١٣٦، تحقيق عبد الحميد الرشودي، بغداد ١٩٨٠. ويقرا ايضا:

مهفهفة كالرشاء المقد   ترائبها مصقولة كالسجنجل

الازهري، تهذيب اللغة، جـ ١١، ص ٢٦٠.

١٣ ـ المصدر نفسه، جـ ١٥، ص ٦٤٨.

١٤ ـ العربلوي، جميل حسين، البيضة في اللغة والتراث، مجلة التراث الشعبي، العدد ٣، ص ٦٩، ١٩٨٢.

١٥ ـ حميد، عبد العزيز، وصلاح العبيدي واحمد قاسم، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، ص ٢٠١، بغداد، ١٩٨٢.

١٦ ـ حمدي، المصدر السابق، ص ٦٩.

١٧ ـ زهدي، المصدر السابق، ص ١١.

١٨ ـ يحمل الاناء رقم ٢٤٨٧ م ع.

١٩ ـ بصمجي، فرج، كنوز المتحف العراقي، بغداد، ١٩٧٢.

٢٠ ـ المصدر السابق، ص ٤٦٧، لوح ٤٠.

٢١ ـ زهدي، المصدر السابق، ص ١١.

٢٢ ـ UR Excavation london, 1736, 4

٢٣ ـ Sumer 24.24

٢٤ ـ Sumer 9 24; 25

٢٥ ـ جاءت العلامات التالية في اللغة السومرية   NI — SU — ZA BAR , muшtu
ni — uru = mus — alu

وتعني مرآة من الصفر. (نحاس) انظر:

Von soden, Akkadischen, Hand - Worterbuch 2 - P: 681

٢٦ ـ البرونز مزيج من النحاس والقصدير بنسبة (١:٨) وهو امتن واصلب من كلا المعدنين.

٢٧ ـ Archives Royales de Mari 7, 246.

٢٨ ـ توجد مجموعة من المرايا الزجاج ذات اطارات جبسية في المتحف العراقي تحت رقم ٩١٠١١ م ع، ٩١٠٨٥ م ع، ٩٩٩٩٧ م ع.

٢٩ ـ الجابر، وليد، النتائج الاولية للتنقيبات جامعة بغداد كلية الاداب قسم الاثار في موقع سبار ـ ابو حبة ـ المواسم ٧٨ ـ ٨٣.

مجلة سومر، جـ ١ ـ ٢، ص ١١٦.

٣٠ ـ الكمخ، وهي عملية اكسدة طبقات الزجاج العليا بفعل رطوبة التربة وتعرف ايضا (التقزيح) اي (التلوين بالوان قوس قزح، فيصبح الزجاج عديم الشفافية، ويكون داكنا فيضيع اللون الاصلي للزجاج (حميد، المصدر السابق ص ١٤٣).

٣١ ـ الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة واثارها، ط ـ ص ٢.

٣٢ ـ زهدي، المصدر السابق، ص ١١ و

Forbes: Dictionnaire Archeologique des techniques T. 11 p: 680

٣٣ ـ اختلفت الاراء في ذكر باني منار الاسكندرية قيل (الاسكندر المقدوني وقيل الفرعون العاشر من فراعنة مصر وقيل بناها بعض البطالسة بعد وفاة الاسكندر وبقيت حتى سنة ٣٣٢ هـ او ٣٤٤ هـ) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ١٨٦، بيروت ١٩٧٧، والمقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار، جـ ٤، ص ١١٣ ـ ١٢٠.

٣٤ ـ المقريزي، المصدر نفسه، ص ١٢٤. والحموي، المصدر نفسه، ص ٦٨٦.

٣٥ ـ المقريزي، المصدر نفسه، ص ١١٧.

٣٦ ـ زهدي، المصدر نفسه، ص ١٣.

٣٧ ـ المصدر نفسه.

٣٨ ـ حمدي، المصدر السابق، ص ٧٠.

٣٩ ـ المصدر نفسه.

٤٠ ـ زهدي، لمحة عن الزجاج القديم وروائعه في المتحف الوطني بدمشق، مجلة الحوليات الآثارية، مجلد (١٠) ص ١٣٢، ١٩٦٠.

٤١ ـ المصدر نفسه.

٤٢ ـ منها وصف امرىء القيس للحصان: وعين كمرآة الصناع تديرها لمحجرها من النصيف المنقب ومن امثال العرب (انقى من مرآة الغريبة) و (اوضح من مرآة الغريبة) و (تخبر عن مجهولة مرآته) المصدر نفسه ص ١٤.

٤٣ ـ القزويني ـ زكريا بن محمود، اثار البلاد واخبار العباد، بيروت ١٩٦٠.

٤٤ ـ حمدي، المصدر السابق، ص ٦٧.

٤٥ ـ المقريزي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٤١٤.

٤٦ ـ حمدي، المصدر السابق، ص ٧١.

٤٧ ـ ٤٨ ـ انظر شكل (٢١) وشكل (٢٢) و (٢٣) و (٢٥) من كتاب معدات التجميل.

٤٩ ـ رقم المرآة (١٥٣٣٥) زكي محمد حسن ـ فنون الاسلام ص ٩٢٦ وحمدي، المصدر السابق، ص ٧٥ لوحة ٣٣.

٥٠ ـ انظر لوحة (٢٦) من كتاب معدات التجميل.

٥١ ـ رقم المرآة ٢٦٢٣٣ م.ع.

٥٢ ـ زكي محمد حسن، اطلس الفنون الزخرفية شكل ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

٥٣ ـ Oktay Islanapa: Turkish Art and Architecture PL: 222

٥٤ ـ Kuhnel: Ernst: Islamic Arts London 1970, P: 178 PL: 141

٥٥ ـ زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين ص ٤٩ وفنون الاسلام ص ٥٢٥.

٥٦ ـ حمدي، معدات التجميل، ص ٧٨.

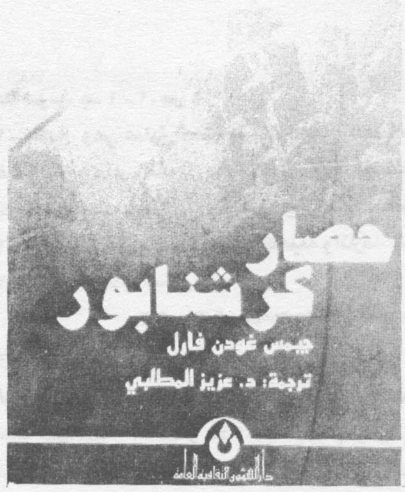
٥٧ ـ رقم المرآة في المتحف العراقي ١٢٠٠٧ .ع

٥٨ ـ رقمها في السجل ٤٦٠٨.

٥٩ ـ حمدي، المصدر السابق، ص ٨٤.

٦٠ ـ الجنابي، كاظم، محاضرات في الزخارف الهندسية.

شافعي، فريد محمود، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ص ٤٠ ـ ٤١ الرياض ١٩٨٢.



الروائي فارل: «صوته» في رواياته

ولد جيمس غودن فارل في ليفربول (انكلترا) عام ١٩٣٥. وقد امضىٰ طفولته في ايرلندا التي عاد اليها في شبابه مرتين في اسفاره. كما امضى فارل وقتاً طويلاً خارج بلده، مسافراً الى فرنسا وكندا والولايات المتحدة والهند وبلدان «الشرق الاقصىٰ»، بقصد جمع مادته الروائية. كتب فارل سبع روايات هي **رجل من مكان آخر** (١٩٦٣)، **الرئة** (١٩٦٥)، **فتاة في الذاكرة** (١٩٦٧)، **المتاعب** (١٩٧٠)، **حصار كرشنابور** (١٩٧٣) ـ نشرت مؤسسة جونثن كيب الكتابين الاخيرين في العامين المثبتين بازائهما ـ، **قبضة سنغافورة** (١٩٧٨) و **محطة التل** (١٩٨١) (وهي رواية لم تكتمل نشرت بعد وفاة فارل).

نالت روايته **المتاعب** جائزة فيبر التذكارية لعام ١٩٧٠، ونالت روايته الاخرى **حصار كرشنابور** جائزة بوكر لعام ١٩٧٣.

يقول ج. غ. فارل في حديث اذاعي وهو يناقش روايته **قبضة سنغافورة**:

«لقد فكرت في الا أعنى بمسالة الحرب[1] فيها، اطلاقاً. وكان اول ماطرأ لي هو ان أعنى بالجانب المدني من الامور وان اجعل شخوصي تناقش مشكلات التجارة، وهلم جرا. وقد اعمد، في نهاية المطاف، الى ان اقدم احد الخدم ليقول: «عفوك، لكن هناك رجلاً يابانياً يقف على الباب»، غير انني تخليت عن ذلك، على كره مني».[*]

قد يصدق قول فارل هذا في روايتيه **المتاعب** (١٩٧٥) التي يسرد فعلها القصصي احداث صيف عام (١٩١٩) في ايرلندا وفي **حصار كرشنابور** (١٩٧٣) التي تبحث في «العصيان الهندي» الذي حدث في عام (١٨٥٧) ذلك بان فارل يحترم هذه الاحداث العنيفة منصة لفعله الروائي الذي يعنى كثيراً بالافكار وبما يفصل حياته وآراءه.

فاذا ما اردنا ان نبتعد عن مناقشة مسألة «الشخصية التي تمثل الكاتب»، بوصفها مسألة فنية معقده (تتصل بما يتشابك من مستوى التهكم في النص الادبي والسرد و «وجهة نظر» الراوية ودرجة صدقه الروائي.. الخ) واذا ماسوغت لنا انفسنا، بما يتاح لها من معرفة تفصيل حياة الكاتب، ان نفرد، على تخوم النقد الادبي، هذا الحدث اوذاك وهذه الشخصية او تلك، نستطيع ان نبيح لانفسنا القول إنّ فارل من اولئكم الادباء الذين يصورون انفسهم في «اعمالهم» الادبية. بل ان روايته **الرئة** (١٩٦٥)، تتحدث، في فعلها القصصي الجوهري، عن حقبة موثقة من حياة المؤلف فنرى في بطلها ساندز، وهو ملقىً في المستشفى يصارع موتاً وشيكاً، فارل في بدء شبابه وهو يعاني الآم «شلل الاطفال». فيغدو العالم الصغير، المستشفى في هذه الرواية (الفندق «البهي» في **المتاعب**، «المقر» في **حصار كرشنابور**) رمزاً لعالمنا الكبير الذي يتهجس فيه انسان القرن العشرين، طريقه الكالح.

وحين تبدأ اول رواية من روايات فارل وهي **رجل من مكان آخر** (١٩٦٣) نلمح في بطلها سنكلير ريغن، فارل شاباً متحمساً. فسنكلير ريغن كاتب رواية يصارع سكرات الموت وهو يريد، الآن، ان يجعل من موته، سفراً خالداً او قضية كبرى تثير عالماً يتداعىٰ من حوله. ونلمح فيه، وهو يدافع ببراعة (المنظر) عن «الفردية»، بعد ان ارتد عما كان يدعو اليه من هيمنة «الجمع»، نلمح فيه سارتر الذي نعرف ان فارل قرأه قراءة حسنة واعجب به ايما اعجاب في بداية حياته الثقافية.

لكن هذا لايعني، ولايجب ان يعني، ان فارل يخفق في ان يحقق

د. عزيز يوسف المطلبي*

بعداً فنياً في هاتين الروايتين وان كنا نستبين، هنا وهناك، شيئاً يذكرنا بنوازع الكاتب العاطفية، فيما يندب من حظ عاثر او فرصة ضائعة. غير ان فارل حقق في مايدعى «بالرواية التاريخية» التي تمثلها ثلاثيته: **المتاعب**، و **حصار كرشنابور** و**قبضة سنغافورة**، حقق، على نحو فريد، بعداً عاطفياً جعل من ثلاثيته انضج اعماله الادبية واننا لنلمحه، الان، من هذا البعد الحاذق، في «الرائد» و «فليري» و «ماثيوويب» و «مكناب»، ابطال رواياته هذه.

يقف «الرائد» في **المتاعب** تماما كما يقف فارل الذي ينتسب في ابويه الى ايرلندا وانكلترا، محايداً في الصراع الدائر بين الايرلنديين والانكليز او على نحو ادق، بين الشين فين الكاثوليك والبروتستانت الذين يناصرهم الانكليز. فهذه الشخصية التي اضفى عليها فارل مسحة ضبابية تزيدها غموضاً في وسمه اياها «بالرائد» تتألق في **المتاعب** كما تعود الى الظهور في **قبضة سنغافورة**، اضخم اعمال فارل.

في **المتاعب** ، يفد برندن آرجر، او «الرائد»، الى ايرلندا، فجأة، ليطالب بخطيبته الايرلندية انجيلا (الانيمية) التي تسكن مع ابيها «ادورد»، ممثل التعصب البروتستانتي، في فندقه الغوطي الطراز الذي يصعب على المرء ان يعد مايحويه من غرف. واذ يحل «الرائد» في هذا العالم الصغير (الفندق الذي يشير اسمه «البهي» ! يمنحه فارل بهذه التسمية شحنة سافرة ـ الى ماكان عليه في السالف من الايام والذي يتداعى الآن، كما تتداعى ايرلندا، عالمه الكبير، من حوله) لايرى من حبيبته الا مايومئ الى وجودها:

> **«فيما يُعثر من خضر ولحم، على نحو ما، خلطته، كما قد يظن المرء، يد غائبة الوعي. قد تكون الشوكة ملقاة في الصحن، لكن يندر ان تكون السكين قد لُمست. ففي اغلب الاوقات تراها وهي تهبط الى المطبخ، ملقاة بجانب الصحن، نظيفة ولامعة كما كانت وهي تصعد (الى غرفة انجيلا). وتؤدي التفاحة التي وضعت في الصينية، عادة فيما يشبه ذلك، رحلة العودة وجلدها لم يشرخ».**(٢)

يتشبث «الرائد»، واضرابه كما تقول مارغريت درابل «بمعنى من معاني النظام، في عالم يتفسخ سراعاً»(٣) وهنا نرى «الرائد»، كما نرى هذه الشخوص التي توحي بانها تمثل فارل، مترددة حائرة لاتكاد تفهم نفسها ولا العالم الذي تعيش فيه وتفصلها عن واقعه «مثالية» يتجلى فيها سمو المبدأ، ولكنها مثالية عاجزة عن ان تحقق شيئاً لنفسها او لغيرها.

فاذا كنا نقرأ في سنكلير ريفن في **رجل من مكان آخر** وفي يورس، الغريب الاطوار في **فتاة في الذاكرة** والشبق ساندز في **الرئة**، فارل في مراحل مختلفة من حياته فاننا نقرؤه كذلك في شخوصه الرئيسة في الروايات الاكثر نضجاً. فنحسه في **قبضة سنغافورة** في «الرائد» وفي «ماثيوويب» الذي يدعو في مثاليته، التي هي صدى لمثالية صانعه، الى «الاخوة البشرية» ويرى في تعاون افراد من امم مختلفة لاطفاء حرائق سنغافورة(٤) مايجسّم مثله الاعلى: وحدة البشر.

> **«ارفض الراي الذي يقول ان المنفعة «الذاتية» هي افضل مصادر الازدهار المادي. انها لاتبدو كذلك الا لاننا لم نستطع فكاكاً من هذه العادة السيئة التي صفدنا بها التاريخ. فالناس قادرون على ان يكونوا اخوة، مهما تقل يافرانسوا، وانا متيقن من رغبة الاف من البشر، وان اختلفوا في العرق، في ان يضحوا بحياتهم، الواحد من اجل الآخر، اذا ما انتهت هذه الحرب المفزعة».**(٥)

كما اننا نلمح فارل في **حصار كرشنابور** في الشاعر فليري وفي الطبيب «مكناب» الذي يعود الى الظهور «ركيزة» في **محطة التل**، وهي رواية لم يستطع فارل اكمالها بسبب موته، غريقاً، في بحر ايرلندا. وتؤكد عودة ظهور هذه الشخوص الرئيسة التي يصعب نسيانها والتي تؤثر في القارئ تاثيراً عاطفياً، على نحو يتفاوت في شدته، تؤكد صلتها الوثيقة بالكاتب.

يفد جورج فليري الذي لايراه الدكتور دنستبل، الجراح المدني في كرشنابور وصديق ابيه الا في رسائل صاحبه و «بين الثعالب التي يصطادها»، يفد، فجأة، الى الهند لزيارة قبر أمه، ولتأليف كتاب صغير يصف ما احرزته الحضارة من «تقدم» في الهند تحت حكم الشركة.(٦) «اما السبب الحقيقي لمجيْ فليري فكانت الحاجة الى الهاء اخته مريم التي ترملت حديثاً، وقتل زوجها النقيب لانغ قبل معركة سباستبول».(٧)

يرفد فارل كلمة «التقدم» وهو ينظر الى الامور بعين فليرى الشاعر، بشحنة ساخرة. فالرواية «تدور»، اساساً، حول «التقدم» الذي يرى فيه البريطانيون مايجمل «مهمتهم» في الهند وحول «تخلف» الهند في عيون البريطانيين. بل اننا نحس هذا، على نحو شديد في رموز النص الادبي في بداية الرواية. «فالطيف» يتخذ معنى، رمزياً فيصبح مرادفاً لغياب الحضارة في الهند وقبالة ذلك، يرمز «الآجر» الى مايبعث الطمأنينة في المسافر الاوربي الذي «يقطع» ذلك السهل الهندي الذي يمتد بلا نهاية:

* كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

«لكن يندر ان يهم المسافر وجود بركة او غيابها؟ ففي كل الاحوال، ليس هنالك من راحة هنا، وليس هنالك مايمكن ان يميز فيه الاوربي حضارة. وهذا مايدفعه، اكثر فاكثر، الى ان يحث الخطى، لذلك نحو هذه الجدران البيض البعيدة التي تتضح انها مبنية بالآجر. فالآجر، بلا ريب، عنصر جوهري من عناصر الحضارة، فالمرء من غيره يضيع تماماً».(٨)

غير ان «التقدم» البريطاني شئ يصعب تعريفه. بل ان «القوة» البريطانية متمثلة ورعاً في الخوري و «ذرائعية» مخيفة في السيد رين،(٩) وكيل الافيون تنتج، في تناقضها، هذه الكوميديا الساخرة التي تسم لحظة الشك التي تسربل اقوال هذه القوة وافعالها في الهند ولانجد، في النهاية، الا في هاوي التحف، «موقفاً» يجهد في ان يوحد ارادتها، نحو السمو لانساني، في يقين مرتاب: «نحن نحتاج الى الشاعر ووكيل الافيون، كليهما، ياسيدرين، لما نخطط من اشياء. ماذا تقول ايها الخوري ؟ امحق انا ؟»(١٠) لكن فليري لايرى السمو الانساني الا في قدرة المرء «على الاستماع الى ارق خلجات قلبه».(١١)

وتتجمع هذه الكوميديا الساخرة في مشهد آخر يناقش فيه القاضي توم ويلبي (الذي يعنى بفراسة الدماغ) وهاوي التحف الذي وضعته الظروف على رأي القوة المدافعة عن «المقر البريطاني، مفهوم «الثقافة المتفوقة». هنا يعلي محتوى النص بل (شكل) النص واشاراته الملهاة المتهكمة. فيحاول فليرى مقاطعة حديث «الرجلين اللذين يكبرانه سناً»، محتجاً على هذه العبارة المريبة لكنهما يمضيان في الحديث من غير ان يعيراه انتباهاً. ويتخذ هذا التقاطع في «الخطاب» هيئة الجمل المعترضة فيما يعزز المنحى الذي يفكك الاثر الادبي:

(اقول «الثقافة المتفوقة» مسالة مشكوك فيها جداً ولكنني ارى..) (اصمتع، ماأراه..).(١٢)

نلج، هنا، على نحو ما، اقليم علم الاشارة. فيرى فربانك، محقاً، ان فارل «يجهد مايجب بارت ان يدعوه شفرة الالغاز، وهذا الشئ هو الذي يمنح رواياته مايميزها من نموذج. واذ لايوضح هذا النموذج، يصبح موحياً، على نحو رائع ولذيذ، ثم ياتي حتما نوع من الايضاح لانبلغه في تصورنا. ومن ذلك الحين فصاعداً يضطر فارل الى ان يعلي المضحك في غرابته».(١٣)

وحين يسمح الموقف اخيراً لفليرى بالكلام الا نرى فيما يقوله، معضلة الحضارة الاوربية وحدها، بل معضلة الحضارة المادية ايضا: افتقارها ماتستند اليه: «غير ان ماأراه هو هذا. ان من الخطأ ان يتحدث المرء في «حضارة متفوقة» لانه ليس هناك مثل هذا الشئ. فالحضارة كلها شئ زائف. فهي تفسد عواطف القلب النبيلة والفطرية الحضارة ماهي الا انحطاط».(١٤)

ليست الكتابة في الهند الا وسيلة الكاتب الاوربي للتعبير عن افكاره. ولقد اكد فارل ذلك النزوع في عام (١٩٧٥):

«لقد استخدم الروائيون الذين كتبوا في الهند، في الاغلب، البلد بوصفه وسيلة للتعبير عما يودون قوله في مسالة اخرى او في الحياة، عامة. ويمكن ان نعد رواية ممر الى الهند التي كتبها فورستر انجح وسيلة وجدها للتعبير عن افكار ليست غريبة عما كتب».(١٥)

فاذا كان «فليري» في كرشنابور يمثل لنا، في معنى من المعاني، شاعرية فارل ومثاليته ونزوعه الانساني، فاننا نرى في «كتاب» دقة فارل واتقانه العمل ونرى فيه طرقه المنهجية. ونحن نجد اصداء ذلك في حياة فارل نفسها. فصديقه فرانسيس كنك يومئ الى ذلك ايماءة ودودة في ندوة اذاعية فيقول:

«ما اتذكره عنه ينحصر في حيز صغير جداً. فهو كان في معنى من المعاني، محباً الكمال، وان في نطاق جد ضيق. فانت تعرف شقته الصغيرة كثيراً وانا اعني انها لاتكاد تتسع لجلوس اربعة انفار من الناس جلوساً مريحاً. كنا نحل عليه ضيوفاً على نحو ما، ربما ستة، في الحد الاقصى. وكان ذلك في المكان الذي يعيش ويكتب فيه ويفعل كل شئ. اعني انه لم يكن يملك الا قليلاً ولكن كان لما يملكه صفة تميزه. فكان يندر ان يقدم وجبة لقلة من الناس، ولكنه، اذا ماقدمها، تكون وجبة من الدرجة الاولى..».(١٦)

اما دقة مكتاب ومنهجيته، في حصار كرشنابور فتفصحان عن نفسيهما لافيما «يدور» بينه وبين الدكتور دنستبل من حوار ساخن في اسباب الاصابة بالكوليرا، وهو حوار يعلي الكوميديا الساخرة في النص الادبي، وانما في مشاهد آسرة اخرى. فنراه بعين الدكتور دنستبل الساخرتين يدون برتابة الاتقان فيه، حالة زوجته وهي

تنازع الموت. ليكاد حياده العلمي، يخلو من العاطفة، يكشف صورته الانسانية في محطة القل:

«يوشك ان لايكون فيها نبض والجسم بارد كالجثة. والنفس بارد، على نحو لايصدق، كانه يصدر من باب كهف في الجليد. ينتابها تشنج مستديم وتتقيأ باستمرار سائلاً بلا رائحة يشبه الحساء. ويظهر على وجهها شحوب مخيف. تشخص عيناها الغائرتان والعظام اسوأ من حال عظام الجثة واذ تفتح وريداً، يصعب عليك ان تحصل قطرة دم وماهنك من دم مظهره غامق كلون الدبس..»[17]

واذ تتكرر الصورة في مشهد يصور السيدة سكوت وهي تضع وليداً ميتاً لتموت قبيل الصبح، نتبصر ان لهذه المنهجية الآلية بعداً انسانياً يتصل بكمال العمل والتفاني فيه:

«وتوقف الدكتور مكناب، هنيهة، في كتابته (بعد ان امضى الليل ساهراً) واستدار في كرسيه ليحدق من السرير الذي هو الآن خال. فقد كفنت السيدة سكوت بشرشفها ونقلت الى الكنيسة لتظل هناك حتى يحل الظلام ويكون دفنها مأموناً. وعبس الدكتور مكناب وهو غارق في تفكيره كما لو كان يحاول ان يتأمل مسالة ما، ثم مضى قدماً في كتابته».[18]

تذكرنا صورة مكناب هذه، فيما يثير الاعجاب من رقتها واتجاهها الانساني، بصورة ادمسون في قبضة سنغافورة وهو يكافح الحرائق:

«ففي (اي) وقت يصلون فيه او (اي) مكان يصلون اليه، يتولى ادمسون دائماً، فيما يبدو، مسالة النار التي ارسلوا لاطفائها. وانه لسر ان يجد ادمسون وقتاً للنوم. فتراه ينبثق، فيما ينحرف من دخان، على مهله، ابداً. وفيما يقرب من المشي، لكانه بعيد تماماً من النار التي تتاجج من قرب».[19]

مشكلة الكاتب في عصرنا تتلخص في الموضوع الذي لم يطرق بعد. وهذا ماكان يحسه فارل مشكلة المشكلات وهو يفسر، كذلك، لجوءه الى ان يغرف من العصر الفكتوري ليشدّ اليه قارئا ازعجته رتابة الموضوعات:

«لكنني لااعني ان غياب المادة شئ قاس. فنحن نعاني جميعاً مشكلة جدية. فلقد محيت طرق كاملة من الاقليم الادبي وصغرت (لتتحول) الى وعاء غبار من صفات رمادية. والمكان الوحيد الذي ترك لافكارنا الكثيرة وتبصرنا الحجم هو (المذكرات) الشخصية، بل يفضل ان تكون هذه (مذكرات) فكتورية لها قفل ومفتاح».[20]

الهوامش

١. الحرب الانكليزية اليابانية في عام ١٩٤١.

٢ . ج. غ. فارل، المتاعب هارمنذ ورث لندن، ١٩٧٥ ص ٦٥.

٣ . مارغريت درابل: «الشياه تتهشم» في ج. غ. فارل: محطة القل، ويدنفلد ونكلسون، لندن ١٩٨١ ص ١٦٤.

٤ . تذكرنا هذه الحرائق المتاججة والمدمرة بما كتبه جوزف كونراد في قصته القصيرة «الشباب» التي يسرد مارلو فعلها الروائي والتي تصور الحرائق التي يصحب اطفاؤها في السفينة المتوجهة الى بانكوك. لاحظ الصفحات ٣٢ ـ ٣٥، خاصة، وهي التي يصف فيها مارلو هذه الحرائق.

٥ . ج. غ. فارل، قبضة سنغافورة، ويدنفلد ونكلسون، ١٩٧٨، ص ٣٢٨.

٦ . شركة الهند الشرقية التي كانت تتحكم بالهند.

٧ . ج. غ. فارل حصار كرشنابور ترجمة د. عزيز المطلبي، اصدار دائرة الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٧ ص ٢٨.

٨ . المصدر نفسه ص ٨.

٩ . تذكرنا هذه الشخصية بشخصية (روني)، ممثل المستعمر الانكليزي المتعصب في رواية فورستر: ممر الى الهند راجع، على نحو خاص، الصفحة ٦٩ التي يعلن فيها روني مهمة المستعمر الانكليزي في الهند: «لسنا لطفاء في الهند ولاننوي ان نكون كذلك. فلدينا ماهو اهم من ذلك لنفعله».

١٠ ـ فارل، حصار كرشنابور، ص ٦٧٠.

١١ . المصدر نفسه، ص ٩٩.

١٢ . المصدر نفسه، الصفحات ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

١٣ . ب. ن فربانك: بين الماشي والماشي، ملحق التايمز الادبي، ٢٢ مايس، ١٩٨١، ص ٥٦٣.

١٤ . فارل، حصار كرشنابور، ص ٢٢٨.

١٥ . ج. غ. فارل: «هويات هندية»، ملحق التايمز الادبي، ٢٣ مايس، ١٩٧٥، ص ٥٥٥.

١٦ . فرانسس عنه في الشريط التسجيلي للشبكة الاذاعية الموسومة «الروائي الاختبي القلق: صورة ج. غ. فارل: ١٩٣٥ ـ ١٩٧٨»، اعداد دراه ميخ وكاثيه.

١٧ . فارل، حصار كرشنابور ص ٢٢٨.

١٨ . المصدر نفسه، ص ٢٦١.

١٩ . ج. غ. فارل، القبضة سنغافورة ص ٤٩٣.

٢٠ . ج. غ. فارل: «غياب المادة: روايات جديدة»، مجلة المفترع (البريطانية) ٢٩ آب، ١٩٧٠ ص ٢١٧.

(الميزانسين) التشكيل الحركي لخشبة المسرح

د. محمد عبد الرحمن

جامعة بغداد كلية الفنون الجميلة

يتجلى التعبير عن الاحداث بالصور التشكيلية عبر الممثلين في استيعاب ومعرفة فن الميزانسين[1]، وذلك لأنه من الوسائل المهمة في التعبير عن فكرة وخطة المخرج ومشاعره وافكاره المتولدة عن المسرحية ذاتها، ومن الحياة الكاملة التي تتضمنها، وما توحيه للمصمم الديكوري من أفكار، ان الابتعاد عن الصراع السطحي للميزانسين الذي يحوله الى مجرد عملية توزيع اعتيادي للممثلين على خشبة المسرح، يهدف الى مطابقتها مع الحوار او خلق ما يسمى احياناً باصطلاح (الوصل) لاغير، اي الربط الميكانيكي الآلي بين المقاطع والمشاهد، في الوقت الذي ينبغي ان نجد ونوفر لغة تعبير مناسبة لان الميزانسين الفني والصادق يعبر في نهاية المطاف عن الفكرة الرئيسة للعرض المسرحي بالارتباط مع التشكيل الديكوري، كما ان أهمية ووظيفة التشكيل الديكوري تكمن في مساعدة وتسهيل عمل المخرج في بناء وتوظيف الصور المسرحية الواضحة والجليّة والمنجزة من خلال حركة ومرونة الممثلين، فالميزانسين المعبّر والحيوي، يتطلب تشكيلاً ديكورياً مناسباً ومنسجماً مع فكرة العرض المسرحي في الوقت نفسه، وبهذه الطريقة يقوم الشكل الفني وبمساعدة الديكور على كشف وتعميق الفكرة باسلوب مناسب، وابراز حركة الممثل وبالتالي تدفع بالعرض المسرحي الى تحقيق الانسجام الفني المتكامل.

التشكيل من خلال جسم الممثل

يبدأ انحطاط الشكل الفني في فن المسرح الشامل عندما يبدأ انعدام التوافق في السعي الواحد، والفهم الموحد لمهمات الفن، ووحدة الاذواق الجمالية، وعندما يطفو الابتكار على السطح دون اقناع او عمق فني، لذلك يتطلب تركيز الانتباه حول التعبير الجمالي للجسم البشري من اجل تكوين «ميزانسينات» معبرة ومؤثرة.

ومن المهم جداً ان نذكر هنا بان اللغة تمتلك تعبيراً جمالياً من حيث تكوينها النبري والفني، ونظامها الخاص المرتبط بفعل الصراع عبر القيمة التشكيلية المنسجمة مع العناصر الديكورية للعرض المسرحي.

وبهذا يصبح جسم الانسان ـ الممثل ـ نموذجاً مثالياً لأخذ الاوضاع المختلفة التي تشرح وتفسر وتصف كل ما يعتمل في داخله، ويكون بذلك اشبه بالاناء الشفاف المرن الذي يعكس حياة الانسان وفكره وشعوره وارادته.

فميزانسين الجسم يعتبر تشكيلاً حركياً لجسم ممثل واحد، يرتبط ارتباطاً كاملاً مع الجسم المجاور له، واذا لم يكن ثمة ممثل آخر معه في المشهد، فان جسم الممثل يجب أن (يتجاوب) مع الكتل القريبة منه، كان يكون (نافذة) أو بابا او عموداً او شجرة... الخ . فجسم الممثل ـ وفقاً لرؤية المخرج ومصمم الديكور ـ يرتبط على نحو تشكيلي ـ حركي بالناحيتين التكوينية والايقاعية، وبالبيئة والتكوينات المعمارية والحيز الفراغي الذي تدور فيه الاحداث والمشاهد.

ولقد اكد المخرج الروسي الكسي بوبوف على انه «من الممكن تكوين ميزانسين الجسم بمعزل عن الفعل وحالة الاحساس النفسي والجسماني، والسرعة الايقاعية، ذلك ان توافر كل منها مرهون بتوافر الآخر، كما ان انعطافاً في حركة الجسم او وضعه في حالة التشكيلات الثنائية لايستطيعان ان يعطيا التأثير المطلوب إلا اذا كان معبراً بحد ذاته، ومرتبطاً من حيث التكوين بالجسم المجاور»[2]، وانه عندما يتحدث عن الجسم

المجاور لايعني فقط جسم الممثل الآخر، بل كل العناصر التكوينية والديكورية الاخرى المحيطة به. ذلك لاننا انما نرى قوة تعبير الشخصية التي يؤديها الممثل ونهايتها الواضحة والمفهومة من خلال الشخصيات الاخرى والقطع الديكوري المحيطة والمكملة لها.

لهذا نجد بان التشخيص الخاطىء للمكان والمساحة يؤدي الى تشتيت الممثل. والى ضياع الفكرة (الرئيسة) للنص والعرض المسرحي. فالميزانسين الناجح لا ينشأ من تلقاء نفسه، ولا يمكن ان يكون هدفاً للمخرج بحد ذاته، بل هو يظهر نتيجةً منطقيةً لحل عدد من المهمات الفنية والمتطلبات الضرورية، من ضمنها عملية الكشف عن خط الفعل الرئيس، والجوهر الانفعالي للنص المسرحي، ووحدة الشخصيات، وخلق الجو المسرحي المناسب الذي يحيط بتلك الشخصيات. وبهذا فان الميزانسين والتشكيل الحركي الرائع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطة الفنية المعبرة عن فكرة العرض المسرحي المتكاملة.

اشار ستانسلافسكي بوضوح الى مهمة الممثل في خلق التكوين الحركي المرتبط بالتشكيل المتكامل للعرض المسرحي، وهذه العملية تقع في حقيقة الامر على عاتق المخرج قبل ان يبدأ بعمله الحقيقي مع الممثلين اثناء التمارين المسرحية، ولكن ستانسلافسكي يؤكد على الطريقة الجديدة في التعامل مع التشكيل الحركي للممثل حسب خطة المخرج، «التي يكون فيها المخرج قد ذاب في الممثل»(٣).

وفي التمارين المسرحية يبدأ الممثل - وهو في مجرى عملية تحليل الفعل المسرحي للنص - باختيار المكان والاداة المناسبتين له في التحرك والتنقل في المساحة التمثيلية المخصصة له لاداء الفعل المسرحي.

التشكيل في حركة المجاميع وعلاقتها بالفكرة المسرحية

ان جوهر اللوحة ومباديء التكوين أساس للمخرج ومهندس الديكور وسائر الفنيين في تشكيل المجاميع على خشبة المسرح. فالشعب المتكون من جمع غفير والمنقسم في بعض الاحيان الى مجاميع متعددة لها علاقات مختلفة بما يجري من احداث في المسرحية، ومتحدة بالوقت نفسه مع الفكرة والموضوع الرئيس فيها، ذلك لأن الاحداث تتعاقب الواحد تلو الآخر تبعاً لتطور الفعل الدرامي ضمن الحيز المسرحي والفضاء المحيط به. اما الموضوع المركزي المحرك لخط الفعل فيبدو وكأنه يوحّد المجموع كله، وبدونه يتناثر التكوين التصويري او المشاهد الجماعية في المسرح إلى اجزاء متفرقة، ويبقى مجرد مشابهة خارجية للحياة التي لاتخضع لأي معنى داخلي.

ويعتبر هذا الموضوع المركزي حلقة الوصل بين التشكيل الحركي للممثلين وبين تصميم المناظر وتشكيل المساحة التمثيلية والتي يقوم بها كل من المخرج ومصمم الديكور.

كما تلعب الحركات الجماعية التي يؤديها الممثل بجسمه دوراً مهماً في التعبير عن المضامين الرمزية للتشكيلات الميزانسينية. لذلك نجد اننا عند ما نقدم الاشكال الديناميكية نحصل على تفريعات وتفصيلات مشتتة غير مترابطة نتيجة للتناثر وتعدد الاتجاهات للنزوات الاخراجية والتمثيلية. فالمخرج لايمكن ان يفرض - في اي حال من الاحوال - سرعة ايقاعية واحدة لكل ممثل منفرد ، ولكل فعل مشترك في المشهد الواحد او اللوحة الواحدة لان ذلك سيؤدي بالممثل الى الروتينية اوكما يسميها ستانسلافسكي بالميكانيكية او (الكليشة)(٤) فاية قيمة نحصل عليها من تقديم نماذج تعيش وتتنفس على خشبة المسرح بايقاع واحد كاللعب والدمى.

ويعتمد تشكيل الميزانسين وحركة الممثلين في اغلب الاحيان على (العين الاخراجية) الثاقبة التي ترى ان الانسان الحيّ لايمكن ان نقدمه كما في اللوحات المرسومة او في التصاميم المجسمة وانما احساس المخرج بالبنية الحركية المستمرة والمتواصلة في جميع انواع الحركة، وخواص جسم الانسان وما يستخدمه من مواد مسرحية كالعصا او المنديل او الشمعدان مثلاً، اضافة الى المواد الصغيرة هي التي تساعد في تشكيل وبناء مضمون كل عنصر من عناصر المسرحية.

ان هذا هو ما دفع ستانسلافسكي الى مخاطبة تلاميذه بـ(لايمكن ان يقول احد إلا انكم قد حافظتم على الخطة المرسومة للمشهد (الميزانسين)، كما حافظتم على جميع الحركات والافعال الخارجية والترابط وكل صغيرة من تفاصيل تكوين الجماعات فوق المنصة)(٥).

فهل يترتب على المسرح بعد هذا، وهو الذي يملك بصورة واقعية امكانية الكشف عن الفعل في المساحة والزمن، ويتصرف بالانسان الحي؛ الممثل، وان يجعل من التشكيل الحركي لوحات ساكنة «لحظات جامدة»؟ وفي المشاهد الجماعية يختفي نص المؤلف عادة، إلا ان هذا لايعني - حسب رأي الكسي بوبوف - والذي يساند بحثنا بان «الفعل الدرامي فيه هو اقل حدة، بل العكس، انه تكتسب وسائل التعبير التشكيلي - لغة



الحركة الانسانية ـ اهمية بالغة هنا، على وجه الخصوص ويتحول المخرج والممثلون الى نحاتين ومصورين للشخصيات والجماهير العريضة»(٦).

انواع التشكيلات الحركية ووحدة الاسلوب

ان عملية وضع ميزانسين لاي عرض مسرحي متكامل تخضع لمبدأ من المبادىء. فالمخرج بامكانه تقديمها حسب مبدأ التجانس او مبدأ الشكل البارز او يقدمها بأشكال قطرية مائلة او عمودية على خشبة المسرح، ويتوقف اختيار المبدأ على وفق الاسلوب المسرحي العام للعرض وخطة المخرج ومصمم الديكور وحركة الممثل في جسمه. فالتصاميم العمودية مثلاً والموضوعة بصورة موازية لمقدمة خشبة المسرح وضمن مناطق تمثيل قليلة نجدها مناسبة جداً للميزانسينات البسيطة ذات الشخصيات المسرحية القليلة الحركة والتنقلات، أما اذا عمّقنا هذه التصاميم، واستخدمنا ما يمكن من مناطق التمثيل وبأوضاع مختلفة، فاننا سنحقق امكانات جيدة لميزانسينات متعددة ومتنوعة.

ان التشكيل العمودي (الرأسي) لخشبة المسرح له مميزات عديدة منها:ـ

١ـامكانية استخدام المجال المسرحي لا من ناحية العرض والعمق حسب بل من ناحية الارتفاع أيضاً، ممّا يساعد في اغناء اللوحة الصورية للمخرج وهو يصمم الحركة والتشكيل الميزانسيني، فيساعد هذا المبدأ، الذي يبدو اخراجياً، في عمل مصمم الديكور من اجل تصميم مساحة التمثيل.

٢ـان المجال المسرحي المنفذ عمودياً غالباً ما يضمن لنا تحقيق التطور الحيوي ويخلق حالة التضاد في الصورة وفي الايقاع وفي الوضعيات الميزانسينية. وعلى المخرج ان يدرك جيداً بان عنصر التضاد موجود في جميع الفنون وعلى الاخص في فن المسرح ـ المركب من عدة فنون ـ لذلك يحدث احياناً ان تدخل الشخصيات في تضاد مع الوسط المحيط وبرغبة من المخرج والمصمم. فالتضاد الذي يزيد ويقوي الفعل المسرحي له تطبيق واضح في فن الديكور المسرحي ايضاً.

٣ـ بامكاننا عند وضع تشكيل المجال المسرحي عمودياً ان نعطي تصوراً عاماً

يوحي بالهيبة والفخامة.

اما التشكيلات المائلة قطرياً فتعتبر واحدة من اكثر التشكيلات المؤثرة والمعبرة، خاصة عندما تقدم على خشبة المسرح مشاهد ذات افعال خارجية متنوعة، «فالتصميم القطري البسيط عبارة عن مثلث ذي اتجاهين، اولهما باتجاه المحال المسرحي، وثانيهما باتجاه صالة المتفرجين».

وتأتي التشكيلات القطرية المعقدة ذات الاتجاهات المتضادة والمختلفة التدرجات والخطوط (المائلة والمتكسرة) والتي تكشف عن مجالات واسعة ومنظمة ومتعددة تساعدنا في تقديم المجاميع والحركات المتناقضة.

اما الميزانسين الآخر فهو الدائري (المدور) والذي يعطينا الانطباع والاحساس بالانغلاق، بينما لاحظنا سابقاً بان الميزانسين والتشكيل المائل للحركة يحقق الشكل الديناميكي على الخشبة.

ان المتطلّع والمتعمق في دراسة فن المسرح والطرق الاخراجية، يجد بان هناك اساليب ثلاثة للاستخدام الاخراجي لمساحة الخشبة المسرحية، تتحقق:

١ـ على شكل خطوط
٢ـ على شكل نقاط «مواقع»
٣ـ على اساس الفعل الفيزياوي.

ان عملية استخدام أي حالة من تلك الحالات تعتمد على معرفة اسلوب العرض المسرحي المتكامل او معرفة المشهد منفرداً؛ ميزانسينات الخطوط مثلاً تستخدم في حالة وجود مشاهد تعتمد على نوعية الفعل المسرحي المقدم، اما ميزانسينات وتشكيلات النقاط فتستخدم في حالات الخداع البصري والخطوط المنظورية، اما في الحالة الثالثة والتي تعتمد على اساس الفعل الفيزياوي فهي مزيج بين الحالتين المذكورة سابقاً إلا اننا ينبغي ان نحدد هنا ممرات الدخول والخروج ومراكز الوقوف ضمن الرقعة الجغرافية الكلية للمسرح اعتماداً على مجرى الفعل الفيزياوي لكل شخصية على المسرح تجنباً للرتابة في القطعة الميزانستينية والتشكيل الحركي. لذلك نجد بان نوعية وكمية الميزانسينات وحيويتها وتعبيرها المسرحي وطبيعتها واسلوبها غالباً ما تتحقق من خلال الشروط الدقيقة التي يضيفها مهندس الديكور للمجال المسرحي على الخشبة. كما أن التصاميم الديكورية المختلفة لبناء المجال المسرحي تعتبر احدى شروط البناء الميزانسيني.فكل نوع واسلوب من هذه التصاميم يملي علينا جملة من الامكانيات لبناء التشكيلات الحركية (الميزانسينية)، وهذه الامكانيات تتوضح فيما بين المخرج ومصمم الديكور من خلال مجرى العمل المتواصل لتحقيق العرض المسرحي المتكامل فنياً.

العمل
مع مهندس الديكور

ان عمل المخرج في تشكيل الميزانسين (التشكيل الحركي) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعمل مصمم الديكور في تشكيل العرض المسرحي، وعندما يفكر المخرج مع المصمم بالتشكيل الفني المتكامل ينبغي ان لا يوضح له ـ بالخطوط العامة ـ ما هي نقاط الارتكاز المطلوبة للميزانسين حسب بل كيف تؤثر هذه الميزانسينات في الديكور المسرحي فـ(المطالب) التي يتوجه بها المخرج الى فنان الديكور بصدد ما يسمى بمخططات المكان (نقاط الارتكاز) كانت تظهر بعد ان تعبر بداهة عن نفسها فيما يتعلق بالخطوط الرئيسة للمعالجة الفكرية الفنية للعرض. ولقد ادرك ستانسلافسكي جيداً بان (المطالب) ذات الطابع التكنيكي السابقة لاوانها لاتجفف الخيال الابداعي عند فنان الديكور حسب بل عند المخرج كذلك. ولهذا ينبغي ان يأخذ عمل المخرج مع مهندس الديكور في تشكيل المناظر والحيز المسرحي للعرض بنظر الاعتبار كل ما له علاقة صميمية بعملهما وعلى وجه الخصوص عملهما في مجال تحقيق الميزانسين المعبر عن النظام التصويري والديناميكي. لذلك تقع على عاتق فنان الديكور بالاضافة الى مهمته في معالجة الشكل العام للعرض المسرحي (التكوين والتلوين) مهمة تسهيل بناء ووضع الميزانسين لمساعدة الممثلين في ايجاد اماكنهم المريحة والمناسبة على خشبة المسرح، لأن كل افعال الممثلين الدرامية تتطلب شكلاً مسرحياً متآلفاً ومؤثراً. فالعمل التعاوني بين المخرج وفنان الديكور في تحقيق الميزانسين المتكامل للعرض المسرحي لا يكتمل بعمل (الماكيت، النموذج) والديكور حسب، بل يمتد في كل مراحل العمل المسرحي منذ المرحلة التحليلية (تحليل الافعال) الى مراحل تكوين الخطة الاخراجية والخطة الديكورية. فالعمل التعاوني ضروري جداً في عملية صقل وتهذيب الميزانسين وجعله اكثر صدقاً في التعبير، مثلما هو ضروري في بناء وتثبيت مواقع الانارة، وكما هو مطلوب بعد العرض المسرحي الاول، وذلك للحفاظ على حيوية العرض المسرحي، والمحافظة على ادامة وتجديد الديكور والملابس والمواد المسرحية الاخرى المستخدمة في العرض.

ان تحقيق كل ذلك يتطلب وجود مجموعة من الفنانين المتعاونين ابداعياً ضمن مسرح معين، وبالاخص عندما يكون

الهدف هو بناء هوية ابداعية خاصة واسلوب اخراجي لمسرح متميز من خلال مشاركة الفنانين الفعّالة في تحقيق الاحلام الفنية وتطوير المسرح، والتغلب على كل الصعوبات والمشاكل التي تواجههم في العمل المسرحي.

لذلك وقعت على عاتق الفنانين هنا مهمات اخرى اضافية، مهمة ايجاد شكل العرض المسرحي العام من خلال تشكيل وتلوين العناصر الديكورية، الا وهي القيام بعملية تبسيط الميزانسين والتشكيلات الحركية للممثلين لكي نمنحهم الحرية التامة في الحركة فوق خشبة المسرح وضمن المكان المناسب والمحدد والمرئي وبدون اي اعاقة. ولهذا السبب يفترض من المخرج ان يكون ملماً بالشروط التكنيكية (لتصميم المجال المسرحي .. ووضع الميزانسينات عليه وتحقيقها)، وان يقدم التشكيل الديكوري للمشهد المسرحي بنظرة شمولية. فطبيعة وبساطة الميزانسين ينبغي ان تندمج عضوياً بالتعبير المسرحي، الذي يخلق التجانس الفني بين مضمون الميزانسين الداخلي وبين شكله الخارجي الجيد والجذاب.

ان قدرة المخرج على ربط الميزانسينات مع الشكل الديكوري الفني الذي يضعه مصمم الديكور تعتبر احدى المهمات والخواص الضرورية في عمله. اما فنان الديكور فينبغي - من جانبه - ان يأخذ بنظر الاعتبار الافكار المطروحة من قبل المخرج حول الشبكة الميزانسينية للعرض المسرحي قبل شروعه بتصميم الشكل الديكوري العام.

ولقد اكد لنا المخرج الروسي يوري زفادسكي بان دور فنان الديكور في العرض «يجب ان يعمق ويقوي المهمة التعبيرية للميزانسين بكل ما يملك من وسائل فنية متاحة ومتوفرة».

الميزانسين وحالة الانسجام مع العناصر الفنية الاخرى

ان قدرة الميزانسين التعبيرية تكون قوية ومتينة عندما تكون ذات علاقة متينة مع العناصر الاخرى كالملابس والموسيقى والانارة.فتصميم الملابس والمناظر لاي عرض مسرحي كما هو معروف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتصميم الميزانسين، وهذا لا ينطبق على المشاهد بصورة منفردة حسب وانما على اللوحة الكلية لهذا العرض، لما لها من اهمية اساسية، وذلك لان الهدف الاساسي من تشكيل العرض المسرحي هو التركيز المناسب للممثل الرئيس في الحدث المعين، والكشف عن الصراع والعلاقات المتبادلة، ومنحه امكانية المحافظة على تشكيل خطوط الوصل مع الممثلين الآخرين في المسرحية من جانب ومع القطع الديكورية والملابس والانارة من جانب آخر. وهذه العلاقة الابداعية بين الميزانسين والتشكيل الديكوري تُعطي جميع المبدعين امكانية استخدام وسائل تعبيرية بسيطة ومعبرة ولا تفقد القيمة الفكرية والتشكيلية للديكور تحقيقاً لوظيفته الاساسية.

كما ينبغي التأكيد على موضوع مركز الرؤية، الذي يشمل تركيز انتباه المتفرج. ففي مشهد من المشاهد يمكن ان يكون هناك شكل واحد او عدة اشكال تترتب وتتبدل حسب مراكز الرؤية اما (بطيئاً او سريعاً) حسب الحالة المطلوبة من الفعل المسرحي.

ان الميزانسين على المسرح لا ينشأ إلا عبر الجهود الابداعيَة لكل من المخرج ومصمم الديكور والممثلين والمؤلف الموسيقي ولا يكفي ان تعيش الشخصية بصدق حتى تصبح شكلاً تعبيرياً من تلقاء نفسها، الامر الذي يجعلنا نؤكد على اهمية موضع ومكان وانارة الجسم الذي نشكله على المسرح. ولدى المخرج امكانية كبيرة في استخدام التشكيل الديكوري والموسيقى والمؤثرات الاخرى من اجل تقوية التكوين الفني لحركة الممثل. فالديكور وتصميم المكان وانارته تؤثر في اوضاع الممثل الحركية، وايقاع حياته وتعبير وجهه. فاذا كان المكان محطة قطار او غرفة نوم او باحة بيت فانه سوف يؤدي الى جعل الممثل يتكيف ضمن المحيط الذي يحياه على المسرح، من ناحية وضعه الحركي وايقاعه اليومي المتواصل.

المصادر

١- كونستانتين ستانسلافسكي - اعداد الممثل - ترجمة محمد زكي عشماوي مصر/ص/٣٠٠.

٢- الكسي بوبوف - التكامل الفني للعرض المسرحي - ترجمة شريف شاكر دمشق ص٢٥٣.

٣- ا. كريستي - تربية الممثل حسب منهج ستانسلافسكي - علم وفن، صوفيا/ص٣٣٦.

٤- انا ستاس ميخائيلوف/ الميزانسين - صوفيا ١٩٧٣ ص.١٥٠.

٥- بوريس زخافا - مهارة المخرج والممثل - علم وفن - صوفيا ١٩٧٩ ص١٤٣.

٦- الكسندردين - العناصر الاساسية لاخراج المسرحية - ترجمة سامي عبد الحميد. ص٢٥١.

الهوامش

١- الميزانسين: هو التشكيل الحركي لخشبة المسرح ضمن (الخطة الاخراجية).

٢- الكسي بوبوف - التكامل الفني للعرض المسرحي - ترجمة شريف شاكر - دمشق - ص٢٥٣

٣- ا. كريستي - تربية الممثل حسب طريقة ومنهج ستانسلافسكي - علم وفن - صوفيا ص٣٣٦

٤- ستانسلافسكي - اعداد الممثل - ترجمة محمد زكي العشماوي - مصر/ ص٣٠٠

٥- المصدر السابق نفسه ص٢٠٨

٦- الكسي بوبوف - التكامل الفني للعرض المسرحي - ترجمة شريف شاكر - دمشق - ص٢٣٠

٧- اناستاس ميخائيلوف - الميزانسين - صوفيا ١٩٧٣ ص١٥٠

الالوان في عيون الاطفال

دراسة ميدانية

اللون ظاهرة فيزيائية مصادرها الرئيسة الضوء والمرئيات في الطبيعة، وواسطة الرؤية اي العين. وكانت التفسيرات حول اللون حدسية الى ان وضع العالم نيوتن نظريته في تحليل اشعة الشمس (الطيف الشمسي) فحوَّلَ بها تلك الظاهرة الى لغة حسابية وتجريبية وقياسية. باشر نيوتن سنة ١٦٦٥ تجاربه عن طريق تحويل اشعة الشمس التي اخترقت ثقباً مدوراً في مصراع شباك على منشور، حيث انكسرت الاشعة عليه فظهرت على الشاشة بصورة مستطيلة الشكل تتعاقب فيها ألوان القوس قزح الستة؛ الاحمر في طرف من الطيف، والبنفسجي في الطرف الآخر.

وقد اثبت نيوتن ان اللون الابيض هو لون مركّب يتحلل بواسطة المنشور الى اجزائه الاصلية بفضل اختلاف درجة الانكسار. كما اكتشف الظاهرة الاهتزازية في الألوان واختلاف أطوال موجاتها، وبذلك أرسىٰ القواعد الصحيحة لدراسة موضوع الألوان. ووراء أطراف الطيف تتكون الألوان المخفية، غير المرئية، كالاشعة تحت الحمراء والاشعة فوق البنفسجية وأشعة اكس وأشعة غاما وغيرها، والتي لايمكن التحسس بها الا عن طريق أجهزة خاصة، تشبه الموجات الصوتية ذات التردد الفائق أو الواطىء جداً.

اللون واهميته
في حياة الانسان

من الصعب على الفرد ان يتصور نفسه في عالم خالٍ من الألوان فهو أينما اتجه يجد أمامه مزيجاً من الالوان الجميلة المتمثلة بزرقة السماء والبحار وخضرة الاشجار والمروج والاعشاب وتنوع الوان الأزهار حتى الرمال والصخور والاجرام السماوية، كلها تكمل روعة الطبيعة وبهاءها بتعدد الوانها وتناسقها.

وعندما ننظر الى صورة غير ملونة، فاننا لاندرك الأثر الذي تتركه هذه الصورة الخالية من الالوان، ذلك لأن ذاكرتنا مليئة بما تحمله من صور عن الوان الطبيعة، وعليه فان هذه الذكريات تفرض نفسها على تلك الصورة عديمة التلوين، فتمنحنا شعوراً بالألوان مستمداً من خبراتنا الماضية. ولو كان أحدنا مصاباً بعمى الألوان بصورة كلية لرأى الازهار والناس وكل ما حوله من أشياء كأنها مجردة من الألوان الطبيعية الكاملة، ولا يرى في هذه الاشياء سوى اللون الابيض والاسود فقط. ولحسن الحظ قلما نجد أناساً مصابين بعمى الالوان بصورة كلية. كما اننا نادراً ما نجد من لايرى اللون الأصفر أو الأزرق او البنفسجي، اذ لايوجد أكثر من رجل واحد فقط من بين كل عشرين رجلاً، وامرأة واحدة من بين كل مائتي امرأة لايمكنهم ان يروا اللون الاحمر أو الأخضر أو كليهما، حتى فاقدي البصر يأخذون الألوان بنظر الاعتبار، إذ انهم يسمعون عنها فيساعدهم ذلك على التمييز بين الاشياء ويحاولون تصورها وفهمها، وبالتالي تتكون عندهم فكرة معينة عنها، فيكون لها أثر في تصورهم الذهني للاشياء. وخير مثال على ذلك ـ هيلين كلر ـ التي وضعت تفاصيل حياتها بدقة واستطاعت التفاعل مع ظروفها البيئية عن طريق التصور والاحساس وهي عمياء، صماء، بكماء.

ولأهمية اللون في حياة الانسان اصبح عاملاً مهماً في التصنيع والانتاج، وعنصراً اساسيا لتصريف ما تنتجه المصانع والمعامل من الملابس والأدوات المنزلية المختلفة وقطع الاثاث. كما استخدم اللون في مجالات اخرى من حياة الانسان، فشمل الافلام المستعملة للتصوير والكتب والمجلات وافلام السينما والتلفزيون وقصص الاطفال ومجلاتهم وألعابهم، كما أظهرت بعض الدراسات التجارية ان للالوان تأثيراً على نسبة البيع. فقد ازداد، مثلاً، بيع القهوة الموضوعة في أكياس صفراء او برتقالية، كما ان العرض الاكثر نجاحاً للمجوهرات يكون بخلفية صفراء او بنفسجية.

أهمية الالوان
في تمييز الاشياء

اذا ما خلا العالم الذي نعيش فيه من الالوان، فاننا لانفتقد مصدراً مهماً للمتعة والسعادة التي نشعر بها حسب، بل سنفتقد

ألس كنحريان: كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد
سهام سيروب: كلية التربية، جامعة بغداد
سهام شوكت: كلية التربية، جامعة بغداد



ايضاً عاملاً من اهم العوامل التي تساعدنا على الادراك. ويحدثنا اثنان من الكتاب الانكليز عن بحثهما حول الاشكال والالوان فيقولان:ـ

«لقد ظهر لنا من خلال التجارب الاولى التي قمنا بها، وذلك بمقارنة النظر الى شيئين، أحدهما أبيض والآخر ملون، بأن التلوين يجعل رؤية الشيء أسهل، حيث يكون اللون بمثابة عامل يجذب النظر ويشده. فنحن نستطيع النظر الى شيء ملون مدة أطول ممّا لو كان هذا الشيء غير ملون ولو نظرنا الى هيكل معماري ملون لأمكننا ادراك تفاصيله ومعالمه بسرعة وسهولة اكبر. وللسبب نفسه تبدو الأشياء الملونة اكثر إلفة بالنسبة لنا من سواها. فنشعر تجاهها بالبعد والغرابة. وهكذا نجد ان إقبال الاطفال على تلوين كتبهم المصورة لايكون بدافع الحصول على المتعة والسعادة حسب، بل بدافع الشعور بالقرب وقوة الانتماء الى الشيء».

اللون والحالة الانفعالية للفرد

من المعروف ان للون تأثيراً قوياً على الانسان، يخلق فيه حالات نفسية معينة. وقد جرت دراسات واحصائيات وتجارب حول التأثير النفسي للألوان فنتج عنها التوصل الى حقائق ممتعة، وظهر أن (الاصفر والبرتقالي والاحمر) من الالوان الدافئة، وتكون حاسمة وايجابية واندفاعية وقلقة ومثيرة تجلب الاهتمام بالمقارنة مع الالوان الباردة، وهي الازرق والارجواني والاخضر التي تكون سالبة ومنكفئة وهادئة وصافية.

إن ما نحسه من تفضيل متميز نحو ألوان معيّنة أو نفور قوي من ألوان أخرى يشير إلى ان هذه الالوان لها تأثير واضح في حالتنا الانفعالية، حيث يثير بعضها فينا الفرح والبهجة والسعادة بينما يثير البعض الآخر مشاعر الغضب والحزن والاكتئاب.

وبسبب هذا التأثير، اتجه العلماء الى دراسة الالوان واهميتها بالنسبة لجوانب حياة الفرد المختلفة، ليتسنى فهمها وتعميق

الاستفادة منها. الا اننا على الرغم من هذه الآراء لانستطيع الجزم بشكل اكيد بان تفضيل لون معين من قبل الفرد يحدث بفضل تأثير هذا اللون او ذاك في الحالة النفسية له. اذ قد تكون لاستجاباتنا للألوان صلة بخبراتنا السابقة. فقد يرجع ميل الطفل الى لون معين الى رؤيته شخصاً محبباً له يرتدي بدلة بهذا اللون. وقد ينطبق هذا الكلام على كرهه او نفوره من ألوان أخرى بسبب اقترانها بشخصيات غير مرغوب فيها. وقد يتأثر ميل الطفل نحو ألوان معينة باقترانها بخبرات سارة سابقة او العكس.

وقد دأب بعض العلماء على أبتكار أجهزة ووسائل حديثة يمكن بواسطتها تسجيل جميع الانعكاسات التي تصدر عن الانسان «نفسياً وجسمياً» تحت تأثير الالوان.

فقد قام د. جيرار، وهو طبيب امريكي، باجراء تجارب في هذا المجال، ثبت له من خلالها ان للالوان تأثيراً في سرعة ضربات القلب وحركات الجفون وازدياد قابلية الكف لتوصيل الحرارة والكهرباء بازدياد رطوبتها وافرازها للعرق، كما سجل اختلافاً في سرعة التنفس والرسوم البيانية لتخطيط المخ. فاللون يؤثر في الجهاز العصبي، حيث يتم هذا التأثير بواسطة الفعالية الكهروميكانيكية فكل انسان يمتلك عيناً مبصرة سوّية يمكنه الشعور بتأثيره. ويعتمد هذا التأثير على تحفيز الحواس التي تحدث نتيجة انعكاس او انكسار الضوء الابيض وتحلله الى موجات مختلفة.

وامتد تأثير اللون الى حياة الكائنات الحية الاخرى، كالحيوانات والنباتات. ولعل من الطريف ان نذكر بعض تلك الملاحظات التي توصلت اليها البحوث في هذا المجال. فقد اشار د. إف. إس. بريد من خلال دراسته الدقيقة على الدجاج، بأن الدجاج يفضل اللون الاحمر المائل الى الزرقة .

كما أشار اس. او. ماست الى ان حوريات النمل عندما وضعت في منطقة الاشعة فوق البنفسجية من الطيف الشمسي. كان سلوكها قد اظهر تميزاً واضحاً للألوان وحساسية عظيمة للون البنفسجي.

كما اشار الباحث في تجربة اخرى الى ان عدة اوراق ملونة ألصقت على لوحات زجاجية، ووضعت نقطة عسل فوق كل ورقة، ثم أخذت نملة من الخلية وأُشرِّت ووضعت قرب احدى اللوحات الملونة. وبعد عدة جولات لنقل العسل قامت بها النملة (ذهابا وايابا) بين الخلية واللوحة، حُركت هذه اللوحة وأبعدت حوالي ثلاثة أقدام من موضعها، ووضعت مكانها لوحة اخرى مطلية بلون مختلف وعندما عادت النملة من الخلية لم تقف على اللوحة الجديدة، بل ذهبت الى اللوحة القديمة، على الرغم من تغير موقعها.

يشير سلوك هذه الحشرات الى انها تستجيب للالوان[٢] بشكل او بآخر على الرغم من تحسسها باللون يختلف عن تحسس البشر به. كما وجد ايضا بأن الدجاج اذا تعرض لضوء صناعي ملون فانه يبيض بسرعة اكثر من سرعته المعتادة، وان دودة الارض يجذبها اللون الاحمر، والفراشات تحب اللون الازرق والاخضر والبنفسجي، وان الثيران تثور اذا ما شاهدت اللون الاحمر.

كما لوحظ تأثير الأضواء والالوان المختلفة في النباتات من خلال سلسلة من البحوث التي اجريت بهذا الخصوص. فقد وجد ان الضوء البنفسجي يساعد على نمو الكروم، وان الضوء الاحمر يعمل على تثبيت الحبوب والبذور اسرع مما لو تعرضت لضوء بنفسجي اللون.

الدراسات السابقة

عرضت الدراسات السابقة التي تيسرت لنا لخصائص الالوان ورموزها ولطرق ادراكها من قبل الاطفال، فاللون الاصفر ـ على سبيل المثال ـ اكثر الالوان نورانية واشراقاً، ولكنه الأقل شعبية وشيوعاً، وبالأخص الغامق منه.

ويعد اللون الاصفر البراق رمز الشمس، فهو بهيج ومنعش ومرح، وهو اللون المقدس في الصين والحضارة المسيحية الغربية القديمة. غير ان الاصفر الغامق والمحايد والاصفر المخضر مكروه وغير شعبي ويرمز ويرافق المرض والبذاءة والجبن والحسد والخداع والخيانة والغدر. ولقد كان هذا اللون علم المراكب المحجورة صحياً ويرفع على المستشفيات كما كانت تطلىٰ به ابواب المجرمين والمتآمرين.

اما اللون الاحمر فهو اكثر قدرة على الجذب واقوى شدة ضوئية، فهو لون حاسم واندفاعي ومثير، وهو الاكثر شعبية وشيوعاً وخاصة بين النساء وحسب الدراسات اللغوية فانه اول لون جرت تسميته في اللغة، كما انه كان الشائع في الفنون البدائية والكلاسيكية ويمكن ان يُعزى ذلك الى انه متعارض مع اللون الاخضر على الارض ومع لون زرقة السماء.

ويرمز الاحمر بصورة عامة الى المودة والعطف ويرافق ايضاً الغضب والثورة والكفاح والخطر والشجاعة.

اما الازرق فبارد وصافٍ وروحي. ويرمز هذا اللون عادة الى الاخلاص والامل والصفاء والنبل.

اما اللون الارجواني (البنفسجي) فهو جليل ونفيس ومؤثر ويتسم بالأبهة. ولما كان اللون الارجواني مزيجاً من الازرق والاحمر فانه يجمع خصائصهما، فمن الاحمر الشجاعة والرجولة ومن

الازرق الروحية والشرف والنبل.

اما اللون الاخضر فمشابه للأزرق، وهو متعادل ومحايد في التأثير العاطفي ومائل الى الخمود اكثر من ان يكون فعالاً ويعتبر اكثر الالوان هدوءً وراحة.

ويرمز الاخضر الى الصدق والخلود والى التأمل والتفكير في اكثر الاديان. وفي الاستخدامات العادية فانه يرمز الى الطراوة وعدم النضج، كما يرمز غصن الزيتون الاخضر الى السلام.

اما الالوان المحايدة: الابيض والرمادي والاسود، فإن تأثير هذه الالوان لايكون محدداً أو قوياً كسائر الألوان.

فالأبيض: هو الاكثر تأثيراً وايجابية ونورانية من الرمادي والاسود وهو خفيف ورقيق ويرمز به عادة الى النقاء والبراءة والطراوة والصدق والاستقامة [illegible] ـجر التسلسل التالي هو التسلسل التفضيلي لتكوين الالوان.

الاحمر، فالازرق، فالأرجواني فالاخضر فالبرتقالي ثم الاصفر.

ويشيع اللون الاحمر بين النساء، ويفضل الرجال اللون الازرق، وتكون النساء اكثر حساسية للألوان من الرجال، وتفضل الالوان الصافية الخالصة على المظللة او ذات المسحة في المسامات الصغيرة الملونة بينما تفضل الالوان المظللة في المسامات الكبيرة.

الاطفال وادراك اللون

أظهرت الدراسات ان الاطفال قادرون في مرحلة مبكرة من العمر على تمييز الالوان. فقد تبين ان الطفل الرضيع يفضل التحديق برقعة الطاولة الملونة لمدة زمنية أطول مقارنة برقعة سوداء اللون. وتبين في تجارب اخرى ان الطفل الرضيع بعمر (٣) اشهر يحدّق طويلا في قطعة ورق ملونة بالمقارنة مع قطعة ورق رمادية ناصعة مساوية لها تماماً. وكان الاطفال بعمر اربعة اشهر ينظرون طويلا الى السطوح ذات اللون الاحمر والسطوح ذات اللون الازرق بالمقارنة مع السطوح ذات اللون الرمادي. واظهر الاطفال بعمر (٦ ـ ١٤) شهراً ميلاً قويا للوصول الى قرص ملون بالمقارنة مع قرص اخر رمادي اللون. ان اللون الاحمر يكون هو المفضل عند الاطفال يليه في ذلك اللون الاصفر فالازرق فالاخضر. ويفضل الاطفال الواقعة اعمارهم بين نهاية مرحلة الرضاعة وسن ما قبل المدرسة اللون الاحمر كثيراً في حين يكون اللون الاصفر اقلها تفضيلا لديهم. وحين يصل الاطفال الى العمر المدرسي، يصبح اللون الازرق هو المفضل لديهم. ومن المحتمل ان يجذب اللون الاصفر الاطفال الصغار اكثر من اللونين الازرق والاخضر اكثر سطوعاً واشد ضوءً ولكنه يبدو غير ممتع للاطفال الاكبر عمراً، اما الادراك الدقيق للالوان فربما لايتطور الا بعد ان يتعلم الاطفال اسماء تلك الالوان.

وفي دراسة ميدانية لعمر محمد جبرين، من الاردن، حول الخصائص النفسية والتطورية لرسوم (٨١٧) طفلاً في سن (٢ ـ ٨) سنوات تبين ان الاطفال عامة في هذا السن يرسمون الشيء هيكلياً، بمعنى انهم يفضلون رسم الاطار العام للشكل بدلاً من لونه وهذا يعني اعتمادهم على الرسم التخطيطي بالاقلام بدلاً من الالوان. وقد يستعمل الطفل الاقلام الملونة الشمعية او السائلة ولكنه لا يملأ اشكال رسومه بل يلجأ الى استعمال الالوان لتمييز الاشكال الاطارية فقط. ولا يعني ذلك ان الطفل في هذه السن لايرسم بالألوان، فقد وجد كل من «لولر وزوجته» ١٩٦٥ ان أمزجة الاطفال المختلفة نحو استعمال الالوان تتأثر بالثقافة المحلية وبالميول الفردية، بالاضافة الى النضج العقلي والجسمي للطفل. وقد وجد ان اطفال الروضة يختارون اللون الاخضر لتكوين صورة مغرية بينما اختاروا اللون البني لتلوين الصورة نفسها حينما استمعوا الى قصة محزنة تتعلق بالصورة. كما لايعني ذلك ان الاطفال يدركون المعاني النفسية للالوان التي تؤثر في انطباعات المشاهد للرسوم وانما هم يملأون الفراغات عشوائيا بأي لون من الالوان المتوفرة لديهم. لذا فهم لا يصرون على وجود لون او الوان محددة بالذات اذا لم تكن موجودة امامهم.

وفي احدى تجارب الباحث عن الالوان المفضلة لهذه المرحلة، أبقى ثلاث علب لألوان قاتمة، الوان ميتة بالتعبير الفني، وهي الاسود والبني والاخضر القاتم، ووضعت الواح كبيرة على الحوامل، وحينما طلب اليهم ان يرسموا مناظر طبيعية بالالوان، لم يتردد الاطفال جميعهم في استعمال ما توفر منها دون ان يطلبوا لونا معيناً او الواناً محددة غيرها. وفي هذا تأكيد واضح على عدم استيعاب الطفل في هذه المرحلة للمعاني والوظائف النفسية للالوان كما يراها الرسامون الراشدون، وقد لاحظ الباحث ان توفر عدد اكبر من الالوان امام الاطفال يدفعهم الى تكوين ما يشبه مهرجان الوان على الواحهم. وهم في العادة لايقيمون وزناً للعلاقة بين لون الشيء في الطبيعة واللون الذي يختارونه لرسم شكله. فقد يرسمون الرجل باللون الاحمر او الازرق او الاخضر او غير ذلك. ومن المؤكد ان ليس هناك اسلوب شامل لأمزجة الاطفال كلهم في هذا المضمار، اذ يُبدي كل طفل طريقته الخاصة نحو استعمال الالوان المعروضة امامه. وقد يبدو استعمال الالوان بهذه الطريقة غير منسجم مع ذوق الفنان الراشد

او حتى المشاهد العادي من الراشدين. تصبح الالوان في المرحلة العمرية (٦ ـ ٨) اساسية عند الطفل في ابراز الخصائص الهندسية والطبيعية للشيء المرسوم، كما انها تصبح أداة أيسر للتعبير عن الكتل المرسومة مثل الانهار والسماء والجبال والغابات والمروج والنباتات وغيرها. وكما وضح سابقاً فان الالوان تستعمل لتأكيد البعد المكاني. فلون السماء الازرق يعني انه يفصل الاشياء عن خط القاعدة الارضي، ولون الجبال والتلال البنفسجي يوحي بانها بعيدة.. ومع ان هذه الامور ليست في مدركات الطفل الانية، الّا انه يكتشفها من خلال مشاهداته في الطبيعة وتقليدها.

والالوان في هذه المرحلة تستعمل لاشياء اخرى. فاللون بحد ذاته يجذب انتباه الطفل ويحفزه على الرسم وكثيراً ما يرسم الطفل رسماً لايمثل شكلا محدداً ولكنها زخرفة لونية. كما تستعمل الالوان في تصنيف العناصر. فالزهور الحمر والصُفر والاشجار خضر وجذوعها بنية والاحذية سود والنوافذ زُرْق او حمر وهكذا... ولهذا السبب يرفض اطفال هذه المرحلة استبدال لون واقعي بلون غير واقعي، فهم يرفضون استعمال اللون الازرق بدلاً من اللون الاخضر في تلوين العشب او الشجرة، وهذا يعني ان تفكير الطفل في طبائع الاشياء يصبح اكثر واقعية.

مشكلة البحث

تتلخص المشكلة التي يحاول هذا البحث دراستها بما يأتي:

١ ـ معرفة اللون الذي يفضله الاطفال في مدارس الرياض وفي الصف الاول الابتدائي.

٢ ـ معرفة: هل هناك فروق في تفضيل اللون بين اطفال الرياض وتلاميذ الصف الاول الابتدائي؟

٣ ـ معرفة: هل هناك فروق بين الجنسين في مجال تفضيلهم للالوان؟

٤ ـ هل يختلف الاطفال في تفضيلهم للالوان حسب مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية؟

حدود البحث

١ ـ يشمل البحث اطفال الروضة الذين تتراوح اعمارهم بين (٤ ـ ٥) سنوات. كما يشمل تلاميذ الصف الاول الابتدائي الذين تتراوح اعمارهم بين (٦ ـ ٧) سنوات، من الجنسين.

٢ ـ يقتصر البحث على معرفة اللون الاكثر تفضيلاً لدى الاطفال، والتفضيل الذي يليه.

منهج البحث

سبقت الاشارة في مكان آخر من هذه الدراسة الى ان الهدف الرئيس الذي يسعى البحث الراهن الى تحقيقه هو محاولة دراسة اللون المفضل لدى الاطفال في مرحلة الرياض والصف الاول من المرحلة الابتدائية من خلال اختيارهم للون. وقد اعتمد البحث على الرسائل التالية في جمع المعلومات:

١ ـ أعدتّ الباحثات بطاقات مستطيلة الشكل، متساوية في شكلها وحجمها، وقد لونًت كلّ بطاقة بلون من الوان الطيف الشمسي، وهي اللون الاحمر والبرتقالي والاصفر والاخضر والازرق والنيلي والبنفسجي. وقد أُضيف اللون الوردي الى جانب الالوان الاساسية.

٢ ـ أُعدت اوراق خاصة رسم عليها صورة طفلة بفستان غير ملون واخرى رسم عليها طفل يرتدي بدلة غير ملونة، وطلب من الاطفال تلوين الفستان والبدلة باللون الذي يفضلونه، كل حسب جنسه.

٣ ـ تم اعداد كرات متساوية في الحجم والشكل، ثم لونت بالالوان الأساسية التي لونت بها البطاقات.

٤ ـ اعتمدت المقابلة الشخصية من قبل الباحثات لتوجيه الاسئلة والاستفسار عن سبب اختيارهم لهذه الالوان.

٥ ـ البطاقة الشخصية للاطفال لتسجيل المعلومات المهمة منها.

العينة

يتألف المجتمع الذي أُجري عليه البحث الراهن عن اطفال مرحلة الرياض والمرحلة الابتدائية (الصف الاول) في مركز محافظة بغداد. وقد تم اختيار عينة ممثلة لهذا المجتمع الذي يضم اطفالاً من الجنسين يختلفون في مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية. وقد تم تحديد هذه المستويات (عالي، متوسط، دون المتوسط) حسب المناطق التي تقع فيها مدارسهم التي هي في الاغلب، المناطق السكنية لأسرهم وكما ورد ذلك في تصنيف وزارة التربية لهذه المدارس. وبناءً على ذلك فقد تم تمثيل هذه المناطق بـ(٢٤) مدرسة، (١٢) مدرسة ابتدائية و(١٢) رياض اطفال، بمعدل (٤) مدارس لكل مستوى ولكل مرحلة. اختيرت هذه المدارس بصورة عشوائية، تم تمثيل كل مدرسة منها بـ(٢٥) طفلاً وطفلة، وبذا اصبح مجموع افراد عينة البحث (٦٠٠) طفلٍ وطفلة، (٣٠٠) طفلٍ وطفلة في مرحلة الرياض و(٣٠٠) تلميذٍ وتلميذة في المرحلة الابتدائية، نصفهم من الذكور والنصف الاخر من الاناث، موزعين على المستويات الثلاثة بمعدل (١٠٠) طفل وطفلة لكل مستوى وفي كل مرحلة.



تطبيق الأداة

تم تطبيق أداة البحث من قبل الباحثات حسب التفاصيل التي وردت في وصف أداة البحث وهي:

١ـ تمت مقابلة الاطفال مقابلة فردية وتدوين بعض الملاحظات عن بطاقة الطفل المدرسية، كالحالة الاجتماعية والثقافية للوالدين وعدد الاطفال والاتجاه الفني وغيرها.

٢ـ عُرضت الكرات الملونة على الطفل ووُجِه له الطلب التالي:
ـ «أختر الكرة التي تحبها». وقد اعتبر هذا الاختيار الاول. وبعد رفع الكرة المختارة، يطلب من الطفل اختيار كرة اخرى، حيث يعتبر هذا الاختيار الاختيار الثاني الذي يمثل التفضيل الثاني.

٣ـ عُرضت على الطفل بطاقات مستطيلة الشكل ملونة بالوان الكرات، ووجه للطفل السؤال التالي:
ـ «اي لون تحب من هذه الالوان المعروضة؟». ثم يرفع اللون المختار ويُعاد السؤال على الطفل مرة اخرى لتحديد التفضيل الثاني.

٤ـ تم عرض رسم تخطيطي لبدلة طفلة (للاناث) وبدلة طفل (للذكور) وطلب منهم تلوينها باللون الذي يحبونه.

عرض النتائج

تبين من دراسة الجداول ان اللون الاحمر يحتل المرتبة الاولى في التفضيل، حيث بلغت النسبة الموزونة للذين يفضلون هذا اللون (٨٢ر٤٧) يليه في المرتبة اللون البنفسجي، حيث بلغت نسبة الذين يفضلونه (٩٨ر٧٧)، ويأتي في المرتبة الثالثة اللون الاصفر، يليه الاخضر والنيلي والوردي والازرق. وقد احتل البرتقالي المرتبة الدنيا في التفضيل، حيث بلغت نسبة الذين يفضلونه (٧٥ر٦٢). وقد احتل اللون الاحمر المرتبة الاولى لدى الذكور. فقد بلغت نسبته الموزونة (٣٤ر٨٤)، بينما احتل هذا اللون المرتبة الثانية لدى الاناث، حيث بلغت نسبته (٥٦ر٨٢). اما اللون الاصفر فقد احتل المرتبة الثانية لدى الذكور حيث بلغت نسبة الذين يفضلونه (٨٣ر٧٦) بينما احتل المرتبة الرابعة لدى الاناث اذ بلغت نسبته (٧٥ر٧٤).

اما المرتبة الاولى عند الاناث فقد احتلها اللون البنفسجي الذي بلغت نسبة اللواتي يفضلنه (٣٢ر٨٤) بينما كان ترتيب هذا اللون لدى الذكور في المرتبة السابقة، حيث بلغت نسبة من يفضلونه (٨٦ر٦٧). اما اللون الأخضر فقد حاز على المرتبة الثالثة لدى الذكور والمرتبة السابعة لدى الاناث حيث بلغت نسبته لديهم (٤٢ر٧٥) و (٩٦ر٦٢) على التوالي.

بالنسبة للون الأزرق، احتل المرتبة الخامسة لدى الذكور والمرتبة الثامنة لدى الاناث وبنسبة (٨٣ر٧١) و (٧٤ر٦٢) على التوالي. واحتل اللون الوردي المرتبة السادسة لدى الذكور والمرتبة الخامسة لدى الاناث، حيث جاءت نسبته (٦٥ر٧٠) لدى الذكور و

(٣٢ر٧١) لدى الاناث.

وجاء اللون البرتقالي في المرتبة الاخيرة لدى الذكور والمرتبة السادسة لدى الاناث، حيث بلغت نسبته (٤٢ر٦٠) و (٨١ر٦٤) على التوالي.

وتبين من خلال البحث ان تفضيل الاطفال للون خاضع لمقياس آخر هو المستوى الاقتصادي ـ الاجتماعي. وقد جاء تفضيل اللون الاحمر في المرتبة الاولى بالنسبة للمستويات الثلاثة [عالي ـ متوسط ـ دون المتوسط] حيث بلغت النسبة على التوالي (٠٤ر٨٥) (٢٥ر٨١)، (٧٣و٨٧). اما اللون البنفسجي فقد احتل المرتبة الثانية في المستوى العالي، والمرتبة الثالثة في كل من المستويين [المتوسط ـ دون المتوسط] حيث بلغت النسبة (٤٨ر٧٩)، (٣٩ر٧٦)، (٧٨ر٧٨) على التوالي. وقد احتل اللون الاخضر المرتبة الثالثة في المستوى العالي والمرتبة السادسة في كل من المستويين [المتوسط ودون المتوسط] حيث بلغت النسبة (٠٠ر٧٥) في المستوى العالي و (٦٦ر٧٤)، (٠٠ر٨٠) في المستويين المتوسط ودون المتوسط.

اما اللون الاصفر فقد جاء ترتيبه الرابع في المستوى العالي، والمتوسط، والمرتبة الثانية في المستوى دون المتوسط، حيث بلغت نسبته (٣٩ر٧٣)، (٦٦ر٧٤)، (٠٠ر٨٠).

اما بالنسبة للون الازرق فقد احتل المرتبة الخامسة في المستوى العالي والمرتبة السابعة في المستويين المتوسط ودون المتوسط حيث بلغت النسب (٥١ر٧٠)، (٥١ر٧٠)، (٣٢ر٦٣). وجاء اللون الوردي في المرتبة السادسة للمستوى العالي، وفي المرتبة الخامسة، والرابعة بالنسبة للمستوى المتوسط ودون المتوسط على التوالي. واحتل اللون النيلي المرتبة السابعة في المستوى العالي بينما احتل نفس اللون المرتبة الثانية في المستوى المتوسط والمرتبة الخامسة في المستوى دون المتوسط.

اما اللون البرتقالي فقد جاء بالمرتبة الثامنة وهي الاخيرة في المستويات الثلاثة.

ويظهر ان اللون الاحمر يحتل المرتبة الاولى في مدارس الرياض بينما يحتل المرتبة الثانية في المدارس الابتدائية، حيث بلغت نسبته (٢٤ر٨٣)، (٧١ر٨٣)، في حين احتل اللون البنفسجي المرتبة الاولى في المدارس الابتدائية والمرتبة الرابعة في مدارس الرياض، حيث بلغت النسبة (٢٧ر٩١)، (٠٩ر٧٦) على التوالي.

وقد حاز اللون النيلي على المرتبة الثانية في مدارس الرياض بينما احتل المرتبة السابعة في المدارس الابتدائية. وقد بلغت النسبة (٥٨ر٨١) و (٣١ر٦٧) على التوالي.

اما اللون الاصفر فقد حصل على المرتبة الثالثة في مدارس الرياض وعلى المرتبة الخامسة في المدارس الابتدائية حيث بلغت نسب الذين يفضلونه (٤١ر٧٩)، في مدارس الرياض و (٤٢ر٧٢) في المدارس الابتدائية وحاز اللون الوردي على المرتبة الخامسة في مدارس الرياض والمرتبة السادسة في المدارس الابتدائية، حيث بلغت النسبة (٩٢ر٧٢) و (٦٩ر٦٩) على التوالي. اما اللون الاخضر فقد حصل على المرتبة السادسة بالنسبة لأطفال الرياض، بينما حصل على المرتبة الثالثة بالنسبة لتلاميذ المرحلة الابتدائية، وقد بلغت النسبة (٦٧ر٦٦) و (٨٣ر٧٦) على التوالي. وبالنسبة للونين البرتقالي والازرق فقد حصلا على المرتبة السابعة والثامنة في تفضيل اطفال الرياض، واحتل اللون البرتقالي المرتبة الثامنة، واللون الازرق المرتبة الرابعة في تفضيل تلاميذ المرحلة الابتدائية، حيث بلغت نسبة من يفضل اللون البرتقالي في مرحلة الرياض (٢٩ر٦٣٪) وفي المرحلة الابتدائية (١٦ر٦٢٪) بينما بلغت نسبة الاطفال الذين يفضلون اللون الازرق (٢٩ر٦١٪) في مدارس الرياض، بينما نجدها في المرحلة الابتدائية (٨١ر٧٣٪).

تفسير النتائج

اظهرت الدراسة الحالية ان الاطفال بين الاعمار (٤ ـ ٥) و (٦ ـ ٧) يفضلون اللون الاحمر. ومن الخصائص السايكولوجية للون الاحمر انه اكثر قدرة على الجذب وأشدّ ضوئية، وهو لون مثير والاكثر شعبية وشيوعاً. وبحسب الدراسات اللغوية فأنه اول لون جرت تسميته في اللغة، كما انه كان شائعاً في الفنون البدائية والكلاسيكية ويمكن ان يُعزى ذلك الى انه لون متعارض مع اللون الاخضر على الارض ومع لون زرقة السماء. ويرمز الأحمر بصورة عامة الى المودّة والعطف ويرافق ايضا الغضب والثورة والكفاح والخطر والشجاعة.

ويلي اللون الاحمر في الأولوية، اللون البنفسجي، حيث ان هذا اللون يتسم بالأبّهة ويُعتبر مؤثراً. ولما كان اللون البنفسجي مزيجاً من الأزرق والاحمر، فأنه يجمع خصائصهما. فمن الاحمر الشجاعة والرجولة، ومن الازرق الروحية والشرف والنبل.

اما اللون الاصفر الذي يلي اللون البنفسجي في التفضيل، فمن خصائصه انه اكثر الالوان نورانية واشراقاً. ومن المحتمل ان يجذب اللون الاصفر الصغار اكثر من اللونين الازرق والاخضر لكونه اكثر سطوعاً واشد ضوءً ولكنه يبدو غير ممتع للاطفال الاكبر عمراً.

واللون الاخضر الذي احتل المرتبة الرابعة مشابه للأزرق فهو متعادل ومحايد في التأثير العاطفي ومائل الى الخمود اكثر من كونه

فعّالاً. ويُعتبر الاخضر اكثر الالوان هدوءً وراحة، ويرمز الى الصدق والخلود والتأمل والتفكير عند اكثر المجتمعات. وقد يعود تفضيل الطفل للون الاخضر الى أثر البيئة الطبيعية، كالاشجار والمروج ويبعث هذا اللون، الفرح والأمل عند الاطفال، كما وجد في دراسة (ولر) التي اشرنا اليها.

ويتأثر الاطفال بصورة عامة في هذه المرحلة من العمر في تفضيلهم للالوان بالثقافة المحلية والميول الفردية، بالاضافة الى النضج العقلي والجسمي للطفل. وفي هذه المرحلة ـ مرحلة التنشئة الاجتماعية الاولى ـ يكون الطفل متأثراً تأثراً كبيراً بالوالدين والبيئة المحيطة به وهو شديد الملاحظة والتقليد لممارسات الكبار، وقد يؤدي هذا الى التأثير في ميول الاطفال وتفضيلهم للون معين دون آخر. هذا بالاضافة الى الخصائص التي يحملها اللون. وهناك دراسات اظهرت بأن الأطفال في الريف يبدو تفضيلهم للألوان مختلفاً عن تفضيل اطفال المدن، فهم يميلون الى تفضيل الالوان البرّاقة (الاحمر، الاصفر، الاخضر) التي تبدو في الوان الطبيعة كالزهور والاشجار والنباتات الاخرى.

اما بالنسبة لمتغير الذكور والاناث فنجد في هذه الدراسة اختلافا كبيراً في تسلسل تفضيل الالوان بين الجنسين. فقد ظهر ان الذكور يفضلون الأحمر ثم الاصفر ثم الاخضر ثم النيلي، بينما تفضّل الاناث البنفسجي ثم الاحمر ثم النيلي ثم الاصفر. وقد ظهر من الدراسات السابقة ان النساء اكثر حساسية للألوان من الرجال، فهن اكثر تحسساً للالوان الهادئة. وقد يعود السبب في تفضيل الذكور للألوان المذكورة انها الوان برّاقة واكثر جاذبية للنظر وتبعث على المرح والسعادة كما يفسره علماء النفس، على خلاف الاناث اللاتي هن اكثر تأثراً بالطبيعة وبالبيئة المحيطة بهن واكثر استعمالاً للالوان في ملابسهن. فقد وجدنا عند تطبيق الاداة ان الطفل يفضل بالدرجة الأولى اللون الاحمر لكنه يُلوّن البدلة المرسومة باللون الازرق. وعند سؤاله عن السبب يقول: لأن اللون الازرق أحلى في البدلة. أو ان ماما قالت انه أحلى، او ان الولد لايلبس اللون الاحمر. فمن هنا نرى اثر الطبيعة على اتجاه الاطفال نحو الالوان.

وقد ظهر في دراستنا ان أذواق الاطفال في تفضيل اللون تكون متقاربة في المستويات الاجتماعية المتوسطة ودون المتوسطة، بينما يختلف في ذلك أطفال المستوى الاجتماعي العالي. وقد يكون السبب في ذلك دم وجود فارق كبير في الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالنسبة للمستوى المتوسط ودون المتوسط استناداً الى عمل الوالدين. لقد كانت الاولوية في المستوى الاجتماعي العالي كما يلي: الاحمر، البنفسجي، الاخضر، الاصفر. وقد تقاربت نسب تفضيل اطفال المستويين المتوسط ودون المتوسط في اختيار الالوان، حيث جاء تفضيل الوردي بالمرتبة الخامسة بالنسبة للمستوى المتوسط بينما جاء في المرتبة الرابعة للمستوى دون المتوسط. واحتلّ اللون الاخضر الذي يرمز للسعادة والفرح والتفاؤل المرتبة السادسة بالنسبة لاطفال المستوى المتوسط ودون المتوسط، في حين احتل اللون الاحمر المرتبة الاولى بالنسبة للمستويات الثلاثة المذكورة وذلك لأنه الاكثر جاذبية واثارة بالنسبة لهم.

وقد ظهر ان هناك اختلافاً في تفضيل اللون بين الاطفال بالنسبة لمتغير العمر، فقد تبين في عمر (٤ ـ ٥) سنوات ان اطفال الرياض يفضلون اللون الاحمر ثم النيلي ثم الاصفر ثم البنفسجي. اما اطفال المدارس الابتدائية في عمر (٦ ـ ٧) سنوات فقد جاء ترتيب التفضيل لديهم كالآتي: البنفسجي ثم الاحمر ثم الاخضر ثم الازرق. وقد تبين من نتائج الدراسات الاخرىٰ في هذا المضمار ان الألوان تأخذ ترتيبا آخر مختلفاً عند الاوربيين وعلى النسق الآتي: الازرق فالاحمر فالاخضر فالارجواني فالبرتقالي ثم الاصفر. وليس هنالك ما يؤكد بأن هذه التفضيلات عفوية أو انها رمزية تتعلق بالقيم والتقاليد الحضارية وبالبيئة المحيطة بالطفل.

المصادر العر بية

١ـ احسان شيرزاد، شيرين: مبادىء في الفن والعمارة، الدار العربية للطبع. ١٩٨٥

٢ـ حسين صالح، قاسم: سايكولوجية ادراك اللون والشكل، منشورات وزارة الثقافة والاعلام. دار الرشيد للنشر ١٩٨٢

٣ـ آفاق عربية: سايكولوجية الرسوم وعلاقتها بخصائص الشخصية. العدد الحادي عشر تشرين الثاني ١٩٨٦

٤ـ الحسيني، نبيل: منابع الرؤيا في العين. المركز العربي للثقافة والاعلام. الطبعة الاولى ١٩٨٢

٥ـ محمد جبرين، عمر: الخصائص النفسية والتطورية لرسوم الاطفال العرب بين سن ٢ ـ ٨ سنوات، دراسة ميدانية. دراسات. مجلة علمية تصدر عن الجامعة الاردنية. المجلد الثامن ١٩٨١

المصادر الاجنبية

6- Light and Behavior of organisims. Journal, Wiley sons, N.Y.

7- Reactions of cheelos to optical. the Journal of Animal Behavios.

8- Walter Sargent, The Eonoyment And Use of Colovs. N,Y, Dover pullicatins, Lnc 1964.



حصار برلين قبل اربعين عاما

لم تنته الحرب العالمية الثانية الا وسادت الحرب الباردة العلاقات بين حلفاء الامس ولم تتنفس الدنيا الصعداء على اثر انتهاء تلك الحرب فقد نشبت من فترة لأخرى أزمات هنا او هناك وضعت العالم على شفا الهاوية والخوف والتأزم. وواحدة من هذه الازمات هي ازمة برلين عاصمة المانيا القديمة التي انتهت بتقسيمها الى شطرين. وفيما يأتي سرد لهذه الازمة وتطوراتها.

د. عبد الكريم السوداني

منطقة الاحتلال السوفيتي من المانيا. فالطرق والسكك الحديد والقنوات المائية التي تربط القطاعات الغربية (الاوربية) الثلاثة لبرلين بالمناطق الغربية الثلاث لالمانيا، قد تم قطعها واصبحت غير قابلة للاستعمال. وفي الوقت نفسه قام الاتحاد السوفيتي بقطع تجهيز برلين الغربية بالتيار الكهربائي مما ادى الى اضعاف حركة النقل العامة لدرجة كبيرة. ولم يبق أمام هذه المدينة الا طريق النقل الجوي الذي انقذها من اختناق محقق. فعلى النقيض من المنافذ البرية والنهرية فان الطرق الجوية بين برلين والغرب كانت مضمونة باتفاقات معقودة بين الحلفاء عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ الامر الذي جعل من الممكن اقامة جسر جوي فريد في تاريخ النقل الجوي. لقد دامت ازمة برلين الاولى اكثر مما دام حصارها لانها في الواقع بدأت قبل ستة اشهر من ذلك التاريخ. فبعد ثلاثة اسابيع من الاجتماعات العقيمة تأجل الاجتماع السادس لمجلس وزراء الخارجية الذي كانت مُهمّته اعداد معاهدة سلام مع المانيا في ١٩٤٧/١٢/١٥. وعقب فشل هذا المؤتمر الذي كان يمثل الفرصة الاخيرة اقنع الجنرال مارشال وزير خارجية أمريكا نظيريه الفرنسي بيدو والبريطاني بيفن بان تقسيم المانيا انما هو امر واقع وانه يجب والحالة هذه العمل على التنظيم السريع للمناطق التي ستوضع تحت ادارتهم.

من اجل هذا عقد في لندن، ابتداءً من شباط ١٩٤٨، مؤتمر ضم امريكا وبريطانيا وفرنسا، مهمته اطلاق فكرة انشاء دولة المانية غربية. لم يقف الاتحاد السوفيتي متفرجاً إزاء هذه المبادرة الغربية الهادفة الى عرقلة هدف ستالين الكبير في الحصول على امن مطلق عن طريق السيطرة المحكمة على



في الرابع والعشرين من حزيران ١٩٤٨، وعلى اثر خلل فني حدث على السكّة الحديد، اعلن مكتب النقل التابع للادارة العسكرية السوفيتية في المانيا بانه مضطر لتعطيل حركة المسافرين والبضائع على خط برلين هلمستاوت في الاتجاهين. وقد علم العالم، والخوف يتملكه، وبواسطة برقية وزعتها وكالة (ADN) بفرض حصار على برلين من قبل الاتحاد السوفيتي. ولم يكن هنالك شخص واحد يعتقد ان ذلك الحصار سيدوم قرابة العام. فحتى شهر مايس ١٩٤٩ عاشت عاصمة الرايخ القديمة حصاراً في

المانيا كلها. ولكي يفرض على الغربيين التخلي عن مشروعهم مارس ضغطاً متزايداً على برلين حيث يوجد الحلفاء في موضع ضعف بسبب ان برلين محصورة ضمن المنطقة الروسية، وبدأ السوفييت بتوجيه تحذيرات للغربيين. وفي ١٩٤٨/٣/٢٠ ترك القائد السوفيتي العام في المانيا، المارشال سوكولوفكسي، مجلس السيطرة بصورة نهائية (الجهاز التحالفي الرئيس). اما موسكو فانها لاجل اثبات تصميمها فقد بدات في الاول من نيسان بعرقلة النقل على السكك الحديد والنقل البري بين الغرب وبين برلين. وجواباً عن هذا الحصار الصغير فان الجنرال الامريكي كلي (CLAY) امر بتنظيم جسر جوي صغير. لكن الامور الخطيرة لم تبدأ إلا في حزيران؛ فعقب مؤتمر لندن الذي انتهى في بداية حزيران تبنت الحكومات الفرنسية والانكليزية والامريكية توصيات كان من شأنها ان تؤدي بوقت قصير الى تأسيس جمهورية المانية الاتحادية. ولانهم قرروا قبل كل شئ تزويد الدولة المقبلة بعملة قوية ومستقرة فانهم ادخلوا في ١٩٤٨/٦/٨ المارك الالماني في مناطقهم. حالاً اتخذ السوفييت اجراءات مضادّة؛ فهجّروا اولاً القيادة التحالفية ـ وهي جهاز رباعي خاص ببرلين، ثم قاموا باصلاح مالي في منطقتهم، واخيراً اغلقوا جميع المنافذ المؤدية الى القطاعات الغربية من برلين.

احتمالات المواجهة وادارة الازمة

وهكذا لاحت في الافق علامات مواجهة قوية وخيمة النتائج، ولو انها لم تقع بسبب ان هذا الطرف او ذاك قد اظهر نوعاً من الاعتدال يمكن ان يفسر بالاحتكار النووي الامريكي الردعي وكذلك التفوق العسكري السوفيتي التقليدي الساحق. كما ان السوفييت لم يحاولوا اغلاق الطريق الجوي. اضافة الى ان الامريكان على الرغم من الهيجان المتكرر للجنرال كلي فانهم لم يحاولوا اجتياز الحواجز المقامة على طرق المرور السريعة والسكك الحديد والقنوات بالقوة. مع هذا، فان امريكا تبنت فوراً موقفاً متشدداً لخصّه الرئيس ترومان بقوله: (نحن في برلين وسنبقى فيها). لكن هذه الصلابة المبدأية كان يصاحبها حرص على تفادي اية مجابهة مباشرة.

الجسر الجوي

ضمن تلك الظروف كان الجسر الجوي حلاً مثالياً لانه القى على عاتق الاتحاد السوفيتي مسؤولية التصعيد، وفي الوقت نفسه مكن الغربيين من البقاء في برلين ولو مؤقتاً. كما ان بريطانيا اتبعت موقفاً متشدداً، اذ اعلن بيفن امام مجلس العموم قائلاً:ـ «علينا ان نبقى» اما الفرنسيون فقد بدوا اكثر تحفظاً. فبعد ان عزموا على التخلي عن برلين التي كانت تمثل بالنسبة لهم كل مايشمئزون منه في المانيا (المركزية، السلطة العسكرية، والنظام الآلي). فانهم التزموا الهدوء والتشاور بصورة خاصة لانهم كانوا يخشون الانجراف الى اشتباك دموي سببه نزوة لدى الجنرال كلي. وقد لعبت فرنسا خلال فترة الحصار دوراً معتدلاً لكنه لم يؤثر الا قليلاً في مجرى الاحداث اذ انها كانت تجتاز ازمة وزارية طويلة ـ طيلة صيف ٤٨ ـ من جهة، ومن جهة اخرى فانها لم تشارك في الجسر الجوي لان العدد القليل من طائرات النقل التي كانت تمتلكها كانت تستعمل في حرب الهند الصينية. ولم تكن تعتقد ابداً بفاعلية ذلك الجسر الجوي. وفي ذلك الوقت لم يكن هنالك كثيرون يعتقدون بنجاح عملية امداد مليوني شخص هم سكان برلين عن طريق الجو، وهو ماكان يدور في مخيلة المسؤولين الامريكان والبريطانيين اصلاً فان ذلك الجسر لم يكن اكثر من مسكّن، الهدف منه كسب الوقت والمساعدة على ايجاد حل تفاوضي لأزمة برلين.

ولكن في ظرف عدة اشهر كان العلاج الفني الذي فرضته الظروف قد اصبح وسيلة سياسية شديدة الفاعلية. ففي البدء كان الجسر اجراءً مؤقتاً ومرتجلاً كلياً على الرغم من ان خطر الحصار كان مخيماً على برلين منذ عدة اشهر، ولم يكن في الحسبان اي رد مشترك من قبل الغربيين ولو ان اولى الطائرات كانت قد هبطت في برلين منذ ١٩٤٨/٦/٢٥، لكنها لم تنقل سوى واحد من ثلاثين من احتياجات المدينة التي تباطأت فعالياتها وعاشت على المخزون الذي لم يكن يكفي اكثر من شهر واحد. فبعد عدة ايام من مشاركة السلاح الجويّ الامريكي بدأ سلاح الجو الملكي البريطاني عملية امداد برلين. وكان الامريكان والبريطانيون يمتلكون مطارات خاصة، كل منهم في قطاعه (تمبلهوف وگاتو). وقد تم توسيع هذين المطارين خلال الحصار، اضافة الى انشاء مطار ثالث من قبل امريكا في القطاع الفرنسي في (تيجيل). وبدفع من الجنرال كلي اصبح النقل الجوي وبسرعة مشروعاً ضخماً يستخدم خمسين الف شخص نصفهم من

الالمان. وبحلول شهر تشرين الثاني من عام الازمة اصبح كل شئ تحت ادارة امريكية. لقد حقق هذا الجسر الجوي نجاحاً كبيراً، اذ ان طاقته من النقل الجوي ارتفعت من سبعمائة طن يومياً الى خمسة آلاف. ثم ازداد الرقم الى الضعف بعد ستة اشهر. وكان الفحم يمثل ثلثي الشحن، وماتبقى يتألف من المواد الغذائية والحياتية. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الحياة في برلين في اثناء الحصار ابعد ماتكون عن اليسر، حيث عانى سكانها من الجوع والبرد وبطء الفعالية الاقتصادية وازدياد البطالة بنسبة مائتين وخمسين بالمائة خلال عام. وقد اظهر سكان المدينة امام هذا الوضع شجاعة كبيرة وارادة لاتقهر بحيث ان نسبة الذين استجابوا منهم للعرض السوفيتي بالمجئ الى القطاع الشرقي لم تتجاوز خمسة بالمئة. وكان يبدو ان الجسر الجوي هو وحده القادر على افشال حصار برلين، لكن هذا الشئ لم يكن اكثر من أمل في صيف ١٩٤٨.

التسوية

قررت الدوائر الغربية الحاكمة البحث عن تسوية لازمة برلين. ففي شهر تموز وجهت كل من باريس ولندن وواشنطن مذكرات الى موسكو تقترح فيها الدخول في مباحثات رباعية. وقد بدأت هذه المباحثات في العاصمة السوفيتية خلال شهر آب، حيث التقى خلاله ممثلو الدول الثلاث بستالين مرتين. لكن تلك المباحثات لم تفض الى اي اتفاق لان السوفييت كانوا يأملون ان يتخلى الغربيون عن مشروعهم السياسي في المانيا الغربية (التقسيم). وهكذا بدأوا يخففون من لهجتهم لأنه، منذ الاول من ايلول، بدأ المجلس النيابي المكلف بوضع دستور لجمهورية المانية فيدرالية الاجتماع في بون للتداول. وبسبب فشل المباحثات الرباعية فان الغربيين نقلوا مسألة برلين الى الامم المتحدة في خريف ذلك العام. لكن تلك المبادرة فشلت بدورها لاصطدامها بالفيتو السوفيتي. وكان رفض الاتحاد السوفيتي اللجوء الى الامم المتحدة يستند الى أنه كان يرى ان مسألة برلين هي من اختصاص الحلفاء الاربعة المحض طبقاً لاتفاقيات بوتسدام، اضافة الى انه كان مايزال يعتقد بامكانية كسبه للجولة، وكان يراهن في ذلك على احتمال اخفاق ترومان في الانتخابات الامريكية وعلى احتمال سوء الاحوال الجوية لكي تفعل فعلها في تعطيل الجسر الجوي. وقد سقط هذان الرهانان بسرعة. لان ترومان فاز في الانتخابات وسط دهشة عامة مما جعله يواصل سياسته المتصلبة، ومن جهة اخرى استمرت الطائرات الامريكية والبريطانية في امداد برلين بلا هوادة على الرغم من سوء الاحوال الجوية. وهنا بدات الامور تتضح. ففي خريف ١٩٤٨ اعتبر الحصار مدحوراً ولو ان الثمن كان باهظاً، وهو تقسيم برلين. فاضافة الى الضغط الخارجي الذي تعرضت له المدينة فقد لازمها تأزم داخلي بسبب الاضطرابات السياسية والعقائدية التي تفشت فيها مما ادى، بعد ان بلغت هذه الاضطرابات ذروتها، الى نقل امانة برلين الى القطاع الانكليزي في ايلول. اما التقسيم فانه اصبح فعلياً في ١٩٤٨/١٠/٣٠ عندما حصل القطاع الشرقي من المدينة على دار بلدية خاصة به.

وبعد خمسة ايام جرت الانتخابات التي نص الدستور عليها في القطاعات الغربية. وقد حاز فيها حزب (SPd) على ثلثي الاصوات. لذا فان رفع الحصار لم يعد الامسألة وقت. ومنذ بداية عام ١٩٤٩ بدا السوفييت راغبين في وضع نهاية سريعة للأزمة. لكن الغربيين هم الذين عطلوا المساعي هذه المرة لانهم كانوا يخشون مناورة سوفيتية جديدة. ان تأكدوا من نجاحهم النهائي في برلين اصروا قبل ان يتفاوضوا - على اتمام بناء المانيا خاصة بهم. لذلك فان الحصار الذي دام اكثر من احد عشر شهراً، لم يرفع الا بعد عقد اتفاقات واشنطن ومصادقة المجلس البرلماني على القانون الاساسي لجمهورية المانيا الاتحادية.

النهاية !

في ١٩٤٩/٥/١٢ عند منتصف الليل فتح السوفييت الطرق امام السير وكذلك السكك الحديد والقنوات المائية، وسط فرحة غامرة اهتزت لها العاصمة القديمة. وكخطوة احترازية بقي الجسر الجوي يعمل حتى الثلاثين من ايلول وكان قد كلف مائتي مليون دولار ومات فيه ٧٦ شخصاً (خمسة المان. وواحد وثلاثون امريكياً، واربعون بريطانياً). ويبدو ان ازمة هذه المدينة لم يقدر لها ان تنتهي. فبعد مرور عشر سنوات على حصارها اندلعت فيها ازمة جديدة ادت عام ١٩٦١ الى انشاء جدار برلين الشهير الذي جسّد تقسيم المدينة الفعلي الذي حدث عام ١٩٤٨.

*** اعتمدت المقالة على المعلومات الواردة في صحيفة «لوموند» الفرنسية العدد ٢٠/١٩ حزيران ١٩٨٨.**



يوسف احمد - قطر

مهرجان بغداد العالمي الثاني للفن التشكيلي

«ان العراق حريص على خلق تقاليد في مجتمعه، إحداهما ابراز المبدعين وتكريمهم. وجائزة صدام للفنون هي امتداد لتقاليد تجلت في زمن الحرب من خلال مبادرات الرئيس القائد صدام حسين في تقليد المقاتلين والمبدعين والمبرزين...»

من كلمة السيد لطيف نصيف جاسم وزير الثقافة والاعلام
الفائزين الستة وسام صدام الذهبي للفنون

شوكت الربيعي

يشكل مهرجان بغداد العالمي للفن التشكيلي خطوة متقدمة اخرى على معراج الفن الانساني، أغنته لقاءات الفنانين العراقيين والعرب والأجانب، فكان المهرجان رؤى فنية بجوانبها المتعددة، وتبادلاً في المعرفة والثقافة الفنية بما يؤدي الى خلق حوار بينهم على التجارب والاتجاهات الخلاقة في دول العالم المختلفة.

فنانون من اثنين واربعين دولة عربية شاركوا في المهرجان بثمانمائة عمل فني في الرسم والنحت والسيراميك، بينها مائتان واثنا عشر عملاً فنياً عراقياً..

احتضن العراق ذلك كله..

□ العراق..!

ما إن نسمع هذه الكلمة المقدسة، حتى تنهض في المخيلة تلال خُضرٌ متراصة من التأملات الموحية والافكار المتفجرة المحفزة للذاكرة الانسانية. انها ذاكرة العراق المشرقة، حضارة وادي الرافدين.

من منكم، لم تبهره جذور الحياة الاولى التي نبتت وتغلغلت بعيداً في أعماق تربة العراق، فكانت رؤى تطوف بين حنايا الأفكار المبدعة؟ وكانت حقائق أحالت الآمال والأحلام الى قوة تغيير فاعلة في بنية المجتمع العراقي، وركائز بناء حضارية متقدمة.. فكانت الانطلاقة.. وكان العطاء للانسانية.

ومنذ أكثر من ثمانية وثلاثين قرناً من تلك الخلفيات الثقافية، لم يشهد العراق نهضة حديثة تحقق الشروط الوطنية والقومية والانسانية، بمثل ماتمور به اليوم حركة البناء الفكرية والابداعية، وبما يضمن التواصل الصحيح بين الماضي المشرق المجيد وتطلعات المستقبل.

من هذا الوعي بالذات، ومن تلك الارتكازات الراسخة انبثقت فكرة تأسيس «مركز صدام للفنون» فأصبحت الفكرة الفذة حاضرة ثقافية تضاهي في اهميتها وحدثها أحدث المراكز الثقافية في العالم، ليس في طراز عمارة العربي الاسلامي حسب، بل في التطلعات الحضارية المتوخاة في عملية بناء الذات اجتماعياً وثقافياً ومعرفياً.. وذلك من فيض الافكار المدهشة التي خطط لها الرئيس القائد صدام حسين، تعميقاً للتواصل بين مبدعي العراق الحديث وبين التيارات المعاصرة في العالم الصديق.

ومن رؤى هذه التجربة فاض هذا العطاء بعد ان غرس المبدعون بذور البحث والتقصي في تربة الآمال الخلاقة لوادي الرافدين، ومنها شجرة الفن الانساني، فكان منها (مهرجان بغداد للسلام). واليوم يقام مهرجان بغداد العالمي الثاني (١٩٨٨) على أرض المعرفة والحكمة والعلم والثقافة والفنون.. والانتصار.

□ وتواشجت الرؤى.. رؤى المبدعين القادمين من اثنين واربعين بلداً صديقاً في العالم، ليساهموا بخمسمائة وثمانية وثمانين عملاً فنّياً فتستقبلهم بغداد السلام بعد ان خاضت حرباً حضارية وتاريخية، ثماني سنوات، دفاعاً عن السلام.

احتضنت قاعات (مركز صدام للفنون) اعمال الفنانين العراقيين والعرب والاصدقاء من فناني العالم المبدعين جاؤا بأعمالهم الى بغداد ليضمّوا اصواتهم الى اصوات الحق المتسامية في بغداد. وليتحقق جانب مشرق من شعار المهرجان وموقفه الأساسيّ: «الفن للانسانية».

بهذه اللوحات يتباهى العراقي الكبير بصدام حسين فيرعى مهرجان بغداد العالمي الثاني للفن التشكيلي:

□ تشكل لوحات الدكتور علاء بشير، وهو



عبد الرسول ملحان - الكويت

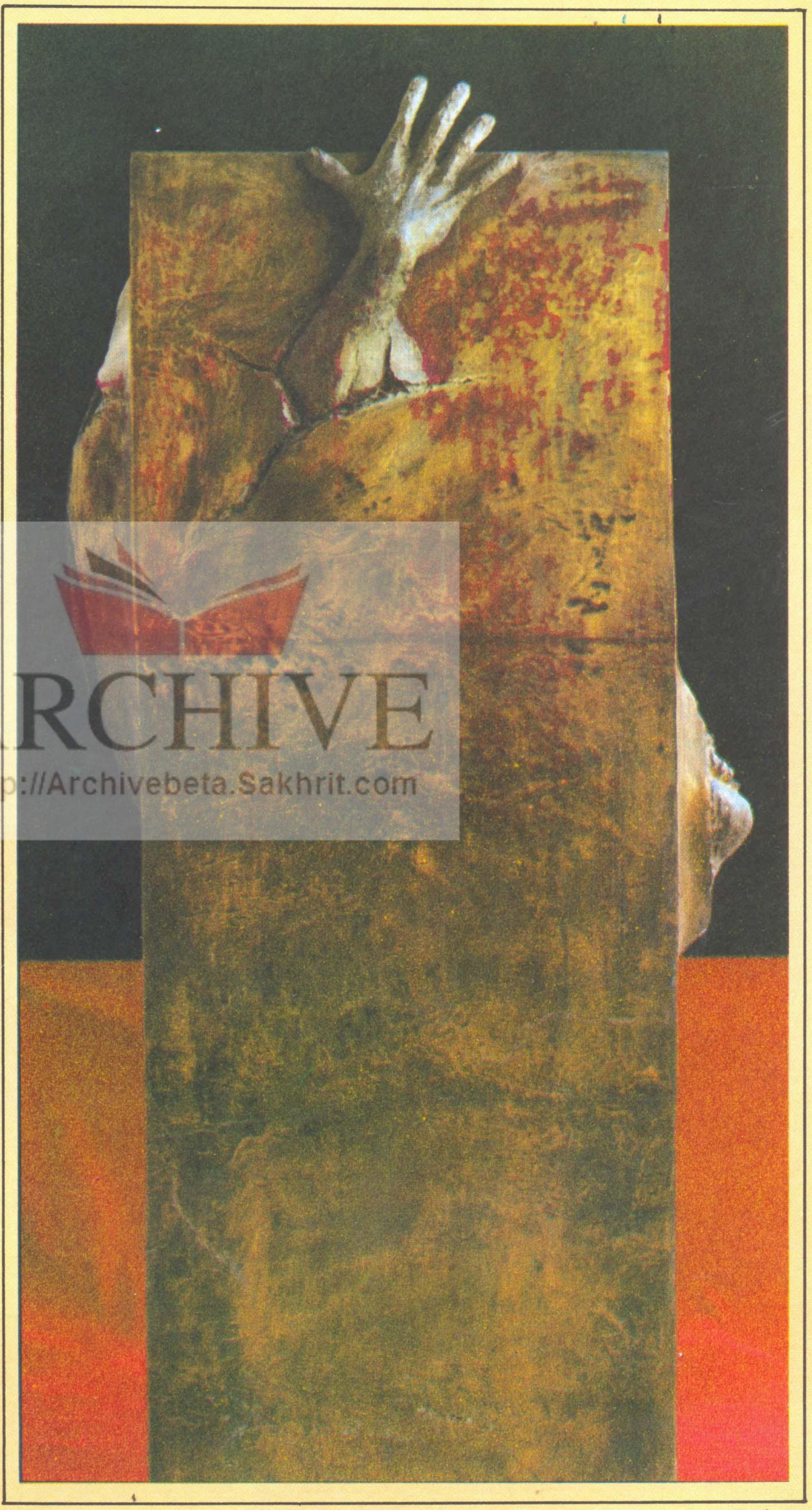
واحد من رسامينا المتميزين موقفاً واضحاً في مسيرة الفن العراقي وفي حركة الفن العربي عامة.. فكان الفائز الاول بالجائزة الذهبية مع زميله محمد مهر الدين من العراق.

وعلاء بشير رسام شديد الحساسية، بألوانه ومواضيعه وأسلوبه وصياغاته التي تكونت أنسجتها وانتظمت في بنية المجتمع العراقي العربي، لكي تسهم الآن وغداً في بناء الوطن واستشراف آفاق المستقبل.

منذ أمد بعيد يمتد الى السومريين، كان الفنان العراقي يميل الى استخدام الرمز في مايبدعه من اعمال، لأن الرمز يضفي على ثراء فنه قيمة ودلالة اجتماعية ترتبط اساساً بالموروث الشعبي العراقي وبحكاياه الشفاهية ذات الدلالة الاجتماعية المعمقة..

ولوحة الفنان ماهود احمد تشير بكل محبة الى ذلك بتحقيق واقعي. شعت الروح الانطباعية في اللون وهجاً في العين والذهن معاً، في لوحته «البراق»، فكانت احدى روائع ما انجزه الفنان.

□ ان اعجاب الفنانين الاصدقاء الذين أسهموا في اعمالهم او حضروا افتتاح مهرجان بغداد العالمي الثاني في بغداد وشاهدوا الاعمال الفنية في «مركز صدام للفنون» وفي قاعات المعارض الاخرى، كان جزءاً من انبهارهم واعجابهم بسبعة آلاف سنة او أكثر من تاريخ العراق ومجده وسوح ابداعه. وسوف يتواصل هذا الاعجاب ويتصاعد، بالعراق الحديث وبمبدعيه الافذاذ. وعسى ان ندرك ان عـا ستثيره الاعمال الفنية من اسئلة كبيرة في مستقبل المواقف والرؤى



سامي محمد - الكويت



علاء بشير - العراق



عامر العبيدي - العراق

الجديدة حينما تعكسها الاعمال التي ستسهم في مهرجان بغداد العالمي الثالث في المستقبل.

□ قد نجد في اجنحة ايطاليا ورومانيا والاتحاد السوفيتي مايشير الى حيوية التعبير التي يسعى اليها شعار المؤتمر: الفن للانسانية. وتسهم الاعمال المعروضة في هذه الاجنحة، بواقعيتها الفكرية ودلالاتها الاجتماعية، في فرز العوالم الوهمية عن الحقيقة حتى ليترآى للمرء ان في لمسات هذه اللوحات انفجارات موسيقية لاتتناهى الا لأولي الاناة والتروي الذين يرون في الحقائق الاجتماعية خلاصات تثير حوافزنا في البحث عن لغة يتباهى بها الانسان وهو يبني حضارته لبنةً فأخرى.. وللمتخصصين ان يجسدوا في اعمالهم الفنية مثل هذا الأمان والأيمان بالمستقبل.



□ قد نجد جانباً من ذلك في لوحات جناح الهند اذتنبعث حرارة الالوان الشرقية فتبهر زخرفة المساحات وتفاصيل الموضوع.. انها الرؤية المنغمسة بالبيئة وبالخصوصية الوطنية وكما في الهند كذلك في اعمال فناني شرق آسيا كافة.. انها حاسة الشرق الروحية ـ وأزمانها المتباعدة المتقادمة..

□ بل نجد ذلك اشد وضوحاً في مضامينه ورؤيته في اعمال الفنانين من البرتغال واسبانيا والنرويج ومن ثم الاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا وامريكا. وحيث يكون للنحت حضور كبير ومهم تكون لعناصر المادة والفراغ والزمن والحركة اهميتها الجمالية في مجال النحت ذي الابعاد الثلاثة، الطول × العرض + العمق، او حجوم النحت المألوفة.

□ وفي صالة واسعة من صالات «مركز صدام للفنون» انتشرت فيها اعمال ومشاريع نحتية مهمة، نلاحظ ان الفنانين المبدعين يبحثون عن التنظيم والتنسيق والتوازن ليس هناك فرق في هذا بين روح النحت وروح الرسم بكل صياغاتهما الا من خلال الاحساس بوطأة المادة وحجميتها في النحت، لكنهما في الواقع يحملان الايحاء بالجمال اياه في عين المشاهد او في الواقع.

أما كان لهذه الاعمال المبدعة ان توقظ في الذاكرة حقائق لانسان الخلاق وهو يسعى الى تحقيق هويته وحضارته ؟

ان العمل على اساس واقعي انما يفعم قلب المرء بحب الحياة الانسانية. من هنا ظل النحت المعاصر في العراق وفي الوطن العربي والعالم، وفيا لهذه النظرة ساعياً الى خلق علاقات اوثق بين الروح والمادة والفكر وخلق الرؤية المتصلة بالاهداف الانسانية السامية.

نحن جميعاً نسعى الى تجسيد صورة الصراع الذي كان قائماً منذ فجر الحضارة وسيمتد لأجيال لاحقة خلال الفن صراع ضد افكار متخلفة بالرعب



والخوف تسعى الى الدمار والتخريب والهمجية..

كانت الاعمال الفنية تسعى الى التعبير عن كل ذلك.. كانت تبحث عن توازن جديد مع العالم، عن حيوية مرهفة مع قيم الابداع. اننا نسعى جميعاً لتنظيم انفسنا في ايقاع يبحث عن العالمية.. وهانحن نخترق الحماس في اعمالنا الفنية، لتصبح فلسفة وشعوراً باليقين المستقر، الذي يحرص عليه الفنان خلال العمل وفي اثناء التبسيط. فالحصول على المضمون الجيد يعني الاحتفاظ بقوة التعبير الى جانب المضمون.. ثم الهيمنة والقدرة على التنفيذ الجيد.. وهذا هو نظام البناء الصحيح. وهذا مايسعى اليه الفنانون العراقيون: «صراع من اجل كل هذا الحب العظيم للفن، للعراق.. وطن الحضارات».

ان هذا الحس الانساني الذي يظهر متوثباً في الفن العراقي، هو السعي الى ان تتسم اعماله التشكيلية بميسم الروح الخلاقة إياها وهي من اعظم تجارب الفن الحي..

كنا سعداء باسهامات المبدعين في مهرجان بغداد العالمي الأول والثاني، وفي المهرجانات القادمة. كان للفنانين العرب مشاركتهم الجوهرية ايضاً ومنهم الفنانون التشكيليون في اقطار الخليج العربي ولوحاتهم شريحة خاصة متميزة تحتضن ملاحظات متشابهة في كل تجارب الشباب.. وفي كل قطر عربي خليجي.

الفنانون هناك يهتمون بالوحدات الشعبية ورموزها التي تشكل جانباً مهماً من قيمهم العبيرية، بوسائل تقنية مختلفة ومتنوعة، بحكم العامل البيئي والثقافي على الرغم من وحدة المناهل التي يستقي منها هؤلاء المبدعون.

وعن فن الخزف والفخار..

من المعروف تاريخياً ان في كهوف زرزي وشانيدار وهزارمرد، من النماذج

الفخارية الكثيرة ماتجعلنا صامتين مندهشين ازاء قيمتها التاريخية والاجتماعية والانسانية..

وهاهم الخزافون العراقيون يعيدون لحركة الخزف والفخار بهاءها ومجدها.. أليسوا هم ابناء مخترعي الدولاب والعجلة والقوس ووسائل الانتاج اليومية. هاهي اذاً الحركة الشابة تنهض من اعماق التاريخ مجدداً وبروح فتية بدأت في نطاق تربوي جمالي وفي حدود متواضعة استطاع مبدعوها فيما بعد ان يبلوروا تقاليد حديثة وخزفاً عراقياً من صلصال امتزجت بجمال التزجيج المصنع بأكاسيد مختلفة لتغدو بريق ابداع.. وكما هي جذور الفخار التاريخية كذلك روائع الخط العربي واتجاهاته ومدارسه وجماليته.

واذا كان في تجارب الفنانين المسهمين في مهرجان بغداد العالمي الثاني، بعض التشابه في تناول موضوع (الفن للانسانية) في المهرجان الاول فلم يكن ذلك الا من اجل ان تستغل الانشاءات الاساسية او الارتكازات الجوهرية في الفن، فتعبر عن نضج الفن الذي حقق توازنه الذاتي..

ان سعفة نخل ذابلة ربما تصبح قطعة فنية بأهمية الزقورة السومرية نفسها. وان قطعة طين مستلة من جرف شاطئ دجلة او الفرات، ربما تصبح افريزاً او ختماً اسطوانياً او قطعة نحت آشورية ناتئة..

ونحن إذ نتأمل ذلك، انما كي نؤكد معنى حضارياً يتعلق بالابداع، ابداع الانسان العراقي الذي يرسخ في الذاكرة العربية كل هذا المجد.



عبدالكريم العريضي - البحرين

اينشتاين



كيف تنمو المعارف

الولادة ليست بداية، ولكنها عملية تطور ينتقل فيها الذهن من حال الى حال.

انها لغز صعب! هكذا أجمع الفلاسفة وذوو الالباب عبر التاريخ على النظر في الحياة. لكن ثمة، كما تبين لهؤلاء من بعد، ما هو أصعب من هذا اللغز. انه تلك الطاقة التي لا نستطيع أن نجد لها تحديداً صارماً ونهائياً، والمتمركزة في الدماغ البشري، والمرتبطة بما يمكن أن ندعوه تكّون المعرفة عند الانسان. فكيف تتكون المعرفة في خلايا الدماغ ومسامه وتعرجاته؟ كيف تنبني المفاهيم والمدارك؟ كيف يتكون الذكاء عند الطفل؟ أنىٰ للانسان أن يدرك ويعي ويفكر ويستذكر ويقدر ويراكم المعلومات المتقاطرة الى رأسه عبر الايام والسنين؟

تلكُم هي التساؤلات المضنية التي أرقت مفكراً كبيراً هو «جان بياجيه»، الذي أجهد أعصابه في السبيل الى اجابات صارمة ومحددة حول ذلك كله. فهل انتهى مسعاه بالتوفيق أم هو تاه في معارج، ولنقل تعرجّات، العقل البشري؟ فكما يقول كبار الباحثين في هذا المضمار

نستطيع الجزم بأن «جان بياجيه» حسم قدراً من هذا عندما توصل الى ادراك بعض المضامين المتعلقة بنمو المعرفة وتطورها من خلال الاشتغال على الاسلوب التجريبي (الإامبريقي) العلمي. وعلى أساس من هذا نذهب الى أن «جان بياجيه» تمكن من وضع جملة من الاسس للتوازن النفسي ولما ندعوه التلاؤم مع البيئة.

ولكن رغم الافكار الجليلة التي توصّل اليها بياجيه على صعيد تكوّن المعرفة انطلاقاً من الطفولة، كنقطة انطلاق أولية، فان العلماء يذهبون الى أنهم كلما غاصوا في لجة الدماغ البشري كلما تهيأ لهم أكثر وأكثر ان «العقل»، وأن تكوّن المفاهيم والمعارف في داخله هي في باب الامور الملغزة التي تحتاج، لاجل تفكيكها، الى جهود لاحصر لها، علما أن جهود بياجيه، في هذا الاطار، تبقى بوصلة دقيقة ولا غنى عنها يسترشد بها رهط من العلماء في محاولاتهم لسبر تلك المنطقة المجهولة في الانسان حيث تتكون المعرفة. وازاء هذه المتاهة التي لابد من ولوجها يرىٰ هؤلاء ان البشرية أو العقل البشري تحديداً، مر الى الآن بثلاث مراحل رئيسة هي:

- مرحلة ما قبل العلم وتشمل العصور القديمة وعصر النهضة حتى القرن الثامن عشر.
- المرحلة العلمية التي تتمثل بما هيأه القرن الثامن عشر وتبلور في التاسع عشر.
- مرحلة الفكر العلمي الجديد التي دشُنّت منذ عام ١٩٠٥.

ولئن كان ما يهمنا، هنا، المرحلة الاخيرة اذ محضتنا جملة من

المعطيات حول التطور الذي شهده العقل البشري، لم تكن لتتوفر في المرحلتين السابقتين، فانه من المفيد التركيز عليها بغض النظر عما سبقها.

حين وضع اينشتاين بين ايدينا ما أطلق عليه «نظرية النسبية» التي سوف تقلب العديد من المفاهيم بطنا على ظهر وتغيّر ما ظل ثابتاً الى قرون عدة سابقة، رأى العقل البشري أن يعتقد بصوابها بشكل شبه مطلق «ومنذ ذلك الحين تفجّر الفكر وتحدى المجردات». ومنذ ذلك الحين أيضاً حقق العقل قفزة نوعية مهمة بانتقاله من مرحلة القصور والعجز الى مرحلة النضوج والاقتدار. هنا لابد من العكوف قليلاً على كتاب «غاستون باشلار» «الموسوم بـ«تكوين الفكر العلمي» اذ يذكّرنا بثلاث مراحل أساسية قطعها هذا الفكر هي:

١ـ الحالة الحسيةُ حيث تلهي الفكر بصور تظهر أولا وتستند الى أدب فلسفي يمجد الطبيعة وينطلق من وحدة العالم وتنوعه الغني.

٢ـ الحالةُ الحسيةُ المجردة حيث يرتكز الفكر على الصور الهندسية الطبيعية، فيستند على فلسفة البساطة ويتأكد من تجريده للفكر بقدر ما يكون هذا التجريد متمثلاً بوضوح حدسي محسوس.

٣ـ وثم حالة التجريد، وفيها يتخذ الفكر معلومات مستقاة من حدس

النضج العصبي عامل مهم في تكوين الذهن لكنه غير كاف لتفسير عملية النمو الذهني.

الكون الحقيقي ومبنية ارادياً على التجربة المباشرة.

لكن باشلار لا يتوقف عند هذا الحد بل يذهب بعيداً ليرى ان ثمة حالة نفسية تجيش داخل النفس البشرية حيال كل مرحلة من مراحل العملية الثلاث التي أحصيناها قبل قليل. فالحالة «العملية» الاولى (الحسية = عندما يستند الفكر الى أدب فلسفي يمجد الطبيعة الخ) تقابلها حالة نفسية (بريئة) تُبدي اهتماماً بالعالم لاحد له، يحفزها الى ذلك فضول من نوع بسيط، وهي (أي الحالة النفسية) تظهر دهشه ازاء أي حدث أو حادث، كما تكون سلبية حتى وان تحصلت لها السعادة الفكرية. أما الحالة النفسية الثانية، المقابلة للمرحلة العلمية الثانية (= الحالة الحسية المجردة = عندما يرتكز الفكر على الصور الهندسية الطبيعية، مستندا على فلسفة البساطة) فيسميها باشلار حالة النفس «المتحذلقة» اذ يبدي المرء ، في هذه الحالة، اعتزازاً بمبادىء، ولعلها تنحصر على جاري العادة، في سن الشباب. تبقى امامنا حالة ثالثة تقابل، في النطاق العلمي، حالة التجريد (= يستمد الفكر معلوماته من التجربة المباشرة). في هذه الحالة النفسية يلوذ المرء بالتجريد. يجرد المرء، وهو يتمتع بوعي علمي مؤرق. يسعى دائماً الى استنتاجات علمية غير كاملة وقت لا يكون راضياً عما توصل اليه. لذا فهو يؤدي لعبة خطرة: لعبة الفكر غير المستند الى تجربة ثابتة. ففي حين يعيش المرء انزعاجاً مكرراً سببه اعتراض الفكر ما بلغه من استنتاجات بواسطة التجريد فانه يدرك تماماً، وفي الوقت نفسه، ان التجريد من أولويات الفكر العلمي.

دعونا نعود الى النقطة التي انطلقنا منها، وهي كيف تتكون المعرفة عند الانسان. غير ان واقع الحال يفرض علينا، ابتداء، النظر الى جان بياجيه لكونه أحد ألمع الثقاة الذين خاضوا في هذه المسألة. نذهب الى أبعد لنجد ان هذا الرجل، في البحوث التي أنجزها حول تكون المعرفة وتطورها، يحتل صدر المنصة بين المفكرين الذين أجالوا نظرهم وبذلوا جهودا مشكورة ولامعة في هذا الحقل.

نبدأ في المفاهيم الاساسية التي شكلت، عند بياجيه، محاور لنمو المعرفة وتحصلها، وهي: مصادر المعرفة، سياق التوازن او الموازنة، أنواع المعرفة، ومستويات المعرفة.

مصادر المعرفة :

يذهب بياجيه، في تحديده لمصادر المعرفة، الى ان معرفة الانسان تتكون من علاقته بالبيئة الاجتماعية، أي من عالم الناس والاشياء (= الخبرة). وكيما تحصل المعرفة ينبغي وجود انسان سوي متفاعل مع البيئة وليس خارجاً عنها. الانسان السوي يعني، هنا، عملية التوازن أو الموازنة التي شأنها أن تحمل الفرد على ان ينظم المعلومات المتناثرة حوله، في نظام معرفي غير متناقض. انها لا تحصل (المعرفة) نتيجة ما (يراه) الانسان وانما تساعده على فهم ما يراه، انطلاقاً من هذه القدرة التي تتأتى من عوامل وراثية وتكوين بيولوجي (يسميه بياجيه توازناً)، حيث يستطيع الفرد، تدريجياً ومن خلاله، التعرف على النمط او الحال التي يجب او تكون عليها الامور في محيطه.

سياق التوازن او الموازنة:

توصل بياجيه الى التعرف على خطوات عدة في عملية الموازنة هذه، وذلك بالقضاء على مختلف أشكال التناقض. ان عملية التوازن سوف تبدأ، في الغالب الاعم، ببعض

الاضطراب اذ يشعر المرء أن ثمة شيئاً او موضوعاً على غير ما يرام (لنأخذ مثلا الفتاة التي تتنبأ بأن الماء سيصل الى نفس المستوى في وعاءين احدهما عريض القاعدة والآخر رفيعها، حيث أن كمية الماء واحدة. فعندما تلاحظ هذه الفتاة ان مستوى الماء ارتفع في الرفيع أكثر منه في العريض، فانها سوف تصاب بالانزعاج، وهو ما يسمى عدم التوازن او الصراع بين ما هو متوقع وما نشاهده بأعيننا). هذا النوع من الاضطراب الذي يشعره المرء يشكل حافزاً على خلق التوازن، ولاجل التخفيف من الاضطراب تحاول الفتاة، ولاكثر من مرة، اعادة دلق الماء في الوعاءين، لتصل الى نتيجة تهدىء من روعها «ومن خلال أنماط أخرى من التنظيمات، وبعد اكتساب العديد من الخبرات تبدأ في فهم السبب الذي أدى الى الاختلاف في مستوى الماء في الوعاءين. هنا يحصل ماسماه بياجيه بـ«التكيف» الذي يقوم على أساس عمليتي الاستيعاب والملاءمة.

انواع المعرفة:

ثمة - عند بياجيه - نوعان من المعرفة:

١- معرفة صورية أو شكلية تتحصل من معرفة المثيرات: مثلا ان يرى الولد سيارة أبيه قادمة فيسرع باتجاه المنزل فاتحا له الباب. أو يرى الرضيع حلمة قنينة الرضاعة فيبدأ في مصها. ان معرفة الاشكال (المعرفة الشكلية) تنتج من التعرف على الشكل الظاهري للمثيرات، وهي لا تخضع لجوجلة عقلية.

٢- أما معرفة الاجراء او الفعل، بحسب بياجيه، فانها تنبع من الجوجلة العقلية، وهي المعرفة التي تحصل من الاستدلال في أي مستوى من المستويات. وعلى هذا فان المعرفة الاجرائية تهتم بالكيفية التي تتغير بها الاشياء بتنقلها من حال الى حال، حين ان المعرفة الشكلية «تهتم بالاشياء في حالتها الساكنة وفي لحظة زمنية ثابتة».

مستويات المعرفة:

وبمرور الزمن يتخلى الطفل، شيئاً فشيئاً، عن المعرفة الشكلية، وذلك عندما تزداد قدرته على استثمار معرفته الاجرائية بالاشياء. ان التطور المعرفي عند الطفل على رأي بياجيه يفترض أن يعبر أربع مراحل أساسية. تبدأ المرحلة الاولى بالفترة «الحسية الحركية»، حيث يتعلم فيها الطفل فكرة استمرارية الاشياء، وكذلك فكرة تنظيمها في العالم الفيزيائي وذلك من خلال المص (الرضاعة)، اضافة الى التقاطه الاشياء ورميها. ثم تأتي الفترة «ما قبل الاجرائية»، اذ يبدأ الاطفال خلالها معرفة الاشياء (في صورتها الرمزية) وليس مجرد المعرفة القائمة على الافعال الواقعية، كما يصبحون على وعي أكثر بالاشياء التي عرفوها في المرحلة الحسية الحركية. تأتي، ثالثة، «الفترة الاجرائية المحسوسة «وفيها يطور الاطفال قدراتهم على التفكير الاستدلالي. لكن هذا الاستدلال يظل محدوداً في نطاق ما يشاهده الطفل في هذه السن على الاشياء الفعلية، ولا يصل الى مستوى التجريد. أما الفترة الرابعة والاخيرة فيسميها بياجيه «الفترة الاجرائية الصورية»، حيث يتوصل الطفل الى الاستدلالات عن طريق الاستدلالات الاخرى». وبكلمة اوضح فان الطفل يستطيع، في هذه الفترة، القيام بعملية ما بناء على ما توصل اليه في عملية اخرى، اي ان تفكيره قد نضج وتسامى فوق حدود استخدام الاشياء (كمحتوى وحيد للتفكير). فالقلم، للمثال، يمكن ان يكون مبرياً ويمكن أن لا يكون، كما ان الورقة قد تكون بيضاء او صفراء، والماء قد يكون بارداً او ساخناً.

المعرفة وسيلة يمتلكها الفرد كيما يتكيّف ويوجد توازنا بينه وبين الآخر (الكون، الاشياء، البشر).

النمو الذهني:

وبموازة الكلام عند بياجيه على النمو او التطور المعرفي عند الفرد، انطلاقا من الطفولة، فسوف نقع على كلام آخر له حول نمو الذهن او نمو الذكاء. الا أن ثمة من يأخذ على بياجيه كونه تحدث عن هذا الموضوع بالاستناد الى كائن مفرد معزول عن بيئته ومجتمعه الاسري ونمط تربيته. ولان المجال غير مفسوح، هنا، لا لقاء ضوء على هذا المأخذ الذي يقتنع به عدد من علماء النفس والمفكرين، فاننا نرغب في التعريج على منطقة هامة، في دماغ الانسان، حظيت باهتمام جم من قبل بياجيه، وهي المنطقة التي نصطلح على تسميتها بـ«الذهن». فكيف يتم النمو في هذه المنطقة؟

عن ذلك يجيبنا بياجيه أن العامل الاول في النمو الذهني نقع عليه في النضج العصبي الذي يؤدي دوراً خطيراً لا يمكن انكاره. ان نضج الخلايا العصبية ينطوي على أهمية كبيرة في هذا السياق. ولئن كنا لا نزال على قدر من الجهل بتفاصيل النضج العصبي من ناحيته البيولوجية، غير ان ذلك لا يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن هذا النضج يمحضنا امكانيات تبدو وشرطا ضرورية لبروز بعض انواع السلوك. الا انها ليست بالشرط الكافي حيث ان هذه الامكانيات (التي نجدها في النضج العصبي) تزداد بالممارسة والتدريب «فاذا كان الدماغ يحتوي على افكار مترابطة موروثة، فانه يحتوي، حتماً،

عدداً أكبر من الافكار المكتسبة بالممارسة. فبقدر ما تكون المكتسبات اكثر بعدا عن المصادر الحسية ـ الحركية (حيث المعرفة تتحصل من الحس او الحركة فقط) يكون ترتيبها الزمني متنوعاً. وهو يضيف الى ذلك تأثيرات البيئة الطبيعية والاجتماعية التي تزداد أهميتها تباعا (في النمو الذهني). فالنضج (العصبي) عامل ضروري في التكوين لكنه لا يستطيع ان يفسر عملية النمو الذهني برمتها. انه مدخل معقول للتوصل الى امكانيات أخرى بحوزتنا، لكنه لن يكون مكونا أساسياً ووحيداً.

واذا كان لنا أن نتكلم عن مكون أساس في عملية النمو الذهني، فلابد من الحديث أولا عن عامل الخبرة (تراكم المعرفة) والتدريب المستمر والتفاعل مع الاشياء. ذلك كله ربما شكل عاملاً أساسياً، رغم أنه لا يستطيع وحده أيضا تفسير عملية النمو الذهني. غير أن عامل الخبرة (التدريب، التفاعل الاجتماعي، تراكم المعرفة) نستطيع أن نحصره في تجربتين: التجربة الفيزيائية، والتجربة المنطقية الرياضية. في التجربة الاولى يحدث تفاعل فيما بين الفرد والاشياء التي تحوطه بهدف استخراج عناصرها ومميزاتها (= فهمها). أما التجربة الثانية ففيها يتعرف المرء على مسألة (الترابط) بين الاشياء والافعال، على الديالكتيك الذي يربط بعضها ببعض. وعلى هذا يمكن اعتبار ان التجربة الرياضية ـ المنطقية أكثر سموا من التجربة الفيزيائية.

بين ايدينا عامل آخر متعلق بالتفاعل الاجتماعي. ان الكلام الذي يتكسبه الطفل، لا نستطيع أن نعتبره مصدراً أساسياً للنمو، رغم أهميته. فكلمات مثل «كل» و «بعض» لا يصبح استخدامها من قبل الطفل لبقاً وواضحاً الا في عمر ٨ـ٩ سنوات. ان كل ما لا يستطيع الطفل قوله لفظياً، يقوله ويحله حسياً. وعلى أساس من هذا فان الكلام لا تتم السيطرة عليه «الا بعد استيعاب البنيات الضرورية للمنطق اللفظي، أي بعد ١٢ عاماً». واذا قدم المجتمع خدمة كبيرة (بالتفاعل الاجتماعي) لتحقيق النمو اللفظي، «فان هذا لا يؤدي حتما الى مستوى من البنيات المنطقية، وهذا لا يعني ان الكلام لا يؤثر على البنيات المنطقية، لكن مدى تأثيره لم تكشفه دراسات وخبرات عملية بعد».

لقد توصلنا الآن الى النقطة التي بات لزاماً الحديث عن عامل حيوي في نمو الذهن وتطوره. انه، على رأي بياجيه، عامل التوازن الذي بمقدوره أن يحتوي العوامل السابقة كافة. يرى بياجيه أنه — في المجال الذهني — يتميز مفهوم التوازن بعملية التعويض. فالتوازن متحرك حيث ان الفرد في حال وجود اضطرابات خارجية، يحاول تقليصها بتعويضات معاكسة. ولهذا السبب بالذات يؤدي التوازن الى التبادل (يصل الذهن الى نقطة هامة من التوازن عندما يشرع المرء في تبادل وتفاعل بينه وبين البيئة = المجتمع = المحيط).

ولما كان التوازن عاملاً أساسياً ورئيسياً في موضوعة النمو الذهني، بحسب بياجيه، فان ذلك يظهر فقط في النظرية الابستمولوجية (المعرفية) التي هيّأها بأبحاثه بل بنمط التجارب التي حققها. فاذا كان الهم الاساسي هو التوصل الى المعرفة، واذا كانت المعرفة لا تتم الا بواسطة فرد عارف، ينبغي — وفق هذا المعطى — التركيز على مقولة «الفرد»، وتشريح البنيات المستخدمة، من قبله، في تكوين المعرفة. نذهب الى القول بأن هناك صلة وطيدة بين بنية الفرد وما شحن به من اسهم وراثية. من هنا العبارة التي كان بياجيه يكررها: لاتكوُّن بدون بنية (اولى، موروثة) ولا بنية بدون تكوين».

أي ان الموروثات المشحون بها الفرد لا يعول عليها فقط في تكوين بنيته المعرفية، مثلما أن تكوين المعرفة عنده يستلزم الوقوف طويلاً عند هذه الموروثات. ومن هذا الفهم نستشف أن ليس من بداية ولا نهاية بالنسبة لذهن الفرد، في حال اعتبرنا ان الولادة ليست سوى فترة تطور تنقل الجنين من حال الى حال، من حال ادنى الى حال اسمى، ومن حال التوازن الجنيني (عندما يكون الطفل في الجنين) الى حال التوازن المجرد (عندما يبلغ المرء مرتبة عليا من تطور الذهن) ليس هناك سوى مراحل عدة متسلسلة، وكل واحدة منها يتوفر لها مجالات تكيف وملاءمة أفضل مما توفر في مرحلة سابقة، «فالتوازن النهائي لا يحدث الا نسبة الى معارفنا وفي المجال الذي توصل اليه نضج الفكر الانساني. واذا اعتبرنا ان هذا الفكر ليس سوى الوسيلة التي خلقتها الحياة للتكّيف نصل الى كل هذه الحركة الكونية التي تولّد المادة وتولّد الحياة وتولّد الموجودات».

فالفرد ينظّم نفسه، وذلك بايجاده وسائل تجعله يتكّيف مع الاشياء. كل ذلك يتيح له بناء ذاته، ومن ثم اعادة البناء من جديد. يقول بياجيه: تتأسّس صلة بين الفرد والشيء تدعى التفاعلية (Imteractionism). وعلى هذا الاساس، ولما كان الذكاء، كوسيلة تكيّف، يؤشر عليه بالتوازن فيما بين الاستيعاب (للشيء، للآخر) والتلاؤم (التفاعل مع الشيء، مع الآخر) فان ذلك كله نستطيع ان نطلق عليه لقب المعرفة، وهي الوسيلة التي يمتلكها الفكر البشرى كيما يتكيّف ولهذا السبب فان مشكلة المعرفة لا تؤخذ بعين الاعتبار الا في اطار أنشطة الفكر الانساني.

مراجع:

(١) التطور المعرفي عند جان بياجيه، موريس شربل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت؛ ١٩٨٦، ٢٦٤ صفحة.

التاريخ الأدبي للخيال العلمي

تأليف : روبرت شولز

و إريك رابكن

ان تاريخ الخيال العلمي هو أيضا تاريخ التغيرات في مفاهيم البشرية تجاه المكان والزمان. وهو تاريخ ادراكنا المتزايد للعالم وموقع جنسنا في هذا الكون.

تاريخ هذا الشكل الأدبي ـ كتاريخ العلم ذاته ـ تاريخ يسير متفرق الى حوالي أربعة قرون مضت، عندما اخذ المنهج العلمي يحل محل اساليب التفكير التسلطية والعقدية.

فلقد تمكّن الانسان أخيرا من أن يرى أن كوكب الأرض ليس مركز الكون، وتدور الشمس والقمر وكل النجوم حوله لتنوير الجنس البشري.

اعتقد الانسان قديما بأن العالم يزخر بوجود روحاني: فالآلهة تسكن كل اجمة ومسقط ماء. وتعلم الانسان أن يخاف هذه الآلهة ويعبدها، خاصة تلك التي أحس بأنها تهيمن على أكثر الظواهر الطبيعية اثارة للخشية كالعاصفة والزلزال وللروعة كخصوبة النباتات والحيوانات. كان العالم كما عرفه أجدادنا الأولون، عالماً سرمدياً من جهة ولكنه مرتبط بالزمن أيضا من جهة أخرى. كان عالما بلا تاريخ، يخلو من ذلك الاحساس بالتغيير التاريخي الذي قد يؤدي الى حدوث مواقف مختلفة غير تلك التي اعتادها الناس فعلا.

وكان أيضا عالما يحكمه تتابع الفصول الزمنية من زراعة وحصاد، وعرق وقشعريرة، ومن شكر للآلهة وتوسلات لترفع عنه عقابها. وكانت الفصول تفرض عليه طقوسا دينية يقيمها احتفاء بالدورة الزمنية التي كانوا يعتقدون بأن لولاها لقضي على الجنس البشري. كانت الطقوس تمثل حلقات من حياة الآلهة تشرح خلق العالم، وتحفظ في ذاكرة الانسانية تلك القيم التي كان يعتقد بأن الآلهة تباركها. وعندما تنفصل هذه الذكريات والقيم عن ممارسة الطقوس الدينية، فاننا نطلق عليها «اساطير». والأساطير قصص خارقة للطبيعة، تحافظ على التقاليد القبلية، وتفسر عالما من المفروض أن يستمر بلا تغيير الى حد معين عندما تسأم منه الآلهة أو تفقد قوتها في الحفاظ عليه.

تعتبر الأساطير أسلافا لكل أشكال الرواية الأخرى، ولكنها ـ في نفس الوقت ـ تختلف اختلافا بينا عن الأشكال المعاصرة للرواية، وهذا الاختلاف جدير بنا أن نفهمه. وليست الأساطير ذات مضمون هزلي أو تأملي، فهي تتميز بجمود هائل يجعلها تتشبث بالزمان كقوة حافظة، تعلم القيم القديمة والطرق العتيقة، وتقاوم الجديد. ولا تتعامل الأساطير مع الأفراد بل مع الطرز البدائية التي تخوض المخاطر نيابة عن القبيلة كلها أو عن الجنس. ولا يمكن صياغة الأساطير في مجموعة محددة من الكلمات، ولكنها تحكي مرة تلو الأخرى، وتحافظ على شكلها من خلال تكرارها لعدد لايحصى من المرّات وبكلمات رواة لاعد لهم. واذا حدث وتغيرت الأسطورة، فان تغيّرها يكون غاية في البطء بحيث لايدركه أحد. ويسود الاعتقاد بين الناس أن الأسطورة كانت كما هي الآن، تماما كالعالم الذي بقي كما هو عليه الآن ـ منذ بدء الخليقة.

والثقافة الأسطورية الحقيقية غير مدونة، ومن ثم فليس لها اسلوب لتسجيل التاريخ أو لقياس التغيير. ففي كل الثقافات الانسانية يعتبر استعمال الكتابة في حد ذاته ذا أثر غير عادي،

فهي أحد التطورات التكنولوجية الهامة التي تغير وجه العالم. فهي تكاد تضارع في اهميتها تطور اللغة ذاتها، والكتابة حدث ذو أثر كبير، وهو في ذلك مثل تطور اللغات، وفي السرعة التي تغير بها العالم تكون اكثر فعالية في تأثيرها. والكتابة ـ من وجهة نظر الأدب ـ تشجع على الفردية في التأليف، وبينما تتخذ الأسطورة دائما الشكل التقليدي كما أنها تنتمي الى الجماعة أكثر من انتمائها لأي فرد منها. ويدّون القصة المكتوبة بشكلها الدائم شخص ما، وتظل منتمية له بقدر ما يضع لها من تفاصيل أو لغة خاصة بها.

ويحدث هذا أيضا مع شخصيات الروايات ومؤلفيها. فالكتابة تؤدي الى التفرد، الى خلق قصة فريدة تكون نتاجا لعقل واحد يقدم شخصية أو شخصيات متميزة تظل مرتبطة في أذهان القراء بهذا المؤلف بالذات، كما أن حفظ الأعمال المكتوبة عبر فترة زمنية. يمكّن القراء من أن يلاحظوا ويشعروا بالتغييرات التي مرت بها الانسانية، من زمان كاتب لكاتب آخر.

ومن الواضح، أن هذه الدراسة ليست المكان الملائم لتتبع تاريخ الأدب برمته، ولكن يجب ـ على الأقل ـ أن يكون لدينا بعض الإدراك لتاريخ الرواية لكي نتفهم دور العلم في اطار الهيكل الكبير لتراثنا الأدبي. ولعل أبسط طريقة لفهم تاريخ الرواية هو أن ننظر اليها كنشاط منفصل عن الميثولوجيا (علم الأساطير). فتاريخ

■ ترجمة : رؤوف وصفي - القاهرة

الرواية هو تاريخ تطور الانسانية. منذ النظر الى العالم بأسلوب أسطوري حتى النظر اليه بأسلوب ذهني او تجريبي. وكلما تطورت العلوم الانسانية تطورت معها الرواية، مع تقدم العلوم الانسانية. ويمكن النظر الى تاريخ الرواية كتحرك مطرّد بعيدا عن الأسطورة من اتجاه الواقعية. ويتضمن هذا التحرك تغيرا في العالم الممثل في الرواية، من عالم ينقصه الحد الواضح بين الطبيعة والخارق للطبيعة، من جانب، الى عالم يبدو فيه هذا الحد واضحا كل الوضوح، وتستبعد منه تلك الأحداث الخارقة للطبيعة.

ومن الغريب، أنه بينما تطورت الواقعية، فقد حذا حذوها نقيضها فالرواية التي يعلم مؤلفها بالفرق بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة يعمد الى تقديم احداث خارقة للطبيعة في سياق الرواية. ونطلق على هذا النوع من الرواية الفانتازيا أو الخيال الجامح Fantasy

ونفرق بينها وبين الأسطورة والخرافة، لأنها تتعمد ادخال الأحداث الخارقة للطبيعة في عالمها الروائي.

وعندما تطورت الأساليب العلمية لفهم العالم في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أصبح الفن الروائي أكثر واقعية، واخذت الرواية الواقعية تسيطر رويدا رويدا على عالم القصة، وأعتبرت الفانتازيا شكلا أدبيا ثانويا يصلح للأطفال أو كقراءة مسلية للبالغين، ولكن ليس ؟ أدباً حقيقيا يؤخذ بحق على محمل الجد. وطوّرت الواقعية - في القرن التاسع عشر - عدة أساليب لتتمكن من تصوير دقيق لمشهد اجتماعي كامل، وفي النهاية لاستنباط طرق جديدة في علم نفس متاح للقراء. وقدمت الرواية الواقعية (هذا) العالم في (هذا) الوقت، الوقت لتدخل في منافسة مع التاريخ والصحافة كوسيلة في لتسجيل حقيقة التجربة المعاصرة.

وكان هذا النوع القصص قوياً الى الحد الذي اعتبره العديد من الكتّاب والنقّاد نهاية سلسلة طويلة من التطور. وأخيرا أمكن لنا أن نتعلم الالتزام بالصدق في الرواية! بيد أن الحقيقة - في واقع الأمر - مراوغة ولها طريقتها في أن تتحول الى تراب ورماد كلما حاولنا أن نوقفها عن النمو والتغيير. وخلال كل الزمن الذي

صاحب نمو الواقعية، حدثت بعض الأمور التي تعارض هذا الاتجاه الواقعي وتمهد الطريق لتحول خطير في الادراك البشري. وبدأ علماء العلوم الطبيعية - وهم يطوّرون أجهزة الرصد والقياس - استكشاف عوالم غاية في الغرابة بالمقارنة بالتجربة الانسانية العادية وبدأ الفضاء الكوني والفضاء الجوي يكشفان عن اسرارهما، وصاحب هذا نشوء مشاكل لايمكن حلها الا عن طريق التأمل التخيلي Fantastic speculation وبدأت نظرية النشوء والارتقاء وأصل الأنواع لداروين في تغيير احساسنا بالزمن الانساني. وأدت سرعة التغيرات التكنولوجية بالناس الى التساؤل عما يخبئه لهم المستقبل فالأفكار الطبيعية والخارقة للطبيعة - التي كانت تبدو راسخة جدا عندما كان العلم مايزال في طور التجربة والقياس - أصبحت متزعزعة عندما بدأ العلم يشيد ويُغني. والأشياء التي كانت محض خيال أصبحت حقيقية، طائرات وصواريخ الى عقاقير عجيبة وقنابل مروعة. وكرد فعل لهذا الاحساس بالتغير التكنولوجي وبامكانيات مدهشة في مستقبل تزايد تحقيق بشكل مطّرد أكثر، بدأت تظهر أشكال جديدة من الأدب الروائي.

ومنذ زمن جاليليو وما بعده، ظهرت نماذج من أدب الخيال العلمي الحديث، ويتفق معظم مؤرخو الأدب أن أول عمل قصص كان له كل خصائص أدب الخيال العلمي، رواية كتبتها امرأة ولدت بعد فترة قصيرة من الثورتين السياسيتين بالولايات المتحدة وفرنسا، وأن هذه الرواية قد غيرت بشكل أساس احساس الانسان بالمستقبل.

ان بطل رواية ماري شيلي (فرانكشتين)، التي صدرت في عام ١٨١٨، الذي غالبا ما كان يُعتبر مجرد وحش ابتكره خيال كاتبة، له من الاحفاد الكثير، الى درجة اننا نعتبره سلفا لجيل وليس مجرد مسخ وراثي. فالأجناس الجديدة هي ببساطة نتيجة للتغير الوراثي الناشىء عن توالد سليم. أما الوحش (فرانكشتين) فيمثل فشلا في عملية التغير الوراثي. ولقد أثبت جنس فرانكشتين أنه قابل للحياة والنمو وهو في الوقت الحاضر يتنافس مع الواقعية التقليدية ويكاد يكون معها على نفس الدرجة من الأهمية.

لقد حاول بعض المؤرخين بالطبع البحث عن شجرة نسب اكثر قدما لأدب الخيال العلمي، في حكايات خرافية لرحلات تخيلية في قصص اليوتوبيا (المدن الفاضلة) تتخيل مجتمعات مثالية كوسيلة لانتقاد العصر الذي اضطر هؤلاء المؤلفون الى العيش فيه. وينبض هذان الشكلان الأدبيان بقوة في كتاب سويفت (رحلات جلفر) (١٧٢٦) الذي صدر قبل قرن من فرانكشتين. وتعتبر رواية سويفت بحق احدى عجائب العالم الأدبي. وتتضمن شجرة نسبها من روايات أدب الرحلات واليوتوبيا أعمالا تبلغ عبقريتها حدا يجعلها محط اهتمام دائم حتى الوقت الحاضر. ان يوتوبيا توماس مور (التي كتبت قبل رواية جلفر بمئتي عام) وهجاءات لوسيان (القرن الثاني الميلادي) وجمهورية أفلاطون (القرن الرابع الميلادي) ، تدرج كلها - في بعض الأحيان - ضمن سلالة أدب الخيال العلمي بهدف واضح وهو اضفاء تميز على هذه الشجرة. ولكن اى نوع جديد لايحتاج الى شجرة نسب. وحقا ان سلسلة نسبة لها أهميتها ولكن الطفرة الوراثية التي تعتبر صفتها المتميزة هي أكثر أهمية. ومع التقدير الكافي لكل نماذجه الأدبية السابقة، يعتبر الخيال العلمي شكلا حديثا متميزا في الأدب.

بلاسيد

■ قصة بقلم :
دانيال بولونجيه

كانت « فلورا » تصفر وهي تغسل الصحون حين سمعت صرير باب المشبك الذي يشرف على الشارع الضيق . مسحت يديها ثم القت نظرة سريعة إلى وجهها في مرآة الممر وساءلت نفسها : من يكون هذا الزائر الذي يدخل دون أن يدق الجرس . طفل ؟ في الساعة الثانية بعد الظهر والوقت وقت المدارس ؟ زوجها الذي يكون قد نسي دفتره ؟ وإجراءاته الكثيرة كموظف تأمين ؟ ساعي بريد ؟ عامل الهاتف ؟ إنها بدون شك جارتها « مارتين » لعلها تريد أن تتفرج على واجهات المحلات ؟ كانت « فلورا » تفتح الباب وفي راسها كل هذه الاحتمالات . ظهر لها رجل في سن أبيها ، في الخمسين من عمره تقريباً . كان يقف منحنياً تحت الشمس وسط الحديقة ، يمسك بيده قبعته اللينة ، وصلعته محمرة بسبب الجهد الذي يبذله لإزالة نبتة طفيلية بين صفوف الشمْشَانْ .

وقف الرجل وكان سيقدم نفسه إلى سيدة البيت حين مرّ قطار السلع على الجسر في اقصى البيت . رفع قبعته في اتجاه الضجيج بجدية خطيب وتمعنت فلورا في الرجل لثانية واحدة : وجه جدي ، سترة قديمة من قماش التويد ، بنطلون واسع ومهترئ من القطيفة المصبعة على حذائين قديمتين ، وانف اخنس . مازال القطار يمر .

قال الرجل :ـ ثلاث وتسعون عربة . قطار الحديد على الازهار ! إن التقدم يقلقني . إني لااهتم إلابالاشياء التي لاتحدث ضجيجاً اسمحي لي ياسيدتي أن اقدم نفسي : « بلاسيد ارمنكور » بستاني اربعة اغصان .

ـ العفو ؟

ـ مثلما هناك طباخون ثلاثة نجوم . انا درست في المدارس ، لكن لتلحقني اللعنة . فالوقت صعب ، وانا خارج لتوّي من المستشفى . اترين هذه الحروق البليغة ؟ ماذا ساقول لك : كانني كنت في حرب فيتنام .

رفع الرجل جزءاً من بنطلون فوق الركبة فرات « فلورا » بقعاً زرقاء .

ـ في المستشفى ياسيدتي ، يصبح الانسان كتلة مرمية فوق سرير مرقم . ويخسر وظيفته حين يخرج منه . وانا لست نقابياً . وفي سني ! أحب الحرية التي من نتائجها كسب اغير مشروع وعنيف !

ارجوا أن لايكون لديكم كلب ؟

ـ كلا ، اجابت « فلورا » .

ـ لحسن الحظ ، ساخافهم من الآن فصاعداً .

ـ هل هو كلب ذلك الذي سبب لك هذا ؟

اجابها الرجل وقد رفع كم سترته :ـ هنا .

رات « فلورا » ، جروحاً بليغة .

ـ لقد قفز فوقي كلب « مولوسي » ، كنت متعباً ، فجلست على مقعد في حديقة عامة صغيرة (فانا دائم الانتقال من الحديقة الخاصة إلى الحديقة العامة ، إذ انني لااحب سوى النباتات (كُلّ وتربيته) ووجهت الكلام إلى الكلب الدنماركي الذي كان هناك قرب صاحبته . وكان هذا جوابه !

« لكن في الاسفل ياسيدتي ، اعني رجليَّ ، فلقد اصبت فيهما حين كنت اساعد صاحب الحديقة التي كنت اشتغل فيها . لقد كنت بصدد إخراج قنينة غاز ، أيُمكنُ لاحدهم أن ينقل ذلك في السيارة على السياج البلاستيكي ؟ كنت امسك بها عند الباب حين حدث ذلك .. هذه هي النتيجة . لذلك انا ابحث عن الاعتناء بحدائق صغيرة . لن افكر أبداً في الاماكن الشاسعة لكني افكر الان بالملكيات المسورة .

قالت « فلورا » :ـ للاسف إن زوجي ليس هنا لكنه سيجيبك مثلي انا . إننا نجد متعة في الاعتناء بحديقتنا بانفسنا !

استدارت « فلورا » على المستطيل المعشب الذي يصل إلى السور وهو بين العمودين اللذين يرتكز عليهما الجسر . كان قطار جديد يمر حين ارتطمت صفيحة فولاذ على السقيفة الملصقة بالجسر .

قال « بلاسيد » :ـ أستطيع مثلا ان اضع ذلك في مكانه . هناك دائماً اشياء يمكن القيام بها .

■ ترجمة : رشيدة التركي



يمكن لي أن انظف أشجار الورد من البراغيث . إني لااطلب الرحمة بل شغلاً .

كانت « فلورا » تنظر إلى هذا الوجه الطيب الاحمر خاصة بانفه المزهر ، لكن الرجل واصل بصوته الذي طغى عليه ضجيج القطار :

- إني احب ازهار الزنبق .

- واين ترى ازهار الزنبق ؟

- هذا هو بالضبط الذي اريد قوله ، وهو ان ازرع صفا منها في قاع الحديقة .

- اسمعني ، قالت فلورا وهي متاثرة ، واخذت تبحث في جيوب فوطتها .

- كلا ! كلا ، قال بلاسيد وقد لمس ذراعها ، اقسم انك تبحثين عن حسنة تعطينها لي . إني سانتهي من يومي بخير إذا كتب لي ذلك . لقد قالوها قبلي : انظروا العصافير وازهار الزنبق . إنهم لايزرعون ولايهربون لكنهم مع ذلك هم هنا . الوداع ياسيدتي ، أوه ! هذا الشوك ! دعيني أقتلعه .

اسرع نحوه لقلعه ، وحين وصل إليه استدار قائلا :

- هل لديك قفازات ؟ أليس لديك أدوات ؟

قالت فلورا :- أجل ! لكن لاتلح ، أشكرك وانا أسفة حقاً .

وفي الواقع فإنني وزوجي لانملك مالا . نحن لانزال في بداية حياتنا .

- ارجو أن تكملوها أحسن مني ، قال بلاسيد .

وحين رجعا إلى الحاجز المشبك اخرجت فلورا من جيبها ورقة نقدية من فئة المائة فرنك .

قال بلاسيد بعفوية :- إن هذا كثير .

قالت فلورا :- أعرف ذلك ، لكن لتاخذ عشرة فرنكات ولترجع لي الباقي . أأنت من هنا ؟

قال بلاسيد : لقد ولدت هنا .



قالت فلورا برقة : ولكن مع ذلك لك لهجة غريبة .

قال : إن كل اللهجات غريبة . فنحن نتعلمها في بلد أو آخر . انا مثلا أخذتها من زوجتي . إن الحب يقلد ، واستطيع ان اقول ايضاً إن الحب لايفعل شيئا سوى انه يجعلنا نقلد . هو الحجة والاساس ؛(صار صوته خفيفاً) وكنت مع ذلك مؤهلا ان ادخل الجندية لكن الحياة حولت اتجاهي إلى وجهة اخرى . تزوجت ولم يكن لي سوى رغبة واحدة : وهي تقليدها إلى النهاية .

قالت فلورا :ـ انت زوج صالح .

اضاف بلاسيد :ـ لقد توفيت .

ـ آسفة .

قام بيده التي تمسك الورقة النقدية بحركة كانه يصطاد ذبابة ، ثم وضع الورقة النقدية في جيبه وقال :

ـإني سأرد لك الباقي فوراً .

تبادلا نظرة شريفة يمتزج فيها الاحترام المتبادل ، والحذر ، والأسف لان أحدهما لم يستطع ان يفعل اي شيء للاخر ، قليل من الحزن الذي يقبل مرة اخرى الحياة المعوجة ، واستطاعة تقديم مساعدة ما لان الوقت قد فات . ثم نظرت إليه « فلورا » ... يبتعد . كان يبدو ... يتناقص .

قام بوقفة قصيرة ليسترد نفسه ! وكانت في السماء زرقة صافية ، ومر في الجهة الاخرى قطار يحمل ملايين المرايا بدون عناية .

كان الوقت آنذاك الساعة العاشرة صباحاً ، وهاوي الحدائق لم ياتِ بعد لكي يرجع بقية النقود حين اتت فلورا دعوة من جارتها التي تعودت ان تتبادل معها الزيارات قبل القيام بجولاتهما في باريس .

قالت فلورا :ـ لقد زارني رجل غريب الاطوار .

أجابتها الجارة :ـ إنك لن تريه ابدا . فهو قد امتلك بطريقته الجيدة . بستاني اربعة اغصان ! هل يوجد هذا فعلاً ؟

قالت فلورا :ـ لِمَ لا ؟ هم يضعون الآن شعارات لكل شيء .

وفي المساء اعادت « فلورا » على زوجها الحكاية . واستخلص زوجها :ـ لم أكن اعتقد بانك مغفلة لهذا الحد !

ـ لقد أثار شفقتي . ولم لايكون بستانيا ؟

ـ من المؤكد انه نصاب !

... اؤكد لك يا « فرنسوا » بانك ... انت ايضا ... مايقول . ... كانت تفوح منه رائحة ... الرخيص ، أليس كذلك ؟

ـ لم الاحظ ذلك .

ـ دعيني أغسل يدي .

ـ لعله ياتي غداً بدون شك . لعله اصيب في مشاجرة او حادث .

صاح « فرنسوا » ـ إذن ، يجب ان اصرف على شفقتك بالناس ! إرمي النقود من النافذة وستجعلين الناس سعداء دائما .

قالت وقد تغلب عليها غضبها :ـ ارجوك لقد سمعتُ بما فيه الكفاية .

فتحت الراديو وجعلت صوته قوياً ، واخذ فرنسوا صحيفة ليكمله في غرفة النوم .

وفي اليوم التالي لم يفكر الزوجان في هذه المغامرة الصغيرة واخذت الحياة مجراها الطبيعي ، فواصل هو توظيف التامين على الحياة وانهمكت هي في شغل البيت .

مر خمسة عشر يوماً ، وفي صباح ما ، صرّ باب الحاجز المشبك في الحديقة وكانت فلورا تكوي الثياب حين سمعت صوتاً يسال :

ـ هل هناك من احد ؟ قالت في نفسها حين رات الرجل ذا الأنف المحمر : إني كنت على حق ، فها هو يرجع لي بقية النقود .

كانت متاثرة وعلى شفتيها ابتسامة ، وكانت قد قررت أن تدخله إلى البيت لتسمع منه ماحدث له من سوء أو سوء حظ والذي كان سببا في تاخره عن المجيء . وما ان ظهرت له حتى رفع الرجل قبعته وقد كان يرتدي نفس الملابس التي كان يلبسها في المرة الاولى . وكان الصمت والشمس يخيمان على المكان .

ـ لتسمح لي سيدتي ان اقدم نفسي : « بلاسيد ارمنكور » بستاني اربعة اغصان .

وكانت « فلورا » قد اقتربت منه وقد سحبت يدها التي مدتها وقطبت جبينها . وواصل الاخر بصوت عميق :

ـ لتلحقني اللعنة ، إن الزمن صعب . وانا خارج لتوي من المستشفى . اترين هذه الحروق البليغة ! كانني جئت من حرب فيتنام .

رات « فلورا » البقع الزرقاء على رجليه . ابتلعت ريقها . كان المنظر ابشع من المرة الاولى وسكن غضبها ثم نظرت إلى الرجل في عينيه .

وقالت بسخرية :ـ بستاني اربعة غصون ؟

فواصل :ـ مثلما هناك طباخون ثلاثة نجوم . المستشفى ياسيدتي ، المستشفى ! ان المريض فيه يصبح كتله في سرير مرقم . ويفقد عمله حين يخرج منه . وانا لست نقابياً . أرجوا الا يكون لديكم كلب ؟



قالت فلورا :ـ لماذا ؟ وكانت تريد ان تعرف هل سيجيد الرجل تمثيل دوره .

رفع « بلاسيد » كمه الأيسر واظهر لها ذراعه المخاطة باثار الجروح .

ـ إن كلباً مولوسياً قد هجم علي . كنت متعباً فجلست على مقعد في حديقة صغيرة عامة (فانا دائم الانتقال من الحديقة الخاصة الى الحديقة العامة ، انا لااحب سوى النَباتات ، لكل تربيته)

قاطعته فلورا : ورجلاك ؟

ـ اصبت فيهما حين كنت اساعد صاحب الحديقة التي كنت اشتغل فيها . لقد كنت بصدد إخراج قنينة الغاز ....

ـ وانت تريد العمل في الحدائق الصغيرة ومن الآن فصاعدا لن تعتني بالأماكن الشاسعة ؟

ـ بالضبط ياسيدتي . لقد فهمت خطتي . انا لااطلب الشفقة بل عملا .

ـ وانت تحب الزنابق .

ـ سوف ازرعها في كل مكان ! صف هناك في آخر الحديقة مثلا إن العصافير والزنابق لاتزرع ولاتهرب . أوه ! انظري ذلك الشوك في الممر هل لديك قفازات ؟

قالت « فلورا » :ـ لماذا ؟ لتعطيني بقية ورقتي النقدية ذات العشرة آلاف فرنك ؟

ولسوء الحظ لم يمر القطار ، ولم يحدث شيء لينجد « بلاسيد » من ورطته ورجعت له ذاكرته فجاة .

فقال :ـ أممكن ذلك ؟ انت صاحبة الورقة النقدية ؟ انا إذن جئتك قبل هذا اليوم وانت لم تكوني بحاجة إلى بستاني . ماأغباني ! اين هي ذاكرتي ؟

تساءلت فلورا عما إذا لم يشحب وجه « بلاسيد » ، كانت شبكة عروق انفة المحمر تبدو منتفخة وكان « ارمنكور » يتنفس بعمق مرفوع الراس .

قالت فلورا :ـ كيف تعيش هكذا بدون ذاكرة ؟

همس « بلاسيد » :ـ بالعكس انا اسال نفسي كيف يعيش الانسان بها .

كانت السماء صافية لاتميل من اية جهة ، لكن « فلورا » لم تكن تملك هذا الصباح روحا فيلسوفة . قالت :ـ إنها لحماقة مني إذ رايتك تاتي فقررت ان اعطيك شغلا هنا او هناك في بعض الايام حتى تقوم بعناية الحديقة . انا احب الزنابق ايضاً . ويمكنني ان اتخيلها مزروعة هناك تحت الجسر عند جدار الحديقة .

ـ القطارات ! صاح « بلاسيد » .

ـ ليس عليك ان تتحمل ضجيجها على كل حال !

وحين وضع يده في جيب سترته صاحت به :

ـ لا ! لا ! لتحتفظ ببقية النقود . لقد خنتني . لقد مثلت دورا مسرحياً امامي وكذبت علي .

قال :ـ إنها الحياة ياسيدتي !

قالت فلورا :ـ لكنني انا التي ادفع دائماً الثمن . لتحتفظ ببقية النقود كلها .

لكن « بلاسيد » لم يخرج النقود ، بل منديلاً كبيراً كاد يثير شفقة « فلورا » لحين . كان من نوع المناديل ذات المربعات الزرق الحائلة اللون الذي لم يذكرها بابيها بل بجدها .

قال « بلاسيد » يبدو انني اشيخ ، إن الضوء الاحمر قد اشتعل . وهذه المغامرة قد حدثت لي فيما قبل ،هل أجعل الخمر مسؤولا عن ذلك ؟ إنني اشرب قليلا ، ولقد تعودت دائماً أن اراقب نَفَسي ، إذ انفخ في راحة يدي من حين لآخر واشمها .

هكذا ـ ونفخ .. وإذا شممت اقل اثر للعفونة ، اذهب لاستلقي واترك الزمن يتبخر . انت ترين ياسيدتي إنني حزين جداً . انا لن أستحق بعد غصوني الاربعة . لقد كنت مخلوقا لحياة منظمة ، محاطة بالناس ، جماعية ، شبيهة بغالبية البشر الذين لايستطيعون العيش بمفردهم لكن في أكياس مثل الحبوب . والويل للذين هم مثلي مثل حزمة القش !

تساءلت « فلورا » إذا ما كان يهزأ من نفسه ، لكن نبرة صوته كانت دقيقة وحازمة ، وكان نظره شاردا ويده ترتعش وهو يضع منديله في جيبه .

قالت « فلورا » مغلوبة على نفسها :

ـ انتظرني ! سوف آتي بشيء

دخلت البيت لتاخذ العملة الصغيرة الموضوعة في إناء السكر الذي تتخذه كحصالة نقود . كانت هي وزوجها لايفتحانه إلا في المناسبات المهمة ، وكانا يضعان فيها كل يوم بعض النقود مثل سارقين يقومان بحركاتهما بالمقلوب .

وحين رجعت « فلورا » وجدت « بلاسيد » قد رحل . جرت نحو الحاجز المشبك ورأته يتوارى . كان يعرج فعلا .

****

دانيال بولونجية كاتب فرنسي ولد سنة ١٩٢٢ .

روائي وشاعر وكاتب اقصوصة وسينارست .

له اكثر من ستين فلماً . وهذه الاقصوصة مختارة من مجموعته :« طفل الغجر » beufaut de Baheiue . الصادر عن غاليمار طبعة ١٩٧٢.

السلوك

اذا كان ثمة من مرمى رئيسي تندفع نحوه سهام علم النفس في هذا العصر فهو، تحديدا، السلوك البشري. نستطيع ان نذهب أبعد من ذلك لنعتبر ان الهم الكبير الذي ارق علم النفس والفلسفات كافة لم يكن غير السلوك البشري الذي بامكاننا ان نرى اليه، هاهنا، بمثابة جهاز معقد تعجز عن تفكيكه اكثر التقنيات تطورا.

ولكن قبل الانكباب على **مقولة السلوك ومحاولة تفكيك محتواها نعتقد ان من الانسب الابتداء بنظرة على علم النفس ذاته كونه العلم الاوحد الذي وضع نصب عينيه، منذ ان كان، هدفا أسمى وهو معرفة المكونات والخصائص التي ينطوي عليها السلوك البشري.**

في علم النفس:

لاتزال الحكمة القديمة التي تحث على معرفة النفس، كمدخل أساس للتعرف على احوال الانسان وانماط عيشه وتفكيره، تتمتع بمصداقية كبيرة. ولكن الملتبس في الامر ان الناس ما فتئوا يسيئون فهم هذا العلم ومراميه. فثمة خلط نراه دائما في الموضوعات التي يطرقها هذا العلم، بين كونه مهتما بأمراض نفسية من ناحية اولى وبأمراض عقلية من ناحية ثانية، وبين علم نفس اجتماعي وعلم نفس أكلينيكي وتربوي وحربي وصناعي. بل الامر تجاوز كل ذلك ليشمل الخلط دراسة سمات الشخصية بما هي عليه من ذكاء وابداع وعبقرية، وما يناقض ذلك من صفات.

ولكن ينبغي ان نلاحظ بأن مثل هذا الخلط لم يحل بين الانسان المعاصر وبين الاهتمام بعلم النفس، اذ ان نظرا سريعا على تاريخ العلم وبذوره الاولى يكشف لنا كم بتنا محظوظين، في هذا العصر، بسبب من الاقتراب الذي حققناه نحو ذواتنا وفهمنا وبما لايمكن مقارنته مع ماتحقق لاجدادنا في سعيهم الى معرفة ذواتهم. فقد عولجت الامراض النفسية في عصور التخلف بطريقة تتفق والاسباب التي اعتقد بأنها تولد المرض. لقد تم استخدام مجموعة من الاساليب التي تبدو على قدر من الغرابة، مثل ان يقوم المعالج بدلق الماء المقدس على المريض، او بتلاوة صلاة معينة، او حتى برمي المريض ببصاق الكهنة وفضلاتهم كونها علاجا فعالا وسريعا في السبيل الى اخراج المريض نفسانيا من الحال التي يرزح فيها !

بعد ذلك حدث مايمكن اعتباره نقلة نوعية في هذا المجال حيث برز اعتقاد بأن ثمة شيطانا رجيما توطن في جسد المريض، فما كان على المعالج، والحال هذه، الا ان يدفع باتجاه المريض اقذع الشتائم وأنباها كيما يجرح كبرياء الشيطان الذي سيضطر الى (الجلاء) عن الجسم المريض احتفاظا بماء الوجه ودفعا لاهانة لايحتملها. حتى ان الامر تطور على يد بعض المعالجين فلجأوا الى غمر المريض بالماء المغلي. ان جسد المريض، بحسب هؤلاء، ليس الا (منزلا) للشيطان وينبغي اختلاق اي حيله لازعاجه.. وطرده ! ولئن كنا نتكلم عن هذه الشعوذات التي عولج بها المرضى النفسانيون في الاعصر القديمة، فإن الامانة العلمية والنظر الموضوعي يدفعان بنا الى اعتبار ان ثمة مجتمعات وبيئات معاصرة ماتزال تأخذ بهذا (العلاج).

ان ماترسب في الذاكرة الجماعية نتيجة العملية المشعوذة لدرء المرض النفسي عن الانسان القديم، يحتفظ الى الآن بقدر من تأثيره. فهو يسبب فهما خاطئا لعلم النفس وتفرعاته مما يجعل كمية من الخوف تظهر على السطح كلما واجهتنا أشكال من اضطرابات نفسية. ان عوائل كثيرة في وقتنا الحالي توارى وراء الجدران والابواب المغلقة اي فرد فيها مصاب باضطراب او مرض نفسي كونه يشكل عارا او مايشبه ذلك.

أما اذا عدنا ادراجنا الى التراث العربي القديم فلسوف نجد بازائنا جملة من المعالجات النفسية التي تنطوي على طرافة. فقد طلب الى ابن سينا معالجة احد ابناء الامراء الذي اصيب، وبدون سابق انذار، بحالة تشبه الخبل. بعد أن عاينه الشيخ الرئيس لم يجد في ظاهر جسمه مايشير الى علة ما. فما كان منه إلا ان جس نبض المريض وراح يردد على مسمعه اسماء الاحياء في المدينة، ولما ذكر حيا معينا ارتفعت دقات النبض. وشرع ابن سينا، عندئذ، يردد على مسمعه أسماء الاسر القاطنة ذلك الحي، وعندما لفظ اسم عائلة بعينها ارتفع، وبشكل ملحوظ، نبض الفتى. عندها راح ابن سينا يسمي كل فرد من افراد الاسرة فتوصل الى اسم فتاة فيها، وما كان منه الا ان لاحظ تسارع الدقات وارتفاع وتيرتها ماجعله يصيح برب الاسرة: «زوجوا هذا الفتى من تلك الفتاة، فهي علاجه».

مثل هذه الواقعة، على بساطتها وما يحوطها من تشكك علمي، تسوقنا الى الاعتقاد بأن الاقدمين توصلوا، شأنهم في ذلك شأن الامبريقيين المعاصرين (او العلماء التجريبيين) الى ان مايتبدى لنا على انه اعراض لمرض عضوي يمكن ان تكون اسبابه غير عضوية «الا ان هذه الحقيقة اذا واكبها نقص في المعرفة العلمية وضعف في الاطلاع والفهم، فقد تقود

فرويد



الانسان الى الوقوع في شرك الشعوذة والدجل ومن ثم ينحرف العلاج عن جادة الصواب».

ان الالمام بمعطيات علم النفس والاقتراحات التي يقدمها بات أمرا لامفر منه بالنسبة الى الانسان المعاصر الذي يعاني، كما لم يعان في اي حقبة سابقة، من الضياع والاغتراب والتفكك الاسري والاجتماعي. وبازاء هذه الشبكة المعقدة التي تشهدها الحياة المعاصرة، سواء على صعيد الانماط الاجتماعية او السياسية او الاقتصادية، نجد الحاجة ماسة الى فهم أكثر وعيا وتطورا لذواتنا وسلوكياتنا. فالمجتمع الحديث، سواء بشقه المتقدم او بالآخر النامي، يحفل بجملة من الاسباب والعوامل التي تدفع الانسان دفعا للاضطراب النفسي. واذا كان لنا ان نعدد هذه الاسباب والعوامل فلسوف نجد انفسنا ملزمين بالابتداء بذلك الانقلاب الجذري والمتسارع والمستمر للقيم والاعراف، الى التناقض والاغتراب والضياع، وهي عوامل ادت دائما الى حدوث شروخ عميقة ومدمية في النفس الانسانية المعاصرة، اذا عرفنا خاصة ان الاستجابة لمثل هذه الحالات او العوامل تكون في الاغلب الاعم، استجابة غير طبيعية وغير متزنة مما يؤدي غالبا الى أن تزل بنا القدم في مهاوى الضياع والاضطراب النفسيين. ليس هذا وحسب، بل المتأذي الوحيد، جراء ذلك كله، هو سلوكنا الذي نستطيع ان نعتبره، وفق هذا المعطى، سلوكا مخضوضا وعاثر الحظ. وعلى هذا فانه يتعين علينا الآن ان نشخص الى الشق الثاني من حديثنا المتعلق بالسلوك.

السلوك: بين الملذ والمؤلم:

ان الدكتور فخري الدباغ، وهو صاحب دراسات وكتب نفسية عدة يقول في مبحث له نشر عام ١٩٧٨، ان «السلوك تفكير او عمل يقوم به المخلوق ويتجه به وجهة معينة، قد توصله الى هدف او تقربه منه. وقد يكون السلوك مستجدا باعتبار انه حدث في تلك الفترة لاول مرة من قبل الشخص، وقد يكون سلوكا مكرورا معادا بصورة تكاد تكون صورة طبق الاصل او مقاربة لما سبقها. وفي جميع الاحوال - واذا كان سلوكا مستحدثا او قديما فانه، يستند الى «اوليات» او «خلقيات» ينشأ عنها ويرجع اليها. وفي موضوع الخلقيات هذه ومكونات السلوك واهدافه ودواعي تكراره او خفوته واختفائه تدور مختلف النظريات والفلسفات والابحاث منذ اقدم مراحل الفكر البشري وحتى الآن، بل لعل «السلوك» يعتبر لب الفلسفات والمبادئ جميعا لانه موضع اهتمام الدراسات الدينية والخلقية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية».

على اي حال فاذا كان بامكاننا اعتبار ان علم النفس، ذاتا، ليس الا علما للسلوك، فانه ليمكننا في الوقت نفسه ايجاد مبرر معقول لتعدد المدارس النفسية التي تهدف، وكمطمح رئيس، الى تفسير السلوك والبحث في منشئه واتجاهه. ورغم ان سيل الدراسات والكتب التي تنهد الى الجوجلة والغربلة في سلوكيات الانسان راحت تشكل مايشبه الحيرة بالنسبة الى العديد من الدارسين بسبب من التناقض والتضارب الصارخين في الآراء والمقترحات التي تمحضنا اياها، فان مايتبدى لنا انه اقتراح او نظرية جديدة على هذا الصعيد، ربما وجدنا جذورا له في تآليف الاقدمين، وقد يرجع هذا الاقتراح او النظرية بادراكه الى عصور غابرة حيث سنجد على الفور ان ثمة من أسهب في الكلام على موضوع السلوك كأفلاطون وارسطو

فخري الدباغ



وابن رشد والغزالي وابن خلدوون.

يبقى ان نطرح السؤال الذي نجده الآن في محله: فهل ثمة من سبب يدفع الانسان الى الاخذ بسلوك بذاته في ظرف بذاته، ثم الى التنكر له، اي لهذا السلوك، او الاخذ به مرة اخرى، في ظرف آخر مغاير؟ أهو العادة، أم الاستسهال أم المتعة؟ أم هي الاعراف والاخلاق والنظم الاجتماعية؟ أم أن المرء لم يكن ولن يكون غير آلة تتلقى اشارات، بصيغة أوامر عصبية، او هورمونات تحمل طيها صفات وراثية للكائن البشري؟

ان الانسان الذي بلغ سن الرشد، يدرك ان القتل يدخل في باب السلوك، غير المقبول. هو الفعل الذي يعاقب عليه القانون، وتدينه النظم والاعراف الاجتماعية كما يرفضه الدين. لاجل ذلك كله فان البالغ يرتدع عن القيام بفعل القتل او السرقة كونه منبوذا من القوانين الاخلاقية والاجتماعية والدينية. ولنفرض ان مثل هذا البالغ

عقد العزم على القيام بالفعل الشائن، وليكن سرقة. في هذه الحال يأتي علم النفس ليضطلع بدور هام وهو تحليل السلوك الذي نحن بصدده. ان علم النفس سوف يجد في جعبته عددا من الاقتراحات تتعلق بمثل هذا الوضع، بينها أن مقترف السرقة «مدفوع» الى ذلك اما بسبب الفقر، او لكسب سريع، اولعلة نفسية تحمل في جوفها تعبيرا رمزيا ذا دلالة، اذ قد يكون فعل السرقة تعبيرا عن تمرد ضد الانماط الاجتماعية السائدة، او انتقام من الاضطهاد الاسري، او حاجة الى التملك. هذا لجهة من بلغ سن الرشد. أما الطفل «فيتعلم» الا يقرب النار بعد ان يكون عانى من الم حرق سببه الاقتراب من مدفأة او اشعال عود ثقاب. هذا السلوك من نوع بسيط ولا يعوزه تحليل في المختبر النفسي. ان تفسير ذلك يعود، بحسب التعبير الذي يقدمه لنا علم النفس، الى الرغبة في تفادي الالم او ايثار اللذة.

على اساس من هذا فان سلوك الانسان مرتبط بعوامل متعددة، وهي التي تقرر نوعيته واتجاهه ومنشئه. ولقد حاول الفلاسفة وعلماء النفس وضع معادلات وقواعد لايجاد الرابط فيما بين هذه العوامل، فبات لدينا مجموعة من التفاسير والنظريات بينها: نظرية قانون التأثير، نظرية اللذة والالم، فلسفة الرواقيين، السلوكية الآلية، السلوكية الحتمية،

مانظنه نظرية جديدة، في الحديث عن السلوك، ربما وجدنا جذورا له لدى الاقدمين مثل افلاطون وارسطو وابن رشد والغزالي.

اضافة الى السلوكية الناتجة عن الارادة الحرة، الى غير ذلك طبعا مما لا يتسع له المقام هنا. الا ان مايحرك السلوك نستطيع ان نجمله بثلاث مجموعات من الحوافز: هناك، أولا، مايدركه ويحسه الفرد قبل ان يقدم على عمل ما مباشرة. ثانيا، مايجري في ذهنه قبل فترة طويلة من الفعل. ثالثا، مايعلق عليه في المستقبل من اهداف ونتائج في حال القيام بالفعل وتنفيذه.

الا انه يمكن حصر هذه المجموعة من المحفزات في جانبين وحسب هما: الدوافع والحوافز الداخلية، ثم النتائج المترتبة على السلوك.

قانون التأثير:

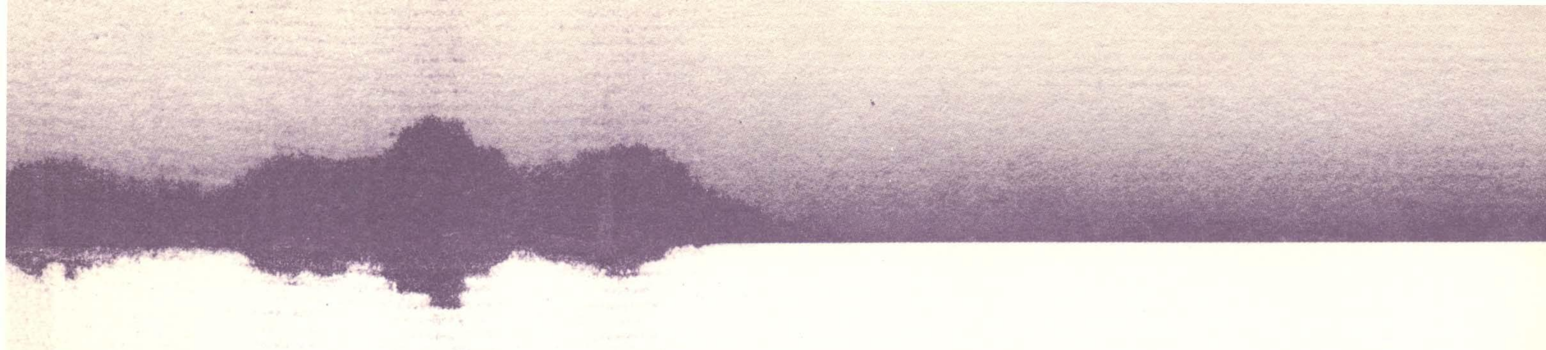
بعد هذا كله نرى أن نعكف الآن على بعض التفاسير، ولنسمها نظريات، عرفها عالم السلوك منذ أمد بعيد وهي لاتني توجه الابحاث والدراسات التي يقوم بها علماء النفس والاجتماع.

سوف نبدأ، هنا، بما يعرف بنظرية «قانون التأثير». لقد توصل الى هذه النظرية عالم نفساني يدعى ثورندايك، بعد تجارب عدة على الحيوانات. ولعلها احدى النظريات الهامة في هذا الحقل، ويمكن تشبيهها بنظرية اخرى، نطلق عليها عادة، اسم «نظرية اللذة». نستطيع ان نرى الى الفحوى الذي ينطوي عليه «قانون التأثير» وفق الآتي: فالانسان الذي تدور في رأسه فكرة ما او انه يقوم بفعل ما يسبب له ارتياحا نفسيا ويزيل عنه التوتر والقلق، لابد وأن ينعكس هذا الفعل على جهازه العصبي برمته. نمط الفعل، المسبب للارتياح، يترسخ او انه ينطبع في الجهاز العصبي. واذا ما مر بظرف متشابه للظرف حيث قام بالفعل المذكور فانه لايتلكأ عن القيام بنفس التصرف او السلوك محاولا الابتعاد عن اي سلوك مغاير. ولكن ثمة تعريف لهذا القانون نجمله على الشكل التالي: «ان العقاب او المكافأة من اقوى الادوات والوسائل لاختيار الافعال المرغوب فيها وتثبيتها وحذف غير المرغوب واستبعاده». فاذا وجدت حالة واحدة لها عدة استجابات فان الاستجابات التي تصحبها او تتبعها مباشرة، ذات متعة للانسان، تبقى أشد ارتباطا بتلك الحالة اذا ماعاودته مرة اخرى. عكس ذلك فان الرابطة (بين حالة ما وبين الانسان) سوف تضعف اذا كانت النتيجة مؤلمة. لكن ينبغي ان نلحظ، هنا، ان ثمة وهناً يعتور هذه النظرية، اذ يجري، وفقها، تجاهل لشخصية الانسان. فقد اعتبرت ان البشر سواسية ازاء الحوافز كافة مما يرفضه الواقع، حيث ان دافعا او حافزا معينا ربما ادى الى سلوكين مختلفين، لدى شخصين مختلفين، وحتى الى انواع عدة من السلوك.

الثعلب والقنفذ:

مهما يكن الامر فاننا، وبازاء تعدّد السلوكات وردود الافعال تجاه حدث او فعل معين، نستطيع ان نحصر كل ذلك ضمن اسلوبين او نمطين من السلوك عرفا، على مر التاريخ، بأسلوب القنفذ وهو نوع بسيط، وأسلوب الثعلب المعقد وغير البسيط.

ان ابانة ذلك تقتضي أولا الذهاب الى القنفذ، الحيوان الذي يقتات بالهوام والحشرات والنمل ويكتسي جلدا مليئا بشوكات ذات رؤوس ابرية تسبب الاذى لمن يلمسها، يتبنّى سلوكين وحسب ازاء الاخطار وحالات السلم: فاما أن يتكور على نفسه وتبرز الشوكات لدرء الخطر



الداهم ويصبح، تاليا، بمثابة الكرة الهامدة بغير حراك. انها «حالة الكرة» التي يتخذها القنفذ عندما يواجه الخطر وهي استجابة واحدة، تتكرر دائما، حيث إنه ينبسط وتتراخى شوكات جلده ويسير الهويناء بحثا عن المأكل في حالات الارتياح او السلم.

ورغم ان عددا من البشر يؤثر سلوك القنفذ في حالتي السلم والحرب، الا ان هؤلاء نادرون جدا، حيث ان السلوك الانساني على شيْ من التعقيد والتركيب وتعدد الصور والاشكال.

هذا لجهة القنفذ. أما سلوك الثعلب فعلى النقيض من ذلك، اذ لكل حالة او ظرف نجد الثعلب يعد لذلك عدّته، ويضع نصب عينيه مجموعة من الحلول وردود، الافعال. وبتعدد الظروف والاحوال تتعدد سلوكات الثعلب وتتشابك وتتعقّد، و «لقد عرف الفلاسفة الاغريق هذين النمطين من السلوك منذ القدم، وخلّد القنفذ والثعلب في الادب العالمي منذ القرن السابع قبل الميلاد، اذ ذكرهما «ارخيلاكس». اما «ارازموس» (١٥٠) م فقد قال: «للثعلب عدة حيل، وللقنفذ حيلة واحدة، لكنها أحسنها»، وقيل في الثعلب ايضا: «لدى الثعلب حلول اكثر مما لديه مشاكل» !.

وطالما ان الحديث يجري الآن حول سلوك البشر وليس بضع فصائل حيوانية، فانه بامكاننا القول ان هناك

اننا محظوظون لاننا تمكنا من معرفة سلوكنا أكثر مما توفر لاجدادنا.

اناسا عديدين يتمثلون سلوك الثعالب في وجه اي طارئ. انهم يعدّون الاستجابات بحذر شديد ومكروريبة. هؤلاء ليسوا ندرة على اي حال.

نظرة اللذة:

كعنصر حيوي في تحريك السلوك ظهرت نظرية اللذة منذ الايام الخوالي، وتحديدا منذ ايام اريستيبوس وافلاطون وارسطو وابيقور، الى ان عاودت الظهور ابان القرنين السابع والثامن عشر في كتابات لديكارت وهوبز. أما بنتام فقد اوجد رابطا وثيقا بين اللذة، كنظرية تختص بالسلوك، وبين السياسة والاقتصاد. وكان ان احدثت نظريته تأثيرا جما في الكتابات الفكرية والنفسية في الغرب، مما أدى، من بعد، الى ان يضع فرويد، وذلك عام ١٩١١، نظريته النفسية المسماة «اللذة ومبدأ الواقع».

ولقد أكدت التجارب التي أجراها بافلوف على الحيوانات ان المكافأة، ولنسمها الثواب، يعزز من اتجاه الحيوان نحو سلوك معين، بينما عدم الثواب (وهو ما ينتج عنه احساس مضاد للذة = الالم) يؤدي عادة الى نسيان العادات القديمة وضمورها، وهو ما يؤكده «فيخنر» عالم الجمال حيث ان اللذة، التي تعني هنا المتعة، تتأتى من الحالات المسبّبة للاستقرار والارتياح. ولكن، رغم تعدد الآراء والاقتراحات حول مقولة اللذة، فان مايعنيه احدهم في هذا الموضوع لاينطبق على المعنى الذي يقصده الآخر. بمعنى اوضح فان مارمى اليه «فيخنر» لايتطابق مع المبدأ الذي روّج له فريد.

سوف يقودنا ذلك الى السؤال التالي: طالما أن «اللذة» او «المتعة» كما قد يتبدى لنا، من خلال ذلك كله، انها المحرك الاول للسلوك، فهل يمكن ان

العقاب او المكافأة من أقوى الوسائل لاختيار السلوك او الافعال.

نعتبر، تأسيسا على هذا، أن الانسان يعيش ويتحرك في دنيا المتع وحسب ؟

ان الدكتور فخري الدباغ يبين لنا، في كتابه القيم «السلوك الانساني»، أن ثمة أناسا يقيسون اللذة بمقدار مايغرفون من متع جنسية او بقدر مايلتهمون من ولائم شهية، او بسبب ما يمتلكونه من ارصدة، بيد ان الواقع لايؤيد ذلك تماما. وهو يتساءل: «اذن كيف نفسر سلوك من يموت في ساحة المعركة وهو سعيد ؟ ومن يضحي بمتاع الدنيا من اجل ساعة تجلّ وتعبّد ؟ ومن يقتل نفسه حرقا ليعبر عن استنكاره ورفضه لقضية ما، ومن يؤثر السجن على الاستسلام والمسايرة والحياة الهنيئة ؟». وكاجابة على ذلك فان الدكتور الدباغ يرى ان مقولة اللذة لاتنحصر في المتعة الحسية ـ المادية وحسب، بل ثمة الاحساس العميق بالسعادة. انها السعادة الذاتية ـ الوجدانية التي نستطيع ان نعبر بها عن مبدأ اللذة الحقيقية. الى ذلك فان الانسان المزمع على فعل ماسوف يتجنبه في حال تبيّن له أن مثل هذا الفعل قد يؤدي الى حال من القلق والتوتر. أنّ تجنب الفعل ليس الا نوعا من «اللذة»، كما يعبر عن ذلك علماء النفس والاجتماع. فالابتعاد عن القلق وقهر النفس وتوبيخ الضمير لايمكن الا ان تصب في مصب السعادة الحقيقية = اللذة الحقيقية، للانسان. انها تضاهي أقوى المتع حسية.



التغذية الايجابية للفعل:

ان الكثرة الكاثرة لاولئك الذين صفقوا لنظرية اللذة في اوساط علم النفس لم تستطع فرض هيمنتها ووجهة نظرها على آخرين عارضوا هذه النظرية، وقدموا بدائل لها. فلقد اعتبر (تولمان) ان القيمة الهادفة هي المهمة في توجيه السلوك، اي ان مايتوقعه المرء من نتيجة هو الذي يقرر نوعية سلوكه. ان هذا المنحى يشبه، الى حد كبير، النظرية التي تذهب الى ان المرء، عندما يقوم بفعل ما ويتلقى ايعازات ايجابية مشجعة لنوازعه ومطمئنة لآماله (بغض النظر عن اللذة) فانه يستمر في فعله. وعكس ذلك، اذ قد تكون الايعازات السلبية معقولة له، وهو ما اطلق عليه (التغذية الايجابية للفعل). ولعل بين هذه النظرية وبين المبدأ الذي جاء به ثورندايك حول (قانون التأثير) أوجه شبه عديدة.

من جهة اخرى سوف نلتقي بمعارض آخر لنظرية اللذة هو العالم «مكدوغل» الذي اعتبر دائما ان اللذة لاتشكل مكونا اصيلا في مكونات السلوك، وانما تؤثر فيه وحسب. كما لم يرحب أصحاب «مدرسة الاستبطان النفسي» بما يقال من أن الالم واللذة عنصران أصليان ووحيدان في مسألة السلوك.

نضيف الى هؤلاء العالم النفسي «واتسون» الذي وضع المداميك الاولى لما بات يعرف بالنظرية السلوكية. ومثله مثل مؤسسي نظرية التعلّم الحديثة، المأخوذ بها في الحياة النفسية الراهنة، فقد نفى كون اللذة عاملا اساسيا في توجيه السلوك وتحريكه معتبرا، في نفس الوقت، أن (اشباع الحاجة) و (ازالة التوتر) يجب ان ينظر اليهما كونهما عنصرين حاسمين في ادارة السلوك وتوجيهه.

ولعله من المنطقي جدا تفسير هذا الرفض لمبدأ اللذة بأنه نوع من (الالتفاف) على النتيجة، اذ ان ماذكرناه الى الآن من اصطلاحات وتفاسير علمية، ان هي الا مرادفات لمبدأ اللذة، بالمعنى الاوسع الذي تعرضنا اليه، فاذا كان ثمة امرؤ (يستلذ) الربح الحرام، وآخر في عكوفه على التقشف وقهر النفس، فان كليهما قد توصّل - عقليا او لا شعوريا - الى متعته او لذته نتيجة سلسلة طويلة من التجارب والظروف الحيوية التي حاول تفسير آليتها أصحاب نظريات قانون التأثير او السلوكيون او جماعة بافلوف او فرويد.

نستطيع أن نقفل على كلامنا حول السلوك بالقول إنه مثلما أن ثمة حقائق كبرى ماتزال الى الآن موضع جدل وأخذ ورد، ومثلما أن ماتوصل اليه الانسان من حقائق مايزال يعوزه الكثير من المعرفة والالمام العميق، فالسلوك الانساني مايزال من بين المناطق النائية التي لم يستطع اكتشافها والوقوف على حقيقتها كل من علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة، ناهيك عن الطب والهندسة الالكترونية، وغير ذلك من (الادوات) التي كاد الانسان يسيطر على الطبيعة بواسطتها. ولئن كان التنقيب في سلوك الانسان والعناصر التي توجهه مايزال في مراحله الاولى، فانه ليسعنا القول بأن الانسان - عندما يتوصل الى معرفة سلوكه والخصائص التي ينطوي عليها والمحركات والحوافز التي تدفعه - فلسوف يكون له، على وجه مؤكد، مبدأ آخر ووجهة نظر اخرى تجاه الحياة والكون والاشياء.

المراجع

(١) السلوك الانساني، الدكتور فخري الدباغ، سلسلة الكتاب العربي، الكويت، ١٩٨٦، ١٧٦ صفحة.

(٢) السلوك البشري بين اللذة والالم، الدكتور فخري الدباغ، مقال منشور في مجلة «العربي» الكويتية، العدد ٢٣١، شباط ١٩٧٨.

(٣) مذهب فرويد، ومانوني، ترجمة هنرييت عبودي، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٩، ١٨٣ صفحة.

■ عبد المقصود عبد الكريم - القاهرة

مدخل الى السيميوطيقا



يمثل العمل الجماعي سمة أساسية في كل الإبداعات في العالم، وخاصة في المجالات التي يطمح أصحابها إلى أن ينهجوا نهجا علمياً صحيحاً. ويأتي كتاب «أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة: مدخل إلى السيميوطيقا» (دار إلياس العصرية - القاهرة ١٩٨٦) ثمرة لعمل جماعي وانطلاقا من إلايمان بأهمية هذه الصيغة الجماعية في العمل، يرى المشرفان: سيزا قاسم» و «نصر حامد أبو زيد» أنه إذا كان لابد للمعرفة لكي تنمو أن تتفاعل روافدها، فلابد أيضا للفكر لكي يثمر ويتبلور أن يتم ذلك من خلال صيغة حوارية تنصهر في بوتقتها المفاهيم. وقد ساهم في الكتاب، بالاضافة إلى المشرفين، أحمد إلادريس، وأمينة رشيد، وعبد الرحمن أيوب، وعبد المنعم تليمة، وفريال غزول، وكاطع الحلفي، وكانت المساهمة بالترجمة أو بالتأليف أو بكليهما.

ومع أن السيميوطيقا بوصفها علما - تبلورت في القرن العشرين إلا أن التأملات في العلامة قديم قدم الحياة. فالعلامة ركن من أركان التواصل بين إلانسان وإلانسان، وبين إلانسان والطبيعة. لقد بدأ إلاغريق التأمل المنظم في العلامة في المدرسة المسماة بالشكّية Scepticism والكلمة اليونانية التي أطلقت على هذه المدرسة Skepsis تعني البحث، وقد بلغت هذه المدرسة أوجها في الاسكندرية تحت القيادة الفكرية للفيلسوف «اينيسيديموس» في القرن الأول ق.م. (فريال غزول، ص١٤).

ومصطلح السيميوطيقا مشتق من الأصل اليوناني Semeion بمعنى العلامة. وانتشرت السيميوطيقا في أنحاء العالم منذ الستينات وتكونت في هذه الفترة مراكز متعددة تولت مهمة تدريسها أو قامت بإجراء الأبحاث في مختلف فروعها (أمينة رشيد، ٤٧).

وترتكز السيميوطيقا على مصطلحات وبحوث تنطلق مباشرة من العلامة. وقد تم إرساء السيميوطيقا أولاً بتصنيف العلامات وتدخل كل الدراسات التي تتعمق في تحليل وتصنيف الرمز والمجاز ضمنياً في مجال السيميوطيقا، وثانياً برسم خارطة العلاقات بينها، ويمكن أن يُدرج تحت هذا الباب علم الجبر والمنطق والنحو والعروض. وهكذا يوحِّدُ استخدام الرؤية السيميوطيقية بين حقول معرفية مختلفة ويحارب تفتت العلوم والانشطار القائم بين التصنيف المبني على الملاحظة «الامبريقية» من جهة وبين التنظير المبني على الملاحظة «الذهنية من جهة» (فريال غزول، ص١٢). إن السيميوطيقا قد تعيننا على تحويل العلوم إلانسانية إلى علوم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة من خلال السيطرة على المادة التجريبية والتوصل إلى مستوى من التجريد يسهل معه تصنيف هذه المادة ووصفها من خلال أنساق من العلامات تكشف عن الأبنية العميقة التي تنطوي عليها، وقد نتمكن من خلال هذا التجريد أن نستخلص القوانين التي تتحكم في هذه المادة (سيزا قاسم، ص١٧).

وتعتبر العلامة من أهم القضايا الفلسفية التي طرحها العقل إلانساني، فالعلامة شيء مادي محسوس ولكنها - في الوقت نفسه - ترتبط بالدلالة من حيث أنها تصور ذهني لأشياء موجودة في العالم الخارجي، وهكذا تتصل العلامة - عبر المنطق والنحو - بقضايا الدلالة وإنتاج المعنى. وقد انتقلت قضية الدلالة إلى العلم الحديث عبر المنطق واللغويات، وقد خرجت من المفهوم الثابت لأنتاج شكلي للمعنى الواحد - شكل القياس اليوناني - إلى الاعتراف بوجود ممارسات دالة مختلفة، لها أنظمتها الخاصة التي تحكمها علاقة نوعية بين الرمز والواقع (أمينة رشيد، ص٤٩). ويعتبر «سوسير» العلامة وحدة ثنائية المعنى، تتكون من وجهين يشبهان «وجهي الورقة»، لايمكن فصل أحدهما عن الآخر، الأول هو «الدال» وهو عند سوسير حقيقة نفسية أو صورة سمعية تحدثها في دماغ المستمع سلسلة الأصوات التي تلتقطها أذنه، وتستدعي الى ذهن هذا المستمع صورة ذهنية أو مفهوم هو «المدلول».

هل توجد علة طبيعية أو منطقية تجعل دالا معينا يرتبط بمدلول بعينه؟ يجيب سوسير على هذا السؤال بالنص ويرى أن العلاقة بينهما علاقة «اعتباطية». ويميز السيميوطيقيون بين علامات عرفية اصطلاحية وعلامات معللة. أما الأولى فهي من النوع الذي لا تربط بين الدال والمدلول علة من العلل سواء كانت طبيعية أو منطقية

(اللغة)، أما الثانية فهي التي يتطابق فيها شكل التعبير مع شكل المحتوى (الدخان علامة على وجود النار) ويذهب بعض النقاد إلى أن النص الأدبي علامة معللة وليست اعتباطية، أي أن ثمة علامة تشابه بين شكل الدال (وهو النص الأدبي نفسه) والمدلول (وهو محتوى النص) وذلك لأن النص الأدبي حقيقة من نوع خاص يتميز بدرجة عالية من التنظيم الشكلي قصد نحو جعل هذا التنظيم جزءا من المحتوى أو شكلا دالا (سيزا قاسم، ص ٢٩،٣٠). ويؤكد «رولان بارت» على أن اللغويات تمثل نموذجا يجب أن يؤخذ في دراسة جميع الأنظمة الدالة. واللغة في إطار السيميوطيقا هي أي نظام من أنظمة الاتصال يستخدم علامات منسقة تنسيقاً خاصاً. ويعرف «مونان» السيميوطيقا بأنها «العام العالم لكل أنظمة الاتصال التي تتم من خلال الاشارات أو الدلالات أو الرموز». ونجد عند «ستيبانوف» تعريفا أكثر تعميماً: «إن علم العلامات هو علم الأنظمة الدالة في الطبيعة وفي المجتمع» (أمينة رشيد، ص ص٥٣-٥٧).

وفي دراسة عن «العلامات في التراث» يحدد نصر أبو زيد أن الهدف من الدراسة ليس إثبات ندية التراث للفكر الغربي، وليس أيضاً تفسيراً للتراث في ضوء مفاهيم الغرب عن طريق التأويلات المستكرهة التي تغفل طبيعة التراث وتتجاهل ظروفه الموضوعية ومنطقه الداخلي الخاص. ومن ثم يكون الهدف مزيدا من الوعي بهذا التراث واستكشاف بعض جوانبه التي يمكن أن تساعدنا السيميوطيقا على اكتشافها (ص ٧٤). وتبدأ الدراسة بالبحث عن مفهوم اللغة وعلاقتها بالأنظمة الدلالية الأخرى عند القدماء، وذلك على أساس أن هذه العلاقة ومقارنة اللغة بنظم العلامات الأخرى كانت هي المقدمة التي تنبأ على أساسها سوسير بقيام علم للعلامات يكون علم اللغة فرعا منه، وإن يكن هو الفرع الذي يحدد منهج العلم الجديد ويمثل في الوقت نفسه أهم جزء فيه.

وقد تحدد مفهوم اللغة بأنها «اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم» كما يقول ابن جني، وتحددت وظيفة اللغة بأنها «البيان» كما يقول الجاحظ (أبو زيد، ص٧٥). ويقابل مفهوم العلامة في التراث مفهوم الدلالة، ويرى نصر أبو زيد في نظرة المسلمين للعالم بوصفه دلالة على وجود الخالق ما يؤكد تفسيره لمفهوم الدلالة في الفكر الإسلامي بما يوازي العلامة في المفهوم السيميوطيقي. هذا إلى جانب أن الجذر اللغوي للعلامة (علم) يؤكد الارتباط الدلالي بين (العلامة) و (العلم) و(العالم) في كل المعاجم العربية، وهو الارتباط الذي يمكن ملاحظته بين المعرفة واللغة من جانب، وبينهما وبين وضعية الإنسان في العالم من جهة أخرى ويكشف وضع اللغة بين انواع الدلالات العقلية بأن العقل العربي لم ينظر للغة بمعزل عن نظم الدلالات الاخرى (أبو زيد، ص٧٨).

ينقل (السيوطي) عن «الفخر الرازي» حصره لأنواع العلاقات الممكنة والمحتملة منطقياً بين الدال والمدلول في اللغة: «الألفاظ إما أن تدل على المعاني بذواتها، أو بوضع الله إياها، أو بوضع الناس، أو يكون البعض بوضع الله والباقي بوضع الناس... وأما الرابع فإما أن يكون الابتداء من الناس والتتمة من الله... أو الابتداء من الله والتتمة من الناس...». نجد أننا أمام اتجاهين: اتجاه يرى أن الألفاظ تدل على معانيها بذواتها، والاتجاه الآخر يرى أن العلاقة بين الألفاظ ومعانيها علاقة وضعية. واتفق علماء المسلمين على أن العلاقة بين الدال والمدلول في اللغة علاقة وضعية اصطلاحية واختلفوا في أصل المواضعة. وإذا كانت ألفاظ اللغة فيما يرى الجرجاني ليست إلا مجرد علامات وسمات دالة على المعاني فإن العلامة من حيث هي علامة لا يمكن أن توصف بقبح أو حسن، إنما يكفيها القيام بوظيفتها الدلالية (ابو زيد، ص٨٨ - ٩٤). وقد تنبه أسلافنا لخاصية الدلالة التركيبية في اللغة، وإن كانوا قد ناقشوها من خلال المنظور الديني، وكذلك تنبهوا لخاصية التحول الدلالي للعلامات داخل التركيب (ابو زيد، ص ١٠٣).

وفي دراسة عن سيميوطيقا الشعر يحدد «مايكل ريفاتير» ثلاثة أنماط من اللامباشرة الدلالية. فاللامباشرة تتم عبر نقل المعنى Displacement أو تحريفه distortion أو ابداعه. ويتم النقل عندما تغير العلامة معناها الى معنى آخر، أي عندما «تنوب» كلمة عن كلمة أخرى، ويتم التحريف في حالة الالتباس أو التناقض أو اللامعنى، أما إبداع المعنى فيتم عندما يتكون في النص مبدأ تنظيمي يشكل علامات من وحدات لغوية قد لا تحمل معنى في سياق آخر (ت: فريال غزول، ص٢١٤). وإذا اردنا فهم سيميوطيقا الشعر فعلينا أن نميز بين مستويين أو مرحلتين في القراءة، فعلى القارىء أن يبدأ بحل الشفرة في القصيدة بالقراءة الأولى التي تستمر من بداية النص الى نهايته، وفي هذه القراءة الاستكشافية heuristic يتم تفسير أولي لأن المعنى يتم فهمه من

هذه القراءة. ويعتمد الدور الذي يلعبه القارىء في هذه المرحلة على كفاءته اللغوية. والمرحلة الثانية هي مرحلة القراءة الاسترجاعية retroactive hermeneutic حيث يحين الوقت لتفسير ثان أي لقراءة تأويلية حقيقة. وبناء على ذلك يتلاحم العامل الشعري في القصيدة مع كلية النص بوصفه كينونة محددة من القول ذات خاتمة وبداية. ولهذا نجد أن وحدة الدلالة تكمن في النص بينما نجد وحدة المعنى في العبارات والجمل (ص٢١٧ ، ٢١٨).

إن الفن علامة مستقلة autonomovs تشير الى شيء غير محدد، خاصيتها الأساسية هي قدرتها على أن تستخدم وسيطا بين اعضاء نفس الجماعة... الحقيقة غير المحددة التي يشير العمل الفني إليها هي السياق الكلي لما يسمى بالظواهر الاجتماعية. وهذا هو السبب الذي يجعل الفن أكثر قدرة على تمييز «عصر» بعينه وتمثيله دون غيره من الظواهر الاجتماعية. ويملك العمل الفني وظيفة أخرى هي وظيفة العلامة التوصيلية، ومن ثم فالعمل الأدبي يجمع بين كونه عملا فنياً من جانب، وبين كونه ـ في الوقت نفسه ـ كلاما يعبر عن موقف عقلي أو فكرة أو شعور... والفن إذا نظرنا إليه باعتباره علامة توصيلية نجد انه يشبه العلامات التوصيلية المحضة، غير أنه يختلف عنها اختلافاً جذرياً في أن العلاقة التوصيلية التي تربط بين الفن والشيء المشار إليه لا تملك قيمة وجودية. إن الوظيفتين، التوصيلية والاستقلالية ـ اللتين تتجاوران في العمل الفني ذي الموضوع تشكلان إحدى التناقضات الجوهرية في تطور هذه الفنون، إن هذه الثنائية بين الوظيفتين تظهر بجلاء في مجرى تطور هذه الفنون في ذبذبة مستمرة في علاقتها بالواقع (موكارفسكي، ت: سيزا قاسم، ص ص٢٨٧ ـ ٢٩١).

وبالنسبة للثقافة، فمن الممكن التوكيد على أن علاقة الثقافة بالعلامة والدلالة تتضمن واحداً من المقومات النمطية الأساسية في الثقافة. وترتبط أهمية العناصر السيميوطيقية في الثقافة بدينامية الحياة الاجتماعية للمجتمع البشري. (لوتمان و أو سبنسكي) ت: عبد المنعم تليمة، ص٣٠١). ويمكن من وجهة النظر السيميوطيقية اعتبار الثقافة مجموعة من الأنظمة السيميوطيقية الخاصة المتدرجة، أو يمكن اعتبارها كما من النصوص ترتبط بسلسلة من الوظائف أو اعتبارها آلية خاصة تتولد عنها تلك النصوص. وإذا نظرنا إلى المجموع على أنه فرد، ولكنه يخضع لنظام أكثر تعقيداً، لأمكن أن تفهم الثقافة بمقارنتها بالآلية الفردية للذاكرة، وذلك على أساس أن الثقافة آلية جمعية خاصة لتخزين المعلومات ومعالجتها. إن البناء السيميوطيقي للثقافة والبناء السيميوطيقي للذاكرة ظاهرتان متماثلتان ثقافياً، وإن كانا يوضعان على مستويين مختلفين. ولا يتعارض هذا التصور مع فكرة دينامية الثقافة، ذلك لأنها ـ من حيث المبدأ تثبيت لخبرة الماضي، ومن ثم يمكن أن تبدو على شكل توجيهات أو برنامج من أجل إبداع نصوص جديدة (أوسبنسكى وآخرون، ت: نصر أبو زيد، ص٣٣٤)

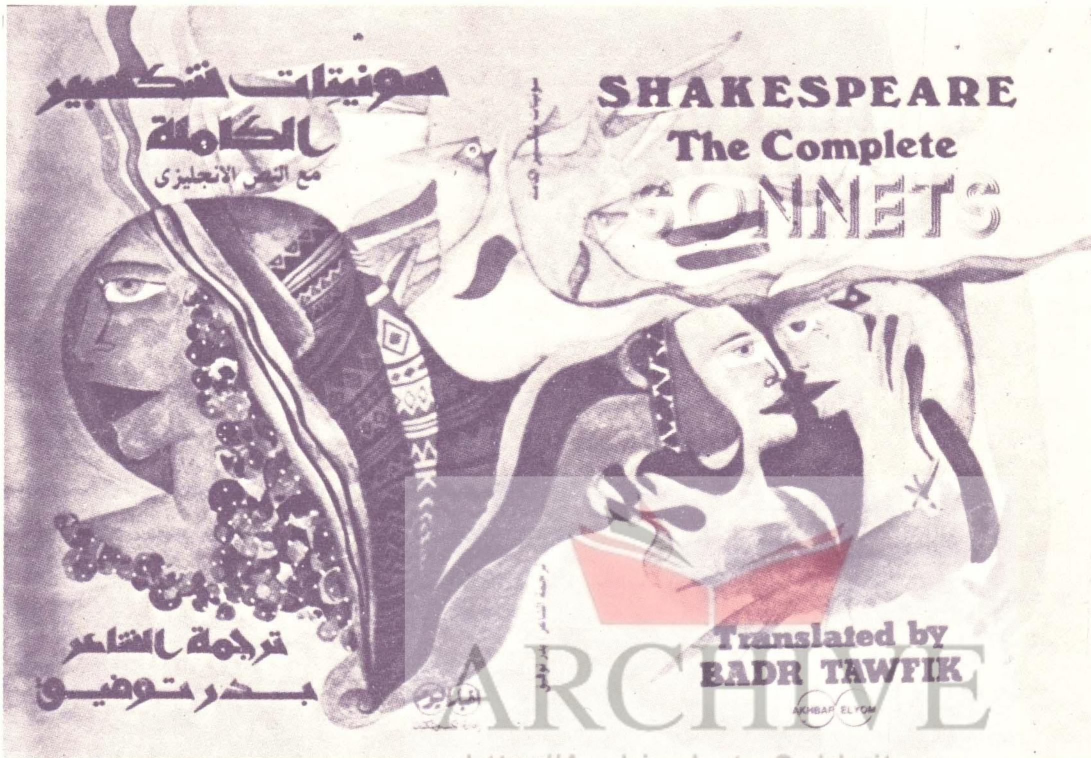
ويرى «كير إيلام» أن المسرح يستطيع أن يستخدم أكثر أنواع الدلالة بدائية وهو النوع المعروف في الفلسفة «بالعرض» أو «الإظهار» Ostension. فلكي يعرف شيء أو يحدد أو يشار إليه أو يحال إليه، يرفعه المرء بكل بساطة ويريه لمتلقي الرسالة. ويقرر «إيكو» أن هذا النوع من توليد الدلالة البدائي هو «أكثر جوانب العرض أساسية، (ت: سيزا قاسم، ص ٢٥٨). ويقترب عالم السينما إلى حد كبير من ظاهر الحياة المرئي ويُعدُّ وهم المصداقية أحد خصائصها المهمة والاساسية وهذه الحياة لاتتكون من الواقع كله بل من أجزاء وقطع تم تفصينها على شكل الشاشة ومقاسها. ويقسم «يوري لوتمان» العلامات إلى مجموعتين هما: العلامات الاتفاقية الاصطلاحية والعلامات التصويرية البصرية. النوع الأول هو العلامات التي لاتقوم علامة علاقة التعبير بالمضمون فيها على أساس محدد داخليا. وتقوم العلامة التصويرية أو الايقونية على أساس أن للمعنى تعبيرا جوهريا طبيعياً متميزاً، والصورة أكثر الأمثلة انتشاراً وتتسم العلامات الايقونية بقابليتها القصوى للفهم (ت: نصر أبو زيد، ٢٦٩ ، ٢٧٠).

والآن، يمكننا أن نقول أن هذا الكتاب يمثل واحداً من أغنى الكتب واشملها واسبقها إلى تناول العلامة بالبحث والدراسة والترجمة إلى اللغة العربية. ويكشف الكتاب بجلاء عن اهمية العمل الجماعي الذي يتم التنسيق بين أفراده. وقد استطاع الكتاب أن يؤكد على أصالة وأهمية علم العلامات (على الرغم من بعض المبالغة الى تحمل رائحة الحلم)، ويمكننا أن نستخلص منه ـ بالاتفاق مع أمينة رشيد ـ أن السيميوطيقا ليست إحدى المودات الثقافية الجديدة في أوربا، إنما السيميوطيقا علم يمكن الاستفادة به في شتى نواحي المعرفة البشرية، «إن التفكير في العلامة لم يبدأ مع سوسير وبيرس ولن ينتهي مع التيارات المعاصرة، بل له جذور عميقة في الفكر الانساني».

مترجمة لاول مرة:

سونيتات شكسبير الكاملة

غلاف الكتاب



مساء الأحد الأخير من شهر **يوليو، على ضفاف النيل، وفي قصر الشاعر الخالد احمد شوقي (كرمة ابن هانئ بالجيزة)، أقيمت أمسية أدبية احتفالا بصدور «سونيتات شكسبير الكاملة مع النص الانجليزي، ترجمة الشاعر بدر توفيق، عن ادارة الكتب والمكتبات باخبار اليوم. ازدحمت القاعة بلفيف من الفنانين والادباء من العرب والاجانب والمصريين.**

● تعريف بالمترجم:

بدأ الندوة الاديب صلاح عفيفي بتعريف الحضور بالمترجم فقال انه درس الانجليزية والالمانية وادابهما في جامعة عين شمس، والجامعة الامريكية، وجامعة كولونيا، ودرس الترجمة في كلية الالسن. نشرت له ترجمات شعرية ومقالات عديدة في الصحف والمجلات المصرية والعربية للفنانين والادباء البريطانيين والامريكيين والالمان. ومن اعماله المؤلفة صدرت اربعة دواوين ومسرحية شعرية. وتعتبر ترجمته لسونيتات شكسبير الكاملة للمرة الاولى العربية، ذروة خبرته في الدراسة واللغة والشعر والترجمة.

شكسبير الذي يعيش بيننا:

اما الشاعر بدر توفيق فقد اعلن في سياق حديثه عن شكسبير انه لن يتحدث الا عن الاشياء الضرورية التي تقرب صورة شكسبير كانسان عاش في زمن بعيد، ولكننا نحس انه يعيش معنا هذا الزمن الذي نحيا فيه، وانه يكتب هذه القصائد لنا نحن الآن في عام ١٩٨٨، كأن هذه القصائد بكل مافيها ليست غريبة عنا، فالعاطفة الصادقة التي يعبر عنها جعلنا نتلقاها وتؤثر فينا ببساطته وبنظامه. وهذا شأن كل الفنانين العظماء؛

فالفنان بشكل عام - يتلقى تعقيدات الحياة كلها في داخل عقله، الذي وهبه الله قدرة على تحليل الاشياء المركبة واعادة توصيلها الى المتلقى بالشكل الذي يفك طلاسم هذه العاطفة وتجعله قادرا على تجسيد شعوره او انفعاله بالشكل الذي يصلنا لنتفهم هذا الاحتدام الذي يحدث في داخلنا، هذا الفرح الغامر الذي نحس به في مواجهة افراح او اتراح الحياة، فكل هذه الاشياء التي تحدث في عالمنا نجدها في السونيتات فهي عمل يتناول الانسان بصدق وواقعية وبساطة واصالة، وهذا ماجعل شكسبير فنانا عالميا، يقرأه الانسان في كل مكان، لما صاغه من مواقف انسانية في مسرحه.

● مسرح السونيتات:

في السونيتات نجد مسرح شكسبير ايضا، ولكن شخصياته محدودة جدا، وهي شخصية شكسبير والشخص الغامض (W. H)

■ حسين عيد ـ القاهرة

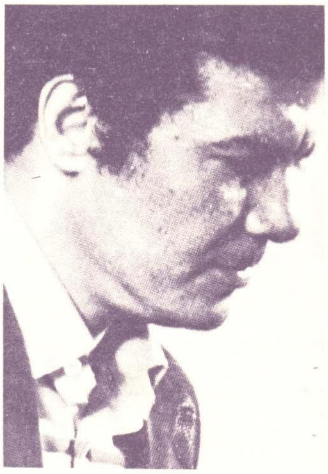
الذي يتوجه اليه بخطابه، والذي يحاول النقاد ان يفكّوا الغموض المحيط بهذه الشخصية، لاكتشاف من هوهذا الشخص الذي يبدأ اسمه بهذين الحرفين، وقد انتهى الامر بأن حوّل بعضهم الامر الى نكتة حين فسّروه على انه Willaim Himself اي وليام (شكسبير) نفسه. ولكن الآراء التقت حول ان هذا الشخص «دوق»، وتنطبق عليه مواصفات الجمال والذكاء وحب التجول والاقبال على الحياة وحب السهر والنساء، وبالفعل كان هذا الشخص راعيا للفنانين وصديقا لشكسبير. وقد توجه اليه شكسبير في السوفيتات من (١) الى (١٢٦).

وقد كتب شكسبير السونيتات حين كان عمره يتراوح بين سبع وثلاثين او ثمان وثلاثين عاما، وعندما نشرت عام ١٦٠٩ كان عمره خمسا واربعين سنة.

والشخصية الثالثة لشاعر كان يتودد الى هذا الأمير الشاب الذي كان شكسبير يوجه اليه الخطاب دائما، وبدأ شكسبير يحسّ بالغيرة والقلق، لذا نجد تسع سونيتات (من سونيت ٧٨ حتى سونيت ٨٦) حول هذا الموضوع.

أما الشخصية الرابعة فهي شخصية العشيقة أو المحبوبة، او السيدة الخمرية او السمراء او القاتمة التي خانته مع الامير الشاب، (من سونيت رقم ١٢٧ الى ١٥٢).

المترجم بدر توفيق



● معنى (سونيت):

تعني كلمة «سونيت» الشكل الفني لقصيدة تتكون من اربعة عشر سطرا، يتكون كل سطر فيها من عشرة مقاطع صوتية، ولقوافيها نظام خاص يلتزم به الشاعر: تنقسم السونيت داخلها الى اربعة مقاطع، يتكون كل من المقاطع الثلاثة الاولى من اربعة سطور، ويتكون المقطع الاخير من سطرين. تنتظم القوافي في المقاطع الثلاثة الاولى لتكون قافية السطر الاول هي قافية السطر الثالث، وقافية السطر الثاني هي قافية السطر الرابع، من كل مقطع على حدة، بحيث لاتتكرر في المقطعين التاليين، اما المقطع الاخير المكون من سطرين فتنتهي بقافية ثنائية، بذلك يكون نظام القوافي في السونيتات على هذا النحو: (أ ب أ ب ـ ج د ج د ـ هـ و هـ و ـ ز ز).

● أقسام السونيتات:

واستطرد المترجم قائلاً: تنقسم السونيتات الى قسمين رئيسين هما القسم الاول من رقم (١) الى رقم (١٢٦)، وفيه يتحدث شكسبير الى ذلك الشخص (W. H). والقسم الثاني من رقم ١٢٧ الى ١٥٢ وفيه يعبّر شكسبير عن تجربته مع معشوقته الخائنة. اما السونيتتان الاخيرتان ١٥٣، ١٥٤ فتقفان مستقلتين بفكرتهيما عن كلا القسمين السابقين حيث تعالجان اسطورة كيوبيد وشعلته الغرامية، وكان شكسبير قد قرأها ضمن مختارات للشاعر الاغريقي ماريانوس سكولا لاستيكوس من القرن الخامس الميلادي.

ويتجزأ القسم الاول الى ثلاثة اجزاء، حيث وضع الفنان محمود الهندي رسما بعد الاهداء وقبل السونيت رقم (١) الى سونيت (١٧) وفيها يحث شكسبير صديقه الشاب على الزواج وانجاب الاطفال، وهي تنويعات مختلفة لفكرة واحدة، ولعل عودة سريعة لحيا شكسبير تلقى ضوءا على هذا الجانب، فقد هبط الى لندن من بلدته وعمره ٢٢ عاما، بحثا عن العمل فترك زوجته وكان قد انجب منها ثلاثة اطفال سوزانا وهامنت وجوديت (توأم)، ومات هامنت وعمره احد عشر عاما، ولم ينجب بعده اولادا، وانتهت سلالة شكسبير، فلعله كتب هذه القصائد عن معاناة حقيقته وتجربة صادقة كأب مفؤود.

والجزء الثاني من القسم الاول يبدأ بسونيت ١٨ حتى ٧٧ وفيه يتناول مشكلة التحولات والتغيرات وتأثير الزمن على صديقه الحبيب، والخلود الذي يحققه الشعر لهذا الصديق ضد التجاعيد البغيضة والموت الذي لامفر منه «فما دامت للبشر انفاس تتردد وعيون ترى، سيبقى هذا الشعر حيا، وفيه لك حياة اخرى (سونيت ١٨)».

والجزء الثالث من القسم الاول يتشكل من ٩ سونيتات من رقم ٧٨ حتى ٨٦ وهي تدور حول الشاعر المنافس لشكسبير في علاقته بصديقه الحبيب، وهنا نجد رنّة ونغمة جميلة فيها أسى وحزن وعقاب ومحبة واعتزاز بالنفس وبمكانته الخاصة وفيها ايضا انتفاضة وثورة على هذا المنافس.

وتستأنف السونيتات التالية حتى نهاية القسم الاول في التعبير عن حبه واخلاصه، حيث يصل في سونيت رقم ١٢٦ الى ذروة تسمو بصاحبه الشاب الى درجة الصداقة والنبوة، فيناديه بروح الابوة نداءها العذب متمنيا له الخلود والنجاة من الموت «ياايها الابن الحبيب.. لو ان الطبيعة، تحفظك من التقدم في العمر.. الا ان حسابها النهائي، لابد ان يسدد.. حين تسلمك الى براثن الموت».

احصائية طريفة:

قمت باحصائية لعدد السطور التي تتكون منها السونيتات فوجدتها ٢١٥٥ سطرا ولشكسبير قصائد شعرية اخرى تقع في حوالي اربعة آلاف سطر، بخلاف ماكتبه من اعمال مسرحية تبلغ ٣٧ عملا؛ لنعرف كم كان حجم عبقريته لأنه لم يعمل في حياته سوى عشرين عاما تقريبا.

الملاحظة الثانية بالنسبة للسونيتات، ان شكسبير لم يخرج عن نظام السونيت السابق عليه سوى مرتين الاولى في سونيت ١٢٦ حين كتبها في ١٢ سطرا بقافية ثنائية (أ أ / ب ب / ج ج / د د / هـ هـ / و و)، والثانية في سونيت ٩٩ حين كتبها في ١٥ سطرا بزيادة سطر واحد في مقطعها الاول.

● مميزات سونيتات شكسبير:

كان اشهر من كتب السونيتات، من الاجيال السابقة لشكسبير، الشاعر الايطالي الكبير فرانشسكوبتراركو وكذلك كتبها وردثوورث وكولردج في العصر الرومانتيكي وكذلك كتب ديلان توماس المعاصر العديد من السونيتات. فمالذي جعل لسونيتات شكسبير هذا الانتشار الواسع وهذه الشعبية الطاغية ؟

انتقلت السونيتات من ايطاليا (على يد بترارك) الى فرنسا وانجلترا وانتشرت في اوربا خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر. فما هو اختلاف سونيتات شكسبير عن الانجازات السابقة عليها ؟

اولاً: تم اعادة تشكيل شكل السونيت التي كانت تتكون من ١٤ سطر على يد شكسبير ومعاصريه، فبعد أن كانت السونيت الايطالية والفرنسية يتم فيها تقسيم الـ ١٤ سطر (٤ ٤ ـ ٣ ـ ٣)فاصبح تقسيم السونيت الانجليزية (٤ ـ ٤ ـ ٤ ـ ٢)

ثانيا: كان الغرض الاساس من السونيت التي كتبها بترارك وظل شائعا وسار عليه كثير من الشعراء الانجليز (ومنهم بعض الشعراء الانجليز المعاصرين)، هو الغزل، هي قصيدة غزلية تتحدث عن جمال الحبيبة، وهي مثال مطلق للعفة والجمال والاخلاص والوفاء والحب والتفاني، فهي نموذج كامل للكمال. لكن شكسبير قدم الواقع وقدم المرأة بطبيعتها المتقلبة وابرز جوانب الاخلاص والحب في الرجل. وهذا اختلاف اساس في موضوع السونيتات عند شكسبير عن السابقين له.

● عن ترجمة السونيتات:

ثم تحدث الشاعر بدر توفيق عن حافزه لاختيار «هذا العذاب الممتع في ترجمة هذه القصائد الصعبة الانسانية، التي تتمثل صعوبتها في لغتها الشعرية الانجليزية حيث كتبت منذ حوالي اربعة قرون (في السنوات السبع الاخيرة من القرن السادس عشر ١٦٥٣ ـ ١٦٠٠»)، أما انسانيتها فتتمثل في معانيها التي تتحدث الى الانسان في كل زمان ومكان وعن كل شواغل الدنيا.

وفي الترجمة لم اشغل نفسي بالوزن والقافية وانما شغلت نفسي بالحرص على التطابق في الشكل والتماثل في الاسلوب والتأثير المنشود الذي يريد ان يحدثه شكسبير في وجدان القارئ. وهذا ما حرصت عليه في انتقائي لمفردات اللغة وعلاقاتها، وتضفير الجمل وتلاحق المقاطع.

واخيرا احب أن اشير الى ان معظم دول العالم قد سبقتنا الى ترجمتها الى لغات شعوبها منذ زمن بعيد، وللمثال، في فرنسا وحدها ترجمت هذه السونيتات ٢٦ ترجمة في الفترة من ١٨٢١ الى ١٩٧٠.

ثم شرع المترجم في قراءة عدد مختار من سونيتات شكسبير، والتحليق في اجوائها الحية الخالدة.

● كلمة اخيرة:

تعتبر ترجمة سونيتات شكسبير الكاملة التي قام بها الشاعر بدر توفيق، حلقة في سلسلة الجهود الفردية الخلاقة، بمبادرات شخصية منهم، لترجمة امهات كتب التراث العالمي في الآداب والفلسفة او لتحقيق تراثنا العربي..

في هذه السلسلة انتظمت جهود حسن عثمان في ترجمة «الكوميديا الالهية»، وزهير الشايب في ترجمة كتاب (وصف مصر) الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية، وسامي الدروبي في ترجمة الاعمال الكاملة لديستويفسكي، وفؤاد كامل في ترجمة (قدر الانسان) و (الامل) لاندريه مالرو، وعبد الرحمن بدوي في ترجمة (الوجود والعدم) لسارتر.. ومحمد مصطفى في «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس، وغيرهم كثير.

تلك نماذج قليلة لجهود فردية اثمرت نتائج نافعة، قدمت للعقل العربي اعظم غذاء من التراث العربي والعالمي..

وهنا لابد ان تثار قضية، تؤرقنا، مع ظهور كل عمل جديد على هذه الشاكلة.

الم يحن الاوان بعد، كي نخلق لنا في عالمنا العربي، هيئة عربية خاصة، تشارك فيها البلاد العربية مجتمعة، تهتم بشئون المثقف والقارئ العربي، وتخطط لنا اهم احتياجاتنا في الترجمة من التراث الشرقي والغربي، وتفتح ابوابنا امام آداب امريكا اللاتينية ودول العالم الثالث في افريقيا وغيرها، وتضئ امامنا الطريق نحو كنوز تراثنا العربي ؟.

هذه الهيئة ـ لو تحقق الحلم ـ ستمتلك امكانيات واسعة، وسيتولى التخطيط لها نخبة من كبار مثقفي العالم العربي، بما يتيح لها اسناد عمليات الترجمة والتحقيق لمتخصصين، يمكن لها متابعتهم في ذات الوقت..

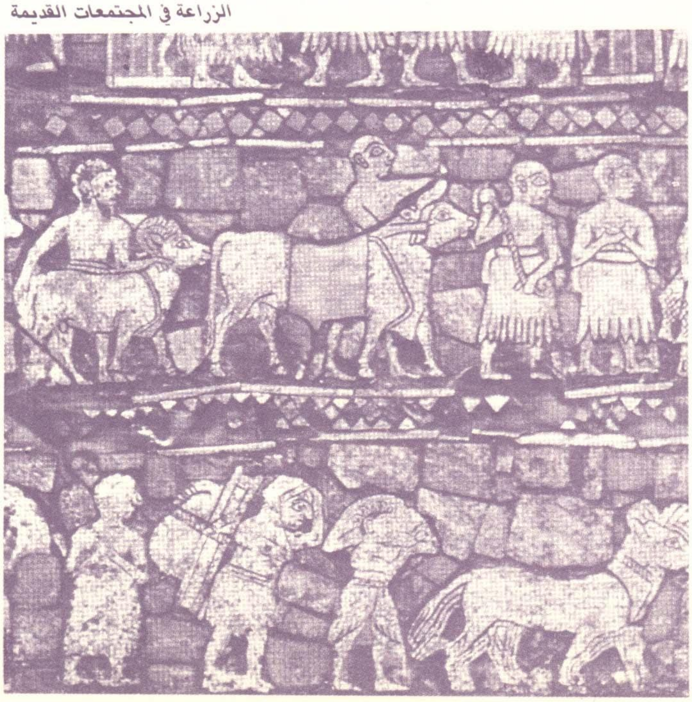
■ مركز الانماء القومي ـ بيروت

قصة الفأس الحديد والرجال البدائيون

الدرس الانتروبولوجي مايزال ينقصه الكثير من التقصّي والخبرة واعتماد أساليب تتجدد على الدوام كيما يخبرنا عن تلك الرحلة العظيمة التي قطعها الانسان، منذ بداوته الاولى والى الآن. فالانتروبولوجيا التي اقترح لها الشيخ عبد الله العلايلي مصطلحا عربيا هو «الاناسة»، راح يشق طريقه الى المعاجم والدراسات العربية المتخصصة، ماتزال أرضاً بكراً، والاحرى علماً حديثاً، لم يهتدِ الى قوانين ثابتة ونهائية. وبمناسبة هذا الكلام فاننا لانستطيع الا أن نقدّر النّبت الطّيب الذي حصده هذا العلم من خلال معرفته المراحل التي تدرّج فيها الانسان حتى بلوغه هذا الشأو من التطور. وأكثر من ذلك، حيث نستطيع أن نعتبر بأن علم الانتروبولوجيا اثبت جدارته، وقوته، وقابليته للحياة، من خلال المنجزات التي تحققت على ايدي رواد أشاوش من مثل كلود ليفي شيتراوس وايفانز بريتشارد وجورج بالانديه. ويمكن ان نضيف الى هؤلاء الثلاثة شخصاً أخر هو الفرد مترو صاحب الدراسة الانتروبولوجية الموسومة بـ« ثورة الفأس » المنشورة لاول مرة عام ١٩٥٩ في مجلة « ديوجين»

الفأس الحديد جلبت للبدائيين الراحة والبحبوحة، لكنها دمرت تماسكهم ووحدتهم.

الزراعة في المجتمعات القديمة



الفرنسية[١]. ولعل هذه الدراسة الممتعة والهامة ستكون محوراً لحديثنا في هذه الدراسة.

يلفت « ألفرد مترو » نظرنا في مطلع حديثه الى أن كلمة ثورة تتخذ ـ في الدرس الانتروبولوجي ـ معنى مغايراً لذلك العالق في أذهاننا. انها جملة التغيّرات التي تصيب جماعة بشرية معينة بانتقالها من طور الى طور، أو بسبب من دخول تقنيات وأدوات جديدة الى الحقل الثقافي لهذه الجماعة. وللمثال فان « الثورة النيوليتية » تشير الى انتقال أجدادنا الاوائل من الاعتماد على الصيد واللقاط لتوفير القوت الاساسي، الى الزراعة، وذلك من خلال اكتشافهم لتلك الادوات المصنوعة من جذوع الشجر بحيث كانت خير معين لهم في عَزْق الارض وتثليمها. ولعل اكتشاف الزراعة لم يكن بأقل من ثورة حقّقت لاجدادنا ما يمكن أن نسميه اقتصاد الوفرة[٢]، فإقامة أودهم أو إشباع بطونهم بات يَقتضي جهداً أقل، عكس ما كان عليه الامر في المرحلة الصيديّة، من ركوب المخاطر والطواف في المجاهل بحثاً عن أرنب

سمين او هرّ بري. اما اذا تعثّر الحظ فيصبح من باب العقل الاكتفاء بأفعى وهي تتطلب، لتصبح شهية، جهداً أقل بكثير مما لو كان الصيد ماعزاً أو غزالاً. فقد كانوا يسلخون الجلد بنتعة واحدة، ثم يلتهمونها بعد شيّها قليلاً بحرارة الشمس.

واذا كان اكتشاف الزراعة على هذا القدر من الاهمية بالنسبة للانسان الاول، فان حيازته الفأس الحديد، بدل الفأس المنحوتة من حجر، شكّلت ثورة لا تقل بأهميتها ومدلولها. ولعل ذلك لا يدعو الى العجب بقدر ما هو حافز على التأمل والتبصّر في مسرى الامور. فأيّ جماعة بشرية، سواء أكانت حديثة ام غابرة، يصاب نظامها الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي بانزياح كبير نتيجة استضافته أدوات وتقنيات وأنماط عيش جديدة. وفي هذا الاطار يذكرنا الفرد مترو بما كان للحصان من دور حاسم في نقل جماعة بشرية معينة من طور الى أخر. ان هذه الاداة الجديدة فعلت فعل السحر بالنسبة لهنود « المبايا»، بسكان القارة الاميركية.

فهؤلاء البدو الرحّل الذين اعتاشوا طويلاً على الصيد واللقاط، جعل منهم الحصان أناساً أخرين. فقد كان عليهم، وهم بازاء الاكتشاف الجديد (الحصان) أن يطمحوا الى ما هو أبعد من الصيد. وكخطوة أولى في مسافة الالف ميل، كان عليهم أن يواجهوا مواهبهم نحو السلب والنهب. وبعد أن بذوا القبائل الاخرى في هذا الحقل، اتسعت أفاقهم وصار مطلبهم أن يوسعوا أطراف سيطرتهم بحيث تشمل غير قبيلة ومكان. وكيف لايكون لهم مثل ذلك وهم أسياد الحصان؟ وهكذا استطاعوا أن يؤسسوا ابان القرن السابع عشر، امبراطورية مترامية وحقيقية.

ومن خلال الانتصارات التي تحققت على أيدي هؤلاء فانهم تمكنوا من الظفر بأعداد لاحصر لها من الاسرى الذين تحولوا الى عبيد كان اختصاصهم زرع الارض وريّها.

وبكثير من الدهشة يحدثنا الفرد مترو عن هذه الجماعة قائلاً انها استطاعت أن توجد، في قلب القارة الاميركية الجنوبية، مجتمعاً اقطاعياً قريب الشبه مما يسميه المجتمعات السيّدة في أسيا وافريقيا. حتى ان الفاتحين الاسبان، حين رفعوا بيارقهم في تلك البلاد ، رأوا عجباً من خلال تعاملهم مع زعماء « المبايا » ووجهائهم. فهم كانوا على شيء من الصفاقة والعجرفة والكبرياء.

وبسبب من هذه الصفات فقد عانى الاسبان الامرّين قبل أن تنحني رؤوس « المبايا» مثلما انحنت لهم، من قبل ، رؤوس القبائل الاخرى.

حديث الفأس :

أما الفأس فلها حديث أخر. سوف يكون كلامنا هنا على الفأس الحديد التي كان لظهورها بأيدي الرجال البدائيين، بدل الفأس من حجر ، دور حاسم في انتقال الجماعات البدائية من طور الى طور. نستطيع ان نندفع أكثر ونحن نحدّث بحديث الفأس الحديد. فالمرحلة الحضارية التي أسهمت هذه الفأس في صنعها، تميزت بشقاء أقل وبحبوحة أكبر، بالرغم من أن ثمة بعداً أخر، سلبياً، جلبته معها وانعكس وبالاً على وحدة الجماعة البشرية وترابطها. أما كيف شقّت الفأس الجديدة طريقها الى القبائل البدائية، فبفضل الاناسيين (الانتروبولوجيين) اذ كان على كل منهم أن يتأبط رزمة من الفؤوس ويرابط عند مفارق الطرق، وهدفه عقد صلات بالبدائيين على أسس واضحة. فبمقابل الفأس التي تلمع في أشعة الشمس حق للاناسي ان ينزل ضيفاً مكرماً على أفراد القبيلة، فيؤاكلهم ويشاربهم ويمارس الصيد بالقوس والنشاب، وكل هدفه من هذه المغامرة أن يغنم معلومات تضيء بحثه الانتروبولوجي. لكن زوال العصر الحجري وحلول العصر الحديدي، شكّلا المنعطف الحاسم في تاريخ البشر البدائيين. ونستطيع ان نعتبر بأن أوفى تقرير حول هذا الموضوع وضعه الدكتور دارسي ريبيرو لحساب منظمة الاونيسكو [٣].

بدأ ريبيرو اولى خطواته من البرازيل الجنوبية حيث تقطن أعداد وفيرة من هنود « تشوكلنغ ». فلحظ أولاً ما رواه هؤلاء لاحد موظفي « قسم حماية هنود البرازيل » عند أول لقاء لهم بالبيض. ان نفراً من هنود « تشوكلنغ » رأوا ما أثار عجبهم حينما كانوا يشقون طريقهم في الغابة ابتغاء الصيد. حتى إنهم اصيبوا بذعر لا مثيل له عندما شاهدوا أن ثمة درباً في الغابة شقّت حديثاً وهي لا تشبه، من أي وجه، الدروب التي الفتها أرجلهم وأعينهم. فالاشجار الضخمة، اذ كانت تسد مواطيء الاقدام، أزيلت

بقدرة قادر، فوقف بدائيو «تشوكلنغ» يمثلون هـذا المشهد جيداً. فـلا الاشجـار لويت ولا هي ثنيت وانمـا قطعت من أسفل نقطة في الجذع، (.. لابـد أن قوى سـحـريـة شقت هـذا الدرب !) هكـذا تبـادر الى أذهـان البـدائيـين الذين وزعـوا انفسهم اتجـاهات شتى بحثـاً عن مخلوقات عجـائبية ربمـا لاتـزال تختبيء في الغابة.

ويـاللعجب! رأى عـدد منهم ان شجرة غاية في الارتفاع والضخـامة انطرحت أرضاً. وما أثار الدهشة أن هذه الشجرة أيضاً لم تلو ولم تثن بل قـطعت، مثل سـابقاتهـا، من أسفل نقطة في الجذع. وعـلى مقربـة من الشجـرة المقطوعـة شاهـدوا آثـاراً لاقدام أشبه ما تكون بالرسوم التي يصنعها صغارهم لقوارب النهر.

وتغلغلوا في الاحـراج بيـنمـا الدهشة تملأ وجـوههم. وما هـو الا حين قصير حتى انتهوا الى منفرج في القلب من الغابة. في الوسط من هذا المنفرج جثم كوخ صغير. وعلى مسافة قريبة منه تحلقت كائنات قريبة الشبه من الانسان. فكان أن اتخذوا القرار الخطير: يجب مهاجمة هذه الكائنات عند الفجر. ولكن ماذا يفعلون بنفاد الصبر؟ وهكذا تمّ القضاء على هـذه الكـائنات (الرجـال البيض) تحت جنح الظلام. وفي سرعة البرق حول رجـال «تشوكلنـغ» أنظارهم نـحـو الفؤوس الحديد المعلقة على جدران الكوخ بعد أن اعتبروا، حال وقـوع نظرهم نحو الفؤوس الحديد المعلقة

على جدران الكوخ بعد أن اعتبـروا حال وقوع نظرهم عليها أنها هي التي قامت بالافعال العجيبة في الغابة وفي اليوم التالي تبين لهم أن ضحايـاهم رجـال أشـاعـر (كثيـرو الشعـر)، جلودهم غـريبـة، وأرجلهم دسّت في أكياس (جوارب).

وبغية تفحّص الجثث بروية نزعوا عنها الثياب وعلقوها على عصيّ طويلة، واخضعـوا للفحص الدقيـق كـل الاشياء التي عثروا عليها في المكان. وعنـدمـا لم يهـتـدوا الى طريقـة لاستعمال القدور والأواني حطموها. ثم غـادروا المكـان بعـد أن شجـوا جماجم القتلى لكي يحـولوا دون أن يبعثوا من جديد. وما أخذوا معهم غير الآلات الحديدية.

منذ ذلك الحين راحت الفـأس، المكتشفة حديثاً، تشكّل عماد الحياة لدى البدائيين في القارة الاميركيـة. فهي أداة نـاجعـة للصيـد، وكـذلك لمقـاتلة الجيران الطامعـين بالمغـانم والاسلاب. ولا نستطيع الا أن نذكر مـا كان للفـأس من دور في تخفيف العناء عن الرجال والشبان في خلال عملهم عـلى قـطع الاشجـار وبنـاء مساكن جديدة. فالفأس السابقـة، الحجرية، كـانت ـ بدل أن تقـطع ـ تشرّم الالياف وتثلّم الجـذوع، فلا تهوى الاشجـار بغـير شق النفس، الامر الذي خففت منه كثيراً الفأس المكتشفة حديثاً.

ولكن يجب ألا ننسى ما جلبه هذا الاكتشاف الحديث من تهديد لوحدة الجماعة وترابطها. فالقبيلة الواحدة، وبعـد أن عاشت بسـلام حتى وقت قريب، راحت تشهد دورات متـوالية من القتال بين من يملكون الفأس ومن لايملكونها. كمـا أن ثمة شيئـاً آخر شاهده الانتروبولوجيـون وأسهم في زعـزعة البنيـة المتمـاسكـة للقبيلة. فالعسل، اذ كان يتحلب البدائيـون لمذاقه، لم يجنوا منه غير كميات قليلة. والسبب أن النحل كان يتقصّد تخبئة أقراص الشهد في تخـاريب الشجر البعيدة من مرمى الرماح الخشبية. حتى اذا ما قدمت الفأس الجديـدة كان بالامكـان طرح الشجرة أرضـاً والاستمتاع بأكبر كمية من العسـل البرّي.

وقـد كان للمحصـول الوفير من العسـل نتائج وخيمـة عـلى وحـدة الجماعة، فالقبائل البدائية، وخاصة قبيلة «سيـرمـونـو» في اميـركـا الجنـوبية، استخـرجت من العسـل شـراباً مسكـراً، وتحـولت جلسـات الشراب والسكر الى شغل شاغل. واذ راحت الخمـرة تتعتع الرؤوس فـان الاحقاد الدفينة طغت عـلى السطح.

ولعل ما كّون هذه الاحقاد التوزيع غير العادل للفؤوس مما أدّى تاليـاً، الى حال من التحاسد والتباغض بين من حازوا الفأس وبين من لم يحوزوها. وعـلى هـذا كـان مـالكـو الفـؤوس الحجرية والرماح الخشبية ينتظرون على أحر من الجمر أونة الاعياد، وهي مناسبات جيدة لتوجيـه الاهانـة الى مالكي الفؤوس الحـديديـة ومحاولة تجريدهم منها. ولم يكن لينتهي الامر الا والمتنازعون على الفؤوس بين قاتل ومقتول.

وهكذا فان البنيان المتماسك، اذ ميّز طويلاً الجماعة البدائية، أصبح ذكرى من الماضي. فالقبيلة تفرعت الى قبـائل. وافـراد الاسـرة الواحـدة توزعوا اتجاهات عدة، وفي دخيلة كل منهم توق نهم الى ان يحظى بفـأس حديد يشجّ بها رأس أخيـه او ابن قبيلته.

المراجع :

---

(١) عنوان الدراسة في الفرنسية هو: "La revolution de la hache par Alfred metraux ' Diogene — 1959

وقد نقلت هذه الدراسة لاول مرة الى العربية على يد عبد اللطيف قطيش وجـاءت تحت عنوان «ثـورة الفأس»، «الفكر العـربي»، العدد ٤٥، ٣٤١ ـ ٣٤٩، السنة ١٩٨٧.

(٢) ننصح ،هنا، بمراجعة كتاب «الغرب والعالم»، كانين رايلي، القسم الاول، حيث ثمة كلام وافٍ، وفي امكنة متفرقة منه حول نشوء مايسمى باقتصاد الوفـرة، سلسلة عالم المعـرفة، الكـويت، ترجمـة الدكتورين حجازي ـ المسيري، ١٩٨٥.

(٣) ثورة الفأس، مصدر مذكور، ص ٣٤٤ وما بعدها.

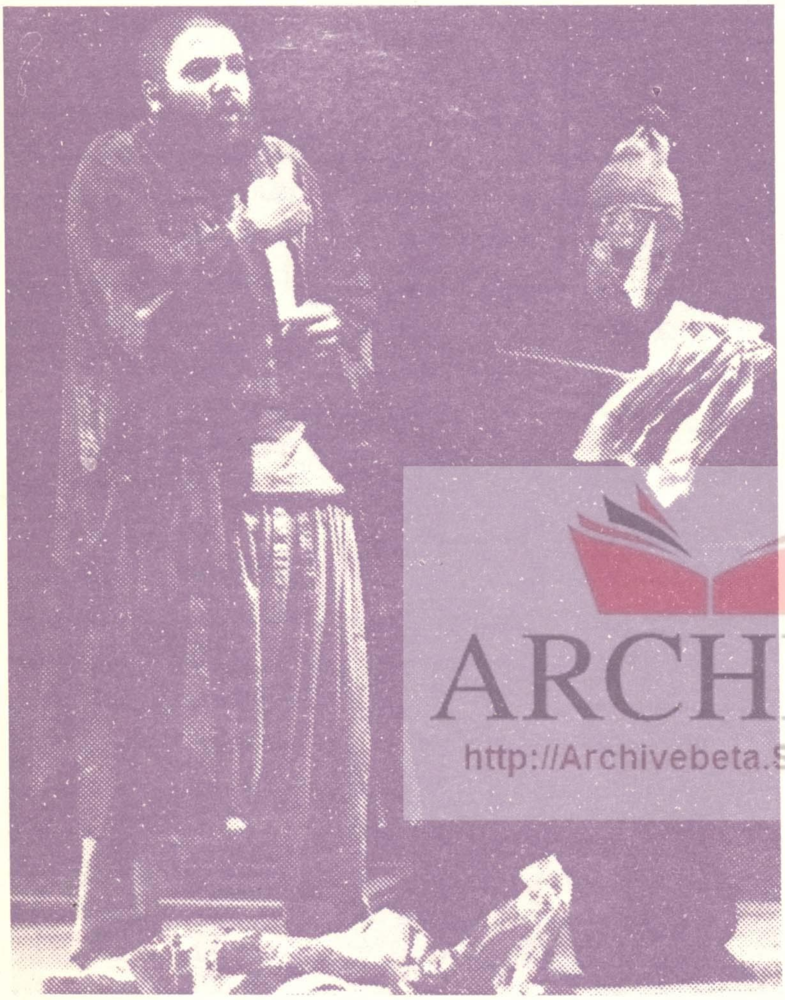
اسبوع «الثقافة الفلسطينية» في مدينة بازل في سويسرا



عقد من ٢٠ ايلول / سبتمبر الى ٢ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٨ اسبوعا ثقافيا يعالج مواضيع مختلفة تتعلق جميعها بفلسطين. ولقد لاقى هذا الاسبوع نجاحا نادرا، حيث ان الجمهور لم يكن يتوقع هذا المستوى الفني الرائع في التأليف والتمثيل والاخراج.

عرض في الأمسية الأولى الفيلم الوثائقي الفني « الذاكرة الحية »، وهو باكورة أعمال الفنان الفلسطيني ميشيل خليفي، الذي ولد ونشأ في ناصرة الجليل ودرس فن السينما في بلجيكا.

الفيلم ناطق باللغة العربية مع ترجمة ألمانية، جرى تصويره في فلسطين سنة ١٩٨٠ وعرض في نفس السنة في التلفزيون الألماني بعد ان لقي تقديرا لدى الأوساط الفنية في أوروبا. الفيلم يقدم امرأتين فلسطينيتين تتكلم كل منهما بطريقتها الخاصة عن مشاعرها تجاه الأرض ـ الأم ـ الوطن. إلا أن حديث كل منهما لا يجري في « استوديو » بل في خلفية أصيلة حقيقية وواقعية. فان « فرح » ، وهي امرأة على ابواب الشيخوخة، ترفض ان تأخذ تعويضا عن أرضها التي صادرها (الاسرائيليون) منذ ثلاثين عاما، فهي تفقه بشعورها الفطري ما لا يستطيع فهمه كثير من « الأذكياء » بأن قطعة الأرض في هذه الحالة هي « قطعة وطن »، وأي مال يكفي للتعويض عن الوطن؟ أما « سحر » وهي كاتبة في أواخر الثلاثينات من عمرها وفي أوج حيويتها، تعبر عن مشاكل شعب يرزح تحت نوع من الاحتلال يتجاهل وجوده، والكفاح من أجل البقاء تحت هذا النوع من الاحتلال ليس من واجب الرجل وحده، بل إنه من حق



المرأة ايضا. وهنا تحاور « سحر » مطالبة بتغير تفكير بعض الرجال الذين ينظرون الى المرأة نظرتهم الى مخلوق ناقص.

وسحر هذه هي الروائية الفلسطينية المعروفة سحر خليفة والتي كتبت روايتي « الصُبار » و « عباد الشمس »، وهما الروايتان اللتان ترجمتا الى أكثر من لغة أوروبية من بينها الألمانية. قام بالترجمة الألمانية الدكتور هارتموت فيندريش وكاتب هذه السطور.

تتحدث الروايتان عن المجتمع الفلسطيني تحت (الاحتلال الاسرائيلي) وتصفان بأسلوب أدبي جذاب الصراعات التي تدور في هذا المجتمع والتي تؤدي بدورها الى تطور هذا المجتمع تطورا يساعده على التكيف لمواجهة ظالميه. فالمرأة التي تحرص في البداية على سلامة أولادها بأن تمنعهم أو تنهاهم عن الاشتراك في المظاهرات الشعبية ضد الاحتلال وقذف جنود العدو بالحجارة، تشترك هذه المرأة نفسها في المظاهرة، وهي اشارة مستقبلية لما حدث بعد ذلك وما زال يحدث حتى يومنا هذا في ثورة الحجارة.

وفي ٢ تشرين الأول / أكتوبر ألقت الدكتورة سحر خليفة محاضرة باللغة الانكليزية قمت بترجمتها الى الألمانية، ثم دار نقاش شيق بين جمهور مثقف ومؤلفة قديرة استمر أكثر من ساعة، وكانت أمسية ممتازة.

وفي ٢١ أيلول / سبتمبر عرض فلمان وثائقيان احدهما بالألمانية أنتج سنة ١٩٨٠ يصور حياة الفلسطينيين في المخيمات المختلفة في لبنان والثاني ناطق بالعربية مع ترجمة المانية - انتج سنة ١٩٨٨ - يتحدث وبالصور عن حرب المخيمات التي بدأت سنة ١٩٨٦. وبما ان هذين الفلمين اعلاميان فلن أعلق عليهما بأكثر من القول بأنهما يصوران واقعا فلسطينيا مرًّا في لبنان.

اما فلم « عرس الجليل »، وهو أيضا من اخراج ميشيل خليفي، فقد حاز على جائزة نقاد الفلم العالمية في كان (prix de la FIpREscl' Cannes) (1987 وعرض قبل سنة تقريبا في التلفزيون الألماني، كما عُرض في صالات العرض التجارية في كل من زوريخ وبازل حيث لاقى نجاحا لابأس به.

موضوع الفلم: قرية عربية (لايذكر اسمها خلال الفلم) ترزح تحت (الاحتلال الاسرائيلي) اشترك شبابها في مقاومة الاحتلال ولذا فرض الحاكم العسكرية على سكانها منع التجول ليلا ومنع التجمع نهارا. يذهب مختار القرية الى الحاكم العسكري طالبا رفع منع التجول مدة أربع وعشرين ساعة وذلك لكي يتسنى له الاحتفال بعرس ابنه مع جميع ابناء القرية بعد تردد قصير يوافق الحاكم العسكري على طلب المختار واضعا شرطا خبيثا، ألا وهو ان يكون الحاكم العسكري مع حاشيته ضيوف الشرف. يوافق المختار على مضض. وهنا يبدأ الصراع: زوجة المختار تبدي امتعاضها بهدوء الا انها لاتقاوم قرار زوجها، أخو المختار يقسم ألا يحضر

عرسا « يدنسه وجود الحاكم العسكري »، بعض الشباب يبدأون بالتخطيط لاغتيال الحاكم العسكري ومرافقيه. أخو المختار يفاجيء الشباب بعدم موافقته على خطتهم لأنها ستعطي (الأسرائيليين) العذر لتنفيذ مذبحة بين السكان العزل، فيحاول اقناعهم بأنه ليس ضد العمل في حد ذاته ولكنه ضد الطريقة والزمان والمكان. ويوصي أخو المختار بعض رجال القرية المخلصين بمراقبة هؤلاء الشباب لئلا يقعوا ويوقعوا معهم سكان القرية في الفخ، في حين تكون (مخابرات العدو) قد انتشرت في القرية. وبهذا يكون الفلم بمثابة نبوءة عن قرب بدء « الانتفاضة » ، بنوعيتها الخاصة في المقاومة.

يستغل المخرج موضوع الفلم (العرس) ليجمع ألوان الاحتفالات والمراسيم الشعبية، منها البائدة ومنها الحية، التي تقام في مثل هذه المناسبات في قرى ومدن فلسطين المختلفة ليضعها في فلم واحد، رامزا بذلك الى وحدة التراث ووحدة المصير. فالعرس يرمز في الأساس الى استمرارية الحياة والبقاء عن طريق الزواج فالتكاثر، والى أحلام الشعب وأفراحه التي يُشارك بها في النهاية جميع سكان القرية دون أن يتجاهلوا واقع الاحتلال، بل ان نجاحهم في التعاون على إحياء العرس رغم كل الخلافات، يرمز بدوره الى الأمل في تحقيق أحلام الشعب رغم أنف الاحتلال.

أما الجوهرة الفنية لهذا الأسبوع والمفاجأة الكبرى فكانت الفرقة المسرحية الفلسطينية « الحكواتي » في مسرحيتها « كفر شمّا » كنت قد سمعت عن المستوى الرفيع لهذه الفرقة من قبل، وعن ملاحقة (السلطات الاسرائيلية) لأفرادها، وعن المشاكل المادية التي تعاني منها، وعن مقص الرقابة (الاسرائيلية) الذي يحاول ان يفرغ مسرحياتها من معناها ومغزاها، فالفرقة لاتقدم المسرحيات العالمية المعربة فحسب، بل ان معظم ما تقدمه على خشبة المسرح هو من إنتاج أعضاء الفرقة أنفسهم، ومواضيع مسرحياتها هي: الشعب الفلسطيني ومشاكله وأحلامه. اذن لماذا هذه الحملة الهوجاء على أشخاص لم يحملوا أي نوع من السلاح التقليدي في حياتهم أبدا؟ ..

لم أعرف جوابا على السؤال السابق إلاّ بعد أن شاهدت مسرحية « كفر شما » فالمسرحية تتحدث عن سكان « كفر شما » (وهي قرية خيالية أمنة لاوجود لها على الخريطة) الذين يضطرون الى الهجرة... ويتعهد أخو المختار العائد لتوه من مصر بعد حصوله على شهادة ال. B.A ليجد قريته خاوية خالية ـ اللهم الا من معتوه القرية « كعوش » ـ يتعهد أن يبحث، وبرفقة كعوش هذا عن سكان القرية لاعادتهم اليها.

المسرحية لا تذكر كلمة « اسرائيل » أو « عدو » أو « قوات الاحتلال » ولا تذكر كلمة « ثورة » أو « كفاح » أو « نضال » أو ما الى ذلك من المصطلحات التي تملأ الصحف العربية في الوطن العربي الكبير، وتتحدث في نفس الوقت الى جمهور أوروبي ، فكيف يفهم هذا الجمهور مجريات الأمور؟..

وهنا يلمع المستوى العالمي الرائع للاخراج والتقديم والتمثيل. فالمخرج فرانسوا أبو سالم الذي رافق فرقة « الحكواتي » منذ تأسيسها وأوصلها الى مسارح فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وسويسرا وألمانيا والدول السكندينافية وايطاليا، هو مخرج مسرحي من الدرجة الأولى، يعرف كيف يهذب المواهب الشابة في الفرقة ويساعدها على اتقان العمل الجماعي... وفي هذه المسرحية نراه يستغل عناصر فنية من المسرح الاغريقي كالاقنعة مثلا، وعناصر من مسرح بريشت مثل شخصية القاص، الا انه في هذه المسرحية يتناوب الممثلون أنفسهم دور القاص، متوجهين الى الجمهور وشارحين له بشكل عفوي جذاب ما يحدث من تغيرات على المسرح. ويدور الحوار تارة بالعربية وتارة بالانجليزية وتظهر من حين لآخر على شاشتين كبيرتين، إحداهما على اليمين والأخرى على اليسار، ملخصات بالألمانية للمشاهد والفصول، وبذلك تكون مشكلة اللغة قد حلت بشكل فني ممتاز وبتناسق دقيق بحيث يخرج المتفرج الأجنبي من مسرحية عربية فهمها فهماً تاما. والممثلون الستة (أربعة ممثلين وممثلتان) يقومون بأكثر من عشرين دورا تمثيليا مختلفا تقدم كلها بإتقان وتناسق منقطعي النظير. ومما أثار إعجاب النظارة أيضا بساطة الوسائل المسرحية التي استعملت بتمكن وحرفة: فالممثلون يغيرون ملابسهم على المسرح ، وعلى مرأى من المتفرجين دون أن يحدثوا بذلك أي إزعاج بالنسبة لسير المسرحية . بل ان هذا الواقع وهو ان يبقى جميع المشتركين في التمثيل أمام أعين الجمهور مدة ثلاث ساعات بأكملها ـ فالمسرح لايوجد فيه ستار بالمرة ـ هذا الواقع أكد وجود عمل فني جماعي على مستوى متفوق، فأي خطأ قد يصدر عن أي ممثل في أي دور كان ، سيحاسب عليه جميع أعضاء الفرقة!

أما الجمهور ـ بعد انتهاء العرض ـ فبدأ بالتصفيق الحاد مستمرا لفترة أخرجت طاقم التمثيل الذي اضطر الى تكرار التجمع في الجزء الخلفي من المسرح ثم التقدم الى الامام فالانحناء أمام الجمهور، وكأن الجمهور يرفض الانتهاء من التصفيق! إنه لمنظر رائع: عيون الممثلين تدمع اغتباطا بهذا التقدير لجهودهم وعيون المتفرجين تدمع متجاوبة والأيدي تصفق ...

وقال الناقد المسرحي راينهارد شتوم (Reinhardt stumm) في نهاية مقاله النقدي المطول عن المسرحية، والذي نشر في صحيفة « بازلر تسايتونغ » (BasLer zeitung) على صفحة ٤٩ من العدد رقم ٢٢٥ الصادر يوم السبت الموافق ٢٤ أيلول / سبتمبر ١٩٨٨ ، قال مايلي: « الانطباع الشامل: أمسية مسرحية جديرة بالاهتمام البالغ، خصوصا لأن امكانية تاريخية مستحيلة تصبح ممكنة : ان بإمكان المرء أن يشاهد ولادة المسرح مرة أخرى . »

■ نهلة حميد

أرل: عاصمة للمترجمين الدوليين

رحبت الأوساط الثقافية في العالم بإنعقاد مؤتمر التجمع الدولي الثاني للترجمة الأدبية، مؤخراً، بمدينة أرل الفرنسية. وقد حضر جلسات هذا الإجتماع حوالي ثلثمائة مترجم يمثلون ثلاثة وثلاثين بلداً إضافة إلى مشاركة مجموعة من علماء اللغة وأساتذة الجامعات والأدباء والشعراء المعروفين على صعيد عالمي.

ومما أضفى شخصية مميزة على هذا الأجتماع هو انه إتخذ من بناية المستشفى التي سبق وأن عولج فيها الرسام العالمي ڤان كوخ، عندما قطع إذنه ليقدمها هدية لحبيبته بعد أن عبرت عن الأعجاب بها، مقراً لانعقاد اعماله: حيث حوّلت مدينة «أرل» هذه المستشفى الى شبه منبر دولي للثقافة والأدب يجمع، سنوياً، المترجمين المعروفين على صعيد عالمي بغية تدارس الكثير من المشاكل والقضايا، الفنية واللغوية، الخاصة بالترجمة الأدبية. كما تجري، حالياً، إستعدادات كبيرة لتحويل هذا المبنى نفسه الى مركز وثائقي يضم العديد من المراجع والقواميس والمعاجم اللغوية إضافة الى الموسوعات الأدبية وكتب السير الذاتية ووثائق المصطلحات الأدبية وغيرها وكل ما يمكن ان يكون بمثابة اليد الثانية المساعدة للمترجم بغية إتقان عمله الأبداعي على أحسن وجه مع الحرص على أمانة نقل النص والحفاظ على روحه الأدبية الأصلية.

كلود سيمون يتسلم جائزة نوبل للآداب من ملك السويد

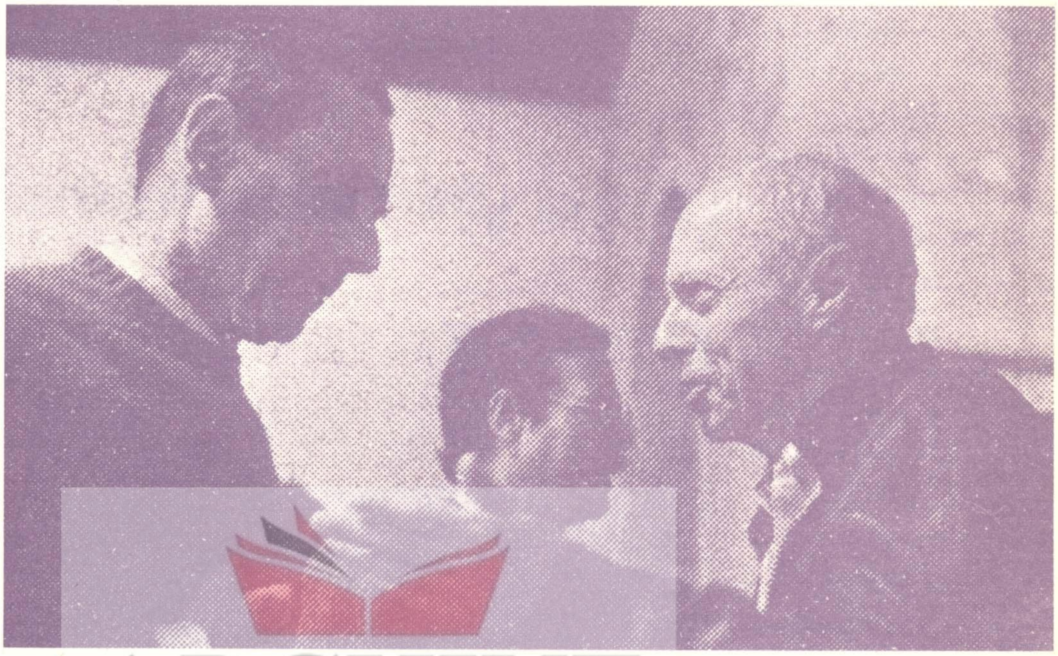


ومما يذكر أن التجمع الدولي الأول للترجمة الأدبية كان قد عقد، عام ١٩٨٤، اما التجمع الثاني فقد عقد جلساته عام ١٩٨٥ التي إستمرت أربعة أيام متواصلة. وقد شيّد المجمع الثقافي للترجمة في «إرل» على غرار مجمع الترجمة «ستريلن» في المانيا الإتحادية لهدفين مزدوجين: الاول تأمين وجود المكان والظرف الملائمين لإستقبال المترجمين القادمين من مختلف بقاع المعمورة وإفساح المجال للقائهم الجماعي وتشجيع محاولة انجازهم اعمالاً مشتركة واعداد بحوثاً موسعة يمكن ان تعتبر مراجع عالمية للترجمة، وتسجل في الوقت نفسه ضمن النشاط الثقافي السنوي لهذا المجمع في «أرل». وتشجع كذلك حركة ترجمة روائع الأدب العالمي من وإلى اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات اما هدف المجمع الثاني والذي سبق وأن نوهنا عنه آنفاً بخصوص ضمان إنجاز دراسات ببليوغرافية وتنظيم أرشيف موسع خاص بالوثائق والمصطلحات والمعاجم وقواميس اللغة... الخ. وقد أعلنت الجهات المسؤولة عن ادارة هذا المجمع استعدادها للتعاون وإمداد مؤسسات الترجمة الدولية الأدبية بكل المعلومات المتوفرة في مجمع «أرل».

وقد ساهم في تمويل عمليات ترميم هذا المبنى وتنظيم مكتبته وقاعاته بلدية أرل اضافة الى مساهمة مؤسسة ادارة الكتاب وبضمنها ادارة الكتاب المترجم في فلانسا لجعله مركزاً دولياً خاصاً بالترجمة الأدبية.

وقد جاءت عملية وضع حجر الأساس لهذا المجمع الخاص بالترجمة الأدبية عام ١٩٨٣، بناءً على مبادرة من مؤسسة الترجمة الأدبية في فرنسا (ATLF)، وتعاون العديد من الجهات الرسمية والخاصة وتحت رعاية الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران ووزير

المترجم الايطالي عيدونيري (الى اليسار) مع كلود سيمون



الثقافة الفرنسي وبمساعدة مدير المجلس الاقليمي لمقاطعة كوت آزور وعمدة «أرل». كما ساهم في انجاح هذا المشروع الطموح الناشر هوبيرت نيسان وغيره من الشخصيات الثقافية والسياسية البارزة.

وقد لعبت الصدفة دوراً أساسياً في جذب أنظار المتخصصين والمترجمين والأعلاميين الى تجمع أرل لعام ١٩٨٥ اكثر من حضور سابقة: حيث وجه هذا المجمع دعوة خاصة الى كلود سيمون، الكاتب المعروف الذي سبق أن نال جائزة نوبل للآداب، وقد اختاره المؤتمر

ليصبح نجم اليوم المخصص الى «كاتب أمام مترجميه» وهي حلقة دراسة ومناقشات دأب هذا المجمع على تنظيمه سنوياً. وقد سبق وأن استضاف مجمع «أرل» الاول الأديبة الفرنسية ناتالي ساروت كضيفة شرف واجهت عام ١٩٨٤ مترجمي اعمالها وناقشت معهم وجهاً لوجه اساليب ومضمون ترجمات نصوصها الى عدة لغات أجنبية. لذا وبعد حصول كلود سيمون، كما ذكرنا آنفاً، على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٥، حرص العديد من الأدباء والمترجمين وعلماء اللغة واساتذة الجامعات والنقاد على حضور هذا اللقاء إضافة الى مختلف وسائل الاعلام السمعية والبصرية. وقد ادى حضور هذا الجمع الغفير الى عرقلة سير اعمال هذا اللقاء بشكله الطبيعي خاصة وانه نظم اساساً لكي يحضره المعنيون بالأمر من مترجمين ونقاد وكتاب ولغويين لاغيرهم.

ولكن رغم هذا الأزدحام، أثمر لقاء إرل الثاني العديد من النتائج الايجابية على صعيد الهدفين الرئيسيين الآنفي الذكر. ولإضفاء المزيد من الحيوية الأدبية على سير اعمال هذا التجمع فقد اثيرت النقاشات بخصوص العديد من الجوانب اللغوية في الترجمة خاصة اثناء لقاء كلود سيمون بمترجمي اعماله من الأجانب. كعرض سبل استخدام كل منهم للمفردات والمصطلحات الأدبية والتفنن في نقلها من اللغة الفرنسية الى اللغات الأجنبية وإبراز تميز وكفاءة كل مترجم وتوضيح مذهبه الخاص في الترجمة وكشف مدى ثقافته الأدبية والعامة وسعة اطلاعه ومقدار استيعابه لمحتوى النص وروحه الأدبية. ولمعرفة أبرز وأمهر مترجمي نصوص كلود سيمون الأجانب فقد جرت مقارنة العديد من الترجمات الأجنبية وللنص نفسه امام كلود سيمون نفسه: وقد اختير كنموذج لهذه التجربة نصان مترجمان من روايتي كلود سيمون: «معركة فارزال» و «الجورجيكيون» واشتد الحوار بين الطرفين: وبعد ان كان الارهاق والشحوب بادبين على كلود سيمون، بداية اللقاء، سرعان ما ارتسمت علامات الغبطة والسرور على وجه الاديب بعد أن وجد نفسه محاطاً بستة من مترجميه الأجانب الذين نقلوا اعماله الى لغاتهم وعرفوا شعوبهم ومثقفيهم بأسلوب سيمون الروائي المتميز. ويعود الفضل لواحدٍ منهم في نقل بعض روايات كلود سيمون الى اللغة السويدية ولولا هذا الجهد لما قرأ محكمو الأكاديمية السويدية اعمال كلود سيمون واعجبوا بها حتى قرروا أخيراً منحه جائزة نوبل الأدبية لعام ١٩٨٥. ويعتبر كلود سيمون محظوظاً بعد ان حاز على اهتمام كل هؤلاء المترجمين الماثلين أمامه. ولكن الى اي مدى يا ترى وصل جهد هؤلاء المترجمين وغيرهم والكم والنوع من الترجمات التي انجزوها مقارنة بزخم الأعمال الأدبية الجيدة السريعة النشر والإصدار؟ خاصة إذا عرفنا بأن العالم ما يزال يجهل الكثير من النصوص والاعمال الأدبية المتميزة ومنها نتاجات الأدباء والشعراء العرب لغياب نشاط ترجمتها للغات الأجنبية.

أما المترجمون الاجانب الستة الذين واجهوا بنصوصهم المترجمة

كلود سيمون يتوسط مترجمي اعماله



آراء ونقد ونقاشات كلود سيمون مؤلف النصوص الأصلية فهم: كارل غوستاف بجور ستروم من السويد وجيدو نيري من إيطاليا وهيملون شيفل من المانيا الاتحادية وأف هارد من الدانمارك وجوكا مانيكوربن من فنلندة: وبفضل هذا اللقاء الحي تمازجت النصوص المترجمة لنفس العمل الادبي ولكن بست لغات مختلفة وأبرز سيمون بعض ثغراتها اللغوية والمعنوية وترجم اعجابه واستحسانه بتميز بعضها كما علق عليها بشكل عام بالقول: «إن المرجع الوحيد للنص الأدبي هو موسيقيته» وأضاف بالقول: «فقد حذف البعض مقطعاً في حين أضاف الآخر، اما الثالث فقد حور معنى جملة بكاملها... ولكن مع ذلك يسرني أن اسمعكم ترددون ما كتبته من نصوص للصفحة نفسها، ولكن بلغات مختلفة، فكانت بحق أجمل ما كتبت...» والجدير بالذكر أن اعمال كلود سيمون ترجمت الى ثمان عشرة لغة اجنبية.

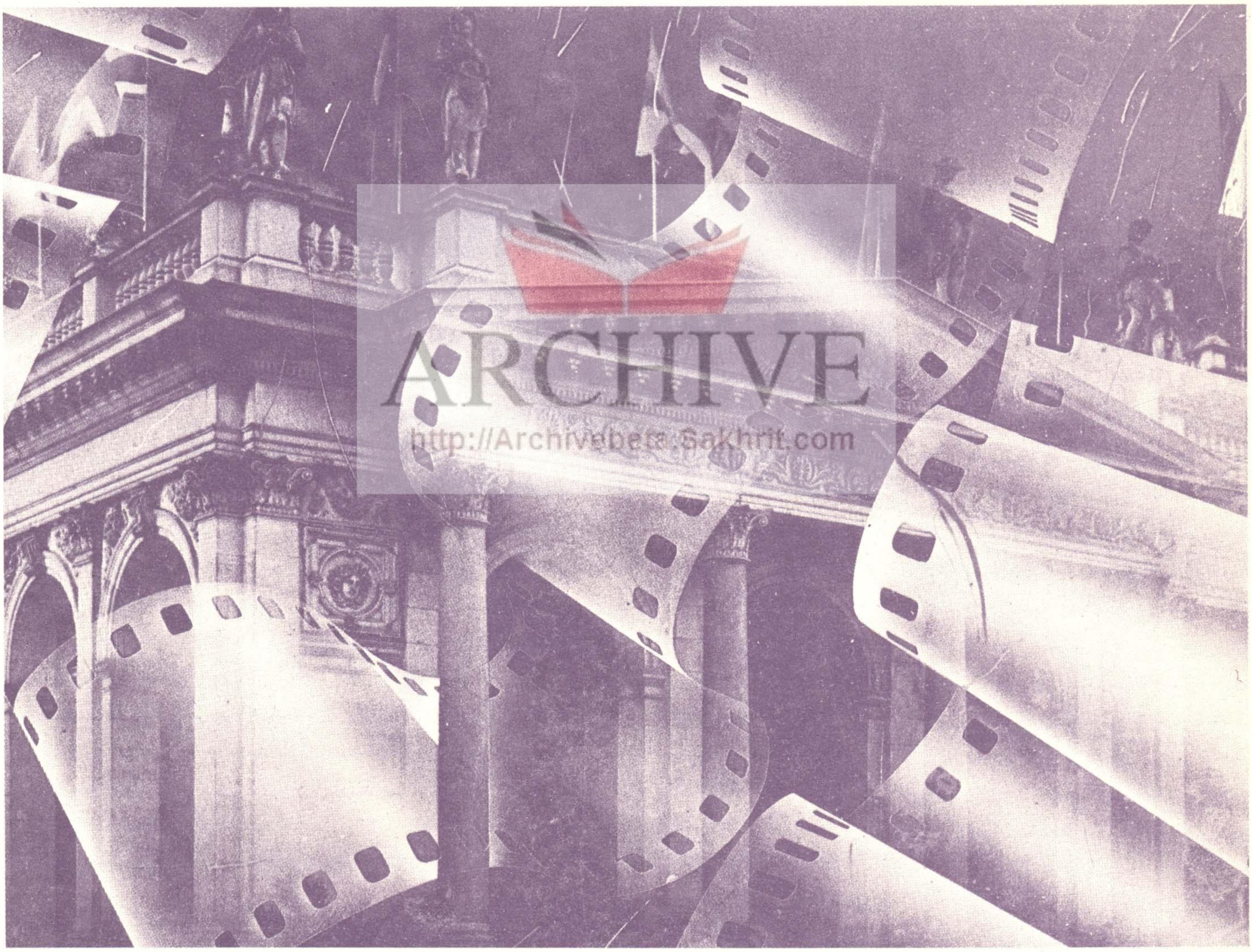
ومن بين اعمال الطاولة المستديرة لتجمع أرل الثاني، عدا «لقاء اديب بمترجميه»، تكريس اجتماع خاص بمناقشة ما سمي بـ«الجوانب والأساليب التي تناولتها الترجمات الأدبية» ومحاولة معرفة هل بإمكان الممارسة ان تفرض نظرية خاصة في الترجمة الأدبية. وهو موضوع واسع ومتشعب اثيرت وطرحت بخصوصه الكثير من الآراء والافكار المتضاربة: فمن المترجمين الحاضرين لهذا الاجتماع ما ناصر ما سمي بـ«الترجمات الحرفية» اي الإلتزام بالنص الأصلي اسلوباً ومعنىً لانه بنظرهم الاكثر أمانةً في نقل المفردة والجملة والأصدق تعبيراً عما يريد ان يقوله الأديب لقرائه، اما الفئة الأخرى فقد ساندت ماسمي بأسلوب الترجمة الأدبية» التي تحرص على الحفاظ على جمال النص الأدبي ككل وضمان موسيقية الجملة الأدبية واختيار المفردة الادبية المناسبة سواء بتبسيط أسلوب النص الأصلي أو تبديل بعض كلماته مع الحفاظ على الروح الأدبية للنص الأصلي بكامله. وقد كان لكل جانب وجهة نظر دافعوا بها عن آرائهم وأساليب عملهم. ولكن اتفق جميع الحاضرين على مبدأ أن لكل لغة شخصيتها المميزة ومفرداتها الادبية الخاصة اضافة الى تعقيداتها الاسلوبية والقواعدية التي تزيد من متاعب المترجم.

ولم يغفل هذا الملتقى في «أرل» من ان يكرس اجتماعاً خاصاً لمناقشة جانب مهم في حياة المترجم هو الجانب المادي باعتباره احد الفئات المنتجة في المجتمع: خاصة وانه لايوجد نظام موحد سواء على صعيد أوربي أو عالمي، يضمن للمترجم حقه ويحدد اجوره على مستوى كفاءته. وقد أكد المترجمون الاوربيون الحاضرون ايضاً على ضرورة ابراز ضآلة المكافآت المالية الممنوحة للمترجمين المبدعين مقارنةً بحجم مجهودهم.

ولتشجيع الترجمة الأدبية على صعيد محلي وعالمي خصصت مؤسسة اتلاس جونوار(ATLAS) Junior جائزة نقدية تمنح لافضل محاولات الترجمة الأدبية التي ينجزها المترجمون المبتدؤن. اما الجائزة الوطنية الفرنسية الكبرى للترجمة الأدبية لعام ١٩٨٥، وقدرها خمسون الف فرنك، فقد حصل عليها المترجم الفرنسي بيير ليريس الذي نقل الكثير من الأعمال الأدبية من اللغة الأنكليزية الى اللغة الفرنسية بعد أن أخذت لجنة التحكيم بعين الاعتبار كمية ونوعية الاعمال الأدبية المترجمة لـ«بيير ليريس» حيث أجاد ليريس في ترجمة مجموعة من ابرز النتاجات الأدبية العالمية: كترجمته لبعض اعمال كل من الكتاب: وليام بلاك، جيرارد مانلي، وهوبنكس كما تميز في ترجمة مختارات من المسرح الشكسبيري الخالد.

واخيراً من حقنا نحن العرب ان نتساءل عن حضور مترجمينا المعروفين في مثل هذا اللقاء ومدى مساهماتهم الجادة في توصيل اصوات ادبائنا وشعرائنا الى العالم أجمع ونقل التراث الادبي العربي الجيد الى القراء الجيدين لإغناء الفكر والروح بكل ما هو ابداعي خالد.

مهرجان كارلوفيفاري السينمائي الـ ٣٦



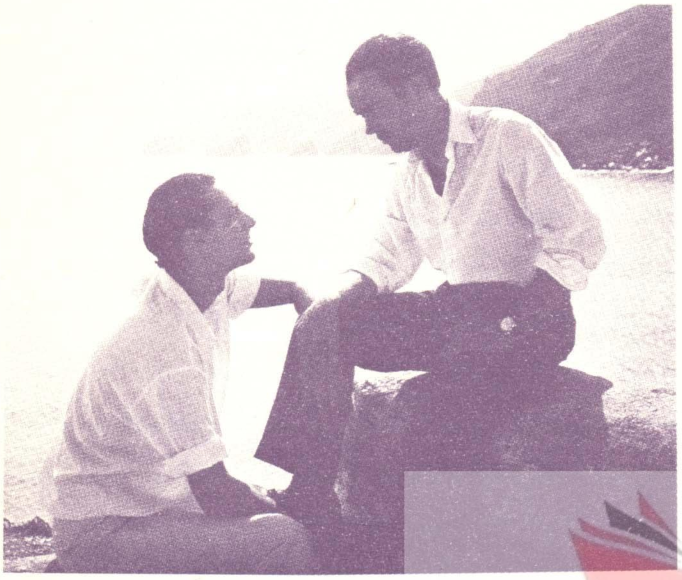
■ السينما الصينية تستمر في غزو المهرجانات

■ السينما العربية على الهامش

■ فوزي سليمان ـ القاهرة

يرفع مهرجان كارلوفي فاري شعار «من اجل علاقات طيبة بين البشر وصداقة باقية بين الشعوب» وفي هذا المهرجان السينمائي الذي يقام مرة كل عامين في تشيكوسلوفاكيا بالتناوب مع مهرجان موسكو - يتحقق هذا الشعار في لقاء الأجناس واللغات - ومختلف جهات العالم ، حيث الفيلم واسطة قوية للتفاهم . ومن خصائص مهرجان كارلوفي فاري اهتمامه بسينما العالم الثالث ، يرجع الفضل فيه الى البروفيسير أ . بروسيل الأستاذ بمهد السينما ببراج الذي رأس لجنة التحكيم لسنوات غير قليلة ، الذي كان همه أنه يكتشف المواهب الجديدة الواعدة في البلاد النامية ، وأنشأ مسابقة خاصة في إطار المهرجان لتشجيعها وقد رحل عن عالمنا هذا العالم والمؤرخ السينمائي الفاضل منذ عامين ، وكان قد أدخل قسم سينما العالم الثالث في البرنامج الرئيسي ، مع الاحتفاظ بمسابقة خاصة بالأفلام الأولى . وقد عرفت افلام عربية في هذا المهرجان وفاز بعضها بجوائز ، وفي اليوبيل الفضي للمهرجان - في دورته قبل الأخيرة - كان هناك أكثر من فيلم عربي.

ومن هنا كانت دهشتنا في الدورة الأخيرة - السادسة والعشرين - فيما وجدنا المشاركة العربية على الهامش .. لم تمثل السينما العربية بأي فيلم في المسابقة الرسمية .. وعُرض الفيلم العراقي حب ودراجة إخراج طارق عبد الكريم في برنامج اعلامي بدون حضور وفد .. في حين حضر وفد جزائري ليفاجأ أن فيلم القلعة غير مدرج في المسابقة كما كان مقررا في الاتصالات ، فيسحبون الفيلم ، ويخلو كتالوج المهرجان كذلك لأول مرة من أي فيلم مصري - ثم بعد توسطات يقبل فيلم السادة الرجال للمخرج رأفت الميهي ليقدم في عرض جانبي في قاعة صغيرة لا تسع أكثر من ثلاثين مقعدا، وقيل إن الفيلم رفض لوصوله بعد الميعاد .. وحتى لا تفقد السينما العربية حضورها في مثل هذا المهرجان الصديق، علينا أن نحترم لائحته ومواعيده المحددة ، وفي الوقت ذاته أن نختار الفيلم المناسب في المهرجان المناسب ، ففيلم السادة الرجال مثلا أخطأ طريقه لهذا المهرجان، وكان الاجدر به مهرجان للأفلام الكوميدية وهذا ما تحقق بعرضه في مهرجان فايفي بسويسرا .. ورغم هذا فأن القضية الفلسطينية وجدت طريقها للمهرجان خلال افلام رثائقية نعرض لها فيما بعد.



ويبدو ان ادارة المهرجان أرادت أن لا تكتفي بتحقيق توازن بين أفلام الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية .. كما حاولت أن تفعل في الدورات السابقة حيث كانت هناك فرصة لسينما العالم الثالث - كما أشرت - بل تقربت أكثر الى البلدان الرأسمالية لتختار أحد عشر فيلما منها في البرنامج الرئيسي - المنافسة - وستة أفلام من الدول الاشتراكية وأربعة من العالم الثالث - من الهند وكوبا وكوريا الشمالية والصين الشعبية .. واقدم لك - نماذج من هذه الأفلام.

(مدينة الزهور)

يأتي فوز الفيلم الصيني «مدينة الزهور - بالجائزة الكبرى - كرة الكريستال - تأكيداً بأن هناك جديداً حقيقياً في السينما الصينية فليس اعتباطاً أن تفوز هذه السينما بالجائزة الكبرى - الدّب الذهبي - في مهرجان برلين الآخير عن فيلم «حقل الذرة الأحمر» للمخرج زانج بيمو - الذي سبق أن تفوق في تصويره لأفلام صينية مهمة مثل «الأرض الصفراء» و الاستعراض الكبير ثم بعد هذا يتفوق كممثل في فيلم البئر القديم الذي يستحق عنه جائزة مهرجان طوكيو الدولي .. وقد لفتت السينما الصينية اهتمام المهرجانات الاوربية - قبل برلين في مهرجان مانهايم حيث قدم برنامج شامل .. ثم في لو كارنو بسويسرا

وبيرجامو في إيطاليا .. وفي «كان» أكبر مهرجان عالمي . مما يدل على ان هناك تغييرا في السياسة الثقافية لم يعد مختفيا وراء سور الصين العظيم بل خرج الى العالم ، والاسواق.

لعل قيمة فيلم «مدينة الزهور» للمخرج أكسي جين في تناوله لفترة «الثورة الثقافية» .. التي قامت في الصين الشعبية بين ١٩٦٤ و١٩٧٤ .. في مراجعة نقدية للماضي من خلال قصة إنسانية مؤثرة حيث كانت بطلتنا «هويين» في مدينة هويسيوس . المشهورة بزهورها وعبقها الأخاذ .. حلمها هو حلم البسطاء في السعادة أن يكون لها مع زوجها بيت يأويهما تحت سقفه .. بعد تعب اليوم بطوله في صنع الفطائر من الأرز .. في دأب تجمع هي وزوجها الفلس فوق الفلس .. حتى يستطيعا في النهاية أن يحققا الحلم .. ولكن البيت يكون مصدر المتاعب والشقاء .. فحينما تقوم حركة «عصابة الأربعة» يصنفان في الطبقة الثرية الجديدة .. اليس لهما بيت جميل ؟ في ظل العنف والقلق يصادر البيت .. ولا يتحمل الزوج الاضطهاد فينتحر ويفرض على «هو» أن تعمل في كنس الطريق .. لا يستطيع احد رجال الحزب أن يحميها .. بل يعاقب معها .. ويتحول تعاطفه الى حب .. فزواج .. ولكنهم يلاحقونه ويحكم عليه بالسجن عشر سنوات وفي يوم شتوي وصقيعي يأتيها المخاض .. ويكون الطفل هو ضوء الأمل وسط الظلام وفي انتظار خروج الزوج من السجن .. ويأتي في حيثيات لجنة التحكيم لاستحقاق الفيلم الجائزة الكبرى انه «يؤكد معنى التضامن الانساني في مواجهة العنف الاجتماعي في أسلوب فني متكامل»

«لوركا»

الشاعر الأسباني الكبير فيدريكو جارسيا لوركا .. تشارك اسبانيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية في انتاج فيلم عنه بعد نصف قرن على اغتياله بيد الفاشية .. يخرجه المخرج الاسباني الكبير خوان انتونيو بارديم .. لوركا نعرفه تماماً في المكتبة العربية والمسرح العربي .. يعيد بارديم صياغة حياة الشاعر في رحلته الرائعة المريرة منذ ولد في تلك القرية الاندلسية حتى اغتالته الفاشية في مدينة غرناطة بعد شهر واحد من قيام الحرب الأهلية . في طفولته كان يصغي الى أصوات الريح وحفيف الاشجار .. ويستمع الى الحكايات ترويها له والدته .. والأغاني الشعبية من الفلاحين .. وكان يريد أن يعيش للفن فبدأ في دراسة الموسيقى ولكن والده أجبره على الدراسة الاكاديمية فهى ادعى للاحترام الاجتماعي .. فوجد لوركا متنفساً في الأدب .. انصرف الى القراءة .. كانت هذه سنوات التكوين وجرب كتابة أول قصيدة .. وجرب أول حب .. وفي الجامعة في مدريد يعيش طموح الجيل الجديد من أجل التغيير .. ويلتقي بشخصيتين كان لهما تاثير كبير في حياته .. الفنان سلفادور دالي .. والسينمائي لويس بونويل .. وحينما يقدم لوركا مسرحيته الاولى تفشل جماهيريا ولكن مسرحيته الثانية ماريانا بيندا. تكون أحسن حظاً، وخاصة أن الفنان



سلفادور دالي قام بتصميم مناظرها والممثلة الكبيرة مرجريتا اكسيرجو قامت ببطولتها

ويمضي بنا الفيلم بين أحداث لوركا الحياتية والأسرية والعاطفية والأدبية مع تحقيق شهرته كشاعر تلاقي دواوينه الشهرة، ومع الأحداث العامة في وطنه حيث كانت رياح التجديد تجاهد .. ثم تتحقق باعلان الجمهورية الاسبانية الثانية عام ١٩٣١ .. وفي هذا العهد الجديد يحقق لوركا حلمه بتأسيس مسرح يطلق عليه إسماً عربياً «بركة» اعضاؤه من الشباب، يقدم أعمال الكتاب والشعراء الاسبان مثل سيرفانتس ولوبي دي فيجا، وكالد يرون .. ويعرض مسرحية «يرما» ..

ويطوف بفرقته المدن الصغيرة والقرى يعرض فنه على الجماهير .. ينشد قصائده التي تنادي بالعدالة للجميع .. أو مرثيته لصديقه مصارع الثيران سانشيز ..

تتلاحق الأحداث الدرامية .. القوى المعادية تحاول ضرب الجمهورية .. ويركز الفيلم في جزء غير قليل على الحرب الأهلية بين الجمهوريين وقوات الفاشية ..

وذات يوم في شهر أغسطس / أب ١٩٣٦ .. رآه الناس سائرا بين البنادق المرفوعة في طريق الى مصيره التعس .. وتتحقق نبوءة كان تنبأ بها في إحدى قصائده «حيث تمتلىء الحقول بالموتى» تنتهي حياته وما زال في الثامنة والثلاثين في قمة الشعر والعطاء .. وزينت قبره كلماته التي رثى بها صديقه سانشيز:.

«سيمضي وقت طويل قبل أن يولد أندلس جسورٌ نغني لعظته بكلمات من الأنين ونتذكر نسمات حزينة عبر أشجار الزيتون».

كان حلم المخرج الأسباني الكبير انطونيو بارديم أن يحقق فيلما عن حياة لوركا منذ قرأ كتاب الاديب الانكليزي ايان جبسون «غرناطة ١٩٣٦ ومصرع فيدريكو لوركا» ثم جاءته الفرصة حينما قرر التلفزيون الأسباني انتاجه بمشاركة من القناة الرابعة في لندن والتلفزيون الفرنسي والالماني .. الشاعر لوركا ملك للانسانية لا قوميته وحدها .. ولهذا - كانتاج مشترك - استعان بممثل انجليزي .. كان هو نقطة الضعف في الفيلم .. لم نتصور في خيالنا ان يكون لوركا على هذه الهيئة .. الانجليزية الهادئة وهو الشاعر الذي كان يغلي بمشاعر الحب والغضب والثورة ..



«دليل الطريق»

لأول مرة يفتتح مهرجان كارلو في فاري . بفيلم ليس تشيكياً او سلوفاكياً .. بل بفيلم آجنبي ومن النرويج فيلم مثير وجميل ينقلنا الى اقليم اللاب شمال النرويج حيث تعيش قبائل بدائية بين الثلوج .. في هذه الطبيعة القاسية ولاول مرة بلغة اللاب يصور «نيكس جارب» اسطورة تعود الى القرن الثاني عشر .. حول فتى شهد مصرع والديه واخته الصغيرة على يد قبيلة معادية .. وظل يحلم بالانتقام .. حتى جاءته الفرصة حينما اضطرت هذه القبيلة للاستعانة به كدليل في الطرق الجبلية الوعرة .. واستطاع بمهارته ودهائه ان يوقع بهم في هوة سحيقة .. بعد مغامرات .. وشك من القبيلة .. وتعجب بفيلم أصيل استحق جائزة لجنة التحكيم الخاصة «للتناول الشاعري لأسطورة تاريخية لشعب صغير»..

«أجراس من قش»

الفيلم السوفياتي «اجراس من قش» - قدمه لنا مخرجه يوري الينكو بأنه استقى موضوع فيلمه من ذكريات طفولته وصباه في احدى قرى أوكرانيا .. المخرج قدم نفسه في السينما السوفياتية كمصور بارع .. فهو الذي صور فيلم ظلال الأسلاف المنسيين للمخرج بارادجا نوف

١٩٦٤ وكمخرج عرف بأفلام مهمة مثل ليلة القديس يوحنا – ١٩٦٨ – وأسطورة الدوقة أولجا وهو في فيلمه الاخير هذا اجراس من قش هو المخرج وهو الكاتب وهو المصور كيف جمع بين كل هذه المهام ؟ اجابنا بأنه يفضل ان يتحمل المسؤولية كاملة حتى لا يحدث نزاع بين اطراف العمل.



تتداخل الأحداث في الفيلم بين الماضي والحاضر .. ويتناول الحرب العالمية الثانية وما حاق ببلدته من دمار وفظائع على يد النازي ، ليس من جانب البطولات – كما في أكثر الافلام – بل هو يتعرض لأولئك المواطنين الروس الذين خانوا بلادهم وتعاونوا مع المحتلين .. فهذا الرجل فاسيلي له ابنان .. ابن انخرط في الجيش الاحمر يشارك في صد زحف الألمان ، وابن أصغروجد المصلحة في التعاون مع الالمان .. ليصبح من أصحاب النفوذ والمال، .. يستطيع أن يرسل بالمواطنين الابرياء الى الهلاك .. الا اذا دفعوا له .. يلقى ذلك الابن الخائن مصرعه على أيدي المقاومة وتحت نظر الألمان .. وتمضي السنوات ويتصور الأب أن ذاكرة الناس قد أهملت الماضي .. فيتكلم بأمجاد وبطولات ابنه الاكبر .. ويظن انهم نسوا أفعاله وابنه ويظن أنه يستطيع أن يتعايش مع العهد الجديد .. ولكنه سيشرب من الكأس المرة نفسها التي سقاها وابنه – لأهل القرية ..

ورغم أن سينما الدولة المضيفة تشيكو سلوفاكيا – خرجت من المهرجان بلا أي جائزة ومن لجنة التحكيم الرسمية – إلا أن مشاركتها كانت على مستوى طيب من خلال الفيلم السلوفاكي ، مواقف، من اخراج فلاديمير بالكو ، والفيلم التشيكي «بيت لاثنين» – إخراج ميلوش زابرانسكى .. يؤكدان أن رياح التغيير وإن لم تكن بعد قوية – أخذت تهب على هذه السينما التي كانت مزدهرة في الستينات .. فان كلًا من الفيلمين يعالجان قضايا وقتنا الحاضر بلا ابتعاد الى التاريخ او الحرب – ويتناولان قضية الفساد .. الصراع بين النفعية والمثالية . أما الفيلم الثاني فيعرض نماذج منحرفة من البشر .. هم أولئك المهملين في عملهم في المصنع او الشخصية الرئيسية .. الشاب يسرق ويكذب ويخدع الفتيات بلا أي رادع أخلاقي . !

وكنت أود أن أستطرد في التعرض لأفلام أخرى مهمة اسمح لي أن أمر عليها مروا سريعا ، لأصل الى ناحية جديرة بالذكر .. حول موقف شجاع لسينمائيين اجانب من القضايا العربية مقابل العديد من الأفلام الصهيونية – التي تتسلل علناً أو خفية الى المهرجانات العالمية .. أشير الى الفيلم المجري شوكة «تحت أظافر اصبع» للمخرج شاندور شارا الذي يدين الاستغلال والزيف ، ونفاق المثقفين .. حينما لجأ فنان إلى عزلة بالريف بعد أن تبرع بلوحاته لمشروع دولي خيري للتغلب على المجاعة في افريقيا .. فاذا بمجتمع الفنانين الحقودين ينشرون الاشاعات حول تطلعاته وتقربه للسلطة .. فينبذهم الى الطبيعة



الصافية في الريف .. ولكنه يجابه بموقف عدائي من صاحب مزرعة هو والد فتاة صادقها كان قد تورط في عملية نصب وخشي أن يفضح الفنان أمره .. ويفقد الفنان الصفاء والهدوء .. بل يفقد حياته . أما الفيلم البلغاري «أين تذهب من هنا» للمخرج رانجيل في فالشانوف الذي نال أكثر من جائزة فهو من خلال موقف تقديم طلبة وطالبات للامتحان لمعهد التمثيل يكشف عن لحظات الأمل والقلق والرهبة .. وكان جميلا أن تمنح لجنة تحكيم الافلام الأولى شهادة تقدير شرفية الى المخرج الانجليزي بوب هو سكنس الذي عرفناه ممثلا قديرا في افلام عديدة ، من بينها ڤونـا ليزا - وهو هنا في فيلمه الاول كمخرج - يقوم ببطولته أيضاً، يدين الحرب التي تلاحق الابرياء من خلال قافلة من الغجر تحاول الهروب من آثار الحرب .. او الفيلم البولندي «بلا خطيئة» لفكيتور سكرز نيسكي الذي يناقش النظام الستاليني .. وغيرها من الافلام.

(رقابة تعذيب ..)

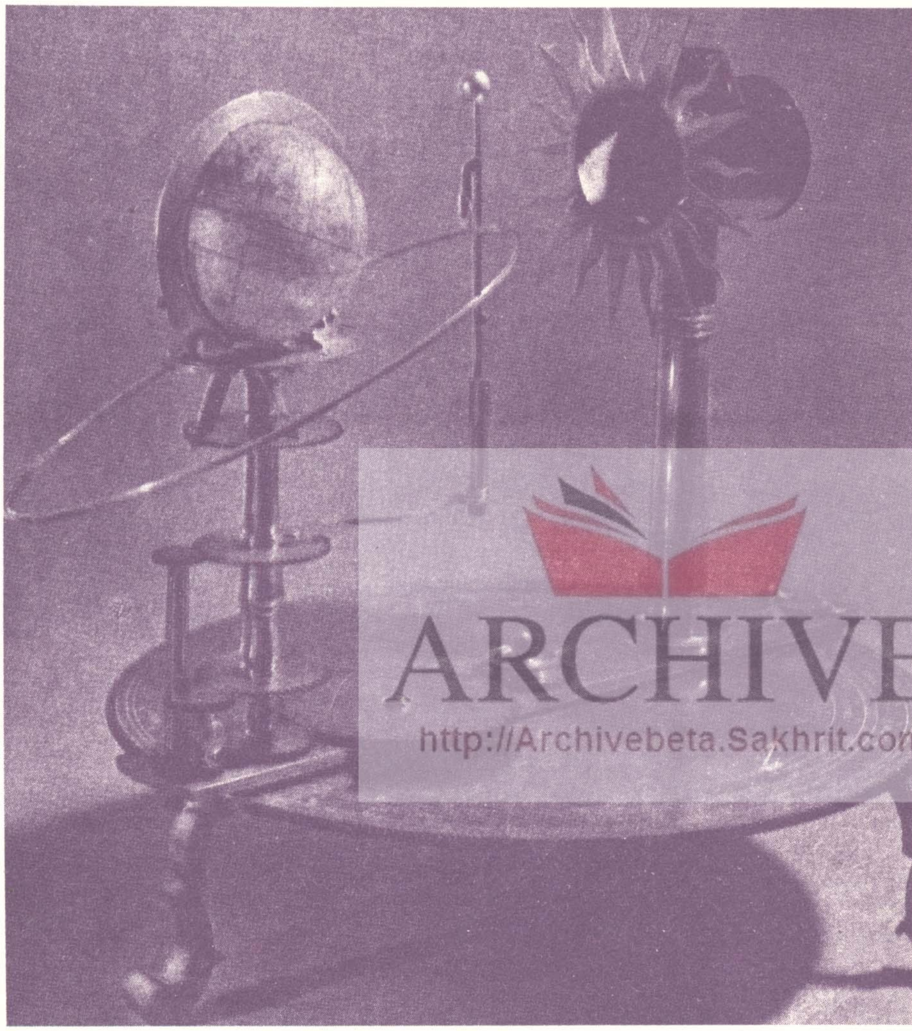
تسلل السينما الصهيونية الى المهرجانات العالمية لم يعد امراً جديداً .. وأحياناً تركبُ نزعة الغرب أو الشرق الأوربي - في تذكر احداث الحرب العالمية الثانية. للأسف تناولت أفلام عديدة من الدول الاشتراكية الحرب وفظائع النازية بتركيز خاص على اضطهاد اليهود .. وهذا موضوع يجدر مناقشته على حدة بموضوعية وتحليل .. وهنا كان ترحيبنا بعرض فيلم - ولو في مجرى الكلام لمخرجين من المانيا الغربية يعري النظام الصهيوني ذلك هو فيلم : (رقابة سجون تعذيب) حرية الصحافة كما تراها حكومة الكيان الصهيوني - إنتاج الوكالة السينمائية لآسيا وأفريقيا ومقرها مدينة كولوني بالمانيا الاتحادية - اخراج وتصوير ميشيل اوبر سكالسكي وبيير كلاينبرت ، وما نغريد لينكي .. استطاعوا - لكونهم المانـاً - أن يقضوا اثني عشر يوما ، بين (اسرائيل) والاراضي المحتلة وغزة .. ليقدموا فيلمهم .. للتعبير عن تظامنهم مع كفاح الشعب الفلسطيني من أجل حقوقه المشروع ،

.. كانت بدية تصوير الفيلم والانتفاضة في يومها السبعين . يلتقون الجرحى في مستشفى نابلس يروون لهم تهجم الجنود الاسرائيلين عليهم .. بل تهجمهم على المستشفى ذاتها بحجة أن حجارة ألقى بها البعض من الداخل .. في خارج احد السجون يلتقون امهات المسجونين وهن يلوحن لابنائهن باسم فلسطين ..

وتلتقي المجموعة الالمانية بعض الصحافيين العرب (والاسرائيليين) صحفياً عربياً اغلقت الحكومة صحيفته .. يتساءل أين حرية الكلمة .. ؟ ومع هذا يدعون الديموقراطية .. ويروي كيف ألقوا القبض عليه ليلاً ، وانه ظل ستة شهور بلا محاكمة ولقد عذبوه واتهموه بانه مشارك في الانتفاضة في حين أنه كان يؤدي واجبه الصحافي في تغطية الاحداث .. ويتحدث صحافي يهودي متعاطف مع الانتفاضة ليقول إن العالم المتحضر يجب ان يتكتل لادانة هذا العدوان الذي يشبه النازية ، وأنه اذا نُظمت حركة سلام قوية بين الشعوب فلن تقوم لهذه القوة العدوانية قائمة ..

ويدين الفيلم استخدام القنابل الممنوعة .. وسوء معاملة العرب .. وحرمانهم من حق التعليم .. إنه - حقا - فيلم جدير بتقدير هذه المجموعة المثقفة من السينمائيين الالمان الذين استهدفوا قول الحقيقة للعالم ..

قصة التقاويم وضبط الزمن



ماهو الزمن ؟

الظل على المزولة، دقات الساعة،

جريان الرمل، ايام وليالي،

صيف وشتاء، شهور، سنون، قرون.

هذه هي الضوابط الحرفية الظاهرية للزمن،

وليس الزمن ذاته. الزمن هو عمر الروح -

عن هنري لونكفيلو Henry Longfellow

(شاعر امريكي من القرن ١٩).

ان ضبط الزمن عملية قديمة جدا، وعمل مريح للغاية ايضا. تأمل صناعة وتجارة الساعات والتقاويم. والمفكرات وغيرها من وسائل ضبط الوقت بكل انواعها واشكالها تكاد في الحقيقة لاتحصر. جاء التقويم الى الوجود قبل الميلاد بدهور طويلة، وماتقويمنا اليوم بجوهره سوى خلاصة العديد من الحضارات القديمة البائدة.

اعتاد الانسان منذ القدم السحيق مقايسة الابعاد الملموسة مثل الطول والعرض والحجم والوزن. اما الزمن فكان تجريدا معنويا استلزم وسيلة مختلفة. وقد كان السومريون والمصريون اول من اتقن مهارة ضبط الوقت، بعد تمضية العديد من الليالي المتلاحقة في دراسة النجوم وتأمل حركات الشمس والقمر، وفي الالف السابع قبل الميلاد (٧٠٠ ق.م) ابتكروا تقويما مناسبا لضبط مواعيد اعيادهم واحتفالاتهم الدينية وتحديد اوقات الزرع والحصاد.

وفي بريطانيا القديمة بُنيت دائرة من جلاميد او قطع هائلة من الحجر في سهل سولزبري واطلق عليها اسم (ستونهنج Cstonehenge جعلت كمعبد لاقامة الشعائر الدينية الوثنية، هنا جرى ترتيب الاحجار بحيث تؤشر طلوع الشمس وغروبها في الفصلين الصيفي والشتوي. ويمكن اعتبار هذا

■ **يعقوب أبونا**

النصب الاثري الذي يعود تاريخ بنائه الى عام ١٦٨٠ قبل الميلاد بمثابة اول محاولة أوربية لضبط مواعيد تغير الفصول. لكن قبل هذا بزمن طويل كانت الطيور والحيوانات قد اخذت تعي مرور الزمن وتكرار الفصول، واتقنت الطيور ضبط مواعيد الهجرة جنوبا وشمالا بدقة الى حد يوم القيام بذاته من كل سنة. ونجد ان الزرافات الافريقية تحضر الى نبع الماء او العين كل خمسة ايام، بينما تسبت السلحفاة نفس الفترة وتعود الى الظهور بنفس التاريخ في كل ربيع.

وحيث لم تتوفر التسميات المعنوية، كاليوم والليل، والشهر لجأ الاقدمون الى استعمال الرموز للدلالة على الاوقات المختلفة، وهذا منشأ مخطط زورياك التصويري (اي خريطة الابراج الفلكية الاثني عشر) التي يعزو بعض العلماء اصلها الى الصنيين في حين يقول البعض الآخر انها من ابتكار أقوام بائدة كانت تقطن قارة اطلنطس المفقودة.

في القرن السادس قبل الميلاد (٦٠٠ ق.م) قام عالم بابلي باسم بنوري مانو باحتساب السنة بانها تستغرق ٣٦٥ يوما و ٦ ساعات و ١٥ دقيقة و ٤١ ثانية، وكشفت الاحتسابات اللاحقة بان الخطأ في حسابات العالم المذكور بلغ فقط ٢٦ دقيقة و ٥٥ ثانية ليس غير.



وقد كان الملك حمورابي يوعز باضافة شهر زيادة الى التقويم كلما اخبره الكهنة بان السنة كانت ناقصة.

بالاصل اتخذ الرومان تاريخ تأسيس مدينتهم روما كقاعدة لحساب تقويمهم. وعندما وجد جوليوس قيصر (١٠٠ ـ ٤٤ ق.م) ان التقويم المدني متخلف عن تقويم السنة الشمسية بحوالي الشهرين ويؤدي الى حلول مواعيد الاحتفالات الدينية والاعياد الرسمية في غير فصولها ومواعيدها المألوفة قام باستدعاء الفلكيين والرياضيين لمعاونته في تدارك الامر. وبعد دراسة مطولة تقرر ان تبدأ السنة رسميا اعتبارا من اليوم الاول من كانون الثاني (يناير) وهو تاريخ مباشرة القناصل الجدد لوظائفهم وايضا موعد اكتمال اول بدر بعد اقصر يوم في السنة السابقة. سر الكهنة لقيام القيصر بتكريم القمر على هذا النحو لان الناس كانوا لايزالوا يعتبرون القمر اكثر اهمية من الشمس. ثم تبين ان هذا التقويم الجولياني (على اسم جوليوس قيصر) تجاوز في تقدير طول السنة بقدر ٤٤ دقيقة فقط. بعد هذا اصبح اعداد وحفظ التقاويم من وظائف القساوسة في البلاد المسيحية، وحرص هؤلاء على بيان يوم عيد ميلاد كل قديس في موعده من السنة. عم استعمال التقويم الجولياني كل اوربا المتمدنة بدون اجراء اي تغيير فيه حتى عام ١٥٨٢. في القرن السادس عشر استدعى الباب غريغوري Gregoly الثامن خبيرا فلكيا وآخر رياضيا لدراسة التقويم واعلامه عن كيفية وجوب اصلاحه، وتم في هذا العام ١٥٨٢ اكتشاف الخطأ في التقويم الجولياني وامر البابا بحذف عشرة ايام من السنة على ان ينص التقويم الغريغوري الجديد على اضافة يوم زيادة الى كل سنة تقبل القسمة بالضبط على ٤٠٠ بدون باقي (اي سنة كبيسة). وهذا هو التقويم المتبع اليوم في جميع انحاء العالم، ولو أن بعض الاقوام والاديان لاتزال، في الاقل نظريا، تحتفظ بالتقاويم التقليدية الخاصة مثل الصينيين والهندوس، فضلا عن التقويم الهجري الاسلامي.

تركت روما طابعا لايمحي على التقويم. فالكلمة اللاتينية كالندز ذاتها Calends تعني مطلع او بداية الشهر، وجميع اسماء الشهور في معظم اللغات غير الغربية ترد باللاتينية وكلها من اصل رومي حتى في بلاد اليونان. اما الانكليز فانهم تركوا قرنين اثنين يمران قبل محاولة اللحاق بالزمن، وكان الأيرل جسترفيلد (Earl Philip Chesterfield: ١٦٩٤ ـ ١٧٧٣) هو الذي ادخل مشروع قانون تعديل التقويم الى مجلس اللوردات في عام ١٧٥١، وفي العام التالي وضع القانون موضع التنفيذ. وعندما استيقظ الانكليز في صباح ٣ ايلول ١٧٥٢ وجدوا ان البرلمان قد دفع الساعة قدما رأسا الى يوم ١٤ ايلول. خرجوا يتظاهرون في الشوارع



ويصرخون «أعيدوا الينا ايامنا الاحد عشر!» ثم جاءتهم مفاجأة اخرى بعد شهور قلائل حين اعلن عن ابتداء السنة الجديدة في الاول من كانون الثاني بدلا من الموعد المعتاد في ٢٥ آذار. وبقيت روسيا لوحدها بين الامم الاوربية تلتزم بالتقويم الجولياني القديم بلا اي تغيير فيه حتى الثورة في عام ١٩١٧. الا ان الكنيسة الارثوذكسية الروسية لاتزال حتى الآن تتبع التقويم القديم وتراعي وقوع عيد الميلاد في ٧ كانون الثاني بدلا من ٢٥ كانون الاول. وقد كان مولد جورج واشنطن في (١ شباط «فبراير») ١٧٣٢ قبل تعدي التقويم الانكليزي. لكن الامريكان يراعون عيد ميلاده الآن في يوم ٢٢ شباط وفق التقويم الغريغوري الجديد.

ولم يمر الزمن غير ملحوظ في الجانب الآخر من الأطلسي ايضا. فعندما جاء الفاتح الاسباني هيرناندو كورتيز الى المكسيك في عام ١٥١٨ وجد ان للازتيك تقويماً محفوراً على الحجر وانه يختلف عن التقويم الجولياني بفارق عشرة ايام فقط (مع الخطأ في التقويم الجولياني). ومما يجدر بيانه هنا هو انه بالرغم من ان التقويم الازتيكي والتقويم المصري ظهرا في نصفين مختلفين من الكرة الارضية فانهما تضمنا اوجه تطابق مدهشة. تألف التقويم المصري من ٣٦٠ يوما مقسومة على ١٢ شهرا في حين تضمن التقويم الازتيكي ١٣ شهرا كل منها ٢٨ يوما. أما الايام الخمسة الناقصة من التقويم المصري فلم تنتمي الى اي شهر وكانت تعتبر منحوسة يمتنع فيها الناس عن مزاولة اية اعمال خطيرة.

استغرق الازتيك اثنتين وخمسين سنة واستعملوا ادوات لانجاز تقويمهم الشهير. تم انجاز العمل في عام ١٤٧٩ ووضع الحجر التقويم فوق معبد الازتيك الرئيس. وتقوم اليوم في نفس المكان كاتدرائية مدينة المكسيك. وعندما فتح الاسبان المدينة الازتيكية في عام ١٥٢١ هدموا المعبد ودفنوا التقويم الذي عثر عليه لاحقا بالصدفة في عام ١٧٩٠، ويمكن اليوم مشاهدته في متحف المكسيك الوطني. اما هنود امريكا الشمالية فكانوا اقل تقدما في مجال الفلك والرياضيات من معاصريهم اهل الجنوب، واستعملوا قضيبا تقويميا لضبط مرور الزمن، واليوم يمكن مشاهدة احد هذه القضبان الزمنية في معهد كرانبروك للعلوم -Cran brook Science Lnstiute، وهو من صنع هنود وينيباكوس Wianebagoes في ولاية ويسكونسن.

كان اول تقويم صنع في الولايات المتحدة بشكل «أجندة» او مفكرة Almanac وضعه بور ريجارد Poor Richard وبقي في الاستعمال لمدة خمس وعشرين سنة. واليوم توجد في الولايات المتحدة عشرات المؤسسات الكبرى تنتج اكثر من مائة مليون تقويم سنويا. اما التقويم الاعلاني فهو امريكي المنشأ وظهر اول ماظهر في عام ١٨٨٨ حيّن قام ابو الاعلان الحديث أي بي (وزبورن A. B. Osborne بوضع اسماء اثنين وعشرين (٢٢) معلنا حول رسم لمبنى المحكمة في مقاطعة مونتغومري بولاية آيوا. واليوم تظهر التقاويم الاعلانية المختلفة في جميع فئات الاعمال التجارية، ويوجد في الولايات المتحدة في الاقل تقويم في احدى غرف البيت وفي المعدل يضم كل منزل ثلاثة تقاويم في الاقل مع ضرورة احتواء المطبخ على واحدٍ كذلك . .

■ عادل ثابت ـ القاهرة

الرؤية التشكيلية عند نجيب محفوظ

هذه هي القاهرة اليوم... امتداداً لسنوات طويلة مضت، تعج بالناس جيئة وذهاباً، ليلاً ونهاراً، لا تخلوا شوارعها وحواريها من عبق التاريخ، ليستيقظ الناس صباحاً على صوت المؤذن.. وينهون يومهم على نفس هذا الصوت، وبينهما عمل مضن يحس فيه الأهل والعشيرة بطلاوة لقمة العيش...

هذه هي القاهرة القديمة، التي حركت احاسيس الأدباء والروائيين... والفنانين التشكليين.. وجاء ابداعهما تعبيراً صادقاً عن مرحلة من أهم المراحل التي أثمرت عن نهضة يندر ان تتكرر...



ان كاتبنا المصري الروائي نجيب محفوظ قادنا اليوم للحديث عنه، وعن القاهرة القديمة التي ضمت أغلب قصصه ورواياته، فنحن نتحدث اليوم عن نجيب محفوظ الحاصل على «جائزة نوبل» والمناسبة هي التي جددت الحديث عنه هذه الايام في العالم كله خاصة الوطن العربي.

لكن الكاتب الصحفي رجاءالنقاش يقول عن نجيب محفوظ في تقديمه للعدد الخاص الذي صدر عنه مجلة الهلال في فبراير عام ١٩٧٠: «فنجيب محفوظ نال تقدير القراء قبل ان ينال تقدير النقاد وقبل أن ينال تقدير الصحافة...أن اول من اكتشف نجيب محفوظ هم قراؤه الذين أحبهم وتعلقوا بما فيه من صدق وعمق واصالة فنية عالية. وهم الذين وضعوه الى جانب طه حسين والعقاد الحكيم في الصف الاول من رواد أدبنا واعلامه. ان نجيب محفوظ أصبح «بديهية أدبية» لا مجال للاختلاف عليها أو إنكار دورها البارز في حياتنا الادبية العاصرة... مهما كان هناك من اختلاف في تقييم هذا الدور.»

ولقد اسهب نجيب محفوظ بالفعل في تناول سحر الاحياء الشعبية في رواياته مما يهز الخيال ويحرك الالهام، فالتقاليد والعادات... والبيوت القديمة، والمآذن التي تملأ سماء القاهرة موحية بالجو الديني الذي يضفي الاحساس بالطمأنينة.. كل هذه الصور التي اطلت علينا من خلال «زقاق المدق» و«بين القصرين» و«خان الخليلي» وغيرها، انها لصور موحية حقاً.. فتح بها نجيب محفوظ الباب للفنانين التشكيلين من خلال صياغته الرائعة المشوقة..لهذا فالفن التشكيلي المصري في هذه الحقبة التي توازت وعايشت أدب نجيب محفوظ، هو أفضل نتاج للتزاوج الحقيقي بين الأدب والفن، فالصور الادبية التي وردت في روايات نجيب محفوظ عن هذه الأزقة والحواري بما تحمله من رائحة الطيب والمسك، انها الباعث الفعلي لانفعال الفنانين ونزولهم لهذه الأماكن واستلهام أفكارهم، ومعايشة ساكنيها.. فكانت هي النبع الذي غمس فيه الفنانون فراجينهم وتبدت لهم الألوان والظلال معادلة تماماً للصور الأدبية.

* المرأة *

واذا كان نجيب محفوظ رسم في اماكن متعددة من رواياته صورة المرأة المصرية باسلوبه الأدبي الرفيع، فليس من شك أن فناني عصره رسموا المرأة باسلوبهم الخاص مستلهمين من عباراته وصوره الكثير عن تلك المرأة التي تلبس الحجاب «البيشة» تغطي وجهها، وتمشي على قدميها تختال في رونق «بنت البلد» التي يفوح جمالها عن بعد، فكلاهما: الأديب والفنان نافذ الرؤية متوقد الحس، لذلك فهناك تقارب ملحوظ بين سمات المرأة في صورة الاديب، وصورة الفنان

والفنان السكندري محمود سعيد (١٨٩٧ ـ ١٩٦٤) استطاع ان يجعل من «بنت البلد» شعاراً حياً ينافس المنارة العتيدة، ويرمز لهذه المدينة



المضايفة.. لقد أضحت «بنت بحري» السمراء الفاتنة التي يشع من عينيها وشفتيها سحر انثوي غامض، اصبحت هي ثمرة ابن اسكندرية الذي ترك مباهج القصور ونزل الى الشوارع والأزقة، يخالط عامة الناس.

* محمد ناجي *

كان الفنان «محمد ناجي» يبحث عن مناخ جديد يثير خياله، ويحرك أعماقه، لقد صورت ريشته جميع صور الحياة من حوله، ولكنها تواقة الى لون أخر من الحياة يفجر كوامنها، راحت ريشته تتخيل الحياة عن منابع هذا النهر الذي يبدأ رحلته

من هضاب الحبشة.. وصور صوراً عديدة عن الحياة في هذا الاقليم الفني بمناظره وتقاليده..

● جمال السجيني ●

ما زالت الدروب الضيقة يفوح منها عبير الاصالة المصرية، واصداء حكايات بطولية تتناقلها الالسن وتثير في نفوس أهل الحي معاني الشهامة والرجولة والنبل التي ترسم الخطوط العريضة لمسات ابن البلد.. وفي حي باب الشعرية بالقاهرة ترسبت في أعماق الفنان جمال السجيني بقايا حضارية تشكل اخلاقيات أهل الحي.. حيث تطل المشربيات من الجدران العتيقة وكأنها البراقع التي تخفي وراءها بنت البلد مفاتنها... ظلت عشرات هذه الصور تطارد السجيني في عقله الباطن، في ثنايا اللاشعور.. احب السجيني عروس المولد.. ممثلاً في امه واخته وعمته وخالته وبنت الجيران..! وحتى بعد ان سافر الى باريس وروما، لم تتحرك شعرة واحدة من وجدان هذا الشاب العاشق، انما ظلت أوتار قلبه ساكنة.. خامدة لا تحركها الانامل الشقراء، كانت كل احلامه مرتبطة «ببنات بلده» كانت الصورة التي شاهدها في طفولته غامرة في اعماقة لا تبرح مكانها... ولا تسمح لاية صورة تلمح وتتلألأ وتشمخ.. لتصبح مصر كلها.. الارض والهواء والمجتمع والانسان والفن...

* صلاح طاهر *

هذا الفنان الواعد، الذي خاض اكبر التجارب للوصول الى صيغة يرضى عنها... قالب يرد له نفسه، تعبيراً عن الحارة والزقاق وبنت البلد التي تخرج في عتمة الليل دون مرافق لها يظللها الأمان والحب لتملأ الجرة، انها المعادلة الصعبة، التي يخوضها الفنان - اي فنان - ليصل الى حل مثل هذه المعادلات.. التعبير عن أبناء عشيرته، وجيرانه، ومن يسكن حارته بطريقة يصل معها الى ما يرضيه فنياً..

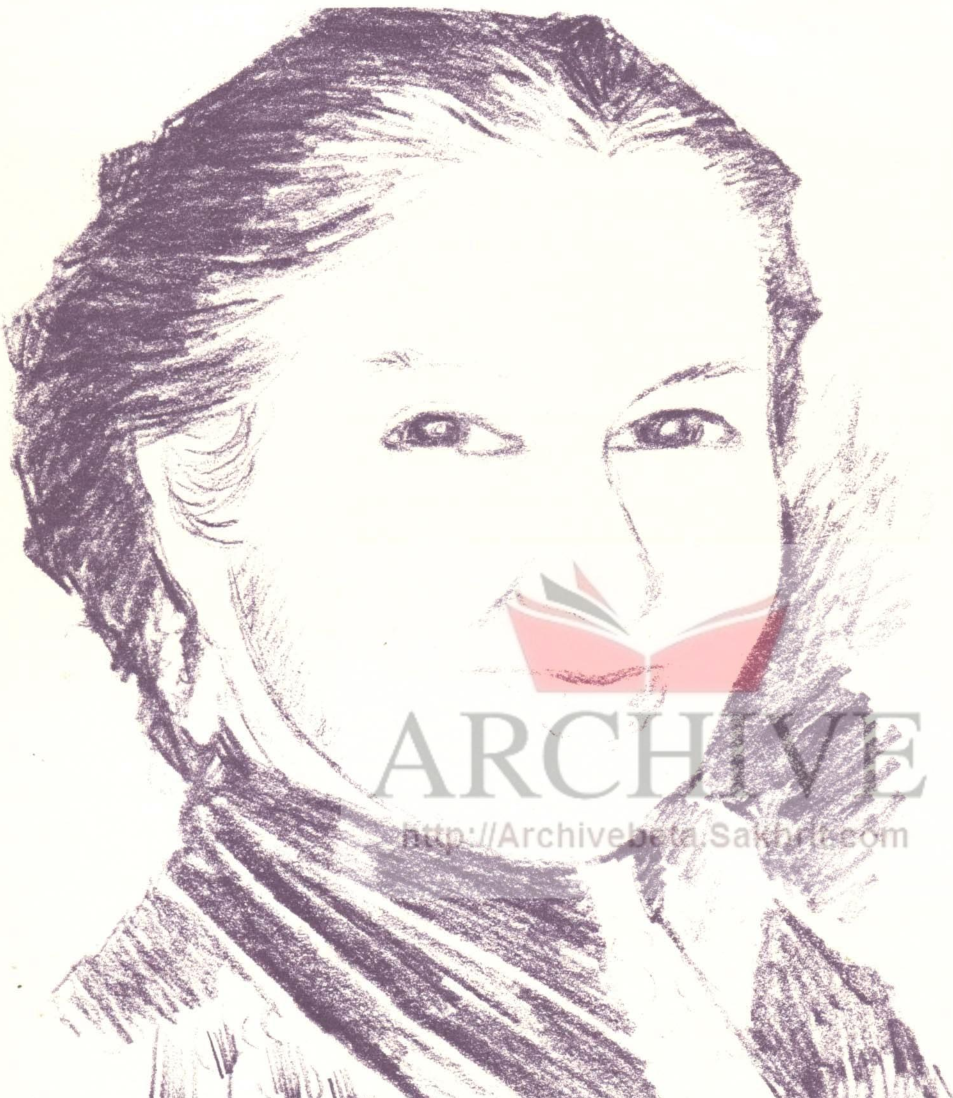
ان سر نجاح نجيب محفوظ وجيل الرواد تمكن من الوصول الى قلوب الناس، لانه هز مشاعرهم، . دون ان يدخل في دائرة الخطابة أو النصح، لكنه عبر عنهم وعن آلامهم وآمالهم في قالب فني فذ.. وصل الى قراؤه كرقرقة المياه عندما تتسلل حثيثاً من بين ثنيات الصخور.. فامتلك قلربهم.. وصار في وجدانهم يوماً بعد يوم.

* عبد الهادي الجزار *

ان هذا الفنان المتمكن الذي غاص بكل حواسه في خلفيات الحياة الشعبية، لم يترك جانباً منها الا كانت له لوحة.. او أكثر... مما يميز فن عبد الهادي الجزار بجانب تعبيره عن الحياة الشعبية الاصيلة، تلمس الحزن مع بصيص الأمل في الوقت ذاته، كأنه يحرك اشخاص لوحته على مسرح خشبي، يكتب له السيناريو، ويرسم خلفيات ديكوراته، ويصمم ازياءه، فهذه المرحلة عند عبد الهادي الجزار تذكرنا دائماً بأجواء نجيب محفوظ خاصة في «زقاق المدق»

ولم ينس الفنانان «هدايت» والمصور «محمد صبري» ان يسجلا في اغلب لوحاتهما مساجد القاهرة، التي تزدهي بالأبنية القديمة، ويؤمها الناس بالمئات أثناء الصلاة، إنها القاهرة القديمة التي علقت وستعلق بأذهان الأدباء والفنانين سواء بسواء، كل بأسلوب يعبر عنها، ليصل الاثنان في النهاية ويلتقون في قناة واحدة...

الفنانة صافيناز ذو الفقار أو الملكة فريدة.... وداعا



● منذ أن بدأت رحلتها مع
بسم عام..١٩٥٤.. وحتى تجمدت
لوان فوق (الباليته) وانطفأ
نديل الذي يضيء المرسم.. وهجرت
اجينها الى غير عودة.. كانت لها
ائية تروى...

«صافيناز ذو الفقار» بنت التاسعة عشرة من عمرها.. كريمة صاحب السعادة يوسف ذو الفقار وكيل محكمة الاستئناف المختلطة، ابن علي باشا ذو الفقار محافظ القاهرة السابق، ابن يوسف بك رسمي احد كبار ضباط الجيش المصري في عهد اسماعيل.. والدتها السيدة زينب هانم ذو الفقار كريمة المغفور له محمد سعيد باشا الذي رأس الوزارة المصرية غير مرة... والتي تغير اسمها الى «فريدة» بعد زواجها من الملك فاروق الأسبق عام ١٩٣٨ ليبدأ اسمها بحرف الفاء، لتتوج ملكة لمصر لمدة أحد عشر عاماً، انجبت خلالها ثلاث بنات هن: فادية،فريال، وفوزية.

عندما بهرتها طبيعة مصر، راحت تعبر عنها في لوحاتها، مما دفع الفنان الكبير محمود سعيد الى تشجيعها على ممارسة الرسم، لكن

فترة زواجها من الملك فاروق أحست بالضيق والتضييق، فقد وجدت فجأة نفسها تروح وتغدو في مشهد مهيب،

وشكل الفن بؤرة لاهتمامها واستحوذ عليها في ذلك الوقت النشاط الاجتماعي ومساعدة المرضى من الفقراء.

هواياتها متعددة، أولها الموسيقى وبنوع خاص العزف على البيانو، لقد كان والدها يوسف باشا عازفاً ماهراً على البيانو، بل هو كذلك رسام بارع، حتى ليجد الداخل الى السراي صورة زيتية من صنع والدها وبريشته، فلا غرابة اذن ان تكون الملكة فريدة رسامة ماهرة تتلمذت على يد والدها وخالها لفترة غير قصيرة.

تخرجت «صافيناز ذو الفقار» من مدرسة «نوتردام دي سيون» الفرنسية بالاسكندرية، فاتقنت اللغتين الفرنسية والانكليزية، وقد لاحظ والدها حاجتها الى الاساتذة في اللغة العربية فأحضر لها مدرساً خاصاً.

كانت تبحث دائماً عما يشغل فراغها، وكانت وقتئذ تسكن قرب أهرام الجيزة، لا يفصلها عنها سوى المزارع والحقول، فرسمت الحصاد والعمل في الحقل والأهرامات وشاهد الفنان محمود سعيد تلك الرسوم واعتبرها نوعاً من «الفن الفطري عند الكبار» فشعرت ان ماتفعله له قيمة فنية، وابدى لها اعجابة بتجربة المربى الرائد «حبيب جورجي» الذي أجرى تجربة تربوية فريدة حول الفن الفطري عند الاطفال المصريين فيما بين عامي ١٩٣٩، ١٩٥١، ووجهها «خالها» لمشاهدة هذه الاعمال والتعرف عليها باعتبار رسومها تندرج تحت نفس المذاق والمدرسة.

بعد يوم ثورة يوليو ١٩٥٢ عرض عليها الملك فاروق أن تقيم في نابولي بايطاليا، لكنها رفضت وفضلت أن تهاجر الى لبنان في عام ١٩٦٣ حيث اقامت فيها فترة ثم انتقلت الى باريس ومنها الى لوزان بسويسرا. وفي لبنان واصلت تجربتها الفنية برسم الوجوه والشخصيات الاجتماعية. الا انها أحست بحاجة الى التعرف على تاريخ الفن فانتقلت في عام ١٩٧٠ الى باريس لكنها توقفت هناك عن الرسم عاماً كاملاً، انفقته في زيارات منتظمة للمتاحف والمعارض الفرنسية حتى التحقت بمتحف اللوفر حتى تتعمق في دراسة الفنون القديمة فنقلت بفرشاتها بعض الايقونات البيزنطينة والرسمية ثم حاولت تقليدها كما درست «الليتيوجرات» في أتيليه «موريو» الشهير، والحفر على المعدن والحفر في اثليه «ريجال» ثم اشتركت في عام ١٩٧٥ في معرض الفن المصري المعاصر في باريس والذي يعتبر خروجاً من عزلتها .. ويعتبر التصوير الاسلامي وزخارف الكتب والنمنمات القديمة هي اشكال الفنية التاريخية التي استحوذت على اهتمامها فابتدعت من أجلها نوعاً من الطلاء اللامع مثل الشمع أو الورنيش.

كل هذه الخبرات التي مرت بها الفنانة الملكة.. زادتها احساساً بضرورة الدراسة لتعلم حرفة الفن فجاء التحاقها بمرسم متخصص في باريس لتعليم طرق الطباعة اليدوية المعروفة بطباعة الحجر أو المعدن والتي تمكن للفنان طبع عدد محدود منها على الورق، واذا كانت اللوحة تحتاج الى تكوين فيتحتم على الفنان ان يرسم كل لون على سطح الحجر، فبعد أن يطبعه يزيل الرسم ويضع بدلاً منه اللون الآخر، وقد اتقنت الملكة فريدة هذا النوع من الطباعة حتى انتجت منه اعمالاً تصل الوانها الى ستة.

ودعيت الفنانة فريدة بعد ذلك لعرض أعمالها في معرض «الفن المصري المعاصر» الذي اقيم في القصر الكبير «الجران باليه» وضم اعمال كبار الفنانين التي سافرت من القاهرة الى باريس خصيصاً لهذا المعرض الذي افتتح عام ١٩٧٥. وفي العام التالي، اقامت معرضاً منفرداً بقاعة المكز الثقافي المصري بباريس ثم توالت معارضها بباريس والقاهرة من عام ١٩٧٨، ١٩٨٠ ثم في جنيف عام ١٩٨١، وفي بلغاريا ١٩٨٢ وفي تكساس بالولايات المتحدة ١٩٨٣ واخيراً بالقاهرة ١٩٨٤.

تشرح الفنانة الملكة فريدة أعمالها قائلة:

«بالنسبة للاعمال الفنية الثلاثية الابعاد - مثل النحت وفن العمارة - تأتي متعتها في النظر اليها من التحرك حول العمل الفني والرؤية من زوايا مختلفة، ولكن عندما يتحرك العمل الفني نفسه فاننا نطلق عليه اسم «الفن الحركي» وفي عام ١٩٧٨ في معرض باريس أدخلت الاضاءة الصناعية كجزء مكمل للعمل الفني وتمكنت بواسطة استخدام جهاز اضاءة معين الايهام بخلق المنظر الطبيعي المتغير دائماً وكأنه تحت ضوء الشمس ولكن داخل قاعة العرض ذاتها..»

ويقول الناقد «مانيك بريسكيل»:

«ان لوحاتها مشحونة بالضوء والثراء، مع تدرج لوني وتناسق دقيق.. حتى ان الاحساس برقة الخطوط هو أحد الملامح المميزة لاعمالها... انها تركز على التلاعب بالخطوط التي تبدو وتختفي وفقاً لاحتياجات التكوين بينما الضوء يغمر كل شيء حتى اعمق حدود»

ويضيف الناقد «فانيك»:

«ان سحر الشرق يظهر في اللوحات بينما تعبر بعضها عن المعاناة والبؤس في حين تكتسي جميع الوجوه بانسانية متسامية..»

والفنانة فريدة.. من مواليد الاسكندرية عام ١٩٢١، وبعد انتقالها الى سويسرا حرمت من رؤية بناتها طوال هذه الفترة، وفي اواخر السبعينات أعربت عن رغبتها في العودة الى مصر والاقامة بها بصفة دائمة، فاستأجرت شقتين بضاحية المعادي إحداهما للسكنى والأخرى للرسم، وكانت تقوم بكل واجبات المنزل بنفسها، تصارع المرض بقوة الرسم.. وتبتسم لمشاهدي اعمالها رغم ما تعانيه من آلام.. حتى سقطت الفرشاه من يدها دون عودة.

■ ماجد اسد

كاتب وكتاب

الصورة الفنية معيارا نقديا



■ تأليف الدكتور عبد الاله الصائغ

يكرس الدكتور عبد الاله الصائغ كتابه الجديد «الصورة الفنية معياراً نقدياً» - الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة - لدراسة شعر «الاعشى»...كمنحى تطبيقي لمنهجه النقدي. على انه يمهد لبحثه بملاحظات توضح منهجه من ناحية ثانية، وتلقي الضوء على جوانب تاريخية ذات علاقة مباشرة بالصورة الفنية في الشعر العربي قبل الاسلام وبعده من ناحية ثانية. فالكاتب يرى ان الانسان عرف الصورة ورسمها باعتبارها شعيرة سحرية، ثم تطورت علاقته بها مع تطور المتغيرات لكيّ تدخل في صميم الشعر. وعلى رغم ان الصورة الفنية قديمة وعرفها الانسان، الا انها لم تكن غريبة عن الشعر العربي بالرغم من قلة ما وصلنا منه.. فهو يرى ان الصورة الفنية ظاهرة في النماذج العليا في الشعر الجاهلي الذي اعتبره ميداناً فسيحاً للدارسة.. فالمعلقات مثلاً انجزت صوراً فنية باهرة شكلت اللوحة الكبرى لذلك العصر.. ولم يقتصر الامر على المعلقات وحدها، بل ان الدراسات النقدية وجدت ان الشاعر «يرسم رائعة مكتملة الجوانب ويلم بالصورة الماماً تاماً» لكنه يرى ان الاعشى من اغزر الشعراء تصويراً بمفردات الحياة واشدهم إتقاناً لطبيعة الصورة الفنية.. فما يعنية في المجال هذا ان الصورة الفنية عند الاعشى تخص تكوينها من خلال المؤثرات التي شكلت نسيج التجربة الشعرية متدفقاً عند مراحل كالعمر والوطن والاسرة والحضارة والبيئة الابداعية ثم الشعر والرؤية... وفي هذا المجال يستشهد باراء عدد من الشعراء والكتاب العرب مساوياً بينه وبين امرىء القيس والنابغة وزهير .. ثم لاحظ انه - اي الجمحي - «لم يكن للاعشى بيت نادر على افواه الناس مع كثرة شعره»! فيما يقول محمد بن حبيب - شارح ديوان الاعشى - «وقد عد بعض شعره شاهد قول في إيمان العرب بالتوحيد والبعث والتزامهم بعدد من الاعراف التي لبثت بعد الاسلام..» فيما يرى الجاحظ ان الالفاظ ثمر المعاني وان للألفاظ شأناً في جلاء صنعة الشاعر، كشأن الصبغ والتصوير، والاعشى بهذه الرؤية يملك اسباب التأثير لتزيين مايشاء أو تقبيحه.. فيما يرى القاضي الجرجاني ان الاعشى امتاز بحلو المبالغة التي استحسنها وربما حاكاها شعراء كبار كالمتنبي.. والقاضي الجرجاني يدرك مواطن الجمال في المبالغات الجاهلية عند الاعشى أو سواه.. ويرى ابن قتيبة الدينوري ان الاعشى يرسل والنقاد يلتقطون شظاياه.. وهو دقيق التصوير..

ويستشهد الدكتور الباحث عبد الاله الصائغ بعدد آخر من النقاد والشعراء لتعزيز وجهة نظره في مجال دراسة الصورة الفنية كمعيار نقدي - معياراً نقدياً - في شعر الاعشى .. متوصلاً الى ان الاصالة في الشعر تعني تفرد الاسلوب وسلاسته وسعة الابتكار في العبارة والصورة، فالشاعر الاصيل فنان، والاعشى بهذا المعنى كان من أبرز الشعراء في اصالتهم.. فهو يمثل مرحلة هامة من مراحل سلاسة الشعر الجاهلي، حيث اضاف جديداً واضحاً في معانيه وطرافتها وفي احاسيسه وصدقها.. ومشيراً الى تأثيرات الاعشى على عدد من الشعراء.

ثم يلقي الضوء في الفصل الثاني حول الجهود الخاصة بالصورة الفنية عند النقاد القدماء وعند النقاد المحدثين.. فيذكر من القدامى الجاحظ وابن قتيبة وابو نصر الفارابي وابن طباطبا العلوي والامدي وابن جني والعسكري والباقلاني وابن رشد وغيرهم من القدماء. ويذكر من المحدثين بطرس البستاني والرافعي وزكي مبارك وطه أحمد ابراهيم والرصافي وطه حسين واحمد الشايب و د. شوقي ضيف والدكتور محمد النويهي والعقاد و د. احسان عباس والملائكة و د. محمد متدور وغيرهم... مستشهداً باراء القدماء واراء المحدثين في معنى الصورة الفنية ومغزاها في الشعر. وقد يبدو من الصعب التوصل الى خلاصة أخيرة في هذا المجال.. لكن البلاغة تبقى، بالالفاظ.. والالفاظ ذات المعنى الاعمق المؤثر في النفس.. وبايجاز فان الشواهد التي ذكرها الباحث تثير مزيداً من الجدل حول معنى الصورة الفنية، باعتبارها جزءاً من البلاغة.. وباعتبار البلاغة نابعة من النفس الماهرة في صياغة المعنى..

وقد توصل الباحث في الفصل التالي، بعد قراءة دقيقة لآراء النقاد، الى ان «ليس ثمة صورة من اجل الصورة الفنية في شعر الاعشى.. مستشهداً بمئات من النماذج

الشعرية من أجل نتائج اراد الوصول اليها.. لكن الباحث درس قبل التوصل الى النتائج، معالجات الشاعر للموضوعات التالية: علاقة الشاعر بالناس.. والحيوانات.. والزمان.. والمكان.. لكي يستنتج بان «جلاء الصورة الفنية للعيون ملامح والواناً قرائن وبياناً» دون الخوض في معالجة الكوامن الوجدانية أو الذاتية. اما الفصل الرابع، فقد كرسه الباحث لدراسة الصورة الفنية من خلال الذات وفي محورين.

الأول: الاعجاب. والثاني: النفور.

في المحور الأول: نتعرف على ابداع الاعشى في (الهم والمرأة والخمرة والسفر والقصيدة والفتوة والممدوح والحياة)..

وفي المحور الثاني: نراه يتوقف ـ الباحث ـ عند نفور الاعشى من الشيخوخة.. فالعرب تقول ان من بلغ السبعين اشتكى من غير علة! ونرى الشاعر، على حد قول الاستاذ الباحث «لاشيء يفزع الشاعر اكثر من الموت، فهو نهاية مجهولة لكل آماله في حياة ممتعة». فيما نراه، وكما يقول الباحث «ما من أحد من الناس يملأ عيني الاعشى سوى الحبيبة والممدوح والعيال» حتى نراه يقول «ان صور الناس تثير الفزع في النفس» وهذا يقود الى «المكان المجدب» الذي يفصح عن نفسية الشاعر تجاه مشكلات الشيخوخة والمكان المجدب والموت.. وقد استشهد الباحث بالحالة الداخلية للافصاح عن إنعكاس الواقع في الذات.. وعن رؤية الذات للواقع.. ولكن الباحث الدكتور عبد الاله الصائغ يذهب بعيداً في هذا المجال عندما يتطرق الى مشكلات ازلية عبر عنها الشاعر: مشكلات الشيخوخة والمكان المجدب والموت.. اي عبر عنها بالصور التي تميز شعر الاعشى عن سواه..

وفي الفصل الخامس يدرس الدكتور عبد الاله الصائغ الصور الفنية من خلال الاسلوب.. فيدرس مثلاً: الحقيقة والمجاز.. النفي والجحود.. الحكاية.. ترادف الصور وانثيالها.. الاضداد.. الامثال.. الاستفهام.. الامر والنهي.. القسم.. والصورة المقترنة...الخ.

وهكذا نرى الباحث يؤكد، في كتابه انه اعتمد «منظور الصورة الفنية في دراسة شعر حقبة أو شاعر ظاهر، الا انني لم أجد المنظور الذي يناسب عيني ويمازج رؤيتهما للموضوع، بحالة تشبه الخيبة، وكان عليّ ان اقف على قدمي وانظر بعيني في محاولة واثقة صادقة للسير في سبيل جديد، واعلم ان لهذه المحاولة مالها من مخاطر التعثر ومزالق الاخفاق فضلاً عن الوساوس والهواجس، واني لن أمني المطالع ان تكون حصيلة البحث أعمق مما تهيأ لي في مبتدأ المسيرة العلمية، ولعل أول مؤشرات بحثنا هذا هو تحليل العمل الشعري من الداخل، فقد قرأت القصائد مرات ومرات حتى خيل اليّ انها ملت سهري معها وتحديقي بها، بعدها قرأت معظم ما كتب في الصورة الفنية قراءة بعد قراءة، فاهتديت أو أزعم اني اهتديت الى ما اضاء امام بحثي العتمات ومهد العثرات..»

وهكذا نراه يوضح، في الجانب الآخر، انه لم يقع أسيراً للاحكام الجاهزة والمصطلحات الناشزة، وانما أخذ كل ما ناسب بحثه..

اما المؤشر الثالث، فهو ترتيب المباحث ترتيباً فنياً.. ففي التمهيد كان قد رصد الصورة الفنية في الشعر الجاهلي.. وقد فتح الباب على فصول الرسالة فجاء الفصل الأول ليلم بملامح الصورة الشخصية للاعشى ويرصد تقويم النقاد لشعره ويلبث عند جانب من اصالة شعر الاعشى الذي ترك ظلالا واضحة على شعراء عديدين. واطل الفصل الثاني ليستكمل سبر أغوار البحث بقراءتة للصورة في المعيار النقدي والادبي من خلال مبحثين، تناولا جهود القدامى والمحدثين العرب في دراسة الصورة ليجتهد بعدها في اجتراح تحديد لمصطلح الصورة الفنية، وقد هيأ التمهيد والفصلان الاول والثاني السبيل رحباً للفصل الثالث الذي تكفل بدراسة صور الأعشى الفنية من خلال الموضوع، فنظر الى موضوعات الشاعر وصوره بمنظور اللوحة المرسومة بالكلمات.. ثم يطل الفصل الرابع «الصورة من خلال الذات، من خلال مبحثي الاعجاب والنفور ليلاحق ظلال الذات على الموضوع ويربط بين السبب والنتيجة فيضيء معالم كثيره من الصور باضواء جديدة.

واخيراً هناك الفصل الخامس الذي جمع وكثف صور الاعشى واشر اسلوبه في صناعة الصورة. فكان الفصل الخامس استقراء انماط الصورة وهيئاتها من خلال ثلاثة منطلقات:

ففي المنطلق الاول، ثمة الحقيقة والمجاز والنفي والجحود والحكاية وترادف الصور وانثيالها والاضداد والامثال والاستفهام والأمر والنهي والقسم والصور المقترنة..

اما المنطلق الثاني فقد تناول: سلطان الحواس (الصور البصرية والسمعية والذوقية واللمسية والشمية) وتبادل الحواس (التراسل) والتجسيم والتجسيد بعدها توفر المنطلق الثالث، على دراسة النغم فدرس الصور الفنية بالبحر والقافية والتكرار وتداعي الحروف..

والرسالة في فصولها كلها معتمدة على جداول فنية كثيرة تعين الباحث على التقصي والكشف وتنأى به عن الاستطراد والتعميم، وليس مبالغة ان هذا البحث ـ الكتاب ـ قد توصل الى نتائج مهمة ـ على صعيد التطبيق العملي في مجال الصورة الفنية.. فقد توصل الى نتائج منها:

ـ ان الاعشى اعتمد الصور البصرية صارخة الالوان بالحركة على سائر صوره الفنية.

ـ وان من مدحهم الشاعر كانوا في زمانهم ذوي مروؤة وبأس.. فمديح الاعشىٰ منصرف الىٰ القيم العربية والمثل العليا.. وهجاؤه كان في اعلبه هجاء للشر والعدوان واسباب الضعف..

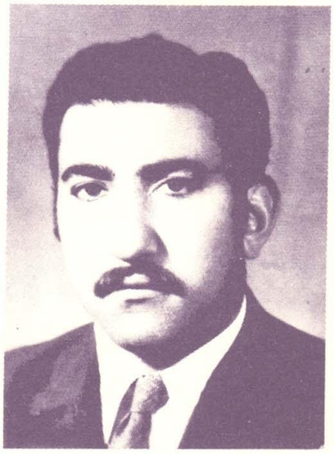
ـ كاد الاعشى ان يؤلف فناً خمرياً متميزاً من خلال عنايته بتفاصيل ومفردات لم ينتبه اليها سواه وهو الىٰ هذا رافض للسفه والتفريط بالمرؤة والكبرياء اللذين يعاني منها اهل الخمرة.

ـ لم يكن الاعشى متعهراً في كل علاقته مع النساء، وقد وجده الباحث طاهر الذيل ينشد الحب العفيف الذي ينسيه احزان الشيخوخة والعشىٰ واضطراب علاقته مع الناس، التي إستحالت وساوس واوهاماً.. وكان يختار الفتاة الصعبة ليصورها ويتأمل مفاتنها، ولم يدقق ولو لمرة واحدة في تصوير البغي أو الفتاة الاعتيادية التي لا شأن لها.

ـ وهو شاعر غزير الصور مدرك لأهمية التصوير في التأثير فاستثمر نفسه الطويل الذي امتاز به في توليد عناقيد الصور الفنية مجازية وواقعية.

ـ وصور الشاعر بعيدة التوقع فهي تفاجيء المتلقي بحصيلة لا تنسجم مع الاسباب دائماً.

ـ كشف البحث عن اصالة الشاعر واعاد اليه كثيراً من الصور الفنية التي استأثر بها شعراء عاصروه أو جاءوا بعد عصره



ـ اثرت اسفار الشاعر في البلاد البعيدة واختلاطه بالغرباء في صوره الفنية تأثيراً عكسته مفردات الحضارة والاغتراب.

ـ كما امتازت صوره بالابتكار والتفصيل فقد يسقط صورة جميلة باخرىٰ أجمل منها (النفي والجحود) وقد يصنع امرأة من النبات وقد يصور لنا امرأة واقفة ونائمة مقبلة ومدبرة، في صبحها وممساها وقد يلبث عند حيوان فيستقصي معظم حركاته ومشاعره.

ـ صور الاعشىٰ الفنية تشبه (البوم الصور) أو المذكرات اليومية تسجل حركة الحياة دون ان تهمل قشة في قعر اناء.

ـ وللشاعر طريقة في الانتقام ممن يؤذون وجدانه، وذلك بتسليط لعنات الطبيعة عليهم..

ـ بعض صور الحيوانات تصلح معادلات فنية للشاعر، فالحيوانات تحاكي حيرته وعناءه.

والاعشىٰ مُشبِّهٌ مستتر.. وقد أورد الباحث شواهد لاتحصىٰ تؤكد هذا الجانب في دراسة الصورة الفنية باعتبارها معياراً نقدياً لتحليل ودراسة شعر الاعشىٰ .. حيث كان هذا المعيار جمالياً ونقدياً في الوقت نفسه .

ويمكن القول ـ كتذكير ـ ان جهوداً تغريزية بذلها المؤلف ـ على هامش الكتاب أو في اطاره ، فلقد أنجز عدة بحوث في الصورة الفنية (الصو ـ فنية) منها دراسات مخصصة لـ :

ـ الصورة الفنية لعدة الحرب قبل الاسلام ..

ـ والصورة الفنية في شعر الشريف الرضي

ـ وعناصر التأثير في قصائد المعركة ..

ولعل اهم البحوث التعزيزية التي نشرها المؤلف هو (الصورة الفنية في اطار النص الشعري الحديث) الذي يصدر ضمن بحوث المربد لهذا العام .. والاضافة هنا تكمن في استنباط ست حالات للصورة الفنية وقد درس فيها :

١ ـ الصورة البسيطة ـ يوسف الصائغ

٢ ـ الصورة المركبة ـ حسب الشيخ جعفر

٣ ـ الصورة الجزئية ـ سامي مهدي

٤ ـ الصورة الكلية ـ حميد سعيد

٥ ـ الصورة الايقونية ـ عبد الامير معله

٦ ـ الصورة المجازية ـ علي جعفر العلاق

وقد حاول المؤلف الدكتور عبد الاله الصائغ في بحثه الجديد ـ الذي لاينفصل عن منهج كتاب الصورة الفنية معياراً نقدياً المقدم للمربد اعتماد المنهج الدلالي ، وهو منهج عربي بدأ يستفز ويستثير الاجتهادات الأوربية فتأسست عليه مناهج علمية غاية في الأهمية ، وكان بحث المؤلف للمربد الماضي (الزمن في قصائد المعركة) قد نال اعجاب كثير من الدارسين العرب .

ان البحثين المقدمين للمربد الماضي والمربد الجديد اعتمدا مزجاً رحيماً بين منهجين مهمين هما المنهج الدلالي والمنهج (الصوفتي)

ولعل طرح هذا النحو من الدراسات الادبية ذات المنطلق العلمي يمثل ثمرة جيدة من ثمار مهرجان المربد الذي يعد سوقاً جديداً للادب لايقل أهمية عن اسواق عكاظ وذي مجنة وعدن ابين.

اي ان وجود مفكرين عرب واجانب يصنع حالة من البلورة والتنضيج لكثير من الافكار، لأنها تكون خاضعة للقبول والرد، الحذف أو الاضافة أو التعديل..

وعودة الى كتاب الصورة الفنية لابد من الاشارة الىٰ أهمية تخصيص دراسة كاملة تناول المؤلف فيها شعر الاعشىٰ انطلاقاً من منهج الصورة الفنية كمعيار نقدي..

في بداية عصر السلام:

أسئلة عن الشعر.. ومستقبله

■ سامي خشبة

مربد النصر والسلام: هذا هو الاسم «الشعار» الذي انعقد تحته مهرجان المربد التاسع. لقد بدأ المربد الحديث مهرجانا للشعر؛ ثم تحول الى موسم ادبي يسعى الى ان يشارك فيه، أو ان يتابع اعماله ومنجزاته كل محب للابداع الادبي في لغتنا. وفي السنوات الثماني الاخيرة، حوله الادباء والشعراء والنقاد والمفكرون العرب المشاركون فيه – مع المشرفين عليه – الى قوة دفع «تعبيرية» يضعها المثقفون العرب – مع كل ماحشده العراق البطل من قوى بشرية ومادية ومعنوية لكي يخوض الحرب التي فرضت عليه، ولكي يخرج منها ظافرا متوثبا لحمل مسؤوليات السلام ومضاعفة وتيرة التنمية والبناء، ولاعداد الحياة العربية – وانسانها – لمهام عظمى جديدة تنتظره.

فعل المثقفون العرب ذلك بـ «المهرجان» من خلال «الشعر» اولاً، والنقد بعد ذلك. وكان هذا الفعل استطراداً واعيا وعقلانياً للاندفاعة العاطفية الاولى التي دفعت الشعر الى ان يجند نفسه، يرتدي بزة القتال ويخرج محرضا ومستنفراً وراجزا – على حد تعبير د. عناد غزوان ذات مرة. وكان لابد ان يفعل ذلك المثقفون العرب – وراء اشقائهم العراقيين في خط المجابهة الاول: اصبح فعل الابداع الشعري جزءا من الآلية التلقائية للدفاع عن الذات.

ولكن قد يكون السؤال الذي لا مماحكة في اجابته هنا، هو: هل كان فعل الابداع المقاتل هذا دفاعا عن ذات الشاعر الفردية، أم عن الذات الجماعية للامة، أم عنهما سويا مندمجتين متوحدتين ؟

لقد تجاوز الشعر العربي بفضل تجربته مع الحرب – وفيها – صوت الذات الفردية، والاداء الخطابي او الانفعالي من جانب الفرد المتعالي او المنعزل، وابدع الشاعر تكنيكات جديدة، وصفها د. عناد غزوان بأنها: «تتمثل في كتابة القصيدة التي تكاد تنتقي من الاجناس الادبية بعض السمات المختلفة: فهي تنتقي من القصة حكايتها، ومن الملحمية اختفاء صوت الانا، ومن الرواية شيئا من السرد والحبكة ومن الشعر الرومانسي شفافيته وبساطته: ومن المسرحية تعدد المشاهد واختلاف الفصول في التقديم والتأخير..».

ان القصيدة العربية – وهي القالب الابداعي الاول في ثقافتنا الذي عاش طويلا ينطق بصوت الشاعر الفرد والمعبر بـ «القوة» عن الجماعة، هذه القصيدة تتحول لكي تكتسب الخصائص الرئيسية للقوالب الاخرى الناطقة بصوت الجماعة – وفي وسطها الشاعر نفسه: تتغير القصيدة بنائيا اذن، مع تغير الجماعة نفسها؛ تتغير القصيدة لكي تصبح معبرة بـ «الفعل» عن الجماعة المتغيرة. لقد وحدت الحرب الامة – شعوريا في الاقل وجمعت شراذمها المتفرقة وافرادها المشتتين، فهل تكون هي التي ادت الى تغيير القصيدة ؟

ان السؤال هنا، سؤال عن وضع «القصيدة» العربية بالنسبة الى، و: «في» منظومة قوالب التعبير الابداعية في ثقافتنا الحديثة. اننا نرى الآن نهاية القطيعة التي احدثتها «قفزة» شعرنا التطورية (بل: النشوئية) منذ الاربعينات، بين القصيدة وبين مجمل منظومة قوالب التعبير الابداعية عندنا. تعود القصيدة الآن – بوجه جديد من وجوه انساق التعبير والرؤى والابنية – لكي تكون جزءا عضويا من ثقافة اكثر تطورا، لأمة تتطور ايضا. ان «الحركة» تشمل الآن المنظومة كلها، ويتم التواصل. وفي قلب هذا التواصل، يمكننا ان نلمح بوادر تحرك جديد في طرف آخر من اطراف منظومة قوالب التعبير الابداعي العربية نفسها.

ولعل هذه الثنائية الجدلية: ثنائية التواصل وبوادر القطيعة الجديدة (في انواع قوالب التعبير في الشعر وفي المسرح اساسا) هي ماتفرض السؤال الاخير: اذا كانت تجربة الحرب قد ساعدت على حدوث التواصل بين القصيدة العربية وبين الثقافة العربية، واذا كان تغير صوت الشاعر، وتغير ثقافة الجماعة قد أدى الى التقائهما – في حالة الحركة المنتظمة لا في حالة الجمود ولا في حالة التبعثر؛ فالى أين تتجه القصيدة العربية، وثقافتنا مع تجربة السلام والبناء ؟

تعميق لبوادر القطيعة الجديدة. اتي تشير بتجارب افكار اخرى من الوطن العربي الى انها انعكاس لتقلصات «الثقافة» السائدة برمتها – أم تدعيم واع للتواصل – هذا التواصل «الجديد» والثمين معا ؟!